

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة الجزائر 2

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية
قسم اللغة العربية وآدابها

بلاغة الحجاج في الخطاب التعليمي العيني

دراسة تداولية

في شبكة القناص على درة الفواص في محاضرة الفواص

لعبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنزجيميرى

: الدراسات اللغوية

:
أ د - محمد العيد رنينة

:
بشير بهادي

السنة الجامعية

2020 . 2019

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

بلاغة الحجاج في الخطاب التعليمي الديني

دراسة تداولية

في شبكة القناص على درة الفواص في محاضرة الفواص

لعبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنجميري "ت 1211هـ"

أطروحة دكتوراه علوم

(تخصّص: دراسات لغوية)

إشراف الأستاذ:

أ. د / محمد العيد رتيمة

إعداد الطالب:

بشير بهادي

رئيسا	جامعة الجزائر 02	أد مولود بغورة
مشرفا ومقررا	جامعة الجزائر 02	أد - محمد العيد رتيمة
مناقشا	جامعة الجزائر 02	د - أمين قادري
مناقشا	جامعة الجزائر 02	د - طيبة ميدني
مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة	أد - نصيرة غوماري
مناقشا	جامعة البلدية "	أد سليمة مدلفاف

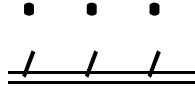
إهداء

- إلى روح الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد العالم الانزجيري الأنصاري
طيب الله مثواه.

- إلى والديّ الكريمين أطال الله في عمرهما.
- إلى إخوتي جميعا حفظهم الله .
- إلى زوجتي الكريمة أدام الله ودها وصرها.
- إلى ابني الغالي حفظه الله ورعاه.
- إلى كل غيور على تراثنا الأدبي والفكري.
- إلى طالبي العلم والمعرفة.

- بشير بهادي

تَشْكُرَاتٌ عَرَفَانِيَّةٌ ...



بعد هذه الدراسة اللغوية في حالات استعمال اللغة والبحث عن خصائصها ، لا يسعني في الأخير إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف: الأستاذ الدكتور محمد العيد رتيمة الذي كان سمة بارزة لنظرية لغوية ضاربة في جذورها لتراثنا اللغوي القديم فكان مفتاح ولوجي باب البحث في اللغة وما استجد من أبحاث حولها، فشكرا أستاذي الفاضل على صبرك معي وعلى توجيهاتك الحثيثة لإتمام هذا البحث،

والشكر موصول إلى اللجنة المحترمة المناقشة لهاته الرسالة وإلى كل من أسهم في إنجاح هذا البحث من قريب أو بعيد

بشير بهادي

...

بسم الله الرحمن الرحيم

إن قدرة اللغة على التبليغ جعل منها فعالية اجتماعية بين البشر ، لكونها وسمت بالمفوضية للتعبير عن الأغراض ، ويمكن أن تعد هذه الميزة البشرية للغة حجة لغوية تتحاجج بها مع غيرها من وسائل الترميز الدالة لتكون أحسنها دلالة. وتقتضي عملية التبليغ والتعبير اللغوي وجود تحاور طرفين أحدهما متكلم والآخر سامع ، ولأن غاية اللغة ووظيفتها الأسمى الفهم والإفهام ؛ فإن ذلك لا يتم ولا يتحقق إلا بالتأثير في المخاطب وشد انتباهه ليتقبل ما سيلقى من الكلام ، الأمر الذي يستدعي من المتكلم استعمال وسائل الإقناع والتأثير بدءاً من لغة التعبير وما يتبعها من آليات لغوية وبلاغية ، إضافة إلى استحضر مبادئ المنطق والفلسفة... وكل ما من شأنه تأييد كلامه من وسائل الإقناع والاستدلال كأساليب التفسير والبرهنة مثل أسلوب التعريف وأسلوب الوصف ، وأسلوب السرد ، وأسلوب التمثيل والمقارنة .

إن ارتكاز التخاطب على الإقناع نجد فيه نوعاً من ملامح الحجاج ، لأنه خطاب يقوم على الاستدلال والبرهنة حسب مقاصد المتكلم وتوجيهها حجاجياً حسب متطلبات السامع ، من منطلق أن الحجاج يقوم على دحض القول ومقارعة الحجة بالحجة لتأكيد رأي أو نفي آخر ، فيتناظر كل من المتكلم والسامع في وضعية حجاجية تهدف إلى تأييد المحاجج المتكلم وتوجيه المحاجج السامع .

إن ملمح الحجاج له امتدادات قديمة في تفكير الأمم خاصة اليونان والرومان والعرب ، فأرسطو أشار إلى الحجاج في تنظيره للخطابة والشعر عند حديثه عن فنون الكلام ، منطلقاً مما أخذه عن أستاذه سقراط فجعل الخطابة نوعاً من الجدل أو هي الجدل بعينه ، مركزاً على الجانب العقلي والنفسي ليوازي بين وسائل الإقناع ووسائل التأثير .

وقد عني العرب - خاصة علماء البلاغة - بالحجاج في حديثهم عن التخاطب وبلاغة الكلام وطبقات متلقيه ، فالجاحظ في حديثه عن البيان أشار إلى الحجاج مؤكداً أن غاية تحاور المتكلم والسامع هو الفهم والإفهام ، وهذه العملية لها أساليبها الاستدلالية الإقناعية من أجل التأثير. فابن وهب مثلاً يضمن الاحتجاج في الجدل ويجعله من قضايا التخاطب الإقناعي ، يستعمل في المناظرات الجدلية كالديانات والمذاهب الفقهية ، والسياسة والاقتصاد وغيرها .

وفي المعطى نفسه يذهب ابن خلدون حين عرف الجدل محمداً وظيفته الإقناعية القائمة على الاستدلال والمناظرة قائلاً: "وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب...".

ولأن موضوع بحثنا يدور في هذا السياق، جاء موسوماً بـ:

بلاغة الحجاج في الخطاب التعليمي الديني

(دراسة تداولية)

«في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص»

لعبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الأنزجيري

• أسباب اختيار الموضوع:

إن الحجاج من المباحث البلاغية التي تعد أساس كل عملية جدلية تنافسية، ولا يمكن الحديث عن الحجاج إلا إذا توفرت فيه أركانه وهي: طرفا الخطاب وأسلوب الحوار والإقناع والتأثير، ويعد منظوم "شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص" خطاباً شعرياً دينياً تعليمياً يشمل على المحاجة التداولية بكل أركانها وأساليبها، لذلك كانت المدونة أنموذجاً للدراسة.

واختيارنا هذا العنوان يرجع - إضافة لما سبق - إلى أسباب عديدة أهمها:

- والاستزادة من تعاليم الدين الإسلامي المنبثقة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
- الفهم الميسر للمسائل للفقهية بأسلوب تعليمي يعتمد على الذكاء وتنشيط الذهن ومقارعة الحججة بالحجة.

- تبيان طريقة المناظرة العلمية وأساليبها التأديبية عند علماء الدين خاصة المالكية.

- الكشف عن جوانب الحجاج في شبكة القناص، وبيان أبعادها التعليمية من منظور بلاغي لغوي بالتأصيل لمصطلح الحجاج قديماً وحديثاً.

إثراء البحث اللغوي التداولي العربي ببعث جهود علماء العربية القدامى في مجال التداولية بمفهومها الحديث الذي نظر له علماء الغرب.

- الكشف عن شخصية فكرية أسهمت في انتعاش الحركة العلمية في الدين والأدب من منطقة توات

بالجنوب الجزائري في القرن الثامن الهجري.

• إشكالية البحث:

الإشكالية الرئيسية التي سيدور حولها جوهر البحث تتمثل في الآتي:
ما هي ملامح الحجاج في الخطاب التعليمي الديني عند عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري
الأنزجيري؟.

وتتفرع هذه الإشكالية إلى إشكاليات فرعية نحو:

- ما مفهوم الحجاج؟ ، وما هي أنواعه وخصائصه؟ ، وكيف تتبدى لنا آلياته الإجرائية؟.
- هل عرف العرب الحجاج قديما في مناظراتهم العلمية وأبحاثهم اللغوية والبلاغية؟.
- ما المقصود بالخطاب التعليمي وما علاقته بالحجاج؟.
- ما مفهوم اللغز وما هي أنواعه؟ وكيف يسهم في فاعلية الخطاب التعليمي الديني؟.
- ما هي أساليب المحاجة في المناظرات العلمية عند فقهاء المالكية؟

• أهداف الدراسة:

مسعانا في هذه الدراسة هو تحديد مفهوم الخطاب التعليمي الديني باعتباره آلية من آليات تعلم وتلقين
تعاليم الدين الإسلامي وفهم أحكامه الشرعية ، واستجلاء منهج الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم في تأليف
شبكة القناص ، وكذا معرفة سبب اختياره الإلغاز وتعمية المعنى في أسلوبه التعليمي ، ثم الوقوف على ملامح
الحجاج وأبعادها البلاغية في خطابه.

• منهج البحث المعتمد:

سنعتمد في الدراسة على المنهج التداولي مع اعتماد على المناهج الأخرى ، خاصة وأن موضوع الدراسة
يحتم علينا إتباع كل المناهج اللغوية وذلك حسب الحاجة إليها.

• الدراسات السابقة:

تكاد تنعدم الأبحاث التي اتخذت من شبكة القناص موضوعا للدراسة حسب ما اطلعنا عليه لحد الساعة، لذلك ندعو الباحثين والدارسين خاصة المهتمين بمجال الأدب واللغة والفقہ لدراستها وتمحيصها نقدا وتحليلا، أما ما يتعلق بمصطلح الحجاج فكثيرة هي الدراسات والأبحاث العلمية التي تعنى بنظريات الحجاج سواء بتأصيله والتأريخ له عند الأمم كاليونان والرومان والعرب، أو التنظير له كنظرية لغوية حديثة تدخل ضمن البحث التداولي، إضافة إلى بعض الرسائل الجامعية التي اتخذت من مباحث الحجاج موضوعا للدراسة.

• خطة البحث:

وحتى يتضح البحث أكثر نلخص بنيته في خطة مسارها، حيث قامت على مقدمة ومدخل تمهيدي فثلاثة فصول تعقبها خاتمة.

فالمدخل الذي كان بمثابة بداية البحث جعلناه تفرشا نفتتح به الدراسة فنتبعنا فيه مسار الدراسات اللسانية المعاصرة، انطلاقا من لسانيات دي سوسير وما أحدثته البنيوية من حراك في الدرس اللغوي الحديث، فأشرنا إلى قصور بحثها لاقتصاره على دراسة اللغة كبنية مغلقة مقصية الكلام وأحوال المتخاطبين وسياق الحال، الأمر الذي جعلها تتعرض لانتقادات لاذعة، مما أدى إلى ظهور نظريات حديثة تعنى باللغة، مستغلة معطيات لسانيات البنية ومتجنبنة الوقوع في نفس الخطأ الذي وقع فيه ذي سوسير، أما العنصر الثاني فقد شخصنا فيه نقطة التحول في مسار الدرس اللساني الحديث موضحين كيف انتقل من البنيوي الوصفي إلى التداولي الوظيفي، فبعدها كان الدرس اللغوي عبارة عن وصف للغات الطبيعية ورصد خصائصها المشتركة أصبح ذا بعد وظيفي يهتم بوظيفة اللغة وهي في حال الاستعمال، فيهتم بدراسة ظواهرها باعتبارها كلاما مستعملا من قبل شخص معين في مقام معين موجه لمخاطب محدد لأداء غرض ما، بعدها أصلنا لمعيار الوظيفة في تراثنا اللغوي العربي، فخلصنا إلى أن البحث اللغوي العربي القديم ينتهي في مجموعه: نحوا، وبلاغة، وعروضا، وفقها، وأصولا، وتفسيرا إلى منظور وظيفي، ومن ثم كانت الوظيفية عمود بناء النظرية اللغوية العربية، لنفرد العنصر الثالث لاتجاهات الدرس البلاغي الحديث انطلاقا من نظرتهم للخطاب، فوقفنا على ثلاثة اتجاهات رئيسية، هي: الاتجاه الإقناعي، الاتجاه الأدبي الشعري، والاتجاه النصي.

أما الفصل الأول فخصّ للتنظير للنظرية الحجاجية فكان المبحث الأول ضبط لمصطلح الحجاج بتحديد مفهومه، وفك التعاضل المصطلحي بينه وبين مرادفاته الدلالية كالجدل والإقناع، والاستدلال،

والبرهان ، أما المبحث الثاني فقد تناولنا فيه مفهوم الحجاج في الفكر البلاغي القديم انطلاقاً من السفسطائيين وأفلاطون وأرسطو عند اليونان ، انتهاءً بالبلاغيين "الجاحظ ، السكاكي" والأصوليين "ابن حزم ، أبو الوليد الباجي" ، والمفسرين "السيوطي ، الزركشي" ، ثم الفلاسفة والمتكلمين "ابن وهب" عند العرب ، أما المبحث الثالث فقد ناقشنا فيه مفهوم الحجاج في الفكر البلاغي الحديث ، فوقفنا على تعريفاته ومفاهيمه عند الغرب ، من خلال أهم أعلامه خاصة بيرلمان وتيتيكا وتولين ، وأزفيلد ديكيو ، وميشال ماير ، وأتبعناه مباشرة بالحجاج عند العرب ، من خلال أعمال طه عبد الرحمن الفلسفية ، وجهود محمد العمري البلاغية ، وكذا أبحاث أبو بكر العزاوي اللغوية .

أما الفصل الثاني فقد خصصناه للحديث عن الخطاب الحجاجي ، مبرزين ملامحه في الخطاب التعليمي الديني فكانت "شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص" نموذجاً لذلك ، فكان المبحث الأول للحديث عن الخطاب والحجاج ، فوضحنا فيه بداية مفهوم الخطاب وأنماطه ، وتحديد معايير القول ببلاغته ، لنعرج بعدها على أنواع الخطاب الحجاجي وفقاً لمنطلقاته الفكرية ومبادئه البنائية فحددناها في ثلاثة أنواع رئيسية هي: بلاغية ، فلسفية ، تداولية ، أما المبحث الثاني فعمدنا فيه إلى إسقاط ملامح النظرية الحجاجية على الخطاب التعليمي الديني المتمثل في منظوم الدرّة "شبكة القناص" ، فضبطننا مفهوم الخطاب التعليمي الديني انطلاقاً من ضبطننا لمفهوم الخطاب الديني ، والخطاب التعليمي ، فوضحنا ملامحه التداولية مشيرين إلى دواعي حجاجه وبواعثه ، وأهم التقنيات التي يستعملها الناظم لشبكة القناص على درة الغواص لإقناع مخاطبه ، في حين وضحنا في المبحث الثالث خصوصية الحجاج في الخطاب التعليمي الديني ، المتمثلة في فعل الشعر باعتبار الشبكة متناً تعليمياً جاء في قالب شعري ، فكان أسلوبها حجاجياً يدعو للتأثير والإقناع ، وبلاغتها تكمن في غايتها النبيلة الداعية لتيسير ما استعصى وصعب ، .

أما الفصل الثالث والأخير فقد جاء لاستكشاف الآليات الحجاجية التي استعملها الناظم عبد الرحمن بن محمد في منهجه التعليمي لإقناع مخاطبه ، فجاء المبحث الأول يتحدث عن الآليات اللغوية فيينا فيه ما تحمله العوامل والروابط من طاقات حجاجية ، أما المبحث الثاني فتمحور حول الحجاج البلاغي في "شبكة القناص" فوقفنا فيه على الآليات البلاغية وما تقوم به من دور في الإقناع والتأثير ، خاصة ما تعلق بالتمثيل والتشبيه ، في حين افرد المبحث الثالث لظاهرة الأفعال الكلامية لأهميتها في البحث اللساني التداولي فيينا حجاجيتها من خلال تحليلنا لمقاصد الكلام وأغراض الناظم في منظوم الدرّة .

أما الخاتمة فكانت محصلة ونتاج الدراسة وفيها قدمنا أهم النتائج المتوصل إليها من البحث ، والتي نأمل أن تكون فيها ملامح إشكاليات لبحوث علمية أخرى .

واعتمدنا على مصادر ومراجع مختلفة في المجال الأدبي واللغوي معا استحضرتها لتحدد المفهوم العلمي لمصطلحات: البلاغة، التداولية، الحجاج، الدين، والتعليمية، ولها ارتباط وثيق بموضوع الدراسة خاصة ما تعلق باللسانيات التداولية والنظرية الحجاجية، ولعل من أبرزها: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي لمسعود صحراوي، واللغة والحجاج لأبي بكر العزاوي، واستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية لعبد الهادي بن ظافر الشهري، وكتاب الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية لعبد الرحمن حاج صالح، وكذا الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية لأمال يوسف المغامسي... الخ، إضافة إلى ما يتبعها من كتب تراثية أصلنا بها موضوع البلاغة والحجاج وعلاقتها بالتداولية في الفكر البلاغي القديم عند العرب واليونان، ومن بينها الخطابة لأرسطو والكتاب لسيبويه، والخصائص لابن جني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

ولا يكاد يخلو بحث من صعوبات مضمينة تقف سلبا أمام سير الباحث، فلا يجد بدا أمامها إلا الصبر والمثابرة قصد نيل المرام وإخراج بحثه في أحسن صورة يقتضيها المنهج العلمي، ومن بين هذه الصعوبات طبيعة الموضوع، فهو رغم أنه دراسة تحليلية لبنية اللغة في مدونة شعرية قد يراها بعضنا سهلة المنال إلا أن طبيعته التحليل الذي يقتضي أن تكون هذه اللغة في حال الاستعمال، توجب على الباحث مراعاة ملاسبات الخطاب وما يحيط به بدءا من ظروف إنتاجه إلى تلقيه، فيراعي المتكلم وشخصيته والسامع ومستواه والسياق ومدى مطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين، وهو ما أعيانا بالتبصر والتمحيص، وهذا طبيعي لأن الموضوع يعنى بالبحث في الاستدلال الحجاجي واستخراج آلياته وتقنياته في مدونة شعرية ألفت لغاية تعليمية، وما زاد البحث تعقيدا أن مدونة الدراسة ألفت بأسلوب فني يعتمد الإلغاز وإخفاء المعنى فتقتضي محلا حدقا مثلما اختار الناظم متلق خاص لها، وهو ما جعل الموضوع أكثر تشعبا وصعوبة.

وما دامت دراستنا هي بحث في مسائل الدين وأحكامها الشرعية، فإن الغاية التعليمية التي ألفت لأجلها شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، تجنبنا الخلافات الدائرة بين الفقهاء رغم أهميتها، خاصة وأن مضمون الشبكة أتى وفق معطيات المذهب المالكي الذي يمتاز بالوسطية والاعتدال، كما أن طبيعة البحث لا تقتضي ذلك، فإن وفقنا فذاك مسعانا، وإن أخفقنا فمرجو من المولى تبارك وتعالى السداد وسبل الرشاد.

الباحث

الجهاز المفهومي

- اتجاهات درس اللساني المعاصر
- تحول درس اللساني من البنيوي الوصفي إلى التداولي الوظيفي
- اتجاهات درس البلاغي الحديث

أولاً: اتجاهات الدرس اللساني المعاصر

نادت اللسانيات بأنها علم للغة يدرسها في ذاتها ومن أجل ذاتها، معتمدة على الاتجاه الوصفي التحليلي وفق قواعد إجرائية تدرس بنيتها، داعية إلى تطبيقها على جميع اللغات الطبيعية مدعية اشتراكها في جميع الخصائص اللغوية صوتاً و صرفاً وتركيباً، لكن هذا الاتجاه اللساني رغم الثورة التي أحدثها في مسار البحث اللغوي، لم ينج من جملة انتقادات وجهتها له مختلف المدارس اللسانية التي أتت بعده، وإن كانت قد انبثقت من منطلقاته الفكرية، ولعل السبب في هذا الانتقاد اللاذع كون اللسانيات البنيوية والتوليدية التحويلية أغفلت في دراستها جوانب شديدة الصلة باللغة، والتي لولاها لما كان هناك تواصل، خاصة وأن التواصل الوظيفة الأساس للغة، به تتم المقاصد وتحقق الغايات والأغراض.

إذن انتقادات لسانيات ما بعد البنية طورت مجال البحث اللغوي، كل حسب توجهاتها ورؤاها في دراسة اللغة، فهي وإن نظرت إلى الخطاب كرسالة من باث إلى متلق في ضوء سياق اجتماعي يراعي زمان ومكان إنتاجه، إلا أننا نجد أبحاثها لم تقف على قضية الجانب الاستعمالي للغة، أي لم تول أهمية لعلاقة اللغة بمستعملها، مقصية بذلك عملية إنتاج الكلام وتفسيره وسياق أدائه، فقطبا التواصل المشكلين للعملية التخاطبية قد غيبا تماما في اللسانيات البنيوية، الأمر الذي فتح المجال واسعا لدراسات أخرى تراعي السياق التخاطبي، ولعل أهمها أبحاث التداولية التي تبحث في علاقة اللغة بمستعملها و«تركز اهتمامها على مجموعة الضوابط، والمبادئ التي تحكم عملية تأويل الرموز والإشارات اللغوية في إطار التواصل اللغوي»¹ في جانبه الاستعمالي.

وفي ظل هذه الأبحاث ظهر علم لساني يدرس الشروط التي يجب توفرها لإنتاج الخطاب وآليات تأويله عرف باللسانيات التداولية، وهو علم تتشعب أبحاثه لتعدد منطلقاته الفكرية، حيث شملت الفلسفة والمنطق وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وكل ما من شأنه إنجاح الحدث الكلامي أو تفسيره، فتعددت تعاريفه ومفاهيمه وصعب على الدارسين حصرها، ونكتفي بتعريف الباحث مسعود صحراوي الذي يجملها فجعلها لا تعد أن تكون «مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمله، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن

1- اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني قراءة استكشافية للتفكير التداولي عند القانونيين، مرتضى جبار كاظم، منشورات

ضفاف، بيروت لبنان، ط1، 2015، ص14.

العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة ، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية»¹.

بهذا المفهوم يتبين أن اللغة كانت أساس التواصل اللغوي الذي كان محور بحث مختلف المناهج اللسانية الحديثة ، الأمر الذي جعل الدرس اللغوي يتجه في مساره نحو نمطين مختلفين هما الاتجاه الوصفي الشكلي القائم على وصف اللغة الطبيعية ودراستها كبنية لغوية يجمعها نظام من العلامات الدالة ، ويقابل هذا النظام الكلام أو ما يعرف الأداء الفعلي للغة ، وهو ذو طبيعة فردية ، أما النمط الثاني هو الاتجاه التواصل الوظيفي الذي ينظر للغة كأداة تواصلية بين الأفراد تقوم على التخاطب بين متكلمين معينين ، يحكمها سياق تواصلية معين .

فمن خلال الدراسة الإجرائية للاتجاه الأول يتبين لنا أنه اتجاه بنيوي محض يدرس اللغة بعيدا عن سياقات استعمالها فلا يولي ضمن اهتماماته طرفا التواصل ولا سياقه التخاطبي ولا حتى مقاصده ، الأمر الذي يؤكد لنا غياب البعد الوظيفي في منهجه ، أما الاتجاه الثاني فيظهر جليا اهتمامه باللغة في واقع استعمالها فيستحضر طرفا التواصل وينظر للخطاب كنتاج لغوي من متكلم إلى سامع قصد تحقيق غاية محددة ، أي يدرس الجانب الوظيفي التواصل للغة في منهجه التحليلي .

وعند المقارنة بين المنهجين التحليليين للغة ومقاربتهم بمعطيات البحث التداولي نلاحظ أن الاتجاه الثاني أقرب في إجراءاته إلى التداولية منهجا وغاية ، أما الاتجاه الأول فهو غير تداولي لأنه يقوم على إقصاء جملة من العناصر الأساسية التي تسهم في دراسة اللغة وتحديد المعنى على نحو الكلام ومنشئيه وسياق الحال ، وفي الآتي بيانها:

إقصاء الكلام

أهم ما يميز نظريات البحث اللساني البنيوي أنها تقصي الكلام في منهجها ، ويتجلى ذلك في اعتمادها توجه اللساني السويسري "دي سوسير Ferdinand de Saussure 1857-1913" صاحب ثنائية "الغة / كلام" ، الذي يرى أن دراسة اللغة Langage يتضمن قسمين:

القسم الأول: وهو القسم الأساسي - وموضوعه اللسان langue ، وهو ذو طبيعة اجتماعية مستقلة عن الأفراد الذين يستعملونها ، وهذه الدراسة لا تكون إلا دراسة نفسية .

1 - التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، دار الطليعة

للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2005 ، ص05 .

- القسم الثاني: وهو ثانوي ، موضوعه الجانب الفردي من اللغة ، أعني الكلام parole بما فيه التصويت ، وهو دراسة نفسية فيزيائية¹ ، بهذا التقسيم نجد دي سوسير - رغم محافظته على اجتماعية اللغة في حديثه عن اللسان - يقصي الكلام كفعالية تواصلية يشارك فيها طرفان مختلفان ، علاوة على حصره الكلام على الأداء الفردي للإنسان ، وحتى يفصل في الأمر ويخلص اللسانيات بحث في اللسان لا الكلام ، يقول «إنه بإمكاننا الاحتفاظ باسم "اللسانيات" للتعبير عن هذين العلمين ، ومن ثم الحديث عن لسانيات الكلام ، ولكن يجب ألا نخلط بينهما وبين اللسانيات الحقيقية الجديرة بهذه التسمية ، والتي يكون اللسان langue موضوعها الوحيد» ، وتكون الدراسة هنا وصفية شكلية خالصة بنية اللغة كنظام يضبط أجزاءها الفرعية .

وإقصاء الكلام يتبعه إقصاء أموراً أخرى لم ينتبه لها البنيويون ، ومن ذلك²:

- إقصاء الأفراد المتكلمين العاديين ، لأنه لا حضور لهم إلا وهم في استعمال فعلي للغة ، أي في "الكلام الفعلي" الحقيقي .

- إقصاء الكلام يتبعه أيضاً إقصاء السياق الذي ورد فيه الكلام ، إذ لا يبرز دوره إلا في "الكلام الفعلي" .

- بإقصاء الكلام تقصى الاستعمالات العادية الفعلية للغة ، والتي بها يبني التواصل وتتعدد طبقاته المقامية .

وهذه العناصر مجتمعة هي ما يشكل الاستعمال الفعلي للغة ، ولعل إبعادها من لسانيات دي سوسير هو ما جعل التداولية توليها اهتماماً كبيراً وتجعلها أهم مرتكزات البحث التداولي ، فالكلام هو محصلة تواصل لغوي بين متخاطبين يتداولان على استعمال اللغة تعبيراً عن الأغراض ، حسب السياق وما يقتضيه المقام من القول ، ومن ثم يمكن عده - الكلام - إجراء عملي للغة مستعملة من قبل شخص معين في مقام معين لتحقيق غرض معين .

1 - علم اللغة العام ، فردينان دي سوسور ، تر: يونيل يوسف عزيز ، دار أفاق عربية ، بغداد ، العراق ، دط ، 1985 ، ص

2- ينظر: الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي ، مسعود صحراوي ، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه اللسانيات ، إشراف عبد الله العشي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة الحاج لخضر باتنة ، "2003-2004" ، ص10 .

وعن مظاهر الإقصاء البنيوي للكلام ومتطلباته نورد:

1- إقصاء الأشخاص المتكلمين العاديين

نلاحظه بداية في التقسيم الذي حدده سوسير للغة بين لسان وكلام، وهذا التقسيم جاء من تشخيصه لها في بعدها الاجتماعي والفردى، فوقف على سمات تمييزية تفصل أحدهما عن الآخر، ومن ذلك قوله: «إن الفصل بين اللغة "اللسان" والكلام يعني أيضا الفصل:

- بين ما هو اجتماعي عما هو فردى.

- الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي»¹

وبهذا الفصل يكون دي سوسير أبعد الكلام العادي في أبسط صورته من حساباته، فالطابع الاجتماعي الذي أقره للغة لم يول أهمية للفرد كعنصر فاعل في تأدية الكلام، بل جعله ثانويا، وبالتالي يمكن الاستغناء عنه، وهذا ما يؤكد صراحة بقوله: «فاللغة "اللسان" ليست وظيفة الفرد بل هي نتاج يهضمه الفرد بصورة سلبية»²، فهو يقصي الفرد من تشكيل اللسان لفرديته، لا لعضويته للجماعة، فطبيعته الاجتماعية تفرض عليه الانتماء الجمعي لتشكيل لسان تواصل يتواضعون على رموزه ومفرداته، ونظام ضبطه.

بهذا الطرح يذهب دي سوسير إلى أن - اللسان - «الكلام ليس وسيلة جماعية، بل مظاهر فردية قصيرة الزمن»³، وهامشيته هاته تجعل الفرد يختفي عند سوسير، ويظهر في اللسان بطريقة سلبية مسلوب الإرادة والتصميم⁴.

ويرى الباحث مسعود صحراوي أن سوسير - بالرغم من إقراره أن «في متن التركيب اللغوي، لا يوجد فصل صارم بين اللسان بوصفه تجليا للنشاط الجماعي، وبين الكلام باعتباره مظهرا للحرية الفردية»⁵ - لا يمكن أن يسلم توجهه من انتقادات إقصائه المنهجي لدور الفرد في ممارسته العادية لنشاطه الكلامي، خاصة وأن الإقصاء جاء من تفريقه بين اللسان والكلام باعتبارهما من أهم مبادئ اللسانيات البنيوية، وتمايزهما يجعل الجمع بينهما مستحيلا، هذا وذهب - مسعود صحراوي - إلى أن الصورة المتوارثة

1- علم اللغة العام، فردينان دي سوسور، مرجع سابق، ص 32.

2، المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- المرجع نفسه ص 38.

4- ينظر: الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، مسعود صحراوي، مرجع سابق، ص 11.

5- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

عن اللسان "langue" بأنه مجرد خزان يضم مجموعة من الكلمات يلجأ له الإنسان ليغرف منه ما يستخدمه لتشكيل خطابه أثناء الكلام، هي صورة في غاية التبسيط والتسطيح والسكونية، وهو ما يتماشى مع رأي سوسير الذي يرى أن اللسان نظام لا وجود له إلا لغاية التحكم في الكلام وتوجيهه¹.

وغير بعيد عن سوسير نجد رومان جاكبسون صاحب النظرية التواصلية المعاصرة يرفض في توجهه اللساني إبعاد العوامل الأخرى المكونة للتواصل اللغوي، فجعل من اللسانيات عملاً علمياً يعنى بكل جزئيات اللغة الداخلية والخارجية، وما ينجم عنها من وظائف متباينة حسب تباين مآلات الفعل اللغوي²، وما تحقق للمتكلم من غايات، فهو يرى أن «اللغة يجب أن تدرس في تنوع وظائفها»، وحتى يبرز الوظائف التي تؤديها اللغة خارج بنيتها يقدم لنا تصوراً للدارة التواصلية التي تشكل الحدث الكلامي يرتكز على تفاعل طرفين أحدهما مرسل والآخر مستقبل فيقول: «إن المرسل يرسل رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة فإنها تقتضي بادئ ذي بدء سياقاً تحيل عليه وهو ما يدعى أيضاً "المرجع"... وتقتضي الرسالة بعد ذلك سنناً مشتركة كلياً أو جزئياً بين المرسل والمرسل إليه، أو بعبارة أخرى بين المسنن ومفكك سنن الرسالة؛ وتقتضي الرسالة أخيراً اتصالاً أي قناة فيزيقية وربطاً نفسياً بين المرسل والمرسل إليه، اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه»³، ويمكن تمثيل الدارة التواصلية لجاكوبسن في الخطاطة التالية⁴:

سياق

مرسل رسالة مرسل إليه

قناة اتصال

نظام سنن "الشفرة"

مخطط للدارة التخاطبية عند جاكبسون

-
- 1- ينظر: الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، مسعود صحراوي، مرجع سابق، ص 12.
 2- ينظر: التواصل اللساني والشعرية مقارنة لسانية لنظرية رومان جاكوبسون، الطاهر بومزير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص 13.
 3- قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، تر: محمد الولي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص 27.
 4- ينظر: المرجع نفسه، صفحة نفسها.

بهذا الطرح الذي أتى به جاكسون نكون أمام إجراء عملي لسيرورة التواصل اللغوي ، وهو منهج لساني أعاد الاعتبار لعناصر التواصل بدءاً من المتخاطبين والسياق ، فالخطاب باعتباره رسالة لغوية يعد فعلاً تواصلياً ينطلق من المتكلم المرسل ، في سياق معين ، المرجع - إلى السامع المرسل إليه ، وفق سنن مشتركة بينهما أي رموز لغوية تمكنهما بإحداث الاتصال.

وضع رومان جاكسون نموذجاً للتواصل وحصره في ستة عناصر ، ثم استنبط من كل منها وظيفة لغوية ، « مختلفة عن الأخريات بحسب ما صورته في مخطوطه ، وما يجب الانتباه إليه أن الفعل التواصلي كما يعرضه هذا المخطط يبقى طابعه البنيوي واضحاً صريحاً ، ذلك أن النظام الرموزي مستخدم هنا من قبل المتحاورين الذين لا دور لهم غير ما حدد لهم¹ ، حيث يسلب الفرد حق التصرف ، فالتكلم المستخدم لهذا النظام يكون مجبراً على تطبيق قانون النظام ، ملغياً في الوقت نفسه حريته الشخصية ، أي أن الأفراد الذي دخلوا في تواصل لغوي واستعملوا الشبكة الرموزية للنظام هم - بمنظور جاكسون - مستخدمون من قبل النظام عوض أن يستخدموه ، وهذا هو وجه الإقصاء المنهجي لدور الفرد المتكلم في عملية التواصل ، ناهيك عن تخصيصه وظيفة لسانية أخرى سماها " ما وراء اللغة " حيث يتحدث اللسان عن نفسه ، الأمر الذي يؤكد فعل الإقصاء للتكلم في العملية التواصلية².

مع مرور الزمن ظهرت لسانيات ما بعد سوسير ، وهي وإن كانت حديثة إلا أنها تسير في نفس التوجه البنيوي الذي أسسه دي سوسير ، ومن ذلك ما أتى به تشوميسكي في نظريته التوليدية التحويلية ، فحاول استدراك الأخطاء التي وقع فيها سوسير ، فعمل على رد الاعتبار لفاعلية الأفراد ودورهم الحقيقي في الحدث الكلامي ، والتخلص التدريجي من الانتقادات وتبعات تجاهل دورهم الهام³ ، ومن مظاهر ذلك أنه نظر للفرد من خلال كفاءته اللغوية التي تؤهله للتحكم طواعية في نظام للغة ، حيث يقول: « إن الشخص الذي يمتلك لغة ما قد امتلك ضمناً نظامها القواعدي والشكل الصوتي والمضمون الدلالي المناسبين ، إن هذا الشخص قد قام بامتلاك الملكة التي نسميها نحن: الكفاءة اللغوية⁴ » ، وربطها بالجانب النفسي الاجتماعي للفرد.

1- الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي ، مسعود صحراوي ، مرجع سابق ، ص 13.

2- ينظر المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص 14..

4- المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

ولما اشتغل تشومسكي على مفهوم الكفاءة اللغوية، قاده البحث في منهجه التوليدي التحويلي إلى مفهوم آخر هو مفهوم الأداء، الذي تمثله الصبغة الفردية للسان، أي الكلام الذي أقصاه سوسير، فجعل تشومسكي الأداء وسيطا لفهم الكفاءة، وحصره في أمرين، أولهما يتعلق بسياق الحال وأدوار المتكلمين، وثانيهما يعنى بكيفية اشتغال العقل البشري، أي حدود الذاكرة، وكيفية تشكيل البنى اللغوية في ذهن الإنسان¹، وباعتداده للسياق وشخصية الأفراد وظروف الخطاب، يكون في مسار تصحيح لما وقعت فيه البنيوية سابقا.

لقد أوشك تشومسكي أن يفتح من البنيوية بابا يلج منه نحو اتجاه لساني وظيفي جديد يدرس تداولية اللغة واستعمالها، لكنه ما فتى أن ميز بينهما بحصره الدراسة اللسانية في الكفاءة اللغوية، وجعله الأداء موضوعا لعلوم أخرى تهتم بشخصية الفرد وسلوكه، كعلم النفس، والفيزيولوجيا، والأعصاب، وعلم الاجتماع،... الخ، وبفصله بين الكفاءة اللغوية والأداء يكون قد همش الفرد وأقصى دوره في التواصل اللغوي، وبالتالي وقع في نفس خطأ سوسير، وأوكلت الكفاءة إلى المتكلم المستمع المثالي، وهو كائن افتراضي غير حقيقي يحل محل المتكلم الفعلي الحقيقي².

2- إقصاء سياق الحال

يتصل السياق اتصالا مباشرا بالكلام، لذلك فإن الإقصاء الذي طال الكلام يطال السياق أيضا، فالتواصل اللغوي هو حدث كلامي بين طرفين في سياق معين، والسياق نوعان داخلي يعنى بنسق اللغة وبنية الخطاب الداخلي سواء كان مكتوبا أو منطوقا، ويسمى أيضا السياق اللغوي، وسياق آخر خارجي يشمل الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، وما يتصل بطرفي الخطاب من مكان وزمان ودوافع، فهو «مجموع الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار في دراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واللغة، وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والسياق الثقافي والنفسي والتجارب والمعلومات الراجعة بينها»³، فالالتفات لسياق الحال هو مراعاة لظروف إنتاج الخطاب، بدءا من الفرد المتكلم إلى مضمون الخطاب ودوافعه، مروراً بنظام اللغة وضوابطها وصولاً إلى الأثر الذي يحدثه الخطاب في السامع، وأهميته تكمن في أنه أساس نجاح العملية التواصلية.

1- ينظر: الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، مسعود صحراوي، مرجع سابق، ص 14.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 15.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

ويظهر إقصاء البنيوية لسياق الحال بفصلها النظام اللغوي عن سياقه الخارجي ، فسوسير جعل اللغة بنية مغلقة لها نظام داخلي يحكمها ، وشبه هذا نظام اللغة بلعبة الشطرنج التي لها نظام خاص لا يعتد بها هو خارج قانون اللعبة ، أي أن ما هو خارجي في الشطرنج يمكن فصله بسهولة عما هو داخلي ، كأن نستخدم أجزاء - قطع - من الشطرنج مصنوعة من العاج بدل الخشب ، فإن هذا التغيير لا أثر له في نظام اللعبة ، أما إذا أحدثنا تغييرا داخليا يمس نظام اللعبة ، كأن نقلل من أجزاء الشطرنج ، أي في عدد القطع ، أو نصف إليها ، فإن هذا التغيير يؤثر في مسار الشطرنج ، مشيرا ومؤكدا في الأخير ضرورة التفريق بين ما هو خارجي وما هو داخلي ، فأبعد إقصاء سياق الحال عن النظام اللغوي ، مستدلا على أنه لا شيء يحدث تغييرا في النظام ما لم يكن داخلي يسهم في تكوين هذا النظام¹.

ثانيا : تحول الدرس اللساني من البنيوي الوصفي إلى التداولي الوظيفي

مما سبق اتضح لنا أن البنيوية قصرت دراستها على اللغة في مفهومها الضيق الذي لا يعدو أن يكون بنية مغلقة تدرس لذاتها ومن أجل ذاتها ، وهذا الحصر جعلها تغفل الكلام كإنجاز لغوي ناتج عن استعمال اللغة بين متخاطبين ، وهو ما انتبهت إليه الفلسفة التحليلية التي غيرت مجرى الدراسة بطرحها الفلسفي للقضايا اللغوية ، وانفتحتها على العلوم المعرفية الأخرى كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، والمنطق ، والرياضيات ، وبهذا تشكل مسارا معرفيا جديدا في الدرس اللغوي الحديث ، فيه «وجدت اللسانيات نفسها في مرحلة من مراحل تطورها وجها لوجه أمام قضايا شمولية تطرح فيها اللغة في حد ذاتها ، وتطرح فيها اللغة باعتبارها وليد الفكر ، ثم تطرح فيها قضية الفكر من حيث هو مولد للظاهرة اللغوية»² ، وما يميز هذا المسار اللساني المعاصر هو تقاطعه مع معارف إنسانية أخرى مما أهله للانفتاح وعدم الاقتصار في دراسته على الكينونة اللغوية ، مركزا على الكلام كظاهرة لغوية ذات طابع إنجازي تجسده اللغة حال استعمالها ، ويهتم كذلك بعناصرها فيدرس غرض المتكلم من الكلام ، وحال مخاطبه ، وسياق الحال ، باعتبارها عناصر أساسية تسهم في تأدية الكلام³.

1- ينظر: علم اللغة العام ، فردينان دي سوسور ، مرجع سابق ، ص 41.

2- التفكير اللساني في الحضارة العربية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط 2- 1986 ، ص 20.

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص 17.

وحتى تتضح أكثر صورة الانعطاف في مسار الدرس اللساني الغربي الحديث يقول أحد الدارسين الفرنسيين ، بعد رحلة طويلة قام بها مشتغلا على قضايا اللغة: «أعدت النظر في نحوي magrammaire أربع أو خمس مرات ، فحينها جاءت الغيومية "نسبة إلى اللساني غستاف غيوم "GustaveGuillaume" أعدنا النظر في النحو من وجهة النظر الغيومية ، ولما جاءت البنيوية اعتمدنا وجهة النظر البنيوية ، وكذلك الشأن حين جاءت التفرعية "Generativisme" بعد هذا انتقلت إلى السياق الكلامي ثم إلى سياق الحال»¹ ، وهذا ما نلاحظه فعلا كميزة تطبع مسار البحث اللساني الغربي الحديث ، فرغم ارتكازه على لسانيات سوسير واغتراف أغلب النظريات التي جاءت بعدها من بعض مبادئها ، إلا أنه تطور في سيرورة جدلية أفرزت نظريات لسانية تكاثرت في شكل توالد جدي ، على أنقاض بعضها ، وحظ اللاحق منها أنه ينشأ كرد فعل انتقادي على ما سبقه ، معترفا بمنهجه وجهوده ، آخذا من مقولاته مؤسسا عليها مقولات جديدة² ، وهذا ما نلاحظه حيث تتابع النظريات الواحدة تلو الأخرى ، فتأخذ كل نظرية من سابقتها ما يخدم نظريتها في دراسة اللغة ، وتؤسس مع ما اجتهدت فيه من أبحاث لبناء نظريتها ، نجو ما فعلته التوليدية التحويلية مع البنيوية ، وما فعلته الوظيفية التي جاءت على أنقاضها وكانت باب الولوج للبحث التداولي.

ويتبدى المنهج التداولي في البعد الوظيفي الذي تقوم به اللغة ، فيعنى بدراسة «ظواهر اللغة باعتبارها "كلاما" مستعملا من قبل "شخص معين" في "مقام معين" موجه إلى "مخاطب معين" لأداء "غرض معين"»³ ، وبهذا تكون قد انطلقت من ما غفلت عن دراسته اللسانيات البنيوية عن قصد أو عن غير قصد ، فخالفتها في المنهج والمبدأ فدرست الكلام من منظور وظيفي بوصفه الوجه الحقيقي لاستعمال اللغة وتداولها بين طرفين لتحقيق أغراضها حسب مقتضيات المقام.

والممتنع لتراثنا اللغوي العربي - رغم شموليته - نجده ضاربا في معيار الوظيفية، ولأدل على ذلك إرهاصات نشأتها التي وقفت على اللغة حال استعمالها بالوقوف على فصحاء العرب لجمع الثروة اللغوية ، ويجسده أيضا علم النحو بتحديدته لشروط الكلام من استقامة وإحالة للوقوف على تمام المعنى ، وكذلك تنطلق البلاغة من معيار الوظيفية باعتدادها بعناصر الخطاب من متكلم وسامع وظروف القول التي تستدعيها للتواصل ، ولعل خير ما يمثلها - الوظيفية - نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني والتي تقوم على

1- التفكير اللساني في الحضارة العربية ، عبد السلام المسدي ، مرجع سابق ، ص 18-19.

2 ينظر: المرجع نفسه ، ص 19.

3- الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي ، مسعود صحراوي ، مرجع سابق ، ص 20.

الكيفية التي يدعو فيها الكلام بعضه بعضا لتحقيق الإفادة وبالتالي الفهم والإفهام ، والحال نفسه نجده في علوم الفقه والتفسير والمنطق ، وإجمالا نقول أن معيار الوظيفية كان عمود بناء النظرية اللغوية العربية ، وهو ما أشار له أغلب الدارسون العرب المعاصرون ، يقول أحمد المتوكل وهو من الداعين إلى وظيفية تراثنا العربي: « إن الإنتاج اللغوي العربي القديم يؤول إذا اعتبر في مجموعه "نحوه وبلاغته وأصوله وتفسيره" إلى منظور ينتظم مبادئ وظيفية¹ ، وذلك لاعتبارات عدة أهمها²:

- الموضوع المراد وصفه في الفكر اللغوي العربي هو نص القرآن الكريم ، وبالتالي فمعطيات الوصف اللغوي ليست جملا مفردة مجردة من مقامات إنجازها ، بل هي "خطاب" متكامل يشتمل على كامل عناصره .
- طبيعة الموضوع المستهدف تقتضي على الوصف اللغوي إتباع مبادئ منهجية تقوم على الربط بين المقال والمقام ، لإضفاء الطابع التداولي على خصائص الجمل الصورية .

- هذا المنهج اللغوي يلزم الجهاز الواصف أن يتضمن مكونات تضطلع برصد الخصائص التداولية ونوع ارتباطها بالخصائص الصورية ، وإجمالا يمكن القول: إن الجهاز الواصف وتفسير نص القرآن الكريم يتألف من علوم تتكامل مع بعضها بعضا، وتشمل النحو والبلاغة والأصول... الخ ، خاصة البلاغة والأصول باعتبارهما العلمين المضطلعين برصد الترابط القائم بين الخصائص التداولية والخصائص الصورية "التركيبية ، الصرفية ، والصوتية" .

وغير بعيد عن أحمد المتوكل نلفي جعفر دك الباب يربط بين نظرية النظم البلاغية ونظرة ماثيزيوس من منظور وظيفي للجمله نظرا لتقاربهما وتقاطعهما الكبير في المنحى الوظيفي³ ، أما الباحث عبد الرحمن حاج صالح فقد وقف على الوظيفية في حديثه عن اللغة واستعمالاتها المختلفة انطلاقا من التنظير الذي حدده لمفهومها الأوائل ، والتقعيد الذي وقفوا عليه في دراستها فيقول: « فاللغة كما يتصورها ابن جني وسيبويه وغيرهما ممن ظهر في الصدر الأول هي استعمال الناطقين بها ، أي إحداثهم لفظا معيناً لتأدية معنى وغرض في

1- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري ، أحمد المتوكل ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2010 ، ص39 - 40 .

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص40 .

3- ينظر: الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي ، مسعود صحراوي ، مرجع سابق ، ص21 - 22 .

حال الخطاب الذي يقتضي هذا المعنى وهذا اللفظ ، فهي ليست صوتا ولا نظاما من القواعد ولا معنى مجردا من اللفظ الذي يدل عليه ، ولا أحوالا خطابية معزولة عن كل هذه الأشياء»¹ ،

وكتحليل إجرائي للمنحى الوظيفي وقف عبد الرحمن حاج صالح على استعمالات اللغة باعتبارها وجه من وجوه التخاطب ، فنظر للغة على أنها تواضع واصطلاح يتفق عليها الناس لاستعمالها كوسيلة للتعبير عن أغراضهم وحاجاتهم ، ومن ثم رأى أن الكلام يأتي كحدث للدلالة على غرض معين نتيجة استعمال اللغة في مقام تخاطبي معين ، وبالتالي فهو - الكلام - حدث نتج عن اللغة فكان نتاج استعمالها ، يقول: « فالفعل الذي هو من أهم أركان الكلام يدل على الحدث وكل حدث يحصل بالضرورة في زمان ومكان معين . وأما الكلام كاسم مصدر لفعل تكلم فهو حدث فلا بد أن يكون له زمان ومكان معينان ، وبهذا يفترق الكلام كفعل وكحدث عن الجهاز الذي يستعمله المتكلم وهو اللغة إذ هي أداة لتبليغ الأغراض وبما أنها نظام من الأدلة المتواضع عليها لا تتراد لذاتها بل للانتفاع بها كأداة تبليغ فهي كيان مجرد لعموم استعمالها»² بين الناس .

إذن نتيجة استعمال اللغة تشكل الدارة التخاطبية ، وذلك بالتداول على اللغة بين المتكلم ومخاطبه ، وعلى هذا الأساس بنى سيبويه حديثه عند حديثه عن باب الاستقامة من الكلام والإحالة ، حيث يفهم من كلامه إشارته إلى مكونات التخاطب وشروط إنتاج القول إخبارا أو غيره ، « وهو لا يهتم... بالكلام من حيث بناؤه وتركيبه فقط وفي حد ذاته أي بالالتفات فقط إلى كيفية صياغته كما لم يكتف أيضا بذكر ما يدل عليه في ظاهره ، بل يتجاوز كل هذا بالالتفات إلى دور المخاطب والمتكلم وبصفة خاصة إلى كيفية حصول التفاهم بينهما لا بالاعتماد فقط على ما يدل عليه الكلام بلفظه وحده بل بالرجوع قبل كل شيء إلى ما هو خارج عن اللفظ المنطوق به وهي الأدلة التي تقترن بها عملية التلغظ بالكلام»³ ، ويحدد بواسطتها ما استقام من الكلام وحسن أو قبح أو كذب ، وما هو محال منه أو محال كذب .

نلاحظ أن سيبويه في تقييده للنحو العربي انطلق من الأصل الذي انطلقت منه النظرية اللغوية العربية ، وهو الاعتداد بمكونات الخطاب من مقام وزمان ومكان ، ذلك أن اللغة في أصلها جاءت جراء

1- الأسس العلمية ، عبد الرحمن حاج صالح ، مقال ، مجلة اللغة العربية ، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، ع3 ، ص111. نقلا عن: الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي ، مسعود صحراوي ، مرجع سابق ، ص22.

2- الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، عبد الرحمن حاج صالح ، سلسلة علوم اللسان عند العرب ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر ، دط ، 2012 ، ص43.

3- المرجع نفسه ، ص44.

تواضع واصطلاح ، فاتفق على مفرداتها لاستعمالها في مقامات التخاطب المختلفة حسب طبيعة الحاجات والأغراض ، ولأن « عددًا من الألفاظ الموجودة في كل لغة لا يمكن أن يفهم مدلولها في ذاتها بل لابد من الرجوع لفهمها إلى أدلة أخرى غير لفظية »¹ تعين في فهمها وتحديد مدلولها ، وإضافة إلى مكونات الخطاب المذكورة « يذكر النحاة دلالة الحال ثم استدلال المخاطب مما يسمعه وكل ما هو في ذاكرته من المعلومات والتجارب ويشير سبويه إليه كثيرا وهو عنده "علم المخاطب" »² ، أو ما سمي حديثا بالمعرفة المشتركة التي تؤهله لفهم كلام المخاطب .

فالتخاطب إذن استعمال فعلي للغة يفرض على المتكلم شروطا معينة لإنتاج خطابه كمصاحبة منطوق كلامه بدلائل غير لفظية لا وجود لها إلا في الاستعمال الفعلي للغة ، ولها من الأهمية ما يجعلها موضوع بحث عند النحاة الأولين ، الذين بحثوا في ظواهر التخاطب انطلاقا من دراسة اللغة مشتغلين على الكلام كفعل لا كنظام ، واهتمامهم بما يصاحب الكلام من دلائل غير لفظية لا تقل أهمية من اهتمامهم باللغة كوضع من أوضاع المجتمع . فقد درسوا اللغة كبنية يحكمها نظام من الأدلة تدل على معان ، وهي بذلك تختلف عن استعمالها الفعلي ككلام باعتباره خطاب ، فجمعوا في توجههم اللغوي بين دراسة اللغة كبنية لها مدلول ، ومن حيث هي وحدة خطابية لها لفظ منطوق ومعنى مقصود ، مانعين الخلط بينهما مفرقين بين وصف اللغة وتقنينها كبنية وبين وصف استعمالها وضبط قوانينها³ .

ويتأتى التخاطب من الطبيعة الاجتماعية للبشر وحاجة الإنسان لأخيه الإنسان ، يقول الجاحظ: «... أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم... ومحيطه بجماعتهم... وحاجتهم إلى ما غاب عنهم... وإلى التعاون في ذلك... والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأموالهم التزام عنهم... ولم يخلق الله أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه »⁴ ، ولما خص المولى عز وجل الإنسان بالتصويت اللغوي سخر له اللغة كأداة للتعبير والتبليغ والإخبار ، يقول الزجاجي: « إن الله عز وجل إنما جعل الكلام ليعبر به العباد عما هجس في نفوسهم وخاطب به بعضهم بما في ضمائرهم مما لا يوقف عليه بإشارة ولا إيهاء ولا رمز »⁵ ،

1- الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، عبد الرحمن حاج صالح ، مرجع سابق ، ص 45.

2- المرجع نفسه ، ص 44- 45.

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص 45..

4- كتاب الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تح: عبد السلام هارون ، ج1 ، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده ، مصر ،

ط2 ، 1965 ، ص 42- 43.

5- الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي ، تح: مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1979 ، ص 42.

فيستعمل الأقوام على اختلافهم اللغة للتعبير عما في صدورهم ، « لأن الكلام إذا كان مقصودا به الإبانة عن الضمائر ومحتاجا به للخطاب والمحاورات فكل فريق يخاطب بلغته كخطاب من تأتبه في لغته »¹ فيتقيدون في غالب الأحيان باللسان الذي يفهمونه .

والطبيعة الاجتماعية للبشر جعلتهم يتعايشون ويتفاعلون مع بعضهم ببيان اللغة ف « الإنسان هو المتمدن بالطبع... لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملته مقاصده ،... فإن كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة إليها ، وإن كانت غائبة فلا بد له من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه فوضعوا الكلام دلالة ، ووجدوا اللسان... حرف وصوت »² على اختلاف استعمالاته وسيلة تخاطب الأقوام وأداة تعبيرهم عن أغراضهم .

وقبل الدخول في أي عملية تخاطبية ينبغي للمتكلم أن يعطف على مخاطبه ، وتوجيهه إليه ، وذلك بمراعاة استعداد المخاطب لأن يكون مخاطبا ورغبته في سماعه ومحاورته ، وعادة ما يكون الشروع في الكلام بأسلوب النداء ، أو ما يسميه النحاة بالأصوات أي ما لم يصغ على صيغة كلمة متمكنة وهي حروف النداء ، أو ما أسموه بأدوات الاستفتاح والتنبيه كالأ وأما... الخ³ .

هذا ويجب التنويه إلى ضرورة اشتراك المتخاطبين في وضع اللغة المتخاطب بها ، ذلك أن معرفة المواضع اللغوية تعد من أهم عوامل نجاح عملية التخاطب ، ولولاها لتعذر الفهم بينهما ، ولهذا لا بد أن تكون هذه المعرفة المشتركة سابقة على كل تخاطب لأنها شرط حصوله⁴ ، فلا يعقل أن ينجح تخاطب عربي مع أجنبي بلغة يتقنها أحدهما دون الآخر ، ويمكن توضيح دائرة التخاطب وفق منظور العرب القدامى في الخطاطة التالية⁵:

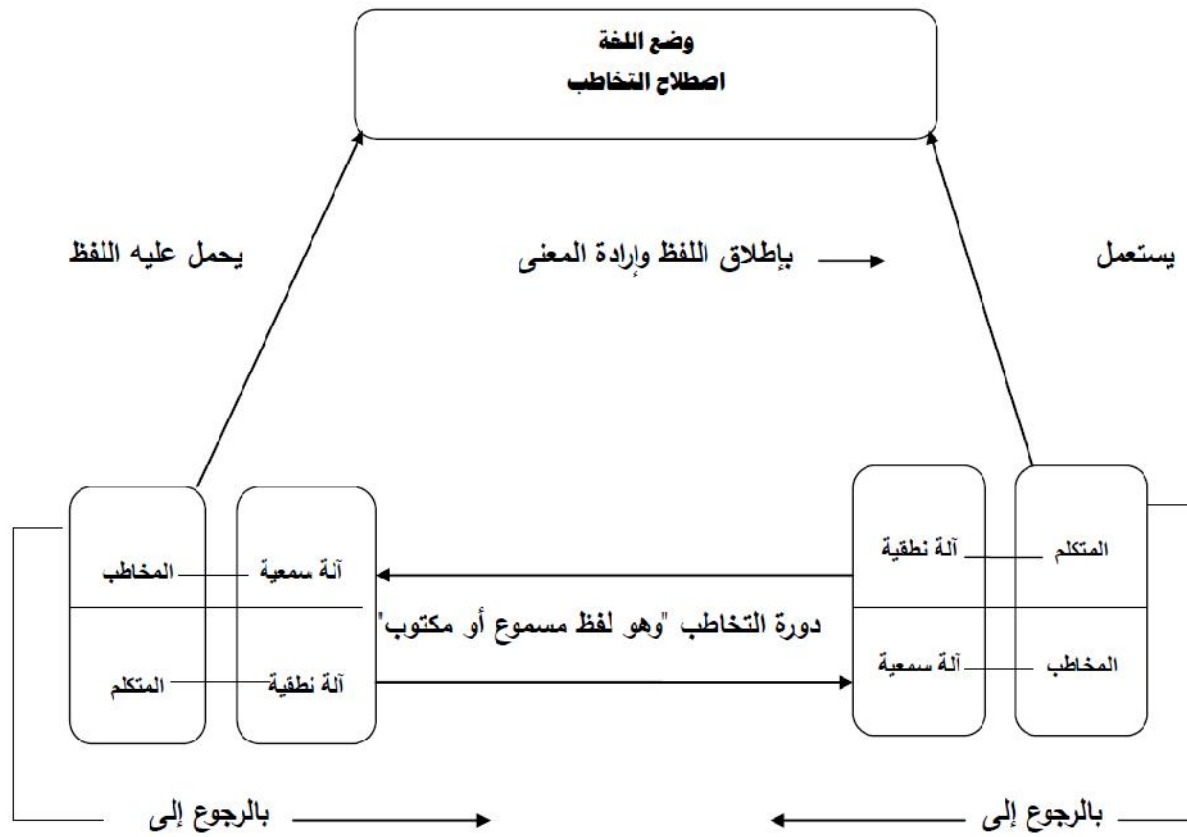
1- أبو القاسم الزجاجي ، الإيضاح في علل النحو ، مرجع سابق ، ص 45 .

2- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، شر: محمد أحمد جاد المولى بك ، ج 1 ، دار التراث ، القاهرة ، مصر ، ط 3 ، دت ، ص 36 .

3- ينظر: عبد الرحمن حاج صالح ، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، مرجع سابق ، ص 51 .

4- ينظر: المرجع نفسه ، ص 52 .

5- ينظر المرجع نفسه ، ص 54 .



خطاطة تبين دورة التخاطب عند العلماء العرب

بهذا الطرح اللغوي وقف اللغويون العرب على البعد التداولي للغة ، فدرسوها باعتبارها أداة إعلام وتواصل وتعبير ، وعالجوها حال استعمالها فحددوا خصائصها وضبطوا نظامها - الذي يعين المتكلم في إنتاج خطابه ، ومن سياقات تراكيبها وقفوا على مقتضيات القول وما يفرضه حال السامع من الكلام ، وهو ما يجعلنا نقول تأكيداً أن المنهج الوظيفي ضارب في تراثنا اللغوي منذ بدايات نشأته ، لم يغفلوا عنه ولم يتناسوه ، لقد درسوا اللغة دراسة شمولية من باب أنها مواضعة مشتركة بين متكلم راغب وسامع مقصود ، فكانت عباراتها موضوع نحوهم وبنية مفرداتها ميزان صرفهم ، وجمع مفرداتها ثروة معجمهم ، متخيرين اللفظ فصاحة فيزينون به اللسان بُلغَةً ، وبذائقتهم الفنية تتابع الحركات والسكنات في إيقاع شعرهم ، ووجه بلاغتهم أنهم يوازنون المعاني حسب أقدار السامعين ، فيلجئون إلى ما هو إقناعي تارة وإلى ما هو تأثيري تارة أخرى ، وفقاً لمقتضيات القول وما يفرضه المقام .

إذا فالعلوم الإنسانية على اختلاف تخصصاتها ، فلسفة ، علم الاتصال ، علم الاجتماع ، علم النفس ، تاريخ ، لسانيات ، .. لم تعد بحاجة إلى البحث في نقاط اختلافها بقدر ما هي بحاجة إلى تشخيص جوانب التداخل والتشابه التي تتقاطع فيها ، حيث « قاد هذا التداخل والتكامل إلى ظهور اتجاه وظيفي تواصلية يرى في

اللغة والعمل الإبداعي ظاهرة اجتماعية ، يجب أن تدرس على هذا الأساس ، ومنذ نهايات القرن العشرين بدأ الاهتمام بالاتجاه الوظيفي التواصلي يتزايد يوماً بعد يوم ، ويرسم حدوداً واضحة على خريطة البحث الإنساني المعاصر»¹. وشاع هذا التوجه المعرفي وإن ظهر حديثاً «بدعم وتأييد من التداولية بما بثته من مفاهيم ورؤى اشتد بها عضد التيار الوظيفي الجديد»². ويقوم هذا الاتجاه على «معرفة المرتكزات التي تقوم عليها فثمة نظرية التواصل ، وأفعال الكلام ، والتلفظ ، والكلام الضمني ، والحجاج بكل ما تتضمنه هذه المرتكزات من تفضيلات وأبعاد وضوابط ، ناهيك عن دور السياق»³ وملايساته .

ولعلنا لو تصفحن مؤلفات علمائنا العرب القدامى باحثين عن ملامح التفكير التداولي عندهم ، لوجدناها غزيرة بالمفاهيم والآراء التي ترتبط «بالتواصل اللغوي من الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب ، وبيان دور المتكلم في صياغة الخطاب وإنتاجه ، والإلمام بكل العناصر الفاعلة في الإبلاغ ، ومعيار الصدق والكذب في الأساليب وفي الشعر ، والمطابقة مع الواقع وعدمه»⁴ وأغلب هذه المفاهيم وغيرها تركز عليها التداولية في أبحاثها ، فنجد في تراثنا القديم خاصة البلاغي منه إيماءات وملامح على ذلك نحو: «

- أن التكلم يتم لغايات وأهداف أو إشباع حاجات أو الحصول على فائدة .

- تستعمل اللغة للأغراض والمآرب ذاتها .

- يضمني المتحاورون على الملفوظات دلالات أخرى غير ظاهرة»⁵ .

وفي هذا إشارة إلى أركان التداولية المتمثلة في وجود طرفين متكلم و سامع يتواصلان فيما بينهما تلفظاً عبر خطاب معين قصد تحقيق غايات وأغراض معينة ، وبالتالي يمكن القول أن البلاغة هي «أحسن ما يتناول

1- التداولية والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العباسي ، عبد الله بيرم ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، ط1 ، 2013-2014 ، ص11.

2- التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، مرجع سابق ، ص14.

3- التداولية والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العباسي ، عبد الله بيرم ، مرجع سابق ، ص09.

4- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، خليفة بوجادي ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، سطيف الجزائر ، ط2 ، 2008 ، ص113.

5- المرجع نفسه ، ص114.

إبراز العلاقات التداولية في اللغة ، لأنها تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته اللفظية والتركيبية والدلالية والعلاقات القائمة بينها»¹ ، وتقف على سياقاته المختلفة .

وفي ضوء هذا المعطى يتبين لنا « أن موضوع علم البلاغة ، هو دراسة العلاقة بين تراكيب الكلام ، ومقتضى الحال التي تقتضي رصد حال المرسل ، والمتلقي ، وما بينهما من علاقة اجتماعية ، ورصد ظروف الخطاب ، ومقاماته المختلفة ، وهنا يتلاقى المحور التداولي مع الدرس البلاغي في تشكيل وتحليل الخطاب اللغوي ، فالتداولية... علم يعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلية المرتبط به... مما يطلق عليه سياق النص»² ، وهنا يظهر جليا التداخل المفاهيمي بين البلاغة والتداولية خاصة وأن دراسة اللغة في الاستعمال عند التداوليين ، ما هو إلا مطابقة القول لمقتضى الحال أو ما عرف مؤخرا لكل مقام مقال عند البلاغيين .

كما أنه «إذا كانت التداولية في أوجز تعريفاتها هي دراسة مناحي الكلام ، فإن البلاغة هي المعرفة باللغة أثناء استعمالها»³ ، الأمر الذي يجعلنا نقول أن البلاغة في مجملها تداولية أو هي التداولية عينها ، وفي هذا « يرى ليتش Leitch أن البلاغة تداولية في صميمها ، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع»⁴ . والأمر سيان عند محمد العمري وهو أحد البلاغيين العرب المحدثين حيث يقول: «وحدثنا، يعاد الاعتبار للبلاغة العربية في الدراسات السيميائية تحت عنوان جديد التداولية»⁵ .

ويحضرنا قول محمد عابد الجابري يلخص لنا مسار البلاغة العربية يجسد في محتواه ما نادى به الأبحاث التداولية قائلا: «يمكن القول بصورة إجمالية ، إن الأبحاث البيانية قد اتسمت منذ قيامها إلى قسمين: قسم يعتني بقوانين تفسير الخطاب ، وقسم يعتني بشروط إنتاج الخطاب»⁶ ، وهو إيعاز من البلاغة

1- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، خليفة بوجادي ، ص 126.

2 - النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، عالم الكتب الحديث ، إربد الأردن ، ط 1 ، 2015 ، ص 35.

3- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، خليفة بوجادي ، مرجع سابق ، ص 126.

4 - بلاغة الخطاب وعلم النص ، الشركة المصرية العالمية ، لونغمان ، صلاح فضل ، ط 1 ، 1996 ، ص 124.

5- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، افريقيا الشرق ، محمد العمري ، المغرب ، 1999 ص 214.

6 - بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة ، بيروت لبنان ، ط 6 ، أكتوبر 2000 ، ص 20. نقلا عن: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، خليفة بوجادي ، مرجع سابق ، ص 128.

العربية في أبحاثها لمطابقة الكلام لمقتضى الحال بالوقوف على الشروط الواجب توفرها في المتكلم أثناء استعماله اللغة ، وفي نفس الوقت تدرس الخطاب كرسالة قصدية موجهة لمتلقي معين ، يتوجب عليه المشاركة في العملية التواصلية مع المبدع مستندا إلى آليات التفسير ، وبذلك تتحقق الوظيفة الأساس في بعدها التداولي للبلاغة العربية والمتمثلة في الفهم والإفهام .

في سياق ما ورد من معطيات مفاهيمية ، خاصة إذا قلنا أن البلاغة تداولية والتداولية بلاغة - يتجلى لنا واضحا أن الخطاب إنتاجا وتفسيرا هو محرك البحث في الدراسات البلاغية والتداولية حديثا ، لكن إذا رجعنا إلى المسار التاريخي للبلاغة على مر المعرفة الإنسانية نجد جملة من الانتقادات التي واجهتها وسعت إلى تقزيمها نحو أفلاطون الذي حمل البلاغة التعليمية جانبا من انحطاط القيم الاجتماعية في مجتمع أثينا ، والتي كانت سببا في بروز السفسطة ، إلا أن هذه الانتقادات ما فتئت أن واجهت تيارا عكسيا يجابهها ويعيد للبلاغة حياتها ، نحو ما فعل أرسطو ، وهو الحال نفسه بالنسبة للبلاغة العربية التي وصفت بالمعيارية ، فقدم ثلة من البلاغيين المحدثين بحوثا علمية قيمة دفاعا عن البلاغة مصححين مسارها الميداني والإجرائي ، على غرار كتاب "دفاع عن البلاغة" للزيات ، و"فن القول" لأمين الخولي ، و"الأسلوب" ، وهذا الاتجاه البلاغي الحديث وجد أرضا خصبة عند الغربيين¹ .

إذا اليوم أصبحت البلاغة نشاطا لغويا يعتمد على قوانين التخاطب ، وهي بذلك تختلف في إجراءاتها العملية عن معطيات البلاغة القديمة ، وهذا التوجه الجديد جعل الدرس البلاغي من أولى البحوث الإنسانية اهتماما « إذ منذ سنوات قليلة لم يكن أحد يتصور أن البلاغة ستعود لتحل المقام الأول ، أو لتأخذ مكانها مرة أخرى في الصف الأول من العلوم الإنسانية»² ، عند العرب والغرب على حد سواء .

1- ينظر: توظيف أدوات البلاغة في النص المعاصر ، إبراهيم بن منصور التركي ، النادي الأدبي بالرياض ، ط1 ، 2011 ، ص10-11 .

2- بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان ، ط1 ، 1996 ، ص232 . / نقلا عن: المرجع

نفسه ، ص11 .

ثالثا : اتجاهات الدرس البلاغي الحديث

وبعد هذه الضجة العلمية التي أحدثتها البلاغة حديثا ظهرت اتجاهات عدة في الدراسات البلاغية انطلاقا من نظرتها للخطاب وآليات تحليله ، وأشهرها اتجاهات ثلاثة هي: الاتجاه الإقناعي ، الاتجاه الأدبي الشعري ، والاتجاه النصي ، وفي الآتي يأتي بيانها.

1 - الاتجاه الإقناعي

منطلق هذا الاتجاه أن البلاغة ذات صبغة استدلالية حجاجية ، تعتمد في إجراءاتها على أساليب الإقناع والبرهان في دراسة الخطاب ، هذه النزعة وإن كانت غربية في نشأتها إلا أنه « قد حاول بعض الباحثين العرب تتبع الجانب الإقناعي في البلاغة العربية ، وسعى إلى الكشف عن تقاطعاته مع البلاغة الغربية ، وعرض بعض آلياته وإجراءاته الحديثة المتسقة مع بعض إجراءات البلاغة الغربية»¹ ، بمعنى إن الجانب الإقناعي الذي تقوم عليه الدراسات البلاغية الغربية حديثا ما هو إلا غاية الفهم والإفهام الذي دعت له البلاغة العربية قديما ، وكلاهما لا يتحقق مسعاهما إلا بالتأثير العقلي والمنطقي والوجداني أحيانا ، و«يمكن أن نصوغ تصور البلاغيين العرب للبلاغة ، فنقول: البلاغة هي الإبلاغ المفهم المؤثر إفهاما وتأثيرا من شأنها تحقيق الإقناع والاستمالة ، وهو تصور يتسق أكثر ما يتسق وفن الخطابة ، وما دام الدرس البلاغي قد اتخذ الاستمالة والإقناع هدفا لفن البلاغة ، فإنه يتفق من هذه الزاوية وفيها مع الدرس الغربي الذي اتخذ الاستمالة والإقناع أيضا هدفا لفن الخطابة قديما وحديثا»² ، ففن القول ما هو إلا بلاغة إقناعية تتواصل بتقنياتها تأثيرا لتحقيق غاية الفهم.

2 - الاتجاه الأدبي الشعري

من العنوان تتضح لنا نزعة هذا الاتجاه ، فهو بلاغة تدرس فنون التعبير الأدبية شعرا ونثرا لإظهار جمالياتها الفنية ، وفي تحليلها تركز على مستويات تشكيل الخطاب باعتباره بنية لغوية تحتكم إلى مجموعة من الخصائص اللغوية - تركيبية ودلالية - التي قد تحدث تغيرات على مستوى الخطاب الأدبي ، فتدرس العلاقة بينها ومدى تأثيرها في توجيه المعنى ، « وهذا الاتجاه يسير في اتجاه معاكس للاتجاه الأول ، حيث يجر الاتجاه

1- توظيف أدوات البلاغة في النص المعاصر ، إبراهيم بن منصور التركي ، مرجع سابق ، ص13.

2- البلاغة والاتصال ، جميل عبد المجيد ، دار غريب ، القاهرة ، ص 129 - 130 ، نقلا عن: توظيف أدوات البلاغة في النص

المعاصر ، إبراهيم بن منصور التركي ، مرجع سابق ، ص13.

الأول البلاغة نحو المنطق والبرهان ، في حين يجرها الاتجاه الثاني نحو الشعر والأدب ، وهذا الاختلاف بين الاتجاهين ليس أمرا جديدا ، بل هو أمر تجاذب البلاغة منذ القديم¹ ، وفعلا العقل والوجدان لا يتقابلان فهما خطان متوازيان ، لكل منهما خصائصه ومميزاته ، فالعقل استدلالي برهاني والوجدان عاطفي إحساسي ، ولا يتماسان إلا في غاية التأثير والاستمالة ، وهذا التجاذب البيني بينهما قديم قدم البحث في البلاغة ، حيث « حفل تاريخها الطويل بالصراع المحتد باعتبارها فنا للتعبير أو فنا للإقناع ، تجاذباها بشكل مستمر وحاد ، فحين يتسع مجال النقاش الديمقراطي تهيمن كفن للإقناع... وحين يتقلص مجال الحريات ترتكن في الأديرة والمعابد للتعبير والتزيين... غير أن هدفها الأخير يبقى هو الاتجاه نحو الآخر من أجل إشراكه والعمل على انخراطه في قضية ما أو طرح معين ، على أن الفرق سيظل أساسا في طريقة إشراك الآخر ، إما عن طريق الإغواء "فن التعبير" ، أو عن طريق الحجاج "فن الإقناع"² ، فهذه النزعة البلاغية تعتمد على أدبية النصوص أو ما يمكنه أن يجعل من أي كلام تعبير ي يتميز بالأدبية.

3- الاتجاه النصي

هذا اتجاه ثالث في الدراسات البلاغية الحديثة يحاول الجمع بين إجراءات التحليل المعتمدة في الاتجاهين السابقين ، فهو ينظر للخطاب مهما كان نوعه عاديا في التواصل اليومي أو أدبيا إبداعيا ، متجاوزا شعرية الخطاب أو تداوليته ، فهو منظور بلاغي يجمع بين التخيل والإقناع ، و« يحاول دراسة الخطاب عموما ، متجاوزا إشكالية الفصل بين الشعري والإقناعي ، وهذا الاتجاه يبشر ببلاغة عامة ينصهر فيها المكون الشعري الإبداعي والخطابي التداولي معا ، بلاغة تؤمن بتداخل أجناس القول وأشكال التواصل»³ ، مهما كان نوعها سياسيا اجتماعيا دينيا... ، لأن غايتها المقصدية لا تكون إلا باستمالة عقل المخاطب بتقنيات الاستدلال فكريا أو بإثارة انفعاله وجدانيا بتحقيق المتعة الجمالية.

بلاغة الخطاب في ضوء ما سبق تتحدد بناء على نمطية قصديته ، وهي قسمين فكرية وعاطفية ، وهما يتدخلان غالبا في توجيه الخطاب ، ويعتبران أهم المقاصد التداولية لأي خطاب بلاغي ، فالمقصد الفكري يجابه العقل ويرسي دعائمه على وسائل الاستدلال والبرهان ، ويكون للإخبار والتوجيه والتعليم عادة ، أما

1- البلاغة والاتصال ، جميل عبد المجيد ، مرجع سابق ، ص 14.

2 - عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، عبد السلام عشير ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، دط ، 2006 ، ص 19.

3 - توظيف أدوات البلاغة في النص المعاصر ، إبراهيم بن منصور التركي ، مرجع سابق ، ص 14-15.

المقصد العاطفي فيجابه إحساس وانفعالات السامع باستعمال أدوات البلاغة التي تؤدي إلى إثارته وسلب له ولفت انتباهه ، ونتيجة لذلك التأثير تتحقق الغاية القصدية للخطاب ، فيقوم السامع بسلوك معين ، وقد تكون القصدية غير غائية وفي هذه الحالة تكون فنية لأجل المتعة الجمالية¹ .

إن التقاطع الفكري بين البلاغة والتداولية جعل النصوص على اختلاف أنواعها قابلة للتحليل وفق إجراءات عملية تسهم بشكل كبير في تأويلها ، فالبلاغة هي فن القول ، والتفنن في أي شيء لا يتم إلا لغاية التأثير ، وبالتالي فإن فن القول ما هو إلا استحضار لأدوات الاستدلال وصناعة اللغة لتحقيق بلاغته ، وتأسيسا على ذلك فإن « تصورا للبلاغة من هذا القبيل يتضمن أمرين: أولهما ، ضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحا لا لدراسة النصوص الأدبية وحدها ، بل لدراسة غيرها من النصوص على اختلافها ، وثانيهما الفكرة المتضمنة في أن كل نص هو بشكل ما بلاغة ، أي أنه يمتلك وظيفة تأثيرية ، وبهذا الاعتبار فالبلاغة تمثل منهجا للفهم النصي مرجعه التأثير² » ، وخاصة التأثير والاستمالة قضية جوهرية في أي بلاغة لأنها شديدة الصلة بالسامع متلقي الخطاب ، فصحيح أن المتكلم هو منتج الخطاب ويبذل جهدا كبيرا في عملية إنتاجه ، وعليه تتحدد بلاغة الكلام ، غير أن كلامه لا طائل وراءه ولا تتحقق بلاغته التامة إذا لم يؤثر في مخاطبه ، لذلك عني السامع باهتمام كبير في الدراسات البلاغية ، ولأدل على ذلك البلاغة العربية الذي جعلته في أولويات اهتمامها عبر تاريخها الطويل .

1- ينظر: البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النصوص ، هنريش بليث ، تر: محمد العمري ، افريقيا الشرق ، المغرب ،

المغرب ، 1999 ، ص 25-26 .

2- المرجع نفسه ، ص 24 .

النظرية الحجاجية

- .. مفاهيم ورؤى
- الحجاج في الفكر البلاغي القديم
- الحجاج في الفكر البلاغي الحديث

المبحث الأول: الحجاج.. مفاهيمه ورؤى

بعد الحجاج من قضايا البحث التداولي الأكثر اهتماما في الدراسات اللغوية الحديثة، فهو ممارسة اجتماعية نلمحها في التواصل اللغوي بين الأفراد، « فحيث يكون التواصل يكون الحجاج »¹، فهو ظاهرة إقناعية يوظفها المتكلم للتأثير في السامع، فإذا كانت الوظيفة التواصلية هي الوظيفة الأساسية للغة فإن الإقناع هو غاية هاته العملية التواصلية؛ فمراد المتكلم هو إقناع مخاطبه بفكرة أو مشاركته رأيا أو تغيير سلوكه أو القيام بفعل ما، ولأنه « لا خطاب بدون وظيفة »²، فنجدده يسعى من خطابه إلى تغيير سلوك مخاطبه بتحقيق وظيفة ما.

فسياق التواصل يجعل المتخاطبين بحاجة إلى جملة من الآليات والمنطقية والبلاغية كعمل استدلالى لتحقيق وظيفة التأثير في بعضها بعض، ولأنه « لا وظيفة بدون حجاج »³، نلمح في أي خطاب تواصلى الحجاج ك « ممارسة لفظية اجتماعية عقلية تهدف إلى تقديم نقد معقول حول مقبولية الموقف، بصياغة مجموعة تراكمية من القضايا التي تبرر الدعوى المعبر عنها في الموقف أو تدحضها »⁴، وأي كان الأمر فهو عمل استدلالى لتحقيق غاية الإقناع.

إن تواصل كهذا « لا يتم من أجل لا شيء، بل يأتي لربط علاقات مع الغير بهدف التأثير فيه، أو على الأقل الاتفاق معه، وذلك عن طريق تحريك اعتقاد، أو تبرير قرار، أو الدفع إلى عمل »⁵ للقيام به، إنه تواصل حجاجي يجعل السامع يدعن للمتكلم ويتأثر بخطابه، فيأخذ برأيه وبالتالي يغير اعتقاده.

1- الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2010، ص12.

2- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية واللسانية، محمد طروس، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1،

2005، ص05.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي الشهري، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في

البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ج1، ص79.

5- عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، مرجع سابق، ص125.

أولاً: مفهوم الحجاج

1: الحجاج لغة

حتى يتضح مفهوم الحجاج كمصطلح علمي ، نعرض على معناه المعجمي الذي رصدته معاجم اللغة ، فابن منظور يرى أن « الحجة هي البرهان وقيل الحجة هي ما دافع به الخصم ، وقال الأزهري الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ، وحاجه مُحَاجَّةٌ وحجاجا نازعه الحجة ، وهو رجل محجاج أي جدل والتجاج التخاصم / وجمع الحجة: حجج وحجاج ، وحجه يحجه حجاً غلبه حجته: وفي الحديث فحج آدم موسى أي غلبه بالحجة »¹ ، وغير بعيد عن التخاصم والغلبة بالكلام الذي يشير له معناه اللغوي في اللسان ، يرصد الجوهري في الصحاح نفس المعنى للحجاج فيقول: « ... والحجة البرهان ، تقول حاجه فحجه أي: غلبه بالحجة. وفي المثل: "لَجَّ فَحَجَّ". وهو رجل مُحَجَّجٌ ، أي جدل. والتجاج: التخاصم... والمحجة جادة الطريق »² أي الرأي الصواب الواجب إتباعه ، وفي نفس المعطى يذهب الفيروز أبادي في القاموس المحيط فيقول: « الحجة بالضم: البرهان والمحجاج: الجدل ، وأحججته بعثته ليحجج »³ ، وبعد اطلاعنا على المعاجم اللغوية الحديثة وجدناها لم تخرج معاني حج عما أورده علماءنا القدامى ، نحو ما وقفنا عليه في المنجد « حج - حجاً: غلبه بالحجة. حجَّ حجاجاً ومُحَاجَّةً: خاصمه فحجَّه. تَحَاجَّ تَحَاجَّاً: تخاصم »⁴.

2- الحجاج في الاصطلاح

من خلال المعنى اللغوي للحجاج يتبين لنا أنه لا تحاجج بين طرفي التخاطب إلا بتوفر سياق تواصلية يستدعي الجدل واختلاف الرؤيا في الطرح ، ومن ثم نعرف الحجاج بـ « أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها »⁵ ، وبناء على ذلك فإن أهم ما يميز دلالة "الحجاج" هو مبدأ الاختلاف الذي يطبع الحوار بين المرسل والمتلقي ، ومحاوله كل منهما إقناع الآخر برأيه أو وجهة نظره ،

1- لسان العرب ، ابن منظور ، باب الحاء ، ج9 ، مرجع سابق ، ص779.

2- تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تح: أحمد عبد الغفار عطار ، ج1 ، باب الجيم فصل الحاء ، دار

العالم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1979 ، ص304.

3- القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، تح: محمد نعيم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط8 ، 2015 ، مادة "ح ج ج" ،

ص183.

4- المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، لويس معلوف ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، ط19 ، ص118.

5- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1998 ، ص226.

ص226.

فيقدم ما استطاع من حجج ، فيكون بذلك قد اختار طريقة معينة لاستمالته والتأثير فيه ، ومن ثم إقناعه بمقصد محدد ، فمقصود الخطاب هو غاية المتكلم المرجوة ، وهو «إدعاء الناطق الصريح لما يقول عن نفسه ، والاستعداد التام لإقامة الدليل عليه عند الضرورة»¹ ، ولأن خطابه حجاجي الطرح فإنه يكون كالمخضم في تواصله مع مخاطبه ، لذلك قد تتبادر من هذا الأخير ردود أفعال مباشرة مطاوعة لمراد المتكلم أو وردودا غير مباشرة لا تتماشى ومقصوده ، حيث يكون له حق «... الاعتراض ، فيقتضي أن يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدعيه»² ليصدقه ويأخذ برأيه .

لكن « حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير ، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض ، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو "العلاقة الاستدلالية" ، وليست العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج... فإذا تضمن الخطاب علاقة تخاطبية ، فيجب إذن ردها إلى العلاقة الاستدلالية ، فالتوجه إلى الغير لازم من لوازم الادعاء ، فلا يدعي إلا من يتوجه كما أن الفهم لازم من لوازم الاعتراض ، فلا يعترض إلا من فهم»³ مقصود الخطاب .

فالخطاب الحجاجي إذن فعالية تداولية جدلية يدعو لتغيير سلوك أو القيام بعمل ما ، ورغم « هذا لا تكون الصفة البرهانية في القول شرطا كافيا لتحصيل الاقتناع الذي يهدف إليه الحجاج ،... فليس كل ما يحصله النظر يتحول إلى عمل ، ولا هي - أي الصورة البرهانية - تشكل شرطا ضروريا لبلوغ الاقتناع»⁴ ، لذلك وجب على المتكلم مراعاة شروط إنتاج الخطاب أخذا بقوانين تفسيره ليؤثر في السامع ويقنعه ومن ثم تتحقق غاية الفهم والإفهام . ولا يتم ذلك إلا بنجاح عملية التأثير التي تستدعي بدورها مجموعة من الآليات اللغوية والبلاغية والإجراءات المقامية التي تسهم في عملية إنتاج الخطاب وقبوله .

1- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 225 .

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- المرجع نفسه ، 226 .

4- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 2 ، 2000 ،

بهذا « يصبح الحجاج - عمليا - بعدا من أبعاد الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة والمنطوقة »¹ لذلك لم يعد محصورا « في استعمالات خطابية ظرفية، بل صار ملازما لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كل خطاب حالٌ في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل»²، وهذا التوسع الدلالي جعل مفاهيمه منفتحة على عدة معارف تبعا لنوعية الخطاب ومرجعياته الفكرية، لذلك سنقف على تعاريفه التداولية من زوايا ثلاث؛ بلاغية، فلسفية منطقية، ولسانية، وهذا التنوع والاختلاف راجع لعوامل عدة نجملها في الآتي³:

- تعدد مظاهر الحجاج وتنوعها فهناك الحجاج الصريح والحجاج الضمني.

- تعدد استعمالات الحجاج وتباين مرجعياتها فتوجد الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة،

المنطق، التعليم، ...

- خضوع الحجاج في دلالاته لما يميز اللغة الطبيعية من ليونة تداولية وكذلك من تأويلات متجددة وطواعية استعمالية.

- للحجاج أبعاد الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة والمنطوقة.

وفي خضم هذه الدلالة العامة للحجاج سنخرج على تعاريفه انطلاقا من وظيفته الخطابية « من أجل بناء نموذج نظري قادر على وصف الآليات الحجاجية الميينة للخطاب كبناء مجرد وتفسيرها »⁴، بغية إتباع خطواتها الإجرائية في تحليل الخطابات.

فمن المنظور البلاغي يتجلى ملمح الحجاج من خلال الخطابة التي كانت موضوع الدرس البلاغي القديم، فوقف القدامى على « أنواع الخطابات وأنواع الحجج وأشكال الجمهور والطرق الاستدلالية،

1- الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري، الحبيب أعراب، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، مجموعة من المؤلفين، إشراف حافظ إسمايل علوي، دار الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ج3، ص31.

2- الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري، الحبيب أعراب، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، مجموعة من المؤلفين، إشراف حافظ إسمايل علوي، مرجع سابق، ص33.

3- المرجع نفسه، ص30.

4- تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الإقناع الأربعة النووية أنموذجا، هشام فروم، رسالة ماجستير،

إشراف لخضر بلخير، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة، 2008/2009، ص49.

وحددوا للخطيب نوع السلوك الخطابي الذي ينبغي أن يتبعه مجازاة لطبيعة الحضور»¹، فمثلاً أكدنا سابقاً أن البلاغة هي فن القول، يمكن أن نفرّد للخطابة فناً، فنقول أنها «فن الإقناع عن طريق الخطاب، والوظيفة الإقناعية هي وظيفتها الأساسية»²، ولكن لا سبيل لتحقيق هذه الوظيفة إلا باستعمال الحجاج «والبحث في كل حالة عن الوسائل الموحدة للإقناع»³ ويتم بموجبها التأثير.

هذا المفهوم البلاغي للحجاج القائم على أساليب التأثير والإقناع، كان موضوع البلاغة حديثاً ولكن باختلاف المصطلحات، فلم يعد شكل الخطاب من بناء وزخرف معياراً للبلاغة، بل أصبح مضمونه ومحتواه من أولويات اهتمام البلاغيين، ذلك أن البحث التداولي ينظر للخطاب على أنه استعمال فعلي للغة بين متخاطبين، له وظيفة بلاغية تكمن في السلوك الناتج عن التأثير بالقول بتغيير رأي المخاطب أو قيامه بعمل، وحتى تتحقق وظيفته يتوجب على المتكلم توظيف جملة من الآليات والأدوات البلاغية، فيكون في عملية حجاجية قائمة على قوة التأثير والإقناع، فأطلقوا على الحجاج مصطلح البلاغة الجديدة، وهو «جملة الأساليب التي تضطلع بوظيفة حمل المتلقي على الإقناع بما تعرضه عليه، أو الزيادة في حجم هذا الإقناع لغاية أساسية هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه للقيام بالعمل»⁴.

وبالمنظور الفلسفي فإن المفهوم الإجرائي للحجاج يتمثل في «عرض المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً قاصداً إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه اتجاه تلك القضية»⁵، بمعنى أنه «طريقة عرض الحجج وتقديمها»⁶ للمخاطب، وعادة ما يكون عرض هذه الحجج بأسلوب استدلالي منطقي لا تناقض العقل، من خلال المحاوراة الجدلية التي تكون على شاكلة تخاصم وتنازع يفرضها مقام التواصل بين المتخاطبين، ومن ثم فالحجاج «هو النزاع والخصومة

1- المرجع نفسه، ص 51.

2- تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الإقناع الأربعة النووية أنموذجاً، هشام فروم، رسالة ماجستير،

إشراف لخضر بلخير، ص 51.

3- مدخل إلى الخطابة، أوليفي روبول، المطابع الجامعية الفرنسية، 1994، ص 04.

4- مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة، برلمان وتيتيكا، المطابع الجامعية، ليون، فرنسا، ج 1، ص 92، نقلاً عن: الحجاج

في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري، عالم الكتب الحديث، ط 1، 2007، ص 21.

5- النص الحجاجي العربي، محمد العبد، مجلة جذور، ج 21، مج 09، سبتمبر 2005، ص 243.

6- في اللسانيات التداولية، خليفة بوجادي، مرجع سابق، ص 106.

بواسطة الأدلة والبراهين الكلامية والحجج العقلية»¹، وهذا التنازع والخصام تحتاج من أجل التأثير والاقناع لا من أجل الإكراه المؤدي للتناوب والتشاجر.

ومن الوجهة اللسانية فقد « ربط الاتجاه التداولي الحجاج بنظرية أفعال الكلام والاستلزام الحوارية ، فالنص الأدبي ليس مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأقوال والأحاديث ، بل خطاب يهدف إلى تغيير وضع المتلقي عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية ، وتغيير نظام معتقداته ، أو تغيير موقفه السلوكي من خلال ثنائية: افعّل ولا تفعل»² ، بمعنى أن اللسانيات التداولية ترى « أن الخطاب الحجاجي يخضع ظاهرياً وباطنيا لقواعد وشروط القول والتلقي ما يعني انتهاء القول أو النص الحجاجي إلى مجال التداوليات... ذلك أن الحجاج يعتبر ظاهرة متجسدة في الخطاب وبه يتحقق ، فهو متلبس بألبسة لسانية وأسلوبية على أساس أننا إذا أردنا رصد الصور الأسلوبية في الخطاب الحجاجي أو الصور البنائية الاستدلالية ، فإننا مبدئياً سنكون بصدد أفعال كلامية لها مرجعية مقالية ومقامية مشتركة بين المتكلم والمستمع»³ ، فالوظيفة الحجاجية نلمحها في آليات الاستدلال اللغوية والأسلوبية للخطاب ، وهذه الوظيفة تكمن في التأثير في سلوك المخاطب لتتحول في الأخير إلى أفعال كلامية يقوم بها نتيجة اقتناعه بخطاب المتكلم .

وجملة ما نخلص إليه أن دارسي الحجاج رصدوا مجموعة من المحددات للوقوف على مفهومه نحو:

- الحجاج خطاب إقناعي: ينطلق هذا المحدد من الوظيفة الحجاجية للخطاب وليس من شكله اللغوي أو محتواه الخطابي ، وهو حجاج هدفه التأثير في المتلقي ، غايته تدعيم موقفه أو تغيير رأيه ، أو تبني موقف جديد ، والمتلقي المستهدف من هذا الحجاج الإقناعي قد يكون شخصاً أو جمهوراً ، ويكون ضمن إطار تواصلية يتجاوز مستوى تبليغ فكرة أو إفهامها إلى مستوى التأثير والإقناع لتبني موقف أو القيام بعمل⁴ . الحجاج بعد جوهرية في اللغة ذاتها: ويقصد به أنه أينما يوجد خطاب العقل واللغة يوجد الحجاج ، فهو خاصية لغوية وعقلية يستعملها المتكلم لإقناع نفسه أو إقناع غيره⁵ .

1- البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني ، قدور عمران ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الأردن ، دط ، 2012 ، ص 24 .

2- نظريات الحجاج ، جميل حمداوي ، شبكة الألوكة ، دط ، دت ، ص 51-52 .

3- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله ، رضوان الرقيبي ، مجلة عالم الفكر ، عدد خاص بالحجاج ، مرجع سابق ،

ص 68-69 .

4- ينظر: الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية ، أمال يوسف المغامسي ، الدار المتوسطة للنشر ، ط1 ، 2016 ، ص 22 .

5- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

بهذين المحددين يكون بحث الحجاج في الدراسات البلاغية الحديثة يسير في اتجاهين اثنين « حجاج عادي عند البلاغيين الجدد، يستعمل آليات وتقنيات بلاغية ومنطقية من أجل الإقناع، وهذا الحجاج ارتبطت فيه البلاغة الجديدة بالحجاج ارتباطاً وثيقاً، وحجاج لغوي يعتمد على الروابط اللغوية في الإقناع والمحاكاة»¹، فالنوع الأول يتزعمه كل من بيرلمان وتيتيكا وهو بلاغة برهانية تهتم بدراسة تقنيات بناء الخطاب التي تجعل الأذهان تسلم بما قدم لها من أطروحات، وغايته زيادة إذعان العقول لدى السامعين للقيام بما طلب منهم أو الإمساك عنه².

أما النوع الثاني من الحجاج فينطلق رواده من التصور اللساني التداولي للحجاج، ويمثله كل من ديكر و أنسكومير وبلانتان، وجوهر الحجاج عندهم أن يقوم المتكلم بتقديم قول "ق1" يفضي إلى التسليم بقول آخر "ق2"، وسواء أكان "ق2" صريحاً أو ضمناً، فعملية قبول "ق2" على أنه نتيجة للحجة "ق1" تسمى عمل محاكاة³.

يقسم ديكر والحجاج إلى قسمين حجاج عادي وحجاج فني؛ فالحجاج العادي يقصد به الطريقة التي يعرض بها المتكلم حججه، فالسمة الحجاجية تظهر من خلال هذه الحجج المقدمة، وهي ما تجعل الخطاب ناجحاً وفعالاً ومؤثراً في السامع، وحسب ديكر وهذا النوع من الحجاج غير كاف، رغم أنه يراعي الحالة النفسية للسامع، لذلك أضافه بنوع آخر من الحجاج أسماه الحجاج الفني "الاصطلاحي"، وهو حجاج يضم مجموعة مخصوصة من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان، وتكمن الخاصية الأساسية لهذه العلاقات في كونها متدرجة وقابلة للقياس⁴.

ثانياً: المرادفات الدلالية للحجاج

إن قوام التواصل اللغوي بين البشر لا يستقيم إلا بفاعلية التأثير والإذعان التي تجعلهما يتفاعلا معاً إلى حد التزاوت، لكن قد يكون موضوع تحاورهما يشوبه اختلاف ينزع إلى التخاصم والتنازع، فيتحاجان في

1- الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية، أمال يوسف المغامسي، مرجع سابق، ص 23.

2- ينظر: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مسكيلباني للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 2011، ص 13.

3- ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، ط 2، 2007، ص 33.

4- ينظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنسر، سوريا، الإصدار الأول،

ما اختلفا حوله فيلجئان إلى أوجه الاستدلال المعروفة لطرح أفكارهما، ومن ثم تتعاضل مع الحجاج جملة من المصطلحات التي قد تدخل في مجاله المفهومي كالإقناع، والجدل، والمناظرة، والبرهان.

1- الحجاج والجدل

عند الحديث عن المعنى اللغوي للحجاج وجدنا بعض المعاني التي تشير إلى أن الحجاج ينطلق من الجدل أثناء الكلام، جاء في اللسان «... وهو رجل محجاج أي جدل والتجاج التخاصم...»¹، فنلاحظ أن التجاجج أساسه التنازع في فكرة أو رأي وهو ما يؤدي إلى الجدل ومقارعة الكلام بالكلام، ومن ميزات الجدل «اللد في الخصومة والقدرة عليها»²، فمناقشة كهذه منبوذة لأن نهايتها تناز و تنافر، وقد قيل «ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا»³، ذلك أنه يقوم على «مقابلة الحجة بالحجة»⁴ لحد التشاجر، فيأتي كل واحد من المتحاورين بحججه بنية الغلبة، وكلما اشتد الجدل بينهما اشتد معه الخصام، فهو تجادل «على الباطل وطلب المغالبة... لا لإظهار الحق»⁵، ومن ثم عد الجدل سبيل المتخاصمين من أجل الغلبة فقط، وليس لأجل الرشاد وسداد الأصلح من الرأي.

يتبدى لنا أن الجدل نوعان، محمود ومنبوذ، فالجدل المحمود ما كان لإحقاق الحق والجدل المذموم ما جاء لباطل، وبعد رجوعنا للقرآن الكريم كنص شرعي وقف على هذين المعنيين للجدل اتضح فيصل القول فيهما، وبرز الفرق الجوهرى بين ما تشير إليه حاج من معاني وما تشير إليه جدل، فعن الحجاج يقول تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾⁶، وعن تفسيرها يقول ابن عاشور: «معنى حاج خصم وهو وهو فعل جاء على زنة المفاعلة، ولا يعرف لحاج في الاستعمال فعل مجرد دال على وقوع الخصام، ولا تعرف المادة التي اشتق منها، ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب البرهان المصدق للدعوى، مع أن حاج لا

1- لسان العرب، ابن منظور، باب الحاء، ج9، مرجع سابق، ص779.

2- المرجع نفسه باب الحاء، ج8، مرجع سابق، ص571.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

5- المرجع نفسه، ج9، ص571.

6- سورة البقرة، الآية 258.

يستعمل غالبا إلا في المخاصمة ، وأن الأغلب أنه يفيد الخصام بباطل»¹ ، ونجده يردف لها معنى الجدل ولكن بفروقات دقيقة يفرضها السياق القرآني ، ففي تفسير الآية ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾² يقول: « والمجادلة مفاعلة من الجدل وهو القدرة على الخصام والحجة فيه ، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك ، ومنه سمي علم قواعد المناظرة والاحتجاج في الفقه بالجدل»³ ، فالحجاج عنده كما رأينا من قبل تعني المنازعة والتخاصم وعادة ما يؤسس على باطل ، أما الجدل تعني القدرة على التخاصم ومقارعة الخصم باستعمال مجموعة من الحجج ويقوم على الحق كما يقوم على الباطل .

وفي ذلك مايز ابن عاشور في موضع آخر بين الجدل المحمود والجدل المنبوذ مستدلا بالقرآن الكريم فيقول: «المجادلة: المخاصمة بالقول وإيراد الحجة عليه فتكون في الخير كقوله: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾⁴ ، وتكون في الشر كقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾⁵»⁶ ، بمعنى أن الجدل بالقول هو حجاج إذا قام على باطل وهو جدل إذا كان على حق .

وفي الثقافة اليونانية أكد أرسطو على ضرورة الجدل ، وجعله «مبحثا فكريا ، وسمة مميزة للفلاسفة والنخبة»⁷ ، وعن أهميته وحاجة المجتمع إليه جعله مثله مثل الخطابة قائلا: «إن الناس جميعا يشاركون بدرجات متفاوتة في كليهما ، لأنهم جميعا إلى حد ما يحاولون نقد قول ، أو تأييده ، والدفاع عن أنفسهم ، أو الشكوى من الآخرين»⁸ ، فهو قدرة لغوية وميزة بلاغية يقوم بها الفرد أثناء الكلام تعينه في تواصله مع الآخرين ، وبهذا المنظور الفلسفي يعد الجدل عند أرسطو «نمط حجاجي يدور على اختيار الأقاويل ، الأقاويل الخلافية بالخصوص ، وبالاختيار بقصد الجدلي إلى البحث في القول عما قد يسوغ نفيه ، وهو نفي

1- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية ، الدار الجماهيرية للنشر ، تونس ، ج3 ، ص31-32 .

2- سورة النساء ، الآية 107 .

3- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، ج5 ، مرجع سابق ، ص194 .

4- سورة هود ، الآية 74 .

5- سورة البقرة ، الآية 197 .

6- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، ج12 ، مرجع سابق ، ص60 .

7- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ،

ط1 ، 2008 ، ص42 .

8- الخطابة ، أرسطو طاليس ، ترجمة: إبراهيم سلامة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط2 ، 1953 ، ص22-23 .

تختلف درجة صعوبته باختلاف أنواع القضايا موضوع الدرس»¹ ، ولأن أغلب القضايا الجدلية تكون خلافية تحتاج إلى دليل يجابه العقل والمنطق ، يأتي الحجاج الفلسفي كفعالية فكرية تبين الحقيقة .

فالحجاج الفلسفي ما هو إلا جدل القول بين المتخاطبين ، جدل خال من التخيل والعاطفة ، ومن ثم فهو « حجاج الدليل والبرهان لا التعليل ، لأن الفلسفة خطاب يسعى لإرساء الحقيقة ، وهذا الهدف الممنوع يجعل هذا الحجاج مفتقرا إلى المظاهر الإمتاعية العديدة التي نجدها في نظيره الفني الأدبي ، وارتباط هذا الحجاج بالبرهان نابع من طبيعة الاستدلال البرهاني ذاته لأن البرهان إما أن يكون صحيحا وإما أن يكون خاطئا»² ، غير أن الحجاج غايته تمتد لتشمل مدى التأثير في الآخر وتقبله الرأي .

وفي دراسة قام بها الباحث عبد الله صولة تتبع فيها مفاهيم الحجاج عند العلماء العرب القدماء خلص إلى أنهم كانوا يستعملون الحجاج والجدل كمصطلحين مترادفين ، على نحو ما فعل الباجي في كتابه "المنهاج في ترتيب الحجاج" ، فالعنوان يوحي أن محتوى الكتاب سيكون خالص لموضوع الحجاج إلا أن في مقدمة الكتاب يشير الباجي أنه كتاب في الجدل ، فيقول: «... أما بعد فإني لما رأيت بعض أهل عصرنا عن سبيل المناظرة ناكبين وعن سنن المجادلة عادلين...أزمعت على أن أجمع كتابا في الجدل»³ ، وهنا إشارة صريحة منه على ترادف المصطلحين ، ولأدل على ذلك تعريفه للجدل بقوله « تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه»⁴ ، وهذا المفهوم في عمومته يحمل دلالة الإقناع التي تعد غاية الحجاج ، وبالتالي أصبح يدور في فلكه ، باعتباره فعالية تواصلية بين المتخاطبين لإقناع بعضها بعضا لاتباع رأي أو تغيير سلوك ، أو القيام بعمل ما .

والحال نفسه نجده في الدراسات القرآنية حيث تطرقت لموضوع جدل القرآن كعلم من علومه ، فألفت فيه كتبا عدة منها "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي (ت911هـ) و"البرهان في علوم القرآن" للزرکشي (ت794هـ) ، وهما وإن أفردا في كتابيهما فصلا كاملا للجدل إلا أنها يستبدلان لفظة الجدل بلفظة الحجاج ومشتقاتها مما يؤكد ترادفهما ، وإلى أبعد من ذلك يذهب الزركشي في برهانه حيث لم يستعمل كلمة

1- الحجاج عند أرسطو ، هشام الريفي ، "مقال" ، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى

اليوم ، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج ، إشراف: حمادي صمود ، كلية الآداب منوبة ، تونس ، ص 202 .

2- الحجاج عند أرسطو ، هشام الريفي ، "مقال" ، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى

اليوم ، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج ، إشراف: حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 43 .

3- المنهاج في ترتيب الحجاج ، أبو الوليد الباجي ، تح: عبد المجيد تركي ، دار الغرب الإسلامي ، دت ، دط ، ص 07 .

4- المرجع نفسه ، ص 11 .

الجدل البتة ، وحديثا يتواصل التداخل المفهومي بين الحجاج والجدل لدى بعض الباحثين المحدثين العرب على غرار هادي حمو في كتابه " مواقف الجدل والحجاج في القرآن الكريم " الذي لم يفرق بينهما وجعلها مترادفين¹.

وأخذا بالتصور الذي يرى أن الجدل دعامة الحجاج ووسيلته فإن القول بترادفهما يضيق من مجال الحجاج ، ولربما يغرقه في الجدل ، وبالتالي ف « إن الحجاج أوسع من الجدل فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل »² وهذا يعني أنه يوجد نوع آخر من الحجاج يجعل دلالاته أكثر اتساعا ، حجاجا اتخذ من الخطابة قوة له وجعلها مع الجدل وجهان لعملته الاستدلالية ، فأصبح هناك حجاجان ، جدلي منطقي دعامة العقل ، وخطابي تخييلي دعامة الإمتاع . « فأما الحجاج الجدلي فمن قبيل ما عرض له أرسطو في كتابه " الطوبيقي " "Topiques" ومعناه المواضع أي مواضع القول" ومداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد ، وتمثله في التراث الإسلامي مناظرات علم الكلام »³ التي كانت تتجادل في الفقه وأمور الدين ، هذا المجال المعرفي « يسمى بعلم النظر والاستدلال أيضا... وهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه »⁴ ، وهي على الغالب حجج يقينية خاصة وأن منبعها القرآن الكريم وعلومه ، ومن ثم سميت بجدل القرآن ، وألفت فيه كتب كثيرة.

والنوع الثاني من الحجاج هو الخطابي وهو « من قبيل ما عرض له أرسطو في كتاب الخطابة وهو حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة في مقامات خاصة ، والحجاج هنا ليس لغاية التأثير النظري العقلي وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة العاطفة والانفعالات »⁵ ، بمعنى أن الحجاج الخطابي هو ما يزيد من اتساع دلالة الحجاج مما يجعل غايته تمتد من الإقناع إلى الإمتاع في استدلاله الجانب العقلي مع الجانب العاطفي .

2- الحجاج والبرهان

1- ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، مرجع سابق ، ص 13- 14- 15.

2- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، مرجع سابق ، ص 17- 18.

3- المرجع نفسه ، ص 17-

4- كشاف اصطلاحات العلوم ، التهانوي ، ج 1 ، ص 242.

5- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، مرجع سابق ، ص 18.

قد تتعدد أوجه الاستدلال وتتداخل مفاهيمها ، لكن الغاية منها وآليات اشتغالها هي ما تجعلنا نقف على بعض الفروق الدقيقة لكل منها ، فبعد أن رصدنا التقارب المفاهيمي بين الجدل والحجاج والخطابة كأساليب استدلالية ، نأتي الآن لنفك التعاضل المصطلحي بين الحججاج وأسلوب استدلاله الآخر هو البرهان ، فالحجاج يقوم على الحجة ، وهي مصطلح يطلق على « أسماء أخرى مثل الدليل والاستدلال وحتى البرهان ، لكن هذا الإطلاق من باب التجوز أو التوسع »¹ ، ومهما يكن من أمر وحتى نوسع من مجال الحججاج جعلناه يشمل جميع الأساليب الاستدلالية فحصرنا الحجة في « الدليل إذا كان برهاناً أو إقناعاً أو شغباً »² ، فهي وجه استدلاله لإثبات حقيقة الأمر بالدليل القاطع ، وهنا يظهر التقاطع مع البرهان كآلية استدلالية تشمل « كل قضية أو قضايا دلت على حقيقة حكم الشيء »³ لإثباته ،

ومن خصوصيات البرهان التي قد تميزه عن الحججاج أنه « يتميز بخاصية اليقين والقطعية والتقنين ، حيث ينتمي... إلى مجال الاستدلالات الاستنباطية المنطقية والرياضية ، بينما ينتمي الحججاج إلى مجال الخطاب الطبيعي »⁴ ، والحال أن هذا الخطاب « ليس خطاباً برهانياً بالمعنى الدقيق للكلمة ، فهو لا يقدم براهين وأدلة منطقية ، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي ، فلفظة الحججاج لا يعني البرهنة على صدق قضية ، أو إثبات شيء ما ، أو إظهار الطابع الصحيح لاستدلال ما من وجهة نظر منطقية »⁵ ، وهذا الفرق يتضح جلياً أثناء الكلام حول موضوع متنازع عنه فيلجأ المتخاطبان إلى دليل قطعي كعين الحقيقة كأن يقول أحدهما للآخر مثلاً: برهن ، أو هات برهانك ، ومفاده هات دليلك القاطع حتى أقنع بفكرتك ، ويمكن أن نستحضر هنا قوله تعالى ﴿ تِلْكَ أَمَانِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾⁶ ، وعن تفسيرها جاء في الكشاف: « ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ متصل بقولهم ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ ، ... ، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ ، هلموا حججتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعاكم »⁷ ، ولأنها تنطلق من

1- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 225 .

2- الإحكام في أصول الأحكام ، ابن جزم ، منشورات دار الأفاق ، بيروت ، المجلد الأول ، 1983 ، ص 39 .

3- الإحكام في أصول الأحكام ، ابن جزم ، مرجع سابق ، ص 39-40 .

4- الحججاج في الحديث النبوي دراسة تداولية ، أمال يوسف المغامسي ، مرجع سابق ، ص 27 .

5- الحججاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، مرجع سابق ، ص 15 .

6- سورة البقرة ، الآية III .

7- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، . أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، جار الله

الزمخشري ، ج 1 ، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، السعودية ، ط 1 ، 1998 ، ص 311 .

مقدمات لتصل إلى النتائج ، فإن هذه الميزة هي جوهر الاختلاف بين الحجة كدليل استدلاي برهاني والحجاج كفعالية تواصلية تداولية تخص الخطاب الطبيعي بين البشر ، له خصوصياته الاستدلالية .

فالحجاج شديد صلة بالاستدلال والمنطق ، يحتكم لنظام اللغة الداخلي ، منفتح على العالم الخارجي ، تحركه دواعي القول التي تسعى إلى تغيير اعتقاد ، أو تبرير قرار ، أو القيام بعمل ، فهو منهج استدلاي يقوم على الاعتقاد وترتيب القيم بالدرجة الأولى لعلاقتها بما هو محبذ القيام به والمحتمل قيامه ، وهو بهذا يختلف عن البرهان الذي يهتم بترتيب الحقائق وإقرارها بدرجة أولى¹ ، هذا ويأتي البرهان عادة إما صحيحاً أو خاطئاً ، وإذا ورد في حالة ثالثة فتقيده شروطاً ، أما الحجاج فلا يأخذ بهذا المعيار ، بل تحكمه مدى قوته وضعفه ونجاحه وفشله ، أي كل ما يزيد في تأثيره وقبوله² .

هذه الفروقات الجوهرية كفيلة لتنميظ الاستدلال ؛ حجاجاً وبرهاناً ، الأمر الذي يجعلنا نقول بعدم ترادفية المصطلحين ، لكن هذا لا يعدم أن يكون البرهان يصاغ في بنية لغوية ذات طبيعة اجتماعية يتصف بها الخطاب الطبيعي ، ورغم ذلك رصد الباحثون اختلافات دقيقة بين الخطاب الحجاجي والخطاب البرهاني نحو³ :

- تتميز عبارات البرهان بأسلوب برهاني فترد مستقلة عن بعضها البعض ، وتربطها علاقات وقوانين صورية لا تراعي معانيها ومحتواها ولا حتى إحالاتها المرجعية ، فيتم الانتقال بين العبارات وفق نسق صوري بحت ، في حين الحجاج فنظراً لطبيعة خطابه تأتي عباراته مترابطة متسقة فيما بينها ، حيث تتعالق مفرداته بناء ومعنى حسب سياق ورودها ، الأمر الذي يزيد من حججته .

- قد يكفي دليل واحد لإثبات النتيجة أو نفيها في الاستدلال البرهاني ، أما الاستدلال الحجاجي فعدد حججه لا يحصر ولا يحدد ، بل يتوقف على مدى التأثير والاقتناع فقد تكفي حجة واحدة وقد يتعداها المحاجج إلى سواها دون المساس بفاعلية الحجاج ، وكثرة الحجج لا يراد بها قطعية النتيجة كما هو الحال في البرهان ، بل تزيد فقط في درجة احتمالياتها مما يزيد في قوة قبولها لدى المتلقي .

1 - ينظر: عندما تتواصل نغير ، مقارنة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج ، عبد السلام عشير ، مرجع سابق ، ص 125 .

2 - ينظر الحجاج والاستدلال الحجاجي ، عناصر استقصاء نظري ، الحبيب أعراب ، مقال ، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه

ومجالاته ، ج3 ، مرجع سابق ، ص 66 .

3 - ينظر: الحجاج والبرهان ، مقال ، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته ، جافظ اسماعيلي علوي ، مرجع سابق ، ج1 ،

- من الميزات الجوهرية بين الاستدلال الحجاجي والاستدلال البرهاني أن هذا الأخير في بناءه يأتي مستقلا عن الذات الإنسانية والظروف المحيطة بها، بينما الحجاج باعتباره فعالية اجتماعية تداولية بين المتخاطبين لا يمكن أن يتم إلا في سياق تفاعلي تام يزيد من فاعليته.
- قد يرد الحجاج صريحا كما قد يرد في صورة ضمنية، أما البرهان فلا يلزم التضمن فيه، بل يجب التصريح بكل مكوناته.

3- الحجاج والمناظرة

تأتي المناظرة على وزن مفاعلة، وهي صيغة صرفية من معانيها المشاركة فالتناظر يفيد التشارك في أمر ما مع طرف آخر، جاء في لسان العرب « والتناظر: التواضع في الأمر، ونظيرك: الذي يراوذك وتناظره، ونظره من المناظرة، والنظير: المثل، وقيل المثل في كل شيء، وفلان نظيرك أي مثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رأهما سواء، ... والنظير بمعنى مثل الند... ويقال: ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة، وناظرت فلانا بفلان أي جعلته نظيرا له »¹، وتكون المناظرة لإظهار الحق في أمر ما، يقول الخليل: « أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه »²، فهي تفاعل حوارى بين طرفين حول قضية معينة، كل بوجهة نظره، وكأنهما يتنازعان موضوع تخاطبها، لكن هذا التنازع لا يجابه تنازع الخصومة كما هو الحال في الجدل، فهي ممارسة استدلالية فكرية تدور « حول معاني المباحثة والمباراة في النظر، واستحضار كل ما يراه ببصيرته »³ لإظهار الصواب، بتأمل دقيق وطرح موضوعي يتعد عن الذاتية التي قد تحول التناظر إلى جدل يؤدي إلى التنافر والتناوب.

فالمناظرة غاياتها محمودة وهي الوقوف على صواب الأمر، وليس إظهار الغلبة والانتصار على الغير، وبذلك يمكن أن تصنف في باب الجدل المحمود، وهذا ما أشار له ابن خلدون في مقدمته رابطا المناظرة بالجدل قائلا: « وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة... فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول،

1- لسان العرب، ابن منظور، باب النون، ج49، مرجع سابق، ص4467-4468.

2- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تج: مهدي المخزومي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ج8، ص156.

3- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تج: صفوان عدنان داوودي، دتر القلم، دمشق، سوريا، ط4، 2009،

وكيف يكون حال المستدل والمجيب. وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً ، وكيف يكون مخصوماً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال¹ ، فهذه الآداب ما هي إلا معايير ضبئية حددها العلماء لفن المناظرة كأسلوب فكري مرغوب فيه يفسح المجال للخصم بنوع من التأدب والأريحية كحق للرد عند اعتراضه عن موضوع ما ، وهذه الآداب نجدتها من الأصول الرئيسة التي تقوم عليها المناظرة والتي جاءت في الآتي:

« أ - لا بد لها من جانبيين

ب - لا بد لها من دعوى

ج - لا بد لها من مآل يكون بعجز أحد الجانبين

د - لكل من الجانبين آداب ووظائف² .

وكان لفن المناظرة « أبحاثاً متفرقة غير منسقة وغير كاملة ، وكانت موزعة في كثير من العلوم التي يدخل فيها الجدل كالمنطق والفلسفة وعلم الكلام وعلم أصول الفقه ، وعلم الفقه واختلاف المذاهب فيه³ ، وكلها أبحاث تتسم بالاختلاف في الرأي واعتداد كل طرف بوجهة نظره من أجل دحض آراء ومواقف الطرف المناقض له ، ولعل أول من بدأ التأليف في هذا الفن وأفرد له كتاباً خاصاً ركن الدين أبو حامد محمد العميدي الفقيه الحنفي (ت 615هـ) أسماه بـ "الإرشاد" ، ثم توالى الناس في البحث فيه وزادوا عما كتب العميدي في كتابه ، نحو ما فعله معاصره فخر الدين الرازي (ت 606هـ)⁴ .

والمناظرة بالمفهوم الحديث فعالية تواصلية تداولية بصيغة استدلالية تقوم على عدة عناصر هي الادعاء ، ويعني وجود دعوى ، والتدليل وهو عرض دليل على الدعوى ، والمنع وهو الاعتراض عليها⁵ ، غير أن الدراسات الحديثة ميزت بينها وبين الجدل بـ « فارق أخلاقي يتصل بالهدف ، فهدف المناظرة الكشف

1 - مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن ابن خلدون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، دط ، 2001 ، ج 1 ،

ص 578 - 579 .

2 ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 74 .

3 - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة - صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي ، عبد الرحمن

حسن حنيفة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، ط 4 ، 1993 ، ص 370 .

4 - ينظر: المرجع نفسه ، ص 371 .

5 - ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 75 .

عن الحقيقة أو الصواب ، وهدف الجدل التغلب على الخصم»¹ ، أي أن الغاية المرجوة من كل منهما هي جوهر اختلافهما ، ومردّها إلى مبدأ التأدب الأخلاقي الموجود في المناظرة ، والذي قد يغيب في الجدل .
وعن صدق نية المتناظرين في إظهار الصواب وإتباع الحقيقة ، يشير عبد الرحمن الميداني حنبكة في تعريفه للمناظرة قائلا: « المناظرة هي المحاورّة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظر فيه ، تخالف وجهة نظر الآخر ، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه ، مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره»² ، فاللمح الحجاجي يتبدى جليا من خلال غاية الإقناع التي تسعى لها المناظرة باعتبارها خطاب استدلالي يقوم على تقابل طرفين ومحاولة توجيه بعضهما البعض نحو عين الصواب ، فهي «فعل تواصلي وحدث تفاعلي وخطاب بياني حجاجي ، تستدعي بمقتضاه الحجة لتدل على صحة الدعوى...ومن ثم فالعلاقة بين فن التناظر وفن المحاجة علاقة ضرورية منطقية ، حتى إن كل مناظرة حجاج بالضرورة»³ ، غير أن ليس كل حجاج مناظرة ، وهذا راجع لطبيعته الاستدلالية التي لا تقتضي الحصر والتضييق في دلالاته .

وفي سياق ما ورد من معطيات حول المناظرة نخلص إلى تعريفها العملي الإجرائي الذي يرى أنها لا تعد أن تكون مصطلحا كان يستخدم قديما للدلالة على نص قد يطول أو يقصر ، يعرض حوارا بين شخصين أو أكثر ، كل منهما يخالف الآخر في موضوع النقاش ، ويتبنى فرضية تخالف فرضية خصمه ، ويحاول دعمها استدلاليا بالحجج وبالبراهين ، لدحض فرضية الآخر وأدلتها ، فهي فعالية فكرية وممارسة لغوية اجتماعية قائمة على التفاعل بين متخاطبين يشتركان في هدف صنع المعرفة عبر مسار حجاجي⁴ ..

4- الحجاج والإقناع

لا ضير في أن الحاجة إلى التواصل بين بني البشر هو قصد لتحقيق الغايات والأغراض ، ولا يتم ذلك إلا باللغة الطبيعة باعتبارها أحسن وسائل التعبير دلالة مقارنة مع وسائل الترميز الأخرى ، التي قد تزيد من

1- المنهج وأدب الحوار في مناظرة السيرافي ومتى ، محمد حسن عبد الله ، مجلة البيان ، العدد 368 ، الكويت ، مارس 2001 ،

ص34 ، نقلا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة ، عبد اللطيف عادل ، منشورات ضفاف ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2013 ، ص130.

2- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة - صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي ، عبد الرحمن

حسن حنبكة الميداني ، مرجع سابق ، ص371.

3- استراتيجيات الحجاج في المناظرة السياسية مناظرة التنافس على الرئاسة بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند ، دراسة ،

أنور الجمعاوي ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، الدوحة ، قطر ، 2013 ، ص12.

4- ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة ، عبد اللطيف عادل ، مرجع سابق ، ص131.

نجاجتها في كل سياق تخاطبي صاحبها، لكن تواصل كهذا قد يخرج أحيانا عن طبيعته كأن يتردد المخاطب أو يعترض عن الاستجابة لطلب المخاطب لعدم اقتناعه، الأمر الذي يجعلها في اختلاف يشوبه التنازع في الرأي، فيحاول كل منها توجيه الطرف الآخر نحو رأيه الخاص، فيستعطف صاحب الحاجة مخاطبه التماسا لتحقيقها، فإن اعترض يحاجه جدالا يستدعي البرهنة بالدليل، وكلما زاد الاعتراض كلما اشتد التنازع إلى درجة الإرغام بالقوة إذا كان أحدهما متسلطا، حيث «من المعروف أن هناك ثلاث طرق يتبعها الإنسان لتحقيق مآربه: الوسيلة الأولى هي الإكراه والقوة، ويتم ذلك عندما تكون لدى الإنسان المقدرة والنزعة نحو امتلاك الأشياء بالقوة رغم إرادة الآخرين، والوسيلة الثانية هي الاستعطاف والاسترحام، ويتم ذلك من خلال إثارة الشفقة وتحريك العواطف، أما الوسيلة الثالثة فهي الإقناع، ويتم ذلك من خلال التوجه نحو العقل والفكر لإقناع الفرد بتبني نظرية ما، أو الامتناع عن أخرى، أو اتخاذ موقف معين، ولتتم عملية الإقناع بنجاح لا بد من توافر الأداة الملائمة لهذا الغرض»¹، وهذه الأداة لا تعد أن تكون حجاجا على أساس أن الإقناع غاية الحجاج الأسمى وبالتالي يعتبر الحجاج الوسيلة الأنجع لتحقيق الإقناع.

وقفت معاجم اللغة على مادة "ق ن ع" بمعاني عدة أهمها «قَنَعَ بنفسه قَنَعًا وقناعه: رضي، ورجل قانع من قوم قُنَع، وقنَعُ من قوم قنعين، وقنِيع من قوم قنِيعين وقنِعاء، وامرأة قنِيع وقنِيعة من نسوة قنِيع، والمقنع بفتح العين، يقال: فلان شاهد مقنع، أي رضا يقنع به»²، والرضا بالشيء هو الاعتداد به وقبوله وبالتالي الاقتناع به، وهذا المعنى جاء في المعجم الوسيط ما مفاده أن قنع تعني القناعة والرضا بما أعطي لك، وتعني كذلك القبول بالفكرة أو الرأي والاطمئنان إليه، واقنع: قنع بالفكرة أو الرأي وقلبه اطمأن إليه، والمقنع: العدل الذي يرضى الجميع بشهادته، وهي ما يرضى من الآراء³، وفي ضوء هذه المعاني اللغوية يرصد يتبدى المعنى الاصطلاحي للإقناع والمتمثل في جعل الفرد يقدم على فعل شيء أو تركه بمعني رضي بما طلب منه بعدما اقتنع برأينا، واقتناعه هاهنا جاء بعد تقديمنا جملة من الحجج الإقناعية للتأثير فيه، وهذا الاقتناع نتاج القبول العقلي بعد «العملية التي بها يؤثر الخطاب في مواقف الإنسان وسلوكه بدون إكراه أو قسر»⁴،

1- نظريات في أساليب الإقناع دراسة مقارنة، علي رزق، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص21.

2- لسان العرب، ابن منظور، باب القاف، ج42، مرجع سابق، ص3753.

3- ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص763.

4- أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ابن عيسى باطاهر، دار الضياء، ط1، 2000، ص21.

وهذه العملية ما هي إلا المحاجة باعتبارها تقنيات وإجراءات استدلالية يوظفها المتخاطبان لتزيد من قوة الخطاب التأثيرية.

وفي الدراسات الغربية يشير توماس شايدل إلى أن الإقناع فعل مقصود يقوم به المتكلم كمحاولة واعية للتأثير في سلوك مخاطبه، وجعله أوستين فريلي في مصاف واحد مع الحجاج كجزئين أساسيين يشتركان لتشكيل عملية واحدة ولا يختلفان إلا في درجة التوكيد، في حين يرى كل من هوارد مارتين وكينيث أندرسون أن الإقناع هو غاية أي اتصال، ذلك أنه يبحث عن تحصيل رد فعل على أفكار القائم بالاتصال، والنص الحجاجي كخطاب للاتصال يستلزم توفر مجموعة من الشروط لنجاحه، ومن ثم تحقيق سلطة الإقناع¹، وبهذا المنظور تبدو لنا صلة شدة التقارب بين مصطلحي الحجاج والإقناع، وهو نفس التصور التي الذي أشار له بيرلمان وتيتكا في الخطابة الجديدة، فالإقناع هو أساس الإقناع وهذا الأخير يعد لب العملية الحجاجية، وهو الأثر الناتج عن التلفظ، والدافع إلى مبادرة المتلقي بتحقيق مقاصد المرسل إقداما وإحجاما، ومن ثم يمكن تسميته الغرض التداولي من الحجاج².

فنظرية بيرلمان وتيتكا - الخطابة الجديدة - كاتجاه حديث في البلاغة تقول بأن «إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل، أو العمل على زيادة الإذعان هو الغاية من كل حجاج، فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدة الإذعان عند كل من يسمعها، وبطريقة تدفعه إلى المبادرة، سواء بالإقدام على العمل أو الإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل في اللحظة المناسبة»³. والحال إن إذعان كهذا يكون في ذروة الإقناع، وبالتالي فإن الإذعان ما هو إلا غاية حجاجية للإقناع، ويجب التفريق ما بين الإقناع والاقتناع، ذلك أن الفرد في حالة الاقتناع يقنع نفسه معتمدا على عقله، محللا أفكاره وما يحمله من معلومات، أما في حالة الإقناع فإن الآخرين هم الذين يقنعونه باستعمال تقنيات الحجاج وأساليبه المؤثرة عقلا وعاطفة⁴، ولعل هذا ما جعل البعض يفرقون بين مصطلحي الحجاج والإقناع.

1- ينظر: النص والخطاب والاتصال، محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، دط، 2014، ص 149.

2- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت،

لبنان، ط1، 2004، ص 458.

3- المرجع نفسه، ص 456 - 457.

4- ينظر: في نظريات الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مرجع سابق، ص 15-14.

وعكس التصور الذي يربط الحجاج بالإقناع ويجعلها متلازمين بداعي الغاية والوسيلة؛ يقر آخرون بالتفريق بينهما من باب الذاتية والموضوعية في إثبات الحقيقة، فمثلما ننفي الموضوعية المطلقة للحجاج ننفي كذلك الذاتية المطلقة، وهو ما يجعلنا نقول أنه ليس إقناعاً، خاصة وأن الإقناع يكون بمخاطبة الخيال والعاطفة، مما لا يدع مجالاً لإعمال العقل وحرية الاختيار، في حين يأتي الحجاج وسطاً بين الموضوعية والذاتية، يكون على أساس عقلي ويقوم على حرية الاختيار مراعيًا المقام والتأثير في العواطف¹.

هذا ويمكن أن نرصد فرقا آخر بين الحجاج والإقناع يتعلق بطبيعة المخاطب، وهو أن «الإقناع يقصد التأثير في مستمع سلبي، بينما الحجاج يشرك مستمعا فعلا ونشيطا في عملية البحث عن الأفضل، ذلك أنه فضاء للحوار والنقاش مع الآخر، لا فضاء للإلزام والإرغام»²، وهذا فرق جوهري لأن التواصل مع مخاطب سلبي هممه الجدال والمغالطة والتشبيث برأيه ولو كان خاطئا لا طائل من ورائه، فتواصل كهذا يؤدي إلى الخصام والخلاف ونهايته الفشل، في حين نجد الحجاج مفعما بالنقاش وأساليب الحوار مما يزيد في النشاط والحرص للوصول إلى الرأي الصائب.

1- ينظر: المرجع نفسه، ص15.

2- الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، عبد العزيز لحويديق، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته،

حافظ اسماعيلي علوي، مرجع سابق، ج3، ص346.

المبحث الثاني: الحجاج في الفكر البلاغي القديم

أولاً: الحجاج في الدرس البلاغي اليوناني القديم

إن أول إرهاص للحجاج كان في البلاغة اليونانية التي « تمثل منذ القدم وحتى عودتها من جديد في القرن العشرين الإطار المثالي لنظريات الحجاج ، فهي في جوهرها تأمل شامل حول الطريقة التي تبدأ من اكتشاف حجة ما وحتى قبولها أو رفضها من متلقيها»¹ ، فالخطابة أو ما يسمى فن الإقناع هو موضوع البلاغة عند اليونان ، أي بحث في آليات التأثير الخطابية ، وهو ما جعل أرسطو يهتدي إلى كتابه فن الخطابة ، فكان باكورة البحث الحجاجي عند اليونان ، وذلك بعدما تأكد له الدور الذي تقوم به الخطابة في المجتمع اليوناني كفن من فنون القول يشد الانتباه ويجابه العقول فعدها من وسائل التأثير الجماهيري ، يلجأ لها الساسة ورجال الدين والقضاة .

وكما جرت العادة أن الطبيعة البشرية جبلت على التصويت اللغوي كحدث فردي يقوم به الإنسان للتعبير عن مقاصده ، غير أن الطبيعة الاجتماعية للغة تجعل من هذا الحدث اللغوي الفردي للإنسان إيعاز منه يستدعي طرف آخر للتواصل معه ، وهو ما يؤكد حتمية حاجة الإنسان للغيرية ، هذه الغيرية هي ما يشكل الدائرة التخاطبية بين البشر ، حيث تستوجب وجود طرفين أحدهما متكلم وهو منتج الخطاب ، والآخر مستمع يتلقي هذا الخطاب ، فالتكلم كمخاطب له مقاصد يريد إيصالها لمخاطبه ، فغايته في هذا المقام غاية إقناعية ، لذلك نجده يشتغل على كيفية إنتاج خطاب تأثيري صالح لتحقيق غايته .

إن غاية الإقناع وسبل التأثير التي تختص بها الخطابة هي ما جعلها تتبوأ البحث البلاغي في المجتمع اليوناني ، فهي فن أدبي يعتمد على المشافهة في مخاطبة الجمهور ، ومنها استقى أرسطو بلاغته التي « تعد ... أساسا فلسفيا معرفيا لأغلبية النظريات البلاغية واللغوية التي جاءت بعدها بشكل عام ، ولنظرية الحجاج بصفة خاصة»² ، وقد افترض أرسطو للتنظير لبلاغته آراء أستاذه أفلاطون ، حيث « دخل ... في نقاش جدلي قوي مع كل من البلاغتين الأفلاطونية "الأستاذ" والسفسطائية "الخصوم" ؛ وعلى الرغم من أن الأرسطية

1- تاريخ نظريات الحجاج ، فيليب بروتون ، ترجمة: محمد صالح ناحي الغامدي ، مركز النشر العلمي ، مطابع جامعة الملك

عبد العزيز ، ط1 ، 2011 ، ص 17 .

2- محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، مرجع سابق ، ص 23 .

اتخذت لنفسها مساراً تحليلياً جديداً، إلا أنها احتفظت من كلتا البلاغتين ببعض المكونات البنائية، وخاصة من بلاغة... أفلاطون»¹ مؤسس الفلسفة اليونانية.

1 - الحجاج عند السفسطائيين

السفسطة « حركة فلسفية وظاهرة اجتماعية برزت في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد تميز روادها بالكفاءة اللغوية البلاغية وبالخبرة الجدلية، ويتجلى ذلك من خلال تسميتهم التي كانت تعني الحكيم الخبير بكل فن وأسلوب»²، وعن ظروف نشأتها فإنها «تعود... إلى المحاكمات التي قامت في صقلية حول الملكية، وما كان فيها من نزاع كبير حول حقوق مدعاة لا يمكن نيلها إلا بامتلاك ناصية القول، والقدرة على الاحتجاج والمرافعة»³، ولعله هو ما أدى «إلى تطوير البلاغة القولية التواصلية خاصة والحياة الفكرية عامة، فقد كانوا يعقدون نقاشات فلسفية ذات منزع لغوي توليدي للأفكار، الأمر الذي أسفر على اهتمام بالغ بالطرائق الحجاجية الإقناعية»⁴، المنبثقة من القول والتي من شأنها الدفاع عن النفس وتغيير مجريات الأحداث.

ومن صور البلاغة السفسطائية أن المجتمع اليوناني كان يعيش تحت وطأة الطغاة فعاتوا بين السكان فساداً، «حيث قام الطاغيتان جيلون "Gelon" وهيرون "Hieron" حوالي سنة "485 ق م" بتهجير السكان ومصادرة الملكية من أجل إعمار سيراكوزة وتمليك المرتزقة، لكن انتفاضة ديمقراطية أطاحت بالطاغيتين، فقامت محاكمات ونزاعات قضائية لا تحصى من أجل إعادة الوضع»⁵ إلى سابق عهده، حيث قام كل فرد بالمطالبة بحق استرداد ملكية أرضه، ولأن «حقوق الملكية غير واضحة تماماً،... كان لهذه المحاكمات نمط خاص، فكانت تعبئ هيئات شعبية كبرى من المحلفين يلزم لإقناعها التمتع بالفصاحة المتضمنة للديمقراطية»⁶، ومن ثم كانت البلاغة وآلياتها من فصاحة في اللفظ وقوة في التعبير من دواعي المحاجة في السفسطة اليونانية.

1- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص 23.

2- المرجع نفسه، ص 24.

3- الحجاج في الحديث النبوي، أمال يوسف المغامسي، مرجع سابق، ص 42.

4- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص 24.

5- الحجاج في الحديث النبوي، أمال يوسف المغامسي، مرجع سابق، ص 42.

6- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

هذا ودعت الحاجة للفصل بين المتخاصمين إلى التشجيع على هذا النوع من فنون القول، وفعلا «سرعان ما أصبحت موضوعا للتدريس، وكان أول أساتذة هذه المادة الجديدة "امبادقليس" و "كوراكس" - وهو أول من أخذ أجره مقابل دروسه - و "تيسياس" وانتقل هذا التدريس إلى أتيكا وأثينا»¹، وفي خضم هذه التحولات ظهر توجه جديد في مسار البلاغة اليونانية، فكان «نمطا خطايا "بلاغيا" جديدا له قواعده وقوانينه التي انبرى بعض السفسطائيين إلى تعليمها نظير مقابل مادي، حتى أصبحت الخطابة "البلاغة" حرفة تتوخى تكوين الخطباء وتوجيههم إلى الجدل وفن الحوار»² بتقنيات مخصوصة.

وكمفهوم إجرائي للسفسطة فإن أصحابها «كانوا معلمين يرحلون من مدينة إلى أخرى بحثا عن السامعة، يعلمون تلامذتهم... عن طريق شرح مؤلف ما أو سلسلة من الدروس، ومناهج الدفاع بنجاح عن أي دعوى، كيفما كانت، مستبدلين الحقيقة ونشرها بالبحث عن الغلبة التي تقوم على أساس الإقناع والإلزام والإغواء»³، ولعل هذا التوجه البلاغي الذي جعل الغلبة كمبدأ قوام له، جعل كبار الفلاسفة يعيبون السفسطة وينتقدون دعواتها، حيث أنه لا يكاد «يذكر حد سوفسطائي إلا ويقترن بالمعنى الزري، والقدح المعلن، والامتعاض المسبق، والتنقيص المجحف، ولا سيما إذا ورد في سياق وصف، أو بالأحرى وصم من يخالف في المحلة والملة أو المعرفة والمنفعة أو نسق التفكير والتأويل»⁴، فأساس السفسطة الاختلاف الاختلاف وغايتهم البحث عن الغلبة لا الحقيقة الأمر الذي جعلهم يدخلون في جدل فلسفي كبير مع أفلاطون وأرسطو، «فكان بين هذين وأولئك نوعان من الحجاج، حجاج بحجاج في مسائل فلسفية مختلفة، وحجاج في ما به ينبغي أن يكون الحجاج، خطابان متقابلان ناشران لنظريتين مختلفتين إلى وضع القول في علاقته بمسألتي المعرفة والقيم الحاضنة للاجتماع الإنساني»⁵، وهو خلاف جعل الفلسفة اليونانية تعيش مطاردة حجاجية بالقول والقول المضاد.

1- الحجاج في الحديث النبوي، أمال يوسف المغامسي، مرجع سابق، ص 42-43.

2- المرجع نفسه، ص 43.

3- السفسطائية وسلطة القول نحو أصول لسانيات سوء النية، محمد أسيداه، "مقال"، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ اساعيلي علوي، مرجع سابق، ج 2، ص 33.

4- المرجع نفسه، ص 30.

5- الحجاج عند أرسطو، هشام الريفني، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،

حمادي صمود، مرجع سابق، ص 51.

ورغم هذه النقائص التي قدمت للحركة السفسطائية إلا أنها لها من الأهمية ما يجعلها مهادا خصبا لنشأة النظرية الحجاجية في البلاغة اليونانية ، ذلك أنها:

- أدخلت البلاغة في مدونة أوسع من المعارف لاهتمامها بجمالية اللغة الإقناعية وقدراتها التأثيرية .
- نظمت البنيات التربوية الأساسية في المجالات المختلفة: في النحو ، والفصاحة ، وحتى العلوم .
- إسهامها في تطوير الذهنية النقدية .
- الإضافات النوعية لنظرية الحجاج والتي زادت من فعاليتها مثل: تناقض الأفكار " وهو ما أدى إلى توجيه اللوم " ، والقول بتضاد الأصوات ، أو أن يكون لكل خطاب خطابا مضادا ، ولكل حجة نقيضها ، خاصة وأنها تبني على رؤية مخالفة للأشياء ، تصف أحداث الواقع وصفا مغايرا .
- وضعها لنظام خاص يستخدم محسنات التأطير التي تسمح بتقديم وجهة نظر ، أو تصويب رؤية ، أو ميزة لموضوع ، أو لرأي ما .
- اعتبارها لمفهوم الاحتمال أفقا للتعامل بين الناس والتفاعل مع بعضهم .
- قدرتهم الاستدلالية التي أهلتهم لإتقان فن لمجادلة وأصناف المحاورات القائمة على قواعد مضبوطة¹ .

وصفوة القول إن منهج السفسطة وإن كان قوامها البلاغي يعتمد مبدأ الغلبة ، فإنه أسلوب من أساليب التأثير والإقناع يجانب الاستدلال الحجاجي في مفهومه العام ، وحجاجيته تكمن في أن السفسطائيين اهتموا « ببنية كل من الكلمة والجملة ، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع وتغيير مواقف الآخرين ، وقد استعانوا في سبيل تلك الغاية بخبرة بالغة في مقامات الناس والقول معا ، وأيضا بآليات إجراء اللغة بحسب المقاصد ، والظروف التواصلية² » ، فكانت الخطابة في منظورهم في براعة القول وبلاغة أهله ، بها يتعالى القوم ، وبها يقاس تمدن المدينة ، ومن ثم تبوأ - الخطابة - مراتب الصنائع الإنسانية جميعها ، من طب وهندسة ومعمار وحرف... وغيرها ، وأصبحت سلطة القول تقدم للإنسان والمدينة ما لا يمكن أن تقدمه هذه الصنائع مجتمعة .

1- ينظر: الحجاج في الحديث النبوي ، أمال يوسف المغاسبي ، مرجع سابق ، ص 44 .

2- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، مرجع سابق ، ص 25 .

2- الحجاج عند أفلاطون "427 ق - م / 347 ق - م"

يقترب اسم أفلاطون بالمدينة الفاضلة أو ما يسمى بالجمهورية، وهو تصور ذو نزعة مثالية أخلاقية اعتمده أفلاطون في رؤيته الفلسفية، فبعد أن اختلف «فلاسفة اليونان مع المنهج السوفسطائي في الحجاج... أرادوا العودة إلى مدينة أفلاطون الفاضلة التي يبقى فيها السيد سيذا، والعبد عبدا، والحرفي حرفيا... الخ، وارتكز هذا الخلاف حول طريقتهم في الخطابة والحجاج والمحاورة»¹، الأمر الذي جعل الفلسفة اليونانية تعيش حراكا علميا واسعا يؤسس للخطابة كمفهوم بلاغي تتبدى من خلاله ملامح الممارسة الحجاجية في المجتمع اليوناني.

إذن فالمثل ومبدأ الأخلاق هو المعيار في المدينة الفاضلة، وبالتالي فهو يتناقض مع ما يدعو له منهج السفسطة من تحايل وتلاعب، لذلك «تصدى لهم أفلاطون، واتهمهم بتمويه الخطأ بالمنطق المزخرف وقوة البلاغة، وربط الحجاج السوفسطائي بزيغ القول وقلب الحقائق، وإيهام الجماهير، وتشكيكهم في الثوابت والحقائق»²، فهو برأيه هذا يطردهم من جمهوريته التي تدعو إلى حجاج القيم، حجاج يضيف معرفة أو يحقق منفعة للفرد والمجتمع، فحجاج السفسطائيين بمنظور أفلاطون «يزيف استعمال القول، القول بما هو فضاء التواصل بين الإنسان والإنسان فهو حجاج يقوم على التملق»³ والتملق صفة للخداع والمكر وهو ما يرفضه مطلقا.

لقد كان أفلاطون أول من امتعض من سفسطة القول واعتبرها محاجة عقيمة لا طائل وراءها إلا الغلبة والمتعة فهي تملق وزيف من الكلام، لذلك اعتبر أصحابها «أدعياء على العلم والمعرفة، وأن ما يقدمونه لا يعدو كونه نتائج ظنية مبعثها الهوى واللذة، وهي أمور ومفاهيم ضارة بالقيم والأخلاق واليقين والإيمان»⁴ في جمهوريته، وتفنيدا لآرائهم أجرى محاورتين ينتقدهم فيها هي محاورتي: "فيدر" و "قورجياس" ومن ذلك قوله في هاته الأخيرة - واصفا خطاباتهم وكاشفا ألاعيبهم «بأن القول الخطبي "السفسطائي" لا ينحصر في جنس الخطابة، وإنما هو قول زئبقي يمكن له أن يتسلل ليحرر الخطابة من شرط

1- الحجاج في الحديث النبوي، مرجع سابق، أمال يوسف المغامسي، ص 45.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،

حمادي صمود، مرجع سابق، ص 84.

4- حجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص 26.

تحديد الموضوع إلى فضاءات أجناس من القول الأخرى»¹، بمعنى أن الأخذ بالسفسطة يغير من مسار الخطاب في مفهومها العام الداعي إلى إثبات الحقائق وفق إجراءات استدلالية، إلى مفهوم ضيق يدعي الغلبة والسيطرة على الآخرين بالحيل والخدع، وبالتالي فهي «قول إثباتي غير جدلي لا يقوم على المساءلة، يعقده صاحبه على "الظن" لا على العلم، ويقصد به الإقناع، معتمداً في ذلك ما يوافق "اللذة"، لذة السماع والقائل، لا "الخير"، فالخطابة السفسطائية كما يبدو من محاوره قورجياس هي حجاج استهواء»² يقوم على الافتراض لا الحقيقة.

وفي موضع آخر من المحاوره نظر أفلاطون للخطابة من حيث وظيفتها فقابل بين الخير واللذة وقسم الصنائع الإنسانية حسب ما تقدمه من خير للإنسان فحددها في أربع هي: الطب، والرياضة، والعدل، والتشريع، وبذلك أقصى السفسطة من الخطابة لاعتمادها على معيار اللذة لا الخير.

فمحاوره "قورجياس" تعكس لنا المنطلقات الفلسفية لأراء أفلاطون حول موضوع الخطاب مقابلاً بين العلم والظن من جهة، وتوصل إلى أنها يؤديان إلى نوعين من الاقتناع؛ علمي يقيني غايته إثبات الحقائق، وآخر ظني احتمالي غايته الغلبة والزيف والتلاعب بالقول وهو موضوع الخطاب السفسطائية، ومن جهة ثانية بين الخير واللذة، وفي ضوء هذا المعطى يتبدى لنا أن الطرح الذي تبناه أفلاطون يقوم على معيار قيمي ذو نزعة أخلاقية مثالية، وهو أساس كل حجاج أو بلاغة يحققان نفع للفرد والمجتمع³.

وفي محاوره "فيدر" اتبع نفس المنهج في نقده للسفسطائيين مركزاً هذه المرة على بنية الحجاج السفسطائي من حيث الشكل والأسلوب التي حرص السفسطائيين على تحسينها وتنميقها، وحسب أفلاطون فإن تجويد العبارة وتحسينها لا تجعل القول جميلاً.

فمن خلال ما ورد من آراء نقدية في محاورتي "قورجياس" و"فيدر" تتبدى لنا معالم صناعة الخطاب عند أفلاطون، وهو تصور يقوم على ثلاثة أركان «هي اعتماد المنهج الجدلي، ومعرفة أنواع النفوس وما يناسبها من أقاويل، معرفة ما يناسب المقامات المختلفة من أساليب»⁴، فهذه الأركان الثلاثة لا تكاد تخلو منها أي

1- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص 26.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص 28.

4- الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،

حمادي صمود، مرجع سابق، ص 80-81.

عملية تخاطبية تقوم على الاستدلال ، وبتفاعلها تتحقق الخطابة بمفهومها الأفلاطوني وبها تثبت الحقائق وتزداد المعارف .

فالركن الأول المتمثل في المنهج الجدلي ينطلق من مبدأ الاختلاق في بناء القول الخطبي ، لذلك أراد أفلاطون أن يغير الصناعة تغييرا كلياً لاختلاف الجدل عن العلم بل جعله أساس نجاح العلوم ، وبفضله تصل إلى الحقائق اليقينية ، وبهذا السبيل أراد أفلاطون أن يجعل الجدل كأداة يخرج الظن والاحتمال من مجال الحجاج ، ومن ثم يصبح غاية الحجاج البحث عن الحقيقة أو الاقتراب منها فقط¹ .

ثاني ركن في مشروع أفلاطون هو ركن معرفة أنواع النفوس ؛ وهو يتعلق بالطرف الآخر في العملية التخاطبية ، فمراعاته واجبة لمعرفة ما يناسبه من القول ، فالكلام دائماً يأتي على أقدار السامعين ، وهذا المفهوم مثلما تدعو له الخطابة الإغريقية تشير إليه البلاغة العربية ، وقوله معرفة أنواع النفوس إشارة منه إلى الجانب النفسي ومدى استعداد السامع لتقبل الخطاب والتأثر به ، لذلك عد هذا الركن جانب مهم في التصور الأفلاطوني للخطابة² .

أما الركن الثالث فيتعلق بمدى التناسب بين الأسلوب والمقام ، حيث أن نوع الأسلوب وطبيعته ومستواه يحدده - إضافة إلى نوع المخاطب - المقام ومناسبة القول³ .

3 - الحجاج عند أرسطو "384 ق - م / 322 ق - م"

استفاد أرسطو في بلورة آراءه من فلسفة أستاذه أفلاطون وخاصة في مواجهاته مع البلاغة السفسطائية ، فواصل باجتهاداته المنطقية تكذيبهم وكشف أعاليتهم ، « لكن بلاغته أو خطابته نحت منحى آخر مختلفاً ، وانفصلت عن كل ما سبقها »⁴ تحليلاً ومنهجاً ، « فقد كانت تصوراته الجديدة تتعارض مع الآلية السفسطائية ومع مسلماتها المجهزة سلفاً ، ... كما كانت تتعارض مع ردة الفعل النخبوية لأفلاطون ، صاحب المدينة الفاضلة ، التي تعبر عن نوع من العدائية للديمقراطية »⁵ ، فالانفصال الأول يتمثل في رفض الرابط مقنرات أستاذه أفلاطون الذي كان يدعو للجمع بين البلاغة ومعيارى الأخلاق والحقيقة دون تمييز بينهما

1- ينظر: الحجاج عند أرسطو ، هشام الريفي ، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى

اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص81 .

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص83 .

3- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

4- الحجاج في الحديث النبوي ، أمال يوسف المغامسي ، مرجع سابق ، ص48 .

5- تاريخ نظريات الحجاج ، فيليب بروتون وجيل جوتيه ، ترجمة: محمد ناحي صالح الغامدي ، مرجع سابق ، ص27 .

منطلقاً من أن هدف كل منهما الوصول للحقيقة أو الاقتراب منها ، وهو المبدأ الذي رفضه أرسطو البتة ، فشكل نقطة الانعطاف في البلاغة اليونانية¹ .

لقد بنا أرسطو تصوره انطلاقاً من مسلمتين جديدتين: أولهما أنه جعل البلاغة أداة تستخدم للخير كما تستخدم للشر ، وتستخدم للعدل كما تستخدم للظلم ، وبالتالي فهي آلية تفتقد للحس الأخلاقي رغم أنها تنافيه وليست ضده ، ومن جهة ثانية جعل البلاغة آلية حجاجية تستعمل في الصواب لا الحقيقة ، وبالفصل بين الأخلاق والحقيقة يكون قد حرر البلاغة وغير من آلياتها لتصبح في مشروعه تقنية خطابية يعتمد عليها في المحاورات والمناظرات² .

هذا وقد أفرد أرسطو لنفسه ميزة فضل أخرى خالف بها صناع الكلام ليوسع الهوة الفكرية الموجودة بينهم ، حيث ركزت بلاغته على الجانب الاستدلالي أكثر مما أولته للجانب النفسي الشعاعي ، فدعا إلى بلاغة أساسها المنطق وعمادها القدرة على الاستدلال ، فضرب عرض الحائط بلاغة السفسطة الداعية للتصنع في القول وإيهام الغير خاصة القضاة والمحلفين في المحاكم والمرافعات بالظن والشفقة بدل الدليل والمنطق³ .

عوداً على بدء ؛ ومن خلال الفصل الذي قام به أرسطو بين الحقيقة والأخلاق من جهة ، وبين البلاغة كاستدلال والشاعر من جهة أخرى ، يتبدى لنا تصوره البلاغي الذي أهله لأن «يوسع حقل البلاغة لأبعد من المجال القضائي ، بحيث يشمل كل الأماكن التي يستخدم فيها الحجاج ، وذلك بخلاف صناع الكلام الذين حصروه في المحكمة ، والأفلاطونيين الذين حصروه في النقاش الفلسفي ، وهكذا لم تعد البلاغة تعرف بأنها ببساطة فن الإقناع ، وإنما القدرة بالكشف بتفكير عند كل حالة عما يمكن أن يكون مقنعا فيها»⁴ ، ومن ذلك الوقت أصبحت الفكر اليوناني يؤسس للخطابة كنظرية بلاغية تقوم على آليات الاستدلال الحجاجي منطلقاً من المشروع الفلسفي الأرسطي الموسع .

ويمكن اختصار المشروع البلاغي لأرسطو في آراءه التي تشكل مجمل دروسه في المنطق ، سميت بالأرغانون - جمعت بعد وفاته بثلاثة قرون - وتضم ثلاثة كتب أساسية هي: المواضع والتبكيئات السفسطائية والخطابة وإن عدها بعض الدارسين ليست من الأرغانون ، لطبيعة موضوعاتها الخاصة بصور

1- ينظر: تاريخ نظريات الحجاج ، فيليب بروتون وجيل جوتيه ، ترجمة: محمد ناهي صالح الغامدي ، ص 28.

2- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص 29.

4- المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

الاستدلال والخطابة الشفوية ، ومهما يكن من اختلاف فما يهمننا من ذلك كله هو المشروع الأرسطي وتصوره للبلاغة .

ففي كتاب "المواضع" انصب فكر أرسطو حول القول الجدلي كمفهوم حجاجي يدرس المسائل الفكرية الخلافية بقواعد منطقية ، فكانت أي قضية يختلف في حقيقتها إلا وأرجعوها للمنطق ، فيستحضرون عن طريق الجدل جملة من المقدمات يقوم عليها الاستدلال البرهاني ، والحال نفسه بالنسبة لكتاب "التبكيئات السفسطائية" ، حيث كان قصد أرسطو من تأليفه هو الوقوف على آليات الجدل السفسطائي واستخلاص قواعده مبينا أغاليطهم وتلاعباتهم في القياس ، بقي كتاب "الخطابة" الذي كان وضعه مختلف مما جعله محل اختلاف في نسبه للأرغانون ، ذلك أن أرسطو جعل الخطابة كصناعة إنسانية عمدتها التصديقات ، فدرس الحجاج في حديثه عن الخطابة وقال أنه يأتي كنتيجة تفاعلية للقول بين المتخاطبين ، مركزا على أخلاق القائل وردة فعل مخاطبيه ومقاماتهم وأوضاعهم¹ .

فمن الكتب نلني أن أرسطو أساس للحجاج في مشروعه البلاغي في كتاب الخطابة ، حيث بنى محتواه على مقدمة وثلاثة مقالات رئيسية على النحو التالي:

«المقدمة: وهي مدججة في المقالة الأولى ، حيث حدد فيها أرسطو طبيعة الخطابة وعلاقتها بالعلوم والفنون الأخرى مثل الجدل والأخلاق والسياسة والشعر ، وقسمها حسب المقامات إلى استشارية وقضائية وتقويمية "مدح وهجاء"»

- المقالة الأولى: الأخلاق والأدلة المناسبة والوسائل الإقناعية الصناعية الخاصة بالخطابة القضائية

- المقالة الثانية: الأحوال النفسية المؤثرة في المخاطبين والأقيسة الخطابية والأمثال

- المقالة الثالثة: الأسلوب وترتيب أجزاء القول²

إذا المتبع لكتاب الخطابة أو ما يعرف بـ "الريطورية" يلقي أنه بحث في الحجاج ، وحجاجيته تكمن في أهميته كبحث في الاستدلال ووسائل الإقناع ، منطلقا من الفروقات الجوهرية التي ميزت الخطابة عن باقي الصنائع الإنسانية ، فهي «قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحدة من الأمور المفردة ، وهذا ليس عمل شيء

1- ينظر: الحجاج عند أرسطو ، هشام الرفي ، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى

اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 97.

2- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، محمد العمري ، دار إفريقيا الشرق ، المغرب ، 1996 ، ص 271.

من الصناعات الأخرى»¹ ، وقوله الإقناع الممكن تعني أنها تبحث في ما هو محتمل ومتوقع وليس في ما هو حقيقة أو يقين .

والمتأمل للكتاب يجد أيضا أن أرسطو كان ينوي التفريق بين الخطابة والجدل ، وإن كان كل منهما ذو مرجعية منطقية ، فالخطابة تناسب الجدل في الصناعة حسبه ، ذلك أن كليهما يتمظهران من خلال المخاطبة ، وبالتالي يشتركان في موضوع واحد هو الجانب الاستدلالي² ، فبتفريقه بين البلاغة والجدل نكون أمام حجاجين: جدلي وبلاغي ، فالحجاج الجدلي نحو ما أورده أرسطو في كتاب المواضع ، ومفاده مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة ، لغاية التأثير العقلي المجرد ، ويقابله مناظرات علم الكلام في التراث العربي الإسلامي ، أما الحجاج البلاغي فنحو ما عرض له أرسطو في كتاب " الخطابة " ، فهو حجاج موجه للجمهور لذلك تجده يراعي الأوضاع والمقامات ، وإضافة إلى اهتمامه بالتفكير العقلي مثل الحجاج الجدلي ، فإنه يمتد إلى العاطفة وما تثيره من انفعالات ومشاعر لإفحام الغير والتأثير فيهم³ .

فالمنظور الأرسطي يقول أنه « يمكن أن نستعمل الاستدلال الحجاجي في الخطاب الفلسفي عامة والبلاغي خاصة ، بوصفه تلك المنهجية أو الطريقة العقلية التي يسلكها الفيلسوف والبلاغي والناقد والمبدع أيضا بهدف إرساء " حقيقة " معينة ، وما يقتضيه ذلك الإرساء من عمليات عقلية منطقية تدعم ذلك الطرح دعما حجاجيا من جهة ، وأساليب إفحامية توجيهية من جهة أخرى»⁴ ، ومهما تكن الآلية التي يلجأ إليها المتكلم في خطابه الحجاجي ، إفحامية أو عقلية فإنها بحمولتها الدلالية تفعل قدرته الاستدلالية لتأكيد حقيقة أو تغييرها ، أو إلزام مخاطبه للقيام بفعل أو العدول عنه .

تعد المشافهة خاصية لغوية بارزة في الفكر البلاغي منذ القدم ، ولأهميتها يمكن أن نعتبرها قوام الخطابة وعمودها ، فالمشافهة والسماع جوهر التخاطب الذي يتبدى من خلال التصويت اللغوي بين طرفين ، فأرسطو في تأسيسه لمشروعه البلاغي حدد الخطابة كونها كلام « مركب من ثلاثة: من القائل ، ومن المقول

1- الخطابة ، أرسطو طاليس ، تح: عبد الرحمن بدوي ، مرجع سابق ، ص 9.

2- المرجع نفسه ، ص 03.

3- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، مرجع سابق ، ص 17-18.

4- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، مرجع سابق ، ص 37.

فيه ، ومن الذي إليه القول ، والغاية إنما هي نحو هذا أعني السامع¹ ، فالحجاج كمفهوم استدلالى يتبدى حسبه في الجانب التواصلى كعمل إجرائى بين المتخاطبين يتغي كل منهما التأثير فى الآخر .

إن البعد الاجتماعى للغة جعلها متعددة الوظائف ، لكن هذه الوظائف لا تتحقق إلا من خلال التواصل الذى يأتى كفعالية اجتماعية غايتها التأثير ، ولعله هو ما يصنع الخطابة بالملح الحجاجى فى مشروع أرسطو خاصة وأنه منذ البداية جعل اهتمامه منصباً على الأثر الإقناعى للخطاب ، فقسم الخطابة تقسيم مقامى - يتناسب ومتلقى الخطاب - إلى مشورية ومشاجرية وتثبئية ، محدد لكل منها موضوعها وخصائصها ، فما كان من باب المشورة والأخذ برأى حول موضوع ما يدخل ضمن مشورية ، أما ما يدخل فى باب العدل والظلم فهو مشاجرية ، أما التثبئية فتتعلق بالمدح والمدح وما يدخل ضمنها من صفات² .

وحتى نقف على الملح الحجاجى فى بلاغة أرسطو فإنه يتعين علينا تحديد نظرتة للقول وكيفية إنتاجه ، وهى عبارة عن الشروط والعناصر الواجب توفرها فى أى خطاب ، وقد حصرها فى ثلاث ، حيث يقول : « إن اللاتى ينبغى أن يكون القول فيهن على مجرى الصناعة فثلاث : "إحدهن" : الإخبار من أى شيء تكون التصديقات ، و"الثانية" ذكر اللاتى تستعمل فى الألفاظ ، و"الثالثة" أن كيف ينبغى أن تنظم وتنسق أجزاء القول³ ، فوفق هذا المعطى - الذى يمكن أن نعتبره مراحل إنتاج القول - يتأتى الخطاب كممارسة اجتماعية بين المتخاطبين .

وحديثاً تأثر الدارسون خاصة المعاصرون منهم بمفهوم أرسطو للخطابة ، فجعلوا مصطلحات مقابلة لما وضعه فى مشروعه ، فوضعوا مصطلح الإيجاد كمرحلة أولى فى إنتاج القول وهو عند أرسطو "enuresis" ، وفيها يتم البحث عن مصادر الأدلة وتعد كآلية أساسية للحجاج ، ويأتى مصطلح الترتيب عندهم كمرحلة ثانية وقد أسماه أرسطو بـ "Taxis" ، ونعنى بها مرحلة ترتيب أجزاء القول ، وهى تأتى كتهيئة لما بعدها ، وهو الأسلوب الذى يأتى كمرحلة ثالثة وأخيرة فى القول ، وأطلق عليه أرسطو "Lexis" وتشمل ما يختاره القائل من ألفاظ ومحسنات ، وإضافة إلى هذه العناصر الثلاثة نجده يضيف عنصراً آخرال يتم أربعاً ، هو مصطلح الإلقاء " Hipocrisis " حسب الترجمة العربية لخطابة أرسطو ، وسماه الأصوليون بـ "الأخذ بالوجوه" نحو ما فعل ابن رشد فى تلخيصه للخطابة ، أما الغرب فقد أطلقوا عليه "مسرحة القول"

1- الخطابة ، تح: عبد الرحمن بدوي ، أرسطو طاليس ، مرجع سابق ، ص 16-17 .

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص 17 .

3- المرجع نفسه ، ص 181 .

نحو ما نجده عند بارث ، وتعني الهيئة أو الوجه الذي يكون عليها الخطيب أو القائل عموماً كي يصور الحالة التي يجب على مخاطبيه إدراكها¹.

وحتى يتضح لنا جلاء هذه العناصر لابد من استكشاف توجه أرسطو في تحديدها ، واستخلاص معطياته الفكرية التي أرساها لبناء مشروع البلاغي ، وهذا بيانها .

أ – الإيجاد / الظفر بالحجة: ونعني به الظفر بالشيء وحسن تدبيره ، وهو عمل يقوم به المتكلم في الممارسة الحجاجية ، حيث يحاول مناسبة الحجة مع سياق الاحتجاج ، حتى لا يترك مجالاً لمخاطبه لنقضها أو دحضها ، أو حتى استضعافها ، ومثله كذلك البصر بالحجة² أي إيجاد الحجج الدامغة التي لها قوة وفاعلية تساعد القدرة الاستدلالية للمحاجج ، و« الخطيب لا يتدع تلك الحجج أو ينشئها بالنص على غير رسم ، وإنما هي موجودة يكتشفها أو يكشف عنها يجدها في المشهورات والمواضع وما عليه إلا أن يربط بينها حتى تكون بنيتها الاستدلالية محكمة»³ ، ونعني بالمشهورات ما يشترك في معرفته جميع الناس من أقوال ، مما يجعل المتحاجين يتجاوزان النقاش فيه .

وقد قسم أرسطو الحجج إلى قسمين وذلك حسب طبيعتها ، قسم التصديقات الصناعية أو الحجج الفنية كما يسميها محمد غنيمي هلال ، وهي ما يجتهد فيه المتكلم من حجج لتدعيم خطابه ، وهو الجانب الأهم في العملية الحجاجية حيث به يستطيع الخطيب تحديد مسالك الحجاج بالمفهوم الأرسطي ومن ثم تشكيل الخطاب الحجاجي لذلك يجب عليه الحرص أيم حرص في استحضارها ، والقسم الثاني هو التصديقات غير الصناعية أو غير الفنية ، وتعنى بمجالات مختلفة ، وقد تكون موجودة من قبل ، خاصة ما تعلق بالقضاء نحو القوانين والشهود والعذاب والأيمان ، وأهم ما يميز هذه التصديقات أنها تقوم باستكشاف المواضع ، أي تحديد الجهات التي ينبغي أن يصرف المتحاجان ذهنيهما في امتحانها القضية محل الدرس⁴.

1- ينظر: الحجاج عند أرسطو ، هشام الريفي ، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 173-174.

2- ينظر: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح "مقال" ، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 14.

3- المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

4- ينظر: الحجاج عند أرسطو ، هشام الريفي ، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 186-188 / وينظر: النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1997 ، ص 99.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحجج التي يأتي بها المتكلم كتصديقات صناعية " فنية " فإنها «أنواع» ، فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته ، ومنها ما يكون بتهيئة السامع واستدراجه نحو الأمر ، ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل التثبيت»¹ ، وفي خضم هذا التقسيم يظهر لنا أن أرسطو يحدد ملامح التواصلية ويجسدها كفعالية تخاطبية تقوم على الاستدلال الحجاجي ، فتأتي بمصطلح "الأيثوس" وخصه بشخصية المتكلم صاحب الخطاب ، وكذلك مصطلح "اللوغوس" الذي يعنى بمحتوى الخطاب ومضمونه ، كما جعل مصطلح " الباتوس" متصل بمشاعر السامع متلقي الخطاب² ، فهذه العناصر مجتمعة تتفاعل فيم بينها لتشكيل بنية الخطاب الحجاجي الذي يقوم على الاستدلال وغايته الإقناع العقلي .

إذن الحجج الصناعية " الفنية " هي جوهر المحاجة الخطابية في المشروع البلاغي لأرسطو « وهذه الحجج بأنواعها الثلاثة يقسمها أرسطو إلى قسمين كبيرين: حجج خلقية ذاتية ، وأخرى منطقية موضوعية»³ ، فالحجج الخلقية الذاتية تتعلق بالجانب النفسي في العملية التخاطبية وتضم خلق المتكلم وشخصيته فيراعى مقامه ومكانته ومدى صدقه من جهة ، ومشاعر السامع وانفعالاته وما يتبعها من لذة أو ألم أو تردد من جهة أخرى ، أما الحجج المنطقية الموضوعية فتخص " اللوغوس" أي محتوى الخطاب وما يحمله من دلالات ، فتأتي كقوة حجاجية يستدل بها الخطيب لإقناع مخاطبه⁴ .

ب - الترتيب: يأتي الترتيب كمرحلة ثانية في تشكيل الخطاب الحجاجي ، ويتم بعد الظفر بالحجج حيث يفكر الخطيب في كيفية ترتيبها ، فيضع كل حجة في مكانها المناسب ، حتى يتأكد من تمكنها في المخاطب⁵ ، فعملية الترتيب تحتاج جهد كبير من الخطيب لما يقوم به من تفكير وتمعن في استحضار الحجج واختيار موضع كل منها ، خاصة وأنه - الترتيب - شديد الصلة بأسلوب الخطيب في عرض حججه .

ج- الأسلوب: عادة ما يقترن مصطلح الأسلوب بلغة الخطاب وعباراته ، وهو يأتي ثالث مراحل العملية الحجاجية ، فمن خلاله تظهر قدرة الخطيب الاستدلالية ، وبه تكشف عن النمط المعتمد في طرح أفكاره وعرض حججه التي ظفر بها ، فكلما كان الأسلوب واضحاً ودقيقاً وبعيداً عن الخطأ إضافة إلى

1- الخطابة ، أرسطو طاليس ، مرجع سابق ، ص 10.

2- تاريخ نظريات الحجاج ، فيليب بروتون وجيل جوتييه ، ترجمة: محمد ناجي صالح الغامدي ، مرجع سابق ، ص 32.

3- النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، مرجع سابق ، ص 100.

4- ينظر: المرجع نفسه ، ص 100-101.

5- ينظر: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح "مقال" ، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى

اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 14.

استعمال المجاز تزيد قوة الخطاب الاستدلالية، « وتعود أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة»¹، لذلك على المتكلم أن يعي جيدا كيف يتكلم لأن من أساسيات الخطابة عند أرسطو، ويختلف الأسلوب من مقام إلى آخر وذلك حسب طبيعة الموضوع ونوعية المخاطبين.

ثانيا: الحجاج في الدرس البلاغي العربي القديم

اهتم الإنسان باللغة منذ القدم لما كان لها من ارتباط وثيق بكيونته، فالوجود الإنساني جعل البشر في حاجة ماسة للتواصل مع بعضهم بعضا، فاتخذوا من الإشارات والحركات والخطوط وباقي وسائل الترميز الدالة لغة وأداة للتواصل والتعبير عن أغراضهم، ليصلوا في الأخير إلى الدلالة بالصوت اللغوي، فكانت أدق وسائل الترميز دلالة وأحسنها إيصالا للمعنى، فالدلالة بالصوت البشري هي قمة التواصل اللغوي، ذلك أنها تمتاز بخاصية المشافهة والتعبير باللفظ المنطوق، ولما كان التواصل في حد ذاته وظيفة أساس للغة، وغايته تأثيرية، فإنه في حقيقة الأمر استدراج للغير قصد إفهامه، وبالتالي فهو دعوة صريحة للإقناع، للقيام بفعل أو تركه أو تعديل سلوك أو تغييره، وهو ما يجعل « الحجاج في الأصل طبيعة بشرية وفطرة جبل عليها الإنسان واكتسب بعض آلياتها البدائية اكتسابا وذلك للطبيعة الاجتماعية التي تقوم على مبدأ التواصل»²، فيأتي الحجاج مسترسلا في الكلام، يلجأ بواسطته « كل طرف إلى عرض أفكاره التي يتواصل بها مع غيره، عرضا مقنعا؛ سواء تعلق الأمر بتنظيم تلك الأفكار وترتيبها ترتيبا منطوقيا، وفق ما هو متعارف عليه بين أعضاء المجتمع، أو تعلق بالبحث عن الحجج الكافية أو الضرورية لدفع آراء الخصم وحججه»³ في العملية التواصلية.

ولأهمية الحجاج وصلته بالتخاطب دأبت على البحث فيه الأمم والحضارات على اختلافها، فاشتركت « في اللجوء إلى استعمال الأساليب اللغوية لبناء أدلة الإقناع وتكوين الحجة المناسبة في هذه العملية

1- في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، مرجع سابق، ص 97.

2- تطور بناء الخطاب الحجاجي عند المتكلمين وعلماء الدين في الثقافة العربية الإسلامية، ابتسام صغيور، مجلة المعيار،

كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ع 17، جوان 2017، ص 40.

3- في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام الرسالة الجوابية للحسن البصري على رسالة عبد الملك بن مروان نموذجا، علي

الإدريسي، مقال ضمن كتاب: التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه، هوو النقازي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب،

ط 1، 2006، ص 81.

التواصلية»¹ ، فالفلسفة اليونانية استوحت بلاغتها من صراع الأهالي حول العقار والممتلكات ، الأمر الذي أدى إلى الخصومات والمشاجرات ، فانتهى التنازع بينهم إلى مرافعات قضائية داخل المحاكم ، فكانت السلطة والغلبة لمن كان يجيد القول وفن التأثير ، ولو بالمكر والخداع وتزييف الحقائق نحو ما فعله السفسطائيون ، والأمر سيان بالنسبة للعرب - مع اختلاف الظروف والمنطلقات - فقد قامت حضارتهم على البلاغة بصفقتها فن القول ، وأرسوا دعائمها منذ الجاهلية من خلال ديوانهم الشعري الذي كان مهاد البلاغة ، ومنه أسسوا للخطابة كفن مواز للشعر .

ولما بزغ نور الإسلام جاء القرآن الكريم حجة إعجازية للعالمين ، وكذلك كان الحديث النبوي الشريف ، وفي ذلك يقول الجاحظ: « إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة»² ، فهذه الرؤية البلاغية للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تعد أولى وجوهها الإعجازية ، ذلك أنها جاء ليحاجا ببيانها ونظمها العرب أنفسهم - وهم أهل بلاغة وبيان - بأسلوب استدلاي لا ينفك أن يكون إقناع لفعل أمر أو تركه ، أو نهي عن سلوك أو الحث عليه ، « ومن أكبر الدلالة على ما حذوقه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم ﷺ وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة . وهي دعوة تدل في وضوح على ما أوتوه من اللسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام كما تدل بصرهم بتميز أقدار الألفاظ والمعاني وتبين ما يجري فيها من جودة الإيفهام وبلاغة التعبير»³ ، فأعجزهم وهم في عقر دارهم وأنزل عربي حال لسانهم .

إن بداوة العرب جعلتهم أهل لدّ وخصام وحجة دفاعا عن الحق ، فجاءت آيات القرآن كخطاب فصل بلاغة وبيانا ، فخاطبهم الله حسب طبيعتهم ، ووقف على مراسهم الجدلي وشدتهم في الخصام في مواضع عديدة ، منها ما ورد عن سلاطة ألسنتهم قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِألسِنَةٍ حَدَادٍ ﴾⁴ ،

1 - في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام الرسالة الجوابية للحسن البصري على رسالة عبد الملك بن مروان نموذجا ، علي الإدريسي ، مقال ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه ، هو النقازي ، مرجع سابق ، ص 81 .

2 - البيان والتبيين ، الجاحظ أبو عثمان ، الكتاب الثاني ، ج 1 ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،

ط 7 ، 1998 ، ص 114 .

3 - البلاغة العربية تطور وتاريخ ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط 9 ، القاهرة ، 1995 ، ص 09 .

4 - سورة الأحزاب ، الآية 19 .

وعن ميزتهم الجدلية قوله: ﴿ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾¹ ، في حين يقول في شدتهم وقوة خصامهم: ﴿ وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ ﴾² ، فيظهر لنا أن العرب في الجاهلية كانت لهم دراية بآليات الخطابة ومجابهة الكلام ، حيث كان فن القول سبيلهم في الدفاع عن الحق أو سلبه من صاحبه ، وبالتالي فظروف نشأة الخطابة في مفهومها البلاغي العربي لا يختلف كثيرا عن ظروف نشأتها في البلاغة اليونانية .

إن الملمح الحجاجي للقرآن الكريم يكمن في وجهه الاستدلالي الداعي للاقتناع بالدعوة المحمدية ، فنزلت آياته وفق استراتيجية خطابية مفعمة بالأساليب الحجاجية ، فجاء النص القرآني يتماشى وتداعيات النظرية الحجاجية من أسس وآليات ، فمن مفاهيم الحجاج أنه يقوم على قضية مختلف في حقيقتها تؤدي إلى جدل يستدعي الدليل لإحقاقها ، وفي ذلك تشير الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ مُحَاجِّجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾³ ، فالمحاجة تقوم على الدليل ومقارعة الحجة بالحجة ولعل القرآن الكريم أورد عديد الآيات التي تؤكد جدال الأنبياء مع خصومهم من أقوامهم وكيفية دحضهم لحججهم ، يقول تعالى: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾⁴ ، ولأن القرآن الكريم حجة الرسول ﷺ في دعوته فقد جاء في وجه استدلاله للعالمين جميعا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾⁵ ، فهي دعوة صريحة من المولى عز وجل لرسوله الكريم ﷺ ليحمل رسالته السهاوية ، « ومن هذه المرجعية ، ومن تراث الإنسانية المشترك ، راح المسلمون يحاور بعضهم بعضا ويناطروا ؛ بحثا عن مخارج لما استشكل عليهم من قضايا ، أو ما استجد في حياتهم من أمور لم يألفوها في العهد الأول للإسلام »⁶ ، وتبلور ذلك في سياقات عدة نلمس فيها المفهوم الحجاجي ، نحو ما نجده في مناظراتهم ودرسهم للغة والبلاغة وعلم الفقه وأصوله ، وعلم الكلام .

1- سورة الزخرف ، الآية 58 .

2- سورة البقرة ، الآية 204 .

3- سورة آل عمران ، الآية 66 .

4- سورة البقرة ، الآية 111 .

5- سورة سبأ ، الآية 28 .

6- حمو النقاوي ، في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام الرسالة الجوابية للحسن البصري على رسالة عبد الملك بن مروان

نموذجا ، علي الإدريسي ، مقال ضمن كتاب: التناجج طبيعته ومجالاته ووظائفه ، مرجع سابق ، ص 83 .

1: الحجاج عند البلاغيين

أ- الحجاج عند الجاحظ

أشار العلماء العرب القدامى إلى الحجاج عند حديثهم عن اللغة والبلاغة والبيان، وأكدوا أن اللغة ظاهرة اجتماعية غايتها التعبير والتواصل بين بني البشر، وقولا بأنه لا تواصل بدون حجاج فقد ركزوا على الجانب الاستدلالي للغة وما تقوم به من دور في الفهم والإفهام في العملية التخاطبية، وملامح الحجاج تظهر جليا عند الجاحظ في حديثه عن البيان الذي «يرد بمعنى الإيضاح والإفصاح، من هنا يكون البيان ذو علاقة بالخطاب حيث يعني بالإبانة والإرسال أو الإبلاغ المبين الذي يتم عبر اللغة وغيرها»¹، ويتضح ذلك أكثر في حديثه عن التواصل مركزا على اللفظ لما يمتاز به من قوة في التأثير فيقول: «أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة»²، ولأن غاية التواصل الإقناع فقد تدرج الجاحظ في سرد هذه الأصناف الدلالية من أقواها تأثيرا إلى أدناها جاعلا الملفوظ الكلامي في أعلى الترتيب لما له من قوة في التأثير وقدرة على الاستدلال الحجاجي.

وفي حديثه عن البيان يشير إلى آليات الاستدلال التي يمكن أن نستخلص منها مفهوم الحجاج بقوله هو: «اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع على حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»³، فمن هذا التعريف يتبين لنا أن الجاحظ قد أشار إلى الحجاج في أبحاثه البلاغية وذلك في تحليله للعملية التواصلية.

لقد أولى الجاحظ في تفكيده للبلاغة أهمية بالغة للخطاب الإقناعي فوقف على آلياته وتقنياته وخصوصيته الخطابية، فيقول: «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوق»⁴، فهو يشير

1- البلاغة والاتصال، عبد المجيد جميل، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص143-144

2- البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان، الكتاب الثاني، ج1، مرجع سابق، ص76.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- المرجع نفسه، ص92.

يشير إلى الشروط الواجب توفرها في الخطاب من تخير للفظ ومطابقتها مقام السامعين ، وبحديثه عن التهيئة النفسية للخطيب وما تقوم به من دور في العملية الخطابية يكون قد أشار إلى الإستراتيجية الإقناعية في أبعاد صورها ، فيقول مستشهدا بصحيفة بشر بن المعتمر ، « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرها وأشرف حسيا وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطاء ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاناة»¹ ، ومن مظاهر اهتمامه بالإقناع التفاتته للخطيب وقدرته في تحقيق هدفه بدقة التعبير عن مقصوده ، وفي ذلك يورد أن العرب « يقولون في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز "فلان يُفْلُ المَحَزَّ ، ويصيب المَفْصَل" ، وأخذوا ذلك من صفة الجزار فجعلوه مثلا للمصيب الموجز»² ، ومن ثم جرت العادة على التعبير بجيد معناه .

وعن البلاغة يورد الجاحظ مفهومها عند الهنود ، حيث يقول: «جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواقع الحجة»³ ، فإيجاد الحجج وترتيبها في أسلوب استدلاي هي أهم مراحل العملية الحجاجية ، لذلك على الخطيب أن يكون له فكرا وقادا قادرا على تقصي الحجج ووضعها وضعا صحيحا يزيد من فاعلية الخطاب ، ولعل الملمح الاستدلاي للحجاج لدى الجاحظ يظهر جليا من تحديده لشروط البيان فيقول: «البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة وإلى تمام الآلة ، وإحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة النطق إلى الخلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق ، وتزين به المعاني»⁴ ، فالطابع الشفوي للخطابة يجعلها تركز على جهارة الصوت وسلامة المخرج ، علاوة على إحكام صنعة الكلام بآلة البلاغة للتأثير في المخاطبين .

والمتمتع لبيان الجاحظ وتبينه يلفيه صريح العبارة في أن الحجاج في منظوره وجه من وجوه البلاغة حيث يقول: «البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون

1- البيان والتبيين ، الجاحظ أبو عثمان ، الكتاب الثاني ، ج1 ، مرجع سابق ، ص135-136 .

2- المرجع نفسه ، ص106 .

3- المرجع نفسه ، ص88 .

4- المرجع نفسه ، ص16 .

ابتداءً ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل¹ ، فتعدد الوجوه البلاغية يجعل منها مجالا لتعدد الأساليب الإقناعية ، وما دامت البلاغة هي فن القول الذي يعتمد على اللفظ وحسن تخييره ، فإن هذا القول بحاجة إلى بعض المصاحبات الكلامية التي تزيد من قدرته الاستدلالية أو قد تحل محله نحو الإشارة واللون ، والخط ، وقسمات الوجه ، ... وغيرها ، وعن الإشارة وعلاقتها باللفظ يقول الجاحظ: « الإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه . وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط »² ، فتصيب المعنى وتتم الفهم .

فالكلام عند الجاحظ هو أساس البلاغة ، لذلك اهتم بالفعل اللغوي واعتبره الأساس لكل عملية بيانية حجاجية ، وهو ممارسة اجتماعية للغة تضطلع في حياة الفرد بوظيفتين أساسيتين أولاهما: الوظيفة الخطابية وما ينضوي تحتها ، خاصة ما تعلق بالإلقاء ومناظرة الخصم ومنازحته بالحجج حتى يقتنع ، وهذه الوظيفة الخطابية تتحقق وفقا لثلاثة محاور: محور ديني يضم خطب النبي ﷺ ، وخطب الصحابة ، ومحور سياسي يضم خطب السياسة ورجالها نحو خطب الحجاج وزياد وخصومهما ، ومحور ثالث جدلي مذهبي ظهر نتيجة للصراع الفكري الذي عرفه المسلمون منذ نهاية العصر الراشدي ، وثانيها وظيفة بيانية تتعلق بالفهم والإفهام وهي مستوحاة من البيان والتبيين ، وهي الغاية التي يسعى لتحقيقها البيان³ .

يمكن أن نخترل مفهوم الحجاج عند الجاحظ من تحديده للبيان ، فحصره في الكلام الذي يعتبر ركنا أساس في العملية التخاطبية ، ورأى أنه تتنازعه وظيفتان ؛ إحداهما إفهامية تعنى بالمقام وعناصره وما يتصل بها ، وأخرى إقناعية تعنى بمعرفة أحوال المخاطبين وتمام الآلة وإحكام الصنعة وحسن ترتيب الحجج ، وهكذا يتبين لنا أنه حصر جهده البلاغي في النص كملفوظ والمتكلم كمتلفظ ؛ فالنص يأتي كبنية لغوية قائمة بذاتها مستقلة عن سياقاتها وملابسات إنجازها ، فيأتي المتكلم للقيام بفعل التللفظ وفق مقام معين يحدده المتكلم والسامع والزمان والمكان ، فيخرج بذلك النص من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل⁴ ، لذلك ينبغي عليه كما يرى الجاحظ « أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ،

1- البيان والتبيين ، الجاحظ أبو عثمان ، الكتاب الثاني ، ج1 ، مرجع سابق ، ص115-116 .

2- المرجع نفسه ، ص78 .

3- ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، مرجع سابق ، ص212 .

4- ينظر: المرجع نفسه ، ص214 .

ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات¹ فمراعاة مقتضيات المقام المصاحبة للقول الذي تنادي به البلاغة العربية تعد دعامة أساسية وإستراتيجية إقناعية في الاستدلال الحجاجي .

وما يجب التنويه إليه أن النزعة الحجاجية للجاحظ لم تأت من فراغ ، ولم تكن من باب الصدفة ، ولكن هناك جملة من العوامل التي جعلته ينطلق في مشروعه البلاغي من مرجعيات فلسفية ، ولعل أهمها مذهبه الكلامي الذي جعله معتزلي التفكير ، فأعمل عقله في مجابهة خصومه للدفاع عن آراءه بدحض أقوالهم ، ومن خلال التدبر والتفكر ومحاولة قرع الحجة بالحجة اكتسب مهارة الاستدلال الحجاجي ، فحاول تجسيدها في مشروعه البلاغي بالوقوف على معنى البلاغة والبيان .

ب: الحجاج عند السكاكي

تبلور الدرس البلاغي عند العرب في مفهوم البلاغة والبيان فخص بتراكيب الكلام ومدى مطابقتها للمقام ، وحال السامعين ، ولعل الجهد الذي قام به السكاكي في إرسائه لدعائم البلاغة يعد بحثاً فريداً شديداً الصلة بالحجاج ، فالمقام ومقتضى الحال من القضايا البلاغية التي ركز عليها السكاكي في حديثه عن البيان ، ملزما المتكلم بإيراد كلامه حسب مقام السامعين وحالاتهم ، فمفتاح السكاكي يعد جماع الجهود البلاغية التي سبقتها ، فقام بتبويب البلاغة وتبيان علومها ، المعاني والبيان والبديع ، مركزاً على دور المقام ومدى مطابقتها في تحديده لمفهوم البلاغة .

فعن علم المعاني وعلاقته بالمقام مقتضى الحال يقول: « اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره² ، والحال نفسه نجده في حديثه عن علم البيان ، حيث يقول: « وأما علم البيان: فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة ، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه ، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه³ ، فبلاغة الكلام هي إفادته ، ولا يتحقق ذلك إلا بورود معناه في أحسن صياغة تركيباً ، وبأحسن الوجوه بياناً .

1- البيان والتبيين ، الجاحظ أبو عثمان ، الكتاب الثاني ، ج1 ، مرجع سابق ، ص138-139 .

2- أبو يعقوب السكاكي ، مفتاح العلوم ، تح: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، دط ، ص161 .

3- المرجع نفسه ، ص 162 .

وحتى يتضح المقام أكثر يورد وجوهه المختلفة التي قد يرد عليها الكلام ، فيقول: « ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنتة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ... وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي ، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر¹ ، والمبدأ نفسه تشير إليه الدراسات التداولية الحديثة في بعدها الوظيفي ، حيث أسست للعملية التخاطبية انطلاقاً من المقام وعناصره ، ومن ثم فالعملية التواصلية فعالية حجاجية بنيت على مقام اختلاف يستدعي لجوء المتخاطبين إلى الاستدلال بجملة من الحجج .

وعن أهمية المقام وفاعليته البلاغية ، فتتضح أكثر حسب السكاكي أثناء الكلام فيقول: « ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبها مقام ، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول ، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو نسميه مقتضى الحال² ، فاحترام أقدار السامعين ومخاطبتهم حسب عقولهم من الأساليب البلاغية التي يمكن أن تكون آلية حجاجية تهدف للإقناع .

وانطلاقاً من المقام ومقتضيات القول التي تفرض على المتكلم عبارات مخصوصة تشير إلى التفكير الحجاجي في بلاغة السكاكي ويكمن في الجانب الاستدلالي من خلال إدراجه المقام في علمي المعاني والبيان فيقول: « إذا تحققت أن علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها بحسب ما يفني به قوة ذكائك ، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها وشعبة فردة من دوحتها ، علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان³ ، فهو يؤكد أن القدرة على مطابقة الكلام ومقتضاه ، ما هو إلا قدرة على بناء خطاب استدلالي ، وغاية المتكلم من كل منهما التأثير والإقناع .

والمتتبع لمعالم البلاغة عند السكاكي يجد في مفتاح العلوم إشارة صريحة إلى حاجة تراكيب الكلام للاستدلال ، ولأدل على ذلك ربطه الاستدلال بعلمي المعاني والبيان ، وكذا حثه على أن معرفة أصول البيان من كناية وتشبيه واستعارة ما هو في الأصل إلا دراية بنظم الدليل ، وذلك من باب أن الكلام في جوهره

1- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، ص 168 .

2- المرجع نفسه ، 168 - 169 .

3- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، تح: عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، ص 543 . نقلاً

عن: خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدي ، عباس حشاني ، عالم الكتب ، الأردن ، ط 1 ، 2014 . ص 35 .

بحاجة « إلى تكملة علم المعاني وهي تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال ، ولولا إكمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني وعظم الانتفاع به لما اقتضانا الرأي أن نرخي عنان القلم فيه ، علمنا بأن من أتقن أصلا واحدا من علم البيان كأصل التشبيه والكناية والاستعارة ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به أطلعته ذلك على نظم الدليل»¹ ، فالعملية التواصلية في أساسها عمل استدلاي يقوم على نظم الدليل وحسن توظيفه حتى يحقق المتكلم مقصوده ، ولا يتأتى ذلك إلا بالوقوف على تراكيب الكلام وخصوصيتها من جهة ، ومراعاة مدى مطابقتها المقام ومقتضى الحال من جهة أخرى .

إذا نظم الدليل في بلاغة السكاكي يكمن في إحقاق الخصوصية المطلقة لكل تركيب وتكمن في « الربط بين كفيته وصورته ووظيفته التخاطبية في هذا المقام أو ذاك ، لذلك اعتبر السكاكي العلاقة بين التركيب والقصد منه بمثابة علاقة ملزوم ولازم ، يجري فيها قصد المتكلم الذي يضع عليه دليلا في التركيب مجرى اللازم عن التركيب والذي يصاغ على صورة من الصور فتدخل هنا اعتبارات تجاوز كيفية التركيب لتدرج فيها قضايا مقامية وخطابية وتخاطبية يكشف عنها مفهوم "مقتضى الحال"² ، ومن خلال التركيب يتبادر للمخاطب مقصود المتكلم بمجرد سماعه .

فمقتضى الحال مثله مثل مقام الكلام نستشف منه الملمح الحجاجي في المشروع البلاغي للسكاكي ، حيث بدوره يخضع القول لاعتبارات الضعف والقوة التي يستعملها المتكلم تعزيزا لقدرته الاستدلالية ، « فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة»³ ، كأن يدرك المخاطب من خلال التركيب المؤكد بأداة توكيد واحدة أن المتكلم ينفي شكا لاحظته عليه ، أو يفند إنكاره بأداتي توكيد إذا رآه في حالة إنكارية .

وفي نفس السياق يظهر لنا البعد المنطقي في تفكير السكاكي من تحديده لعلمي المعاني والبيان ، ونبداً بعلم المعاني ، حيث يرى بأنه: « تتبع تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»⁴ ، وهنا إشارة صريحة إلى

1- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، مرجع سابق ، ص 544 .

2- الاستدلال البلاغي ، شكري المبخوت ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط 2 ، 2010 ، ص 74-75 .

3- مفتاح العلوم ، السكاكي ، مرجع سابق ، ص 169 .

4- المرجع نفسه ، ص 161 .

احتكام البلاغة إلى دواعي القول ومراعاتها لخصوصية كل تركيب، ونراه يسترسل مفصلاً المقصود من تراكيب الكلام وخصائصها قائلاً: «وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عن سواهم، وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جارياً مجرى اللازم له، لكونه صادراً عن البليغ لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو هو أو لازماً له لما هو هو حيناً»¹، فهو حصر تراكيب الكلام في المتكلم البليغ ومن كانت له معرفة بأصول البلاغة - لما له من قدرة على الإفهام وتأدية المعاني بدقة فيسهل على المخاطب فهمها قبل سماعها.

وحتى تتضح الصورة أكثر يشرح عملية الفهم محددًا مستوياتها حسب مقتضى الحال الذي أشرنا له سابقاً فيقول: «وأعني بالفهم: فهم ذوي الفطرة السليمة مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب: "إن زيدا منطلق" إذا سمعته عن العارف بصياغة الكلام من أن يكون مقصوداً به رفض الشك أو رد الإنكار، أو من تركيب: "زيد منطلق"، من أنه يلزم مجرد القصد إلى الإخبار، أو من نحو "منطلق" بترك المسند إليه من أنه يلزم أن يكون المطلوب به على وجه الاختصار مع إفادة لطيفة مما يلوح بها في مقامها»²، فالتركيب حسب السكاكي يرد حسب المقام الذي تفرضه العملية التخاطبية وموقف المخاطب من الكلام.

ووفق هذا المفهوم يتبدى لنا أن المعنى في تراكيب الكلام العربي المين تأتي على مستويين؛ أولهما المعنى العادي أو ما يطلق عليه بالمعنى "العامي"، وسمي كذلك لأنه يفهم من صريح العبارة، وغالباً ما يأتي لغاية إخبارية تفيد المتلقي خالي الذهن كقولنا "إن زيدا منطلقاً"، أي مجرد وقوع فعل الانطلاق من زيد، والمعنى نفسه تكاد تؤديه عبارة "زيد منطلق" التي تفي بغرض المتكلم لإخبار مخاطبه بانطلاق زيد، ثانيهما المعنى البلاغي ويفهم من نفس العبارة بمراعاة خاصية التركيب فيها، بوروده توكيداً بالحرف "إن"، وقد استعمله المتكلم لما لاحظ أن السامع في حالة شك في انطلاق زيد، أو منكره³.

وبنفس المعنى المنطقي يذهب السكاكي في تعريفه لعلم البيان، فهو عنده علم «معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليحرز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في

1- مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، مرجع سابق، ص 161.

2- المرجع نفسه، ص 162.

3- ينظر: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة

العربية، بيروت، لبنان، ط 9، 2009، ص 95.

مطابقة الكلام لتمام المراد منه»¹ ، وبهذا الطرح يتبين لنا أن البيان علم يهتم بمطابقة الكلام للمراد منه ، أي مطابقة الكلام مع مقصود صاحبه وهو مركز اهتمامه ، وبالتالي فهو يعنى بالموقف الداخلي ، بينما يهتم علم المعاني بالموقف الخارجي فيعنى بمطابقة الكلام لمقتضى الحال مركزا اهتمامه على حال السامع² .

وينبه السكاكي إلى « أن محاولة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه ، والنقصان بالدلالات الوضعية غير ممكن»³ ، ولعل ذلك راجع حسب رأيه إلى أنك «إذا أردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلا ، وقلت: خد يشبه الورد ، امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه في الوضوح أو أنقص»⁴ ، ذلك أن الدلالات الوضعية وإن كانت تؤدي معاني متفق عليها تكاد لا تبين عن المعنى الحقيقي الذي يرومه المتكلم ، لذلك «فإنك إذا أقمت مقام كل كلمة منها ما يرادفها ، فالسامع إن كان عالما بكونها موضوعة لتلك المفهومات ، كان فهمه منها كفهمة من تلك من غير تفاوت في الوضوح ، وإلا لم يفهم شيئا أصلا»⁵ ، ولعل ذلك ما جعل السكاكي يبعد الدلالات الوضعية من البيان ، وجعله ممكنا «في الدلالات العقلية ، مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر ولثان ولثالث ، فإذا أريد التوصل بواحد منها إلى المتعلق به ، فمتى تفاوتت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخفائه ، صح في طريق إفادته إلى الوضوح والخفاء»⁶ رغم اختلاف طرقها .

فمجال علم البيان هو الوقوف على أنواع الدلالات التي يوردها المتكلم من خلال تراكيبه اللغوية ، لذلك « لا شبهة في أن اللفظة متى كانت موضوعة لمفهوم ، أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع ، .. ، ومتى كان لمفهومها ذلك ، ... تعلق بمفهوم آخر ، أمكن أن تدل عليه بوساطة ذلك التعلق بحكم العقل ، سواء كان ذلك المفهوم الآخر داخلا في مفهومها الأصلي ، كالسقف مثلا في مفهوم البيت ، ويسمى هذا دلالة التضمن ، ودلالة عقلية أيضا ، أو خارجا عنه ، كالحائط عن مفهوم السقف ، وتسمى هذه دلالة الالتزام ؛ ودلالة عقلية أيضا»⁷ لأن المخاطب لا يصل إليها إلا بالعقل .

1- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، مرجع سابق ، ص 70 .

2- ينظر: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، محمد عابد الجابري ، مرجع سابق ، ص 97 .

3- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، مرجع سابق ، ص 329 .

4- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

5- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

6- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

7- المرجع نفسه ، ص 329 - 330 .

إذن فالبيان عند السكاكي قوامه الدلالات العقلية ، ولأنها لا تقوم إلا على « الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه ، ظهر لك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني»¹ ، وتأتي الدلالة الالتزامية بمنظور السكاكي من جهتين « جهة الانتقال من ملزوم إلى لازم وجهة الانتقال من لازم إلى ملزوم.... علمت انصباب علم البيان إلى التعرض للمجاز والكناية: فإن المجاز ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم كما تقول رعينا غيثا ، والمراد لازمه وهو النبت»² ، وهو أسلوب حجاجي يسهم في إنتاج الخطاب الحجاجي ، ووظيفته الحجاجية تكمن في خصوصيته البيانية التي تدعو لانتقال المعاني على وجه اللزوم ، والأمر سيان بالنسبة للكناية فوجه البيان فيها أن تنتقل المعاني « من اللازم إلى الملزوم كما تقول فلان طويل النجاد ، والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد ، فلا يصار إلى جعل النجاد طويلا أو قصيرا إلا لكون القامة طويلة أو قصيرة» ، وبذلك تعد الكناية من أساليب البيان الحجاجية ، وحجاجيتها تكمن في خصوصيتها البيانية وما تقوم به من نقل للمعاني على وجه اللزوم .

وحتى يتضح منطق السكاكي ومدى احتكامه للعقل في مشروعه البلاغي ، نعرض الأمثلة التالية:³

1 - زيد كريم

2 - زيد سخي

3 - زيد كالبحر

4 - استضافنا البحر "وأنت تقصد زيد".

5 - زيد كثير الرماد.

فهذه الأمثلة وإن اختلفت معانيها تعتبر من تراكيب الكلام التي يوردها المتكلم على أوجه شتى ، فالكلمتان كريم وسخي في المثالين "1" و "2" غير مترادفتين ، إلا أنهما يشتركان في الدلالة الوضعية ، وبالتالي فهما تؤديان نفس الدلالة في المثالين ، لكن لو تأملنا المثال الثالث لألفيناه يحمل معنى خفي لا يظهره تركيب القول الذي جاء على وجه التشبيه بيانا ، الأمر الذي يحوج المخاطب إلى استحضار الاستدلال العقلي لتحديد العلاقة الضمنية الموجودة بين زيد والبحر ، والمتمثلة أساسا في المنح والسخاء مثلا ، ودرجة الخفاء تزداد قوة في المثال الرابع إذا قصدنا زيدا الكرم ، الذي ورد على وجه الاستعارة ، وهي من أوجه البيان تتطلب

1- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، مرجع سابق ، ص 330.

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- الاستدلال البلاغي ، شكري المبخوت ، مرجع سابق ، ص 79.

استدلالات مقالية ومقامية أقوى، وبنفس الآلية الاستدلالية يمكن الوصول إلى سخاء زيد في المثال الخامس¹.

وصفوة القول أن الملمح الحجاجي في بلاغة السكاكي يختصر في علمي المعاني والبيان، ذلك انه يركز على المقام ومطابقة الكلام لمقتضى الحال من جهة، ومن جهة أخرى يحرص على معرفة القواعد التي يرد بها المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة، ومن ثم فهما « يشتركان في أنهما يعالجان الدلالات الاستدلالية غير الوضعية، ولكن هذه الدلالة الاستدلالية تقوم في علم المعاني على البحث في دلالة الكلام من حيث خصائصه التركيبية في علاقتها بالخصائص التخاطبية المقامية، في حين أن الدلالة الاستدلالية في علم البيان تقوم على البحث في تعامل منطوق القول وضمنياته التي يقصد إليها المتكلم في مقام من المقامات² المختلفة. هذا وقد ذيل السكاكي مفتاحه بتكملة لعلوم البلاغة في تحليله لنظام الخطاب وعلاقته بنظام العقل، فخصها بخواص تراكيب الكلام في الاستدلال بمختلف أنواعه، خاصة ما تعلق بالقياس المنطقي الأرسطي، مبينا أن آليات التفكير عند ممارسة القياس المنطقي ما هي إلا الآليات نفسها يعتمدها التفكير البلاغي عند ممارسة أي أسلوب من أساليب البيان، بل إن المعرفة الدقيقة بعلم البيان تغني صاحبها عن المعرفة بالمنطق³.

2: الحجاج لدى علماء الأصول والمفسرين

أ- الحجاج عند الأصوليين

يعنى البحث الأصولي بتدارس الخطاب الشرعي المتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فيهتم بأهدافه ومقاصده لاستنباط الأحكام الشرعية، وما هذه الأحكام في أساسها إلا حث على فعل شيء أو تركه، فالحكم الشرعي هو أساس البحث عند علماء الأصول و« يعرفونه بأنه خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييراً أو وضعاً⁴»، ووفق هذا المفهوم جاء القرآن الكريم يخاطب البشر لإقناعهم بالتخلي

1- ينظر: الاستدلال البلاغي، شكري المبخوت، مرجع سابق، ص 79..

2- المرجع نفسه، ص 80.

3- ينظر: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص 99.

4- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، خلود العموش، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1،

عن معتقداتهم والإيمان بالمعتقد الجديد، فكان خطابا حجاجيا يحاجج مخاطبيه بأساليبه البلاغية والمنطقية للإيمان بالله دون غيره¹.

إن عمل الأصوليين بحث في أمور الدين، وبالتالي هو عمل استدلالي يقوم على الممارسة الحجاجية مراعيين بذلك ما يتعلق بالسامع والقارئ في دراسة الخطاب الشرعي لاستنباط الأحكام، فالمخاطب يشغله كثيرا ما يريد المتكلم قوله، لذلك تجده مهتما بالخطاب مفردات وجملا، فكلما برع المتكلم في إيصال مفرداته في هيئة صحيحة إلى السمع كلما ارتسمت المعاني إلى ذهن السامع، ومتى ارتبطت المفردات مع معانيها في الذهن يفهم قصده². ووفق هذه الإستراتيجية شرح علماء الأصول عملية استنباط الحكم الشرعي للمخاطب، فقسموا الخطاب باعتبار السامع إلى واضح في معناه، وآخر غامض أو خفي، ومن حيث الوضوح إلى نص وظاهر³، فهو رسالة لغوية جاءت لمصلحة المخاطب المكلف، الذي يوجج المتكلم إلى عمل استدلالي لإقناعه، فيدخل معه في ممارسة حجاجية تقوم على مقارعة الحجج.

إضافة إلى ذلك يهتم الأصوليون بدراسة «العناصر السياقية والمقامية للخطاب»، لأن الألفاظ لا تثبت على معانيها التي وضعت لها، إذ للمتكلم الحق في أن يستعمل هذه الألفاظ فيما وضعت له وأن يستعملها وفق أساليب اللغة وقوانينها المعروفة⁴ بينهما، وقد يلجأ للتعبير عن مراده بإحدى وسائل الترميز الدالة الأخرى، ف«الألفاظ لا تقصد لذواتها، وإنما يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان، عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة أو كتابة، أو بأمانة، أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له، مطردة لا يخل بها»⁵، ومهما يكن من أمر فإن الجانب الحجاجي للأصوليين يكمن في الاستدلال بالنص لاستنباط الحكم الشرعي.

1- ينظر: البنية الحجاجية في القرآن الكريم سورة النمل أنموذجا، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، ع12، ديسمبر، 1997، جامعة الجزائر، ص332.

2- ينظر: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، خلود العموش، مرجع سابق، ص115.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- المرجع نفسه، ص115-116.

5- إعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الجديدة، 2003، ص173. نقلا عن: خطاب الحجاج والتداولية، عباس حشاني، مرجع سابق، ص44.

وعلى هذا الأساس فإن المنهج الاستدلالي هو أساس البحث الأصولي ، ذلك أنه يتوجب على الأصولي أن يستدل بنص صريح من الكتاب أو السنة لاستنباط الحكم ، ومن ثم كان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مصدر الحجج في الاستدلال عند الأصوليين ، وهو عمل حجاجي يكمن دوره في استعمال الآية القرآنية أو نص الحديث كآلية حجاجية لإفحام المخاطب المكلف لاتباع تعاليم الدين واجتناب نواهيه ، وبالتالي تعديل سلوك الأفراد في المجتمعات .

ولما كان القرآن الكريم يمتاز بالشمولية كونه خطاب الأمة ألفتها يستهدف عدة أنواع من المخاطبين ، الأمر الذي جعل الأحكام الشرعية ، «تتنوع ... تبعا لتنوعه ، فهو أحيانا صحيح معافي ، وأحيانا مريض أو مسافر ، وأحيانا مجاهد قادر ، وأحيانا قادر على الجهاد ولكنه متلبد ، وأحيانا منافق ، وأحيانا أمة بكاملها ، وأحيانا جنس من الناس ، وأحيانا نوع من هذا الجنس ، وبحسب هؤلاء صاغ الأصوليون أحكامهم مستقين ذلك من»¹ الخطاب الشرعي .

والظاهر إن أصول الفقه يشتغل في أبوابه على مجموعة من القضايا شديدة الصلة بالنظرية الحجاجية ، فالمتتبع لمؤلفاته يلفيها تضم عديد المصطلحات الفقهية وظفت لغاية دينية ، وفي الوقت نفسه تعد إرهاسا للبحث الحجاجي ، ومن ذلك مصطلحات نص ظاهر ، تأويل ، دليل ، مخاطب ، دلالة ، سياق ، وجل هذه المباحث الأصولية رصدت من خلال العلاقة بين الخطاب الشرعي والغاية الإقناعية في عملية استنباط الأحكام ، باستخدام وسائل وآليات القياس ، والتمثيل والتفسير ، وهو العمل نفسه الذي تسعى إليه النظرية الحجاجية في كل عملية تخاطبية² .

يعد الحجاج سبيل علماء الأصول في أبحاثهم الفقهية ، خاصة في القرن الخامس الهجري ، الذي شهد حالة سجال ومناظرة شرسة بين الفقهاء ، ولعل كتاب "المنهاج في ترتيب الحجاج" لأبي الوليد الباجي "474هـ" أبرز كتاب أسس للحجاج ، نظرا لقيمه العلمية والمعرفية وما أرساه لفن الجدل في الأندلس .

1- ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص341 .

2- ينظر: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، حسين خمري ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، بيروت ، لبنان ،

ونشير إلى أن أبا الوليد الباجي أول عربي استعمل مصطلح الحجاج فجعله جزءاً محورياً لعنوان كتابه " المنهاج في ترتيب الحجاج " ، فكان باكورة المؤلفات العربية في مجال الحجاج ، لكن المتأمل للكتاب كما أشرنا سابقاً يجد أن الباجي يرادف بين الحجاج والجدل ، ويذكر ذلك صراحة في حديثه عن سبب تأليفه الكتاب فيقول: « لما رأيت بعض أهل عصرنا عن سبيل المناظرة ناكبين ، وعن سنن المجادلة عادلين خائضين فيما لم يبلغهم علمه ولم يحصل لهم فهمه ، مرتبكين ارتباك الطالب لأمر لا يدري تحقيقه والقاصد إلى نهج لا يهتدي طريقته ، أزمعت على أن أجمع كتاباً في الجدل يشتمل على جمل أبوابه وفروعه وأقسامه وضروب أسئلته وأنواع أجوبته»¹ ، فالكتاب كما يشير أبو الوليد الباجي يؤسس إلى المحاجة كفن معرفي يعنى بأمور الدين ، ويأتي كفعالية حوارية بين فقيهين متضلعين في أمور الدين ، غير أنهما اختلفا في قضية ما ، وتقوم على عرض الحجج ونقيضها بأسلوب مناظرة يقوم على السؤال والجواب ، ولما احتدم السجال والجدال في هذه المناظرات وكاد يخرج أصحابها عن جادة الصواب ، دفعه فكره إلى إرساء دعائم الفكر الحجاجي فبوجه وحدد فروعه وأقسامه وآدابه.

ولعل الفوائد الجمة للحجاج في مجال الفكر والمعرفة الدينية هو ما أدى بالباجي لتأليف هذا الكتاب ، فعن أهمية الحجاج / الجدل يقول: هو « من أرفع العلوم قدراً وأعظمها شأنًا ، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا انضحت محجة ، ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم»² ، فنلاحظ أنه يؤكد على دور الحجة وفعاليتها في إرساء الحقائق وتغيير المعتقدات والتفريق بين الخطأ والصواب ، وهو المعطى نفسه الذي تقوم عليه النظرية الحجاجية الحديثة وتدعو إليه .

وعن آرائه التي أوردها في آداب الجدل والحجاج ، والتي يجب على المتناظرين الاقتداء بها واتباعها ، نورد منها:

- أولها التحلى بتقوى الله ويسأله التوفيق وتكون غايته خالصة لإظهار الحق ، لا المباهاة والمفاخرة حتى لا يذهب مقصوده ويكتسب إثمه خاصة وأنه يجادل في أمور الدين

1- المنهاج في ترتيب الحجاج ، أبو الوليد الباجي ، تح: عبد المجيد تركي ، مرجع سابق ، ص 07.

2- المرجع نفسه ، ص 08.

- أن يتحلى بالوقار واحترام مناظره، وذلك بالاعتدال في جلوسه، واجتناب تصرفات مهينة كالعبث بيده أو لحيته، وأن يتحكم في الصوت قوة وضعفا حسب المقام، ويتجنب الاغترار بكلامه وإن كان على صواب، لأن الغاية من دخوله هاته المناظرة إظهار الحقيقة لا الغلبة والانتصار.

- أن يحترم خصمه بالاستماع لكلامه ولا يستصغر من شأنه قصد إضعافه، بل يفسح له المجال حتى يفرغ من كلامه ويتجنب أن يصدر أي تصرف يربك خصمه وهو يعرض حججه، لأن ذلك من سمات الضعفاء في المناظرة.

- أن يتكلم بإجازا فالإطناب من دواعي الإخفاق في المناظرة، لذا عليه أن يقتصر على ما يريد إظهاره ويفيد قصده.

- أن يكون في حالة نفسية جيدة، فيتجنب الخوف والغضب والجوع والعطش، لأن كل ذلك يجعل المناظر في حالة ضعف أمام خصمه وبالتالي يخفق في المناظرة.

فهذه الصفات وغيرها من الخصال المرتبطة بالجسد والسلوك ونفسية المتكلم، تعين المناظر في تحقيق مراده وإذعان خصمه، و«لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج"... احتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا، وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره»¹، فالمناظرة على أشكالها واختلاف موضوعاتها تجمعها هذه الآداب، و«متى أخذ المناظر نفسه بما وصفناه وتآدب بما ذكرناه، انتفع بجدله وبورك في نظره إن شاء الله تعالى»²، ولأن الخطاب الشرعي في مجمله خطاب حجاجي جاء بأسلوب إقناعي محفوف بخصائص المناظرة والجدل مع مخاطبيه على اختلافهم، فكان المرجعية الفكرية للأصوليين في استنباط الأحكام الشرعية.

ونشير إلى أن ابن حزم الأندلسي "456هـ" كان يشتهر بالتبحر في صنوف المعرفة الدينية فكانت خطاباته حجاجية مليئة بالجدل وفن المناظرة، فلقي اهتماما كبيرا لدى سلاطين ميورقة بالأندلس، حيث كان

1- المنهاج في ترتيب الحجج، أبو الوليد الباجي، تح: عبد المجيد تركي، مرجع سابق، ص 319.

2- المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق، ص 466.

لا يهدأ له بال إلا ودخل في سجال مع أحد الفقهاء حتى لقب بالمفكر الحجاجي ، الأمر الذي جعل الكثير من علماء عصره يهابونه بل يتجنبون حتى المجادلة في حضوره ، إلى أن ناظره ابو الوليد الباجي الذي كان مثله متضلعا بفن الجدل والمناظرة فدخل معه في محاجة شديدة ، ولما غلبه أحس ابن حزم بالهزيمة غادر ميورقة لينسى وقعها¹.

ب - الحجاج لدى المفسرين

اهتم المفسرون بدراسة القرآن الكريم ففسروا ألفاظه ووقفوا على بيانه ، وحددوا وجه إعجازه ، وخلصت أبحاثهم إلى أنه خطاب إقناعي تتغير صورته الاستدلالية حسب حالات مخاطبيه واختلافهم ، « لكن السمة الحجاجية لكثير من سور القرآن الكريم وآيه فرضت على المفسرين ... الوقوف عند الحجاج القرآني ، كما هو في كثير من التفاسير كتفسير الكشاف للزمخشري وتفسير الفخر الرازي ، حيث بينا القوة الحجاجية والاستدلالية للقرآن الكريم ، وأشارا إلى أن الموقف موقف حجاجي² » في أغلب آياته ، وقد أشرنا سابقا إلى أن الموقف وما يتبعه من اعتبارات القول المناسبة من الآليات الحجاجية التي تعين المتكلم في الإقناع والتأثير . إضافة إلى ذلك فإن الحجاج يأتي محصلة لعملية تخاطبية بين طرفين ، وهو ما نجده في « القرآن بوصفه كلاما دالا على ذاته ودالا على مبدعه ، يضع نفسه في قلب التواصل اللساني فعملية الكلام في الخطاب القرآني تحتوي على عناصر التواصل الثلاثة: المتكلم ، الخطاب ، المستمع ، وهو يتضمن دلالة الخطاب على منشئه ، دلالة الكلام على ذاته ، ودلالة الكلام على متلقيه مع الأخذ بعين الاعتبار جلال المرسل في الخطاب القرآني³ ، وتأتي هذه الفعالية التواصلية في خضم معطيات السياق وتداعياته ، وهي عند المفسرين مبثوثة « في نسق الآيات وما يصل بينها من روابط كالعطف والمضادة التي تظهر في ذكر الرحمة بعد العذاب أو الرغبة بعد الرهبة ، أو حسن التخلص وهو الانتقال من مقام إلى آخر من غير الشعور بالانقطاع وترتيب الآيات⁴ » تقديمها وتأخيرها .

1- ينظر: تطور بناء الخطاب الحجاجي عند المتكلمين وعلماء الدين في الثقافة العربية الإسلامية ، ابتسام صغيور ، مرجع سابق ،

سابق ، ص 46 .

2- البلاغة والخطاب الديني مناظرة الباجي أنموذجا ، الإمام العزوزي ، ضمن كتاب: بلاغة الخطاب الديني ، محمد مشبال ،

مرجع سابق ، ص 241 .

3- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق ، خلود العموش ، مرجع سابق ، ص 145 .

4- المرجع نفسه ، ص 129 .

إذا فالدراية بالموقف وراء الآيات وسياق ورودها من الضروريات التي يقوم عليها البحث عند المفسرين ، وهي من الأدوات البلاغية التي تعينهم في فهم الخطاب ، لذلك نجدهم يراعون « عند الكلام عن شروط المفسر ضرورة إمامه بالظروف المحيطة بالنص عند تفسيره من أثر تعميم الدلالة أو الحكم الشرعي أو تخصيصها فبيان سبب النزول مثلا طريقة إلى فهم معاني الكتاب العزيز»¹ ، لذلك أغلب التفسيرات تنطلق من معرفة أسباب النزول ، وحال المخاطبين الذين نزلت بحقهم الآية لإطلاق الأحكام.

ومن ملامح الحجاج عند المفسرين احتجاجهم بالشعر لفهم المعاني وشرح ما استغلق عنهم من ألفاظ في القرآن الكريم ، و« بما أن النص الشعري الذي يعتبر ديوان العرب قد زحزح عن مكانه ، فإن المفسرين لم يتخلوا عنه بل اتخذوه مصدرا من المصادر لتفسير بعض الكلمات الغريبة ، أو لتوضيح بعض الدلالات البعيدة»² عن الفهم.

ولعل أهم ما يبين الملمح الحجاجي لدى المفسرين ما قام به السيوطي في إتقانه حيث أفرد له بابا خاصا أسماه بجدل القرآن ، مشيرا إلى أن القرآن قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، مؤكدا أنه ما من برهان أو دلالة أو تقسيم أو تحذير إلا وكتاب الله قد نطق به ، ويرى أن المحاجة كعمارة اجتماعية بين المتخاطبين لا يلجأ إليها إلا في حالة العجز عن إقامة الحجة لإقناع المخاطب بالصريح من الكلام الذي يفهمه الجميع ، فإذا تعذر الفهم من باب الشك أو التردد وجبت المحاجة لإفهام القلة المعاندة ، وإذا فقد المولى تبارك وتعالى مخاطباته في محاجة عباده في أجلى صورة وأوضحها ليفهم العامة والخواص من جليلها ما تقنعهم به حججه كل حسب موقفه³.

وعن الجدل في القرآن الكريم يستدل السيوطي برأي ابن أبي الأصبع الذي يرى أن الحجاج مذهب كلامي لا تنفك آياته إلا وهي مشحونة به ، وهو عنده « احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام ، ومنه نوع منطقي تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة»⁴ ، وهذا المفهوم ينطبق على ما تدعو له الدراسات اللسانية الحديثة في إرساء النظرية الحجاجية.

1- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق ، خلود العموش ، مرجع سابق ، ص 128.

2- نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، حسين خمري ، مرجع سابق ، ص 186.

3- ينظر: الإنقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي ، ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج 4 ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب ، دط ، 1974 ، ص 80.

4- المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

ونشير إلى أن جدل القرآن من المباحث البلاغية التي شغف علماء العربية بالبحث فيها وعلى غرار السيوطي نجد بدر الدين الزركشي "794هـ" أيضا في كتابه البرهان في علوم القرآن يفرد بابا خاصا لهذا الفن أسماه "في معرفة جدله"، وخلص كذلك إلى أن القرآن الكريم نزل بأسلوب جدلي ليحاج مخاطبيه بجزالة ألفاظه وبراعة نظمه وواقعية منطقته.

3- الحجاج لدى الفلاسفة و المتكلمين

أ- الحجاج لدى المتكلمين

إن التراث العربي على اختلاف آثاره وتعدد أقلامه وتنوع أوجه اشتغالهم يقوم على محجة القرآن الكريم البيضاء، هذا الأثر الكلامي الديني كان منهل العلوم اغترافا وملهم العقول فكرا، فمسألة الكلام من القضايا المعرفية التي شغلت الفكر العربي وأعملت العقل فشغف بالبحث فيها علماء العربية نحاة وبلاغيين وفلاسفة وأصوليين، ولأهميتها التي لا توصف كانت على رأس العلوم بحثا وتدارسا. ويعود الاشتغال المعرفي في حقيقة الكلام وأهميته كونه يقوم على الصوت اللغوي باعتباره أحسن وسائل الترميز الدالة، إضافة إلى «كون الإنسان كائنا متكلمًا، ولأنه ما كان كذلك إلا لحاجته للإبانة والتواصل فالإنسان منذ اهتدى للإبانة بالكلام سعى للوفاء بحاجاته بأن يكلم أفراد نوعه ويؤثر فيهم بالكلام حتى يحقق مقاصده منه، فكان الكلام بذلك أصلا من الأصول التي يقوم عليها وجود الإنسان، ومقوما من مقوماته اجتماعيا وثقافيا ودينيا»¹، فهو تفاعلات قولية بين الأفراد تأتي لقضاء الحاجات وتحقيق المقاصد والغايات.

ولما خص القرآن الكريم الإنسان بالمجادلة كجبلته خلقية طبع عليها وكان أكثر الأشياء في الكون جدلا، يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾²، وبجداله هذا جعل تفاعلاته القولية في مختلف مخاطباته اليومية لا تعدو أن تكون محاورا أو مناقشة أو مناظرة، أو مساجلة، فكل هذه الأوجه التفاعلية تدخل في باب أبواب الحاجة وذلك حسب مقام العملية التخاطبية وموقف المخاطب من الكلام.

1- التبالغ والتبالغة نحو نظرية تواصلية في التراث، رشيد يحيوي، دار كنوز للمعرفة العلمية والنشر والتوزيع، الأردن،

ط2014، 1، ص09.

2- سورة الكهف، الآية 54.

ولأن البيئة العربية خَصَّت أفرادها باللُّد والخصومة في الكلام نزل القرآن عربيا بلسان أهلها وجادلهم بحرف تواصلهم ، فأقنع مخاطبيه المؤمنين بتعاليمه السمحة ، وشحذ أذهان متدبريه وعنت بحججه رقاب معانديه ، فالحضارة العربية في بداية تشكلها - وإن كانت إرهاباتها بما أبدعه شعراء الجاهلية - جعلت من القرآن الكريم مرجعا لها ، الأمر الذي جعل السمة الدينية بارزة على جميع علومها المعرفية ، سواء في العلوم اللغوية ، أو البلاغية ، أو الفلسفية ، أو الفقهية ، ولأن علماء العربية كانوا يمتازون بالمعرفة الشمولية تجد الواحد منهم لغويا متفرسا في النحو والصرف ، ومقرئا ملما بالأصوات ومخارجها وعالما بالتلاوة وأحكامها ، وبلاغيا شغوبا بالبلاغة والبيان وفنونهما ، الأمر الذي جعلهم يدخلون في مناظرات فكرية تقوم على مبدأ الحجاج والجدل كلما واجهوا مسألة خلافية بينهم .

وعودا لما قيل حول الكلام الذي يأتي كحدث تفاعلي بين الأفراد ، فإن الحاجة إلى هذه الخاصية اللغوية برزت أكثر في مجال المعرفة الإنسانية ، فمبدأ الاختلاف في القضايا المعرفية أنشأ في الثقافة العربية فكرا جدليا يدحض أصحابه أراء خصومهم دفاعا عن أرائهم ، خاصة ما تعلق بالمجال الديني ، فوصفوا بالمتكلمين وسمي توجههم بالمذهب الكلامي ، وظهر نتيجة «مخلفات الفتنة الكبرى بين المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه واستيلاء الأمويين على الخلافة والحكم ، الأمر الذي تولدت عنه انقسامات في صفوف المسلمين وظهر تيارات معادية حملت بعدا فكريا فيما بعد كالخوارج والشيعة والمرجئة ، وقد مثلوا صراعا فكريا حادا زيادة على الصراع السياسي مما ولد لنا ظهور فرق أخرى ناتجة عنها كالجبرية والقدرية»¹ ، والمعتزلة التي كان لها الدور البارز في بروز هذه المذاهب .

إذا وفق هذا المعطى ، فإن المذهب الكلامي ظهر لغاية دينية ، وهي «نصرة ما جاء به الدين من العقائد والأحكام وتغيير كل ما خالفه بالأدلة العقلية»² ، فمبدأ التغيير الذي يسعى له المتكلمون - وإن كان في مجال معرفي محدد - ما هو إلا الأثر الناتج عن العمل الإقناعي الذي تدعو له النظرية الحجاجية كتعديل السلوك أو القيام بفعل أو تركه ، ولا يكون ذلك إلا باستعمال جملة من وسائل الاستدلال البلاغية والعقلية ،

1 - تطور بناء الخطاب الحجاجي عند المتكلمين وعلماء الدين في الثقافة العربية الإسلامية ، ابتسام صغيور ، مرجع سابق ،

ص41.

2- في علم الكلام "المعتزلة" ، أحمد محمود صبحي ، ج1 ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، بالإسكندرية ، مصر ، ط4 ، دت ،

ص2.

التي ترد في الخطاب كحجج وأدلة ، ومبدأ الاختلاف بين المتكلمين يجعلهم في حالة معاندة لبعضهم البعض ، فتأتي خطاباتهم مليئة بالحجج لتمرير آرائهم .

ومع تنامي الفكر الكلامي في الثقافة العربية بدأ الاهتمام الفعلي بقضايا البلاغة واستثمار آلياتها اللغوية والبلاغية والمقامية في عرض الحجج وتغليب رأي دون آخر ، وهذا ما يؤكد حاجة المذهب الكلامي للبلاغة وتداخله مع فنونها ، حيث يتوجب على الرجل الكلامي أن يكون عارفاً باللغة وأدوات البلاغة التي تعينه في إنتاج الخطاب ، وتجعله يارس « على المتلقي نوعاً من الضغط بهدف حمله على التصديق بمدلول الخطاب والتسليم به والركون إليه ، ويتميز هذا الإقناع بأنه نظري خيالي يقوم على الحجة ويسعى إلى إثبات الرأي بالدليل¹ القاطع .

في ضوء ما سبق يتبين لنا أن الحجاج تواتر مرادفاً لدى مفكري الإسلام الذين ساروا في منحى كلامي يدعو إلى الاستدلال لدحض قول من عاندهم ، « ذلك أن الحاجة إليه والاهتمام به قد برزا بشكل جلي في فترة الاهتمامات الكلامية عندما صار التسلح بالوسائل الحجاجية البلاغية اللغوية أمراً ضرورياً للدفاع ضد مزاعم المشبهين والمتناولين للمتشابه من القرآن الكريم من جهة ولمقارعة الفرضيات المضادة التي يقدمها الخصوم من جهة ثانية² ، فالملمح الحجاجي لدى المتكلمين تتجلى في توجيه الخصوم حسب مبتغاهم ومقاصد آرائهم ، ورغم اتسامه بالنزعة العقلية ، إلا أن طبيعته الكلام الخطابية دفعت تفاعلاتهم القولية إلى اعتماد الآليات البلاغية واللغوية للتأثير في مخاطبيهم وإقناعهم ، وحاجة المذهب الكلامي للبلاغة راجعة إلى أن غالبية أعلامه نهلوا من البلاغة في بحثهم عن وجوه القرآن الإعجازية ، فبان لهم أن وجهه الإعجازي يكمن في بلاغته لفظاً ونظماً ، الأمر الذي جعل تخير اللفظ وبراعة النظم ، آلية من آليات المحاججة الكلامية .

ولما كثرت المناظرات الجدلية واتسعت رقعتها ، وبات هم غالبية المتكلمين المباهاة بالتفقه والمهاترة في الكلام مدعاة للمعاندة ، اجتهد المتكلمون وخاصة الإعجازيون منهم في رد هذه الطعون ، وذلك في اتجاهين ؛ أولها: بيان انسجام النص القرآني من خلال نظمه الذي يدعو الكلام بعضه بعضاً ، وثانيها: الوقوف على التشابه وما اختلف فيه وتحديد الحكمة منه ، ويعد كتاب "مشكل القرآن" لابن قتيبة أحسن تجسيده لهذا

1 - أساليب الحجاج في البلاغة العربية ، محمد الواسطي ، مقال ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ظهر المعراز ، فاس ،

المغرب ، ع12 ، ص33 . نقلاً عن خطاب الحجاج والتداولية ، عباس حشاني ، مرجع سابق ، ص51 .

2 - محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، مرجع سابق ، ص216 .

المستوى الذي يمثل انتقالاً من المجاز اللغوي إلى التنزيه الكلامي¹ ، « فنجده قبل الرد على الطاعنين في القرآن الكريم يقوم أولاً بتصنيف مطاعنهم ثم الرد عليها بصفة إجمالية من خلال أربعة أبواب: باب الرد عليهم في أبواب القراءات ، باب ما ادعى على القرآن من اللحن ، باب التناقض والاختلاف ، باب المتشابه»² ، وغيرها من القضايا التي كانت محل جدل ومناظرة في الخطاب القرآني .

وحتى تتضح الحاجة في المذهب الكلامي نعرض تمثيلاً على إحدى وجوه الاستدلالية في القرآن الكريم ، وهو استدلال يبتدأ بمقولة إدعائية ، لتتبعها مباشرة مقولة ناقضة لها فتدحضها ، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾³ ، فالتأمل للآية يجدها فعالية تخاطبية تصور صراع الرسول مع اليهود والنصارى ، بعد أن دخل في جدال معهم ، فحاجهم داحضاً ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فجاءت حججه مسترسلة تباعاً بدءاً من أنه لو كنتم فعلاً أبناء الله - وحاشى أن يكون لله ولد وهو تعالى لن يلد ولم يولد - ما عذبكم لذنوب اقترتموها ، وحتى يزيد في قوته الاستدلالية استعمل الرابط اللغوي "بل" مضيفاً حجة ثانية وهي أنهم بشر كباقي البشر ، وليبلغ استدلاله ذروته أضاف لهم حجة ثالثة وهي أن الله لقدرته وإرادته المحفوظة في حرفي "كن" يغفر لمن يشاء من عباده ، ليخلص في الأخير من حجاجه لهم إلى نتيجة حتمية هي أنهم يعذبون ، وما داموا كذلك فإنهم ليسوا أبناء الله ولا حتى أحباؤه .

ب - الحجاج لدى ابن وهب

إن إعمال العقل في الثقافة العربية جعلت الفكر العربي فكراً استدلالياً في أغلب علومه ، وهذا الفكر جاء كممارسة حجاجية تظهر من خلال تفاعلات قولية بين علماء العربية ، و« أودعته لغته من تعبير عن تفكير يفضي إلى تطابق مضمونها مع مادة العقل ، فتحررت عبره قوة استدعاء جاذبة لطرفين "القول ، والقائل" مع ما يتصل بهما من شروط لإيجاد التماسك والتوافق بينهما ، ... فالمناقشة الحجاجية ... اتسمت بكونها جنساً

1- ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، محمد العمري ، مرجع سابق ، ص143 .

2- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، مرجع سابق ، ص261 .

3- سورة: المائدة ، الآية 18 .

تخاطبياً يقوم على السؤال والجواب أو عرض المسألة فيضطلع بفعل البناء طرفان»¹، ففي الكلام يتبدى الحجاج، ولا يتأتى ذلك إلا بدخول طرفين في حوار جدلي في مجال معرفي معين.

لكن خصوصية المعرفة وطبيعتها الشمولية جعلتها «مستويات من جهة تكوينها المفهومي، وكذلك شأنها من جهة بنائها الاستدلالي، ونمو هذه المعارف متوقف على الدينامية البنائية للاستدلال القوي بتقديم القرائن والرد على الاعتراضات، فتستتج حقائق تكون مستقاة من حقائق معلومة سابقاً»²، غير أن الطرف الآخر يكون متردداً في قبولها، أو شك، أو ناكراً معانداً في غالب الأحيان، ويحقق الاستدلال قيمته «باستنتاج المجهول من المعلوم، فيكون أكثر إثباتاً للحقائق من حيث إن فكرة الحجاج قائمة على الإقناع، بمعنى أن إيراد الحجج يستند إلى مبدأ إقناع المقابل بشيء لا يعتقد»³، فتسعى إلى تغيير اعتقاده وإعلامه بما يجمله، فهو يبحث عن حجج تجعله يتأكد من حقيقة الأشياء، بالربط بين معارفه وما عرض له، ولأن «نظام الجملة المعرفي قائم على ركنين، معلومات متواطاً عليها بين طرفي الخطاب ومعلومات جديدة لا علم للمخاطب بها؛ ولكن تقوم على ما هو معلوم»⁴ وكلما وقع ذهنه في مفارقة وتناقض كلما زاد في قوة الحجاج.

والحضارة العربية حضارة شعر وخطابة ومن أضر بها «عرض العقل الواحد على العقول الكثيرة لأغراض عديدة تتجاوز مجرد الصقل والتثقيف إلى إظهار الصدق وإجلاء الحق ورفع الشبهة وكشف المغالطة ومحو مصادر الخلاف»⁵، فهي تفكير استدلالي قائم على الإقناع بالحجج العقلية.

وهذا ما نلاحظه في مؤلفات ابن وهب الكاتب خاصة كتابه "البرهان في وجوه البيان"، فهو مصنف بياني نقدي يعتمد على الحجج العقلية في تحديد مفهوم البيان، حيث نلمح فيه «تأثر عميق بالمنطق الأرسطي وإن اجتهد صاحبه في إخفائه وعدم التصريح به، فهو يستعمل مصطلح الجدل مرادف للاحتجاج وبدلاً منه، ويجعله ثالث ضروب المثور، وهي في نظره أربعة: خطابة وترسل واحتجاج وحديث»⁶، ومن

1- الحجاج والاحتجاج بأقوال سيبويه في كتب علوم القرآن كتاب البرهان للزركشي أنموذجاً، رجاء عجيل الحسناوي،

مكتبة العلامة ابن فهد الحلبي، كربلاء، العراق، ط1، 2015، ص14-15.

2- المرجع نفسه، ص12.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

5- الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، عبد الله البهلول، كنوز

المعرفة، ط1، 2016، ص13.

6- المرجع نفسه، ص170-171.

التعاريف التي وضعها للبيان أنه يأتي « على أربعة أوجه: فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تكن بلغاتها ، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللب ، ومنه البيان باللسان ، ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغ من بُعد وغاب»¹ ، وهذه الوجوه البيانية على اختلافها تأتي كمارسات تفاعلية لغاية إقناعية تستدعي الحاجة .

وضمن هذا المنحى العقلي « جعل ابن وهب الجدل قائما في النثر والشعر على حد سواء ، وجعله على ضربين: ضرب محمود يقصد به الحق ويستعمل فيه الصدق ، وضرب مذموم يستعمل للمهارة والغلبة ، ويطلب به الرياء والسمعة»² ، وقد استقى تقسيمه هذا من آيات قرآنية وردت في مفهوم الحجاج أو إحدى مترادفاتة ، وتحدد المحمود والمذموم فيه ، وقد أشرنا لبعضها سابقا .

ومن جهة الأنواع فقد جعل ابن وهب الحجاج ثلاثة: معارضة ومناقضة ومخالفة ، وقال أن المعارضة تقتضي رأيين متناقضين لطرفين معترضين ، وبهذا فهي تتميز عن المناقضة باعتبارها تجري من طرف واحد يقوم ببناء القول على إثبات شيء لشيء بعينه ثم نفيه عنه ، أو نفي شيء لشيء وإثباته له ، أما المخالفة فيكثر ورودها في المسائل الشرعية والفقهية ، ولها سمات تميزها .

وفي سياق بما قيل عن وجوه البيان في البرهان ، فإنه « إذا عدنا إلى صنافة ابن وهب وقارئنا بين ضروب المشور الأربعة اتضح أن الأمر موصول بمسالك الإقناع والتأثير ، نتيين هذا في حديثه عن صفات الخطيب وشروطه وسياسته انفعالات الجمهور ، مما يعني اقتناعه بأهمية الطرق الخطابية في تحقيق التأثير ، وفي اشتراطه الحجة أثناء الجدل فلا يقبل قول أو يرفض إلا بحجة»³ ، واتسام ضروب البيان بخصائص الاستدلال كفيل لتأكيد الصبغة الحجاجية في فن الجدل والمجادلة التي حد مفهومهما ابن وهب بقوله أنهما « قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين ، ويستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات والتنصل في الاعتقادات»⁴ ، وكل ما هو مختلف في أمره ويحتاج إلى الإثبات بالحجج للفصل فيه .

1- البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان ، تح: حفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة ،

القاهرة ، مصر ، ص 56 .

2- الحجاج الجدلي ، عبد الله البهلول ، مرجع سابق ، ص 171 .

3- المرجع نفسه ، ص 172 .

4- البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب ، تح: أحمد مطلوب ، جامعة بغداد ، ط 1 ، 1967 ، ص 222 .

ويأتي القياس في اللغة كآلية حجاجية في استدلال ابن وهب ويعني به « التمثيل والتشبيه وهما يقعان بين الأشياء في بعض معانيها لا في سائرهما ، لأنه ليس يجوز أن يشبه شيء شيئا في جميع صفاته ويكون غيره ، والتشبيه لا يخلو من أن يكون تشبيها في حد أو وصف أو اسم»¹ ، وحجاجيته تكمن في ما يحققه من نتائج تفيد في استنباط الأحكام ، وهذه النتائج تختلف من قول إلى آخر ، وهي عنده « ما صدر عن قول عن قول مسلم في العقل لا خلاف عليه ، فتكون النتيجة عنه برهانا ، كقولنا إذا كان الزوج ما رُكِّبَ من عددین متساويين ، فللأربعة زوج»² ، وهذه النتيجة جاءت لمقدمة قبلها استنبطناها بفضل البرهان حسب ابن وهب .

ومنها - النتائج - « ما صدر عن قول مشهور إلا أنه مختلف فيه فنكون النتيجة عنه إقناعا كقولنا: إذا حق البارئ عز وجل واجبا لأنه علة وجودنا فقد وجب حق الوالد أيضا علينا ، وصحة هذه النتيجة إنما تقع بالاحتجاج لمقدمتها حتى يعترف بها من لا يعترف ، ثم تصح»³ ، فتأتي محصلة اقتناع المخاطب بمقدمتها ، ومن النتائج « ما صدر عن قول كاذب وضع للمغالطة كقولنا: إن اللصوص يخرجون بالليل للسرقة ، ففلان سارق لأنه خرج بالليل وهذا باطل لأن السارق ليس هو سارق من أجل خروجه ، ولا كل من خرج بالليل فهو سارق»⁴ ، فنلاحظ أن صحة النتيجة أو خطأها تحدده المقدمة التي سبقتها ، وبناء على معطياتها تستنبط الأحكام .

وصفوة القول إن بحث الحجاج في الفكر العربي القديم انبنى فرضته طبيعة الإنسان الجدلية من جهة والخصوصية الدينية للإنسان العربي من جهة ثانية ، علاوة على حجاجية القرآن الكريم نفسه في مخاطباته مع متلقيه ، الأمر الذي جعل العلماء يتخذونه مرجعا لأرائهم ولاستنباط الأحكام منه ، واقفين على بيانه وبلاغته ووجه إعجازه ، وكلما أشكل عليهم معناه أو اختلفوا في إحدى قضاياها دخلوا في مناظرات جدلية يحاجون بعضهم بعضا ، ومن ثم عد « الاختلاف في تفسير القرآن الكريم واستخلاص الأحكام منه ... موضوعا حجاجيا ، ولهذا أصبحت دراسة طرق الاستدلال والاحتجاج للأحكام والتفسيرات والتأويلات ، وتوجيه

1- البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب ، مرجع سابق ، ص 69 .

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

4- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

الآيات موضوعا مطروحا في كتب أصول الفقه والدين وعلم الكلام ، ولقد تعزز هذا الاختلاف بالصراعات الدينية والمذهبية والمعرفية مما جعل من الحقل الثقافي والديني الإسلامي حقلا حجاجيا¹ ، في أغلب قضاياها.

1 - البلاغة والخطاب الديني مناظرة الباجي أنموذجا ، الإمام العزوزي ، ضمن كتاب: بلاغة الخطاب الديني ، محمد مشبال ،

مرجع سابق ، ص 242.

البحث الثالث: الحجاج في الفكر البلاغي الحديث

أولاً: الحجاج في الدرس الغربي الحديث

أخذ الحجاج اهتماماً كبيراً في الفكر البلاغي القديم على مر العصور، فاهتمت به الأمم على اختلافها وجعلته قوام بلاغتها، وقد مر بنا إسهام الحضارتين اليونانية والعربية في إرسائه وبلورة مفاهيمه، ولتشعبه وتداخل معطياته صعب ضبطه بتعريف دقيق يجمع شتات دارسيه، ولكونه محصلة تواصل طرفين؛ فإن غايته الإقناعية تبتدأ أولاً في الفكر اليوناني أثناء تقيده للبلاغة من مفهوم الخطابة، وذلك مع الحركة السفسطائية التي حصرتها في سلطة القول كآلية لتحقيق الغلبة حتى لو كانت بالتملق في الكلام وتزييف الحقائق، ليأتي بعدها أفلاطون برؤيته البلاغية ثائراً على السفسطائيين معتبراً محاجتهم تشويه للعلم والمعرفة، وبعيدة عن القيم والأخلاق والحقيقة اليقينية التي تدعو لها مدينته الفاضلة، مما جعله يطردهم من جمهوريته، ليأتي بعده تلميذه أرسطو برؤية بلاغية جديدة مستفيداً من آراء سابقه من جهة ومجتهداً في خطابه من جهة أخرى، فرفض بدوره فكر السفسطة ومسلماها الجاهزة مسبقاً، وعارض أستاذه أفلاطون في جمعه بين البلاغة والأخلاق، جاعلاً للبلاغة جانبيين أحدهما للشر وآخر للخير، فمثلاً قد تستخدم للظلم قد تستخدم للعدل، كما عدها آلية حجاجية تستعمل في الصواب لا لإظهار الحقيقة، فغير بذلك مسار البلاغة اليونانية، لتصبح في مشروعه تقنية خطابية يعتمد عليها في المحاورات والمناظرات، مركزاً على المنطق والقدرة على الاستدلال.

وكذلك هو أمر الحجاج عند العرب حيث قامت حضارتهم على ثقافة الاستدلال، فالبلاغة العربية هي براعة القول، الذي يأتي ضمن فعالية تواصلية أساسها البيان والفصاحة وغايتها التأثير والإقناع، فكان فكر العرب فكراً استدلالياً منذ الجاهلية بدءاً بالشعر الذي كان مهاد بلاغتهم وملهمهم، لتأسيس الخطابة كفن مواز للشعر، لتتشكل في صورتها التامة مع بزوغ الإسلام ونزول القرآن الكريم حجة للعالمين بلسان عربي مبين، في صورة خطابية تقوم على وجوه استدلالية مختلفة، استقى منها علماء العربية مختلف آرائهم في التعميد للحجاج، فالجاحظ اختزله في تحيده لمفهوم البيان ويظهر من خلال الكلام الذي اعتبره ركناً أساسياً في العملية التخاطبية وحجاجيته - البيان - يكمن في وظيفته الإفهامية التي تعنى بالمقام وعناصره، وأخرى إقناعية تعنى بأحوال المخاطبين وتتمام الآلة وإحكام صنعة الكلام وحسن ترتيب الحجج، وانطلاقاً من المقام ومقتضيات القول التي تفرض على المتكلم عبارات مخصوصة نلحظ التفكير الحجاجي في بلاغة السكاكي فهو

يشير إلى الجانب الاستدلالي بإدراجه المقام في علمي المعاني والبيان ، بحثه على مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، علاوة على إفراده في آخر مفتاحه بابا خاصا للحد والاستدلال بعد تبويبه لعلومه البلاغة .

وتكتمل الرؤية الحجاجية للبلاغة العربية بظهور النزعة الدينية كتوجه فكري يدعو إلى الجدل والمناظرة ، متخذين من النص الشرعي مرجعا دينيا لمناظراتهم فألفت في ذلك مصنفات عدة كانت أكثر نضجا للتنظير للحجاج في الثقافة العربية .

إذا فبتبلور مفاهيم الحجاج في الثقافتين العربية والغربية ، وبتجاذبه بين البحث التداولي بمفهومه الجديد والبحث البلاغي القديم ، احتكم الدارسون والباحثون خاصة أهل اللغة والبلاغة إلى منطق اللغة وخصوصيتها الطبيعية التواصلية الرامية إلى وظيفة إقناعية ، فتفاعل البحثان في توجه معرفي جديد؛ يضم البلاغة الكلاسيكية القديمة والتداولية بمشروعها اللغوي الجديد ، فظهرت قراءات مغايرة في بحثها لما هو مألوف كونت فيما بعد الدرس البلاغي المعاصر رغبة منها في إعادة القراءة البلاغية لمعطيات البلاغة القديمة ، فـ « ليس من الغريب أن تعود الدراسات المعاصرة إلى الميدان البلاغي ، لأنه كان غائبا حاضرا ، فالآليات التي اهتمت بها الاتجاهات النقدية المعاصرة كانت تنتمي بشكل أو بآخر إلى جزء من جزئيات الدرس البلاغي ، وتقع ضمن اهتمامه ، ونجد ذلك عند الغرب كما نجده عند العرب »¹ ، ولكل منهما أفكاره وآرائه ، مشكلين بذلك نظريات بلاغية حديثة تعنى بالخطاب الإقناعي ، يقوم على البرهان والاستدلال فكانت مهادا لبلاغة توسع من دائرة التواصل اللغوي وتخرجه من النظرة الأسلوبية إلى نظرة إقناعية متعددة الأنماط الخطابية كخطاب الصورة والإشهار ، ... وغيرها .

1: الحجاج عند بيرلمان "perelman"

بعد الضجة التي أحدثتها اللسانيات التداولية حديثا تغير مسار الدرس اللغوي من النزعة الوصفية إلى نزعة وظيفية تدرس علاقة اللغة بمستعملها ، اتجاه لغوي يهتم بالبعد التواصلية للغة الذي تنادي به لسانيات دي سوسير من جهة ، وبواقعها الاستعمالي الذي تدعو له لسانيات ما بعده من جهة ثانية ، متخذة من التلفظ والسياق التخاطبي للكلام مجال بحث يقتضي التداول على استعمال اللغة ، وفي ظل هذا التوجه الجديد في الدرس اللغوي ظهرت تيارات بلاغية موازية تبحث في بلاغة القول الناتج وفعله في الحياة الاجتماعية تعبيرا عاديا وإبداعا أدبيا ، فكانت دراساتها بحث في الأساليب الإجرائية التي تبنى بها اللغة ،

1 - البلاغة العربية والبلاغات الجديدة قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة ، عبد الرزاق محمد بوعافية ، مؤسسة حسين

راس الجبل للنشر والتوزيع ، دط ، السداسي الأول ، 2018 ، ص 14 .

وهي أساليب تحددها معطيات عدة أهمها: طرفا الخطاب، ومستواهما، والزمان والمكان، وموضوع تخاطبها، فهي بالجملة بحث في الشروط الواجب توفرها في العملية التخاطبية إنتاجا وتأويلا. وفي ضوء هذه النزعة التواصلية الحدائثة تغير مسار البلاغة، ودعا أصحابها إلى عصرنتها وتجديد مفاهيمها، عصرنة تستلهم بلاغتها من خطابة أرسطو وأفلاطون في اليونان، تقوم على القدرة الاستدلالية من خلال قوة البرهان والمجادلة في محاوره الآخرين، ولما ذاعت واتسع مجالها تبعهم العرب منطلقين من بلاغة القرآن وجدله الذي حدده سابقهم.

لقد أصبحت البلاغة اليوم بلاغة الحجاج أو ما يسمى بالبلاغة المعاصرة، وقد جسدتها تيارات فكرية تمثل نظريات توجهها، وتشير الأبحاث إلى أن عام 1958م يعد أول تاريخ يؤرخ لظهور مصطلح "البلاغة الجديدة"، وذلك في كتاب "مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة" لصاحبه "شارل بيرلمان Charles Perelman"، البولوني المولد البلجيكي المقام في محاولة منه لإعادة بعث بلاغة أساسها المحاجة الاستدلالية وعمادها البرهان، فأرسى دعائمها بتوجه منطقي يدرس مختلف الخطابات المعاصرة¹.

إذن بلاغة بيرلمان تنطلق من معطيات المنطق، وهو توجه فلسفي نظرًا لما أصبح يعرف بالنظرية الحجاجية، التي تأتي كمحصلة تفاعل طرفين في عملية تخاطبية غايتها التأثير والإقناع، والجانب المنطقي يظهر في تصورنا للدليل البرهاني في المحاجة الذي يستعمله المتكلم كآلية استدلالية، فهي تدرس تقنيات الخطاب التي تعين المتكلم في إثارة مخاطبيه، وإقناعهم بما يلقي لهم، ومن ثم كسب تأييدهم²، ولما أصبح للدعاية والإعلان موطأ قدم وحضور في الساحة الإعلامية أشار بيرلمان إلى جانب مهم أغفله المناطقة المحدثين، وهو قوة الصورة فاتحا بذلك مجال البلاغة إلى صور شتى، لتشمل كل ما يرمز الإنسان ويستعمله كوسيلة تعبيرية.

لقد أصبحت البلاغة في التفكير الحديث «مائلة في كل النصوص، بل إنها مكون طبيعي في أشكال التواصل الإنساني... موضوع.... قد يتجسد أحيانا في مجموعة من البنيات الإقناعية "البلاغة الحجاجية"، وأحيانا في مجموعة من الصور والوجوه الأسلوبية ذات الوظيفة التحسينية "بلاغة المحسنات"، وأحيانا أخرى قد يتجسد في مجموعة من الصيغ التعبيرية والتصويرية التي تفرزها مختلف الأجناس والأنواع

1- ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، مرجع سابق، ص65.

2- ينظر المرجع نفسه، ص67.

والأشكال والنصوص الأدبية ... "البلاغة الأدبية"¹، ولعل ما شجع هذا التوجه الحدائي للبلاغة هو امتداد مفاهيمها إلى مباحث التداولية التي ظهرت كتيار لساني حديث يعنى بقضايا الحجاج والإقناع وسائر وسائل الاستدلال الأخرى التي تهدف خطاباتهما إلى التأثير في المخاطبين.

إن انفتاح البلاغة وانتقالها من فن القول المحصور في خصوصيته الشفهية إلى سائر فنون التعبير الدالة مها اختلفت وسائلها الترميزية، جعلت «البلاغة الجديدة في العصر الحديث بلاغات كما يقول روبول، لكن يمكن أن نعتبر البلاغة التي جاء بها بيرلمان وتيتيكا هي هذه البلاغة الجديدة»²، لحدثة أطروحاتها وعمق أبحاثها التي اتخذت من الفلسفة وعلم الاجتماع منطلقا لها.

إن انفراد مصنف بيرلمان بتصورات حديثة حول البلاغة جعله يغير مسار البلاغة فقد صب «اهتمامه على الحجاج: قضاياها، أطرها الحافة، روافده، أنواعه، تجلياته حسب مقامات التوظيف وسياقاته، كما أنه يولي عناية خاصة لبلاغة الحجاج في المجالات المرئية إعلاميا، وفي الخطابات الفنية التي لا يكون المتكلم - المرسل - حاضرا فيها بنفسه أو بصورته أمام مخاطبه، كما هو الحال في الكتابة مثلا»³، الأمر الذي جعل مصنفه يلقي اهتماما كبيرا لدى الدارسين البلاغيين المعاصرين.

أولى بيرلمان وتيتيكا المتلقي أهمية بالغة في مشروعها البلاغي، كونه موضع تقاطع بين البلاغتين القديمة والجديدة، فالحجاج حسبها يستهدف المتلقي بإقناعه والتأثير فيه، وذلك بتوخي المقام والظروف المحيطة به، والفرق بينهما فقط في أن البلاغة القديمة بشفويتها حصرت المتلقي في صورة المستمع، بينما تعددت صورته في البلاغة الجديدة، وهذا ما أشار إليه بيرلمان بقوله: «ما يجب استبقاؤه من الخطابة القديمة هو فكرة المتلقي، التي ترد إلى الذهن - مباشرة - عندما نفكر في الخطاب، فكل خطاب موجه إلى متلق، وغالبا ما ننسى أن الأمر كذلك في كل خطاب مكتوب، فالخطاب يُعدُّ بلغة المتلقي، لكن الغياب المادي للقراء قد يجعل الكاتب يعتقد أنه وحيد في هذا العالم، بينما نصه في واقع الأمر - وعى الكاتب ذلك أم لم يع

1 البلاغة والأصول، محمد مشبال، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص 7. / نقل عن: البلاغة العربية والبلاغات

الجديدة قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، عبد الرزاق محمد بوعافية، مرجع سابق، ص 19.

2- البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة "أو الحجاج"، حافظ إسماعيلي علوي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته،

ج1، مرجع سابق، ص 28

3- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص 104.

- مشروط دائما بالأشخاص الذين يقصد مخاطبتهم»¹، فهو يشير إلى تعدد صور المتلقي من مستمع إلى قارئ إلى مشاهد، إلى غيرها من الصور الناتجة عن مختلف أنماط التواصل بين البشر.

لقد بنى بيرلمان رؤيته البلاغية من الحياة الاجتماعية للإنسان وحاجته للتواصل فاستمد نظريته الحجاجية « من الحقل الذي تتحقق فيه ويمنحها الشرعية، وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس وقيمهم، أو الفكر والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا وتجريدا»²، لقد جعل بيرلمان مفهومه إجرائيا للمحاجة باعتبار أن « كل حجاج يستمد معناه وحدوده، ووظائفه من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلية الذي يندرج في استراتيجياته الفردية والجماعية، وتبعاً لذلك، يصبح الحجاج عملياً بعداً من أبعاد الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة والمنطوقة، كما أنه فعالية لسانية - منطقية ضمن هذا الخطاب، ويقدر ما تتباين أشكال ومضامين هذا الخطاب بقدر ما تختلف وتتباين فيه درجات الفعالية الحجاجية، على مستوى البروز أو على مستوى الإضمار»³، وهذا الاختلاف راجع إلى طبيعة الخطاب الحجاجي وسياق وروده.

إن هذا المفهوم للحجاج لدى المعاصرين لا يكاد يختلف عن مفاهيم الحجاج في الفكر البلاغي القديم، نحو ما نجده في التراث اليوناني من حضور للمنطق واستعمال أساليب حجاجية في بلاغة أرسطو وأفلاطون من جهة وبين ما قدمه علماءنا العرب في مناظراتهم ومجادلاتهم الدينية من جهة ثانية، علاوة على اهتمامهم بالعملية التخاطبية التي لا تخلو من استدلال أحد المتخاطبين لإقناع الآخر، لقد ولدت البلاغة في بيت الحضارة اليونانية فحضنتها خطابة أرسطو وأفلاطون في بدايات نشأتها، لتنمو وترعرع على أيدي الحضارة العربية، وظلت على مر العصور بلاغة القول لفظاً ومعنى، بلاغة تهتم بفن الصياغة وحسن اللفظ، ليخفت نورها وتضمحل ضعفاً في العقود المتأخرة، إلى أن تجاذبتها تداعيات الحداثة التي عملت على إحيائها بالتركيز على الجانب الحجاجي للخطاب لا الجانب الجمالي.

يسعى بيرلمان في مصنفه إلى إعادة الاعتبار للحجاج وإخراجه من دائرة الخطابة والجدل وإن كان سليل منها، ذلك أنها جعلته أسلوب مغالطة وتلاعب بالعواطف والعقول، كما عمل على تخليصه من صرامة

1- الحجاج في الحديث النبوي، أمال يوسف المغامسي، مرجع سابق، ص 84.

2- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص 104.

3- الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مرجع سابق، ص 31.

الاستدلال التي تجعل المخاطب يخضع للقول على وجه الضرورة والإلزام، في حين يتوجب أن يكون في أريحية الحوار للتسليم بالرأي المعروف، بعيدا عن عنف الجدل واعتباطية ولا معقول الخطابية¹.

إن الرؤية الجديدة للبلاغة جعلت من الحجاج نظرية تهتم بـ « درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض إليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم »²، ووفق هذا التصور يسعى الحجاج في نظرهما إلى « ... جعل العقول تدعن لما يطرح عليها، أو يزيد ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين، بشكل يبعثهم على العمل المطلوب "إنجازه أو الإمساك عنه"، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة»³ له.

إن نظرية بيرلمان الحجاجية وسعت دائرة البلاغة، حيث أصبحت ذات نظرة شمولية للخطاب مهما كان نوعه وطبيعة متلقيه شريطة أن يكون احتماليا لا يقينيا، فالحوارية التفاعلية لا تتأتى إلا فيم اختلف فيه، وهو ما يجعل التواصل عملا حجاجيا يقوم على الاستدلال، لذلك يرى بيرلمان أن « الحجاج لا يكون أبدا في موضع يسمح له بادعاء اليقين، ولا جدوى من الحجاج في ما هو يقيني ... الحجاج لا يتدخل إلا في الحالات التي يكون فيها اليقين موضع طعن »⁴ ومدعاة للشك، وهو ما يحوج المتخاطبين للدخول في المحاجة.

لقد أبعد بيرلمان الحجاج عن ظلام الجدل والخطابة، ذاك أنه « ما من محاجة إلا والباعث عليها وجود شك في مدى صحة فكرة ما. إن المحاجة تفترض أن هناك فكرة ما ينبغي تدقيقها والتشديد عليها، وبدون ذلك التدقيق والتشديد تبقى غامضة وغير واضحة بما فيه الكفاية، فلا يمكن فرضها على المتلقي الفرض الذي ينبغي أن تفرض به »⁵، بل يتوجب على المتكلم اتباع استراتيجية حجاجية في عرض حججه تباعا الواحدة تلو الأخرى إلى غاية تحقيق الإذعان والتسليم من مخاطبه.

1- ينظر: في نظريات الحجاج، عبد الله صولة، مرجع سابق، ص 11-12.

2- المرجع نفسه، ص 13.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- امبراطورية البلاغة شايم بيرلمان، ص 19. نقلا عن: الحجاج في الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي

الحديث، نور الدين بو زناشة دراسة تقابلية مقارنة، إشراف خليفة بوجادي، كلية الآداب واللغات، جامعة مين دباغين، سطيف، 2016/2015، ص 99.

5- في نظريات الحجاج، عبد الله صولة، مرجع سابق، ص 16.

ولكون الحجاج عمل استدلالي وهو الحال نفسه الذي سارت عليه الخطابة ، حاول بيرلمان التقريب بينهما وفي ذلك يقول: « الغاية من تقرينا بين الحجاج والخطابة أن نلح على أنه لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع ويسلم ويصادق على ما يعرض عليه»¹ ، ومن خلال هذه المقاربة تبدى لنا وجوه الاختلاف بين الحجاج والخطابة ، وتتمثل في أمرين هما:

أ - من جهة نوع الجمهور: فإن حصرت الخطابة جمهورها على اجتماع جماعة في مكان معين تستمع للخطيب ، كالساحة أو المساجد ، فإن جمهور الحجاج كما يرى بيرلمان وتيتيكا يمتاز بالعمومية ، فمثلما يمكن أن يكون الخطاب موجه لجمهور حاضر مثلما يمكن توجيهه لجمهور غائب ، وكما يمكن للحجاج أن يكون بين جماعة يمكن أن يكون بين اثنين ، بل حتى بين المرء ونفسه ما دام قد دخل في حوار ذاتي² .

ب - من جهة نوع الخطاب: تركيز الخطابة على جمهور الجماعة الحاضر دليل قاطع على حصرها في ما هو شفوي ، ولكن الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا قد يخرج إلى ما دون ذلك حيث يمكن أن يكون مكتوبا ، وهو ما يلحان عليه في كتابهما ، فالكاتب لا يكتب إلا وهو مستحضرا متلق افتراضي وكيف كتابه حسب³ .

إن تصور بيرلمان للبلاغة يعد « محاولة لإعادة تأسيس البرهان والمحاجة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع ، كتقنية خاصة ومميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد ، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر»⁴ ، والمتأمل لمصنفهما يجد أنها طابقا بين الحجاج والبلاغة من منطلق أن كل خطاب يسعى لتدعيم وضع ما أو تغييره أو اتخاذ موقف معين ، وغيرها من الخيارات التي لا بد لها من أن تتأسس على خطط حجاجية لإقناع المخاطبين⁵ .

لقد حيرت البلاغة الدارسين المحدثين وأصبحت عندهم كنز مفقود ، إلى أن أتى بيرلمان وتيتيكا واهتديا إلى ضالتهما حيث يقول: « إن العمل الطويل النفس الذي خضت فيه أنا وأولبريشت تيتيكا هو الذي قادنا إلى نتائج غير متوقعة إطلاقا ، نتائج كانت بالنسبة إلينا كشفا لأمر كان محجوبا عنا ، ألا وهو أنه لا يوجد منطق القيم ، وأن ما نبحت عنه كان قد عولج من طرف مبحث ضارب في القدم ، منسي حاليا ومستهجن ،

1- في نظريات الحجاج ، عبد الله صولة ، مرجع سابق ، ص 21.

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص 21- 22.

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص 22.

4- بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، مرجع سابق ، ص 65.

5- الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، مرجع سابق ، ص 105.

هو البلاغة، أي فن الإقناع والاقتناع¹، وهذا المبدأ - الإقناع والاقتناع - كان مجال بحث البلاغة عند علمائنا العرب، ويتبدى في عملية الفهم والإفهام الذي أشار له الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، ولكن اتساع دائرة البلاغة حديثاً وطبيعة خطاباتها جعلت الخطاب الحجاجي يمتد إلى مجالات معرفية متنوعة.

إن ما يثير انتباهنا في نظرية الحجاج بمفهومها الحديث هو «امتدادها التأويلي في توجيه التراث البلاغي لصياغة نظرية ذات عمق حوارى فلسفى، نظرية قرأت على نطاق واسع وأثرت في المسار البلاغى أعمق الأثر»²، وهذا التوجه البلاغى بمعطياته وخطواته الإجرائية يساعد في «اكتساب خبرة منهجية دقيقة في تحليل نصوص ذات طبيعة حجاجية قوية كالنصوص القضائية والسياسية والفلسفية، بناء على تصور تفاعلي بين الذات المتكلمة والمخاطبين، وعلى الرغم من مميزات هذا التصور، فإنه يقصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية، وهو ما يدفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية، كالمناظرات والمجادلات الدينية والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية»³، تكون غايتها إخبارية على الغالب.

تكمن حجاجية بيرلمان في العملية التخاطبية كفعالية اجتماعية تأتي في سياق معين، ولعل أهمية الموضوع وما يجمعه من علاقات بينه وبين صاحبه من جهة، وبينه وبين متلقيه من جهة ثانية، هو ما يجعل الخطاب يبنى وفق استراتيجية استدلالية إفحامية تُظهر حجاجيته، محللاً العملية التخاطبية باعتبارها مجال تواصل يسهى من خلاله الإنسان إلى تحقيق أغراضه، فخلص أن هاته الأغراض لا تتحقق إلا بقدرته على الاستدلال في تبليغ مقاصده. ومن ثم عدت الغاية التأثيرية سبيل الإقناع الناتج عن تفاعل حجاجي بين طرفين في عملية تواصلية معينة.

لقد انحصرت البلاغة قديماً في فن الخطابة باعتبارها آلية من آليات التأثير القولية، وفي نفس المعطى قارب بيرلمان نظريته فطابق بين الحجاج والبلاغة لاشتراكهما في الاستدلال كخاصية خطابية تقوم على تقنيات مخصوصة تدفع المتلقي إلى الإذعان والتسليم.

وحتى يمحصر مجال الحجاج ميزه بخمس ملامح لا يكاد يخلو منها أي خطاب دخل طرفاه في محاجة كلامية، أولها أنه يتوجه إلى مستمع ما، ثانيها أنه يكون بلغة طبيعية، ثالثها أن مسلماته لا تعدو أن تكون

1- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، مرجع سابق، ص 69.

2- المرجع نفسه، ص 71.

3- مجلة عالم الفكر، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقيبي مرجع سابق، ص 85.

احتمالية فالحقائق لا طائل للحجاج وراءها، والرابعة أن تقدمه لا يفتقر إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة، أما الخامسة فتخص نتائجه التي ليست ملزمة، أي للمتلقي الحق في رفضها، وهذه الأطر استقاهما من تداخل الحجاج مع الخطابة والجدل واشتراكهما باعتبارهما وجوه استدلالية تبحث في طرق وضع الدليل لحصول الاقتناع¹.

لقد جعل بيرلمان الخطاب مكمّن الحجاج وتناوله بوصفه خطابة تستهدف عقل المتلقي من جهة والتأثير في عواطفه من جهة أخرى، فجمع في القول معطيات التخيل ومقتضيات التداول، وأطلق على مشروعه البلاغة الجديدة، بلاغة « تتوجه توجها مباشرا إلى جمهور المتلقين وتقيم معهم حوارا قائما على الإقناع، مستعينا بمعطيات الشفوية الخطابية القائمة على دراسة أحوال السامعين ومراعاة ميولهم وعواطفهم واتجاهاتهم مع ملاحظة مستوى تقبلهم للكلام»²، وينطلق الحجاج حسب من مقدمات قد تكون وقائع أو حقائق أو افتراضات أو قيما أو مواضع، وكلها تتفرع إلى ضربين أحدهما مداره على الوقائع وهو خاص بالوقائع والحقائق والافتراضات، والآخر مداره على المفضل ويتعلق بالقيم ومراتبها وبالماضع.

أولى بيرلمان وتيتيكا اهتماما كبيرا ببنية الخطاب الحجاجي وما تقوم به العناصر اللغوية من نفي وشرط وتوكيد، والأدوات البلاغية من بيان وبديع ومعاني من دور حجاجي، خاصة الاستفهام الذي يحوج صاحبه لمعرفة شيء مجهله تستدعي الإجابة عليه مراعاة استراتيجيات الخطاب من استدلال بغية الإقناع والتأثير ومعرفة للسياق ومستوى صاحب السؤال³.

بهذا التصور الحدائثي أرسى بيرلمان وتيتيكا مشروعها البلاغي حيث جعلوا البرهان العقلي والتأثير العاطفي كدعامتين أساسيتين للاستدلال في ما أسموه بالبلاغة الجديدة، فامتدت البلاغة إلى بلاغات عدة بتعدد خطابات التواصل، لقد أحييت بلاغتها البلاغة الكلاسيكية وأعدت لها بريقها، مستثمرة معطياتها وتحليلاتها القديمة في صياغة إستراتيجية خطابية تقوم على الاستدلال الحجاجي كآلية إقناعية غايتها التأثير في المخاطبين لتغيير معتقداتهم وسلوكياتهم أو القيام بفعل، مما أثرى البحث اللغوي عموما والبلاغي خصوصا.

1- ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، مرجع سابق، ص 27-28.

2- استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص 113.

3- خطاب الحجاج والتداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عباس حشاني، مرجع سابق، ص 65-66.

2: الحجاج عند تولمين

بنفس معطيات المنطق التي انطلق منها بيرلمان وتيتكا في كتابها "مصنف في الحجاج: الخطاب الجديدة" الذي استقيا مبادئه من فلسفة أرسطو ، أصدر تولمين مؤلفاً آخر بعنوان "وجوه استخدام الحجاج" يسعى فيه للكشف عن حيثيات الحجاج داعياً للبحث فيه ، « والواقع أن الحجاج والمنطق عنده ليسا في حالة تصادم ، فهو لم يلق بالحجاج خارج المنطق ، وإنما قام بالأحرى بعق المنطق من تشكيله الرياضي ودفعه باتجاه الحجاج ... وفي هذا النطاق يمكن فهم نظريته في الحجاج كإعادة صياغة وتجديد للمنطق وللتحديد أكثر يمكن القول بأن عمله كان محاولة لتحويل المنطق من علم صوري إلى علم ممارسة»¹ ، خطابية ذات وظيفة حجاجية ، ولعل ما جعله يعيد النظر في المنطق هو اعتماد المنطق على الجانب الرياضي مما أبعدته على مجال التطبيق ، إضافة إلى أن محدودية مساره من الناحية الإستمولوجية² .

جعل تولمين الحججة عماد أي حجاج مثله مثل سابقه ، غير أنه تناول الحججة من جانب حدسي ، وعرفها بأنها «كل قضية نقدمها كتأكيدات ، ومصاغة بشكل ، أو بآخر كأسباب»³ ، فكلمة قضية توشي بذلك الجزء من الحججة الذي تقدم فيه فكرة أو مسألة⁴ ، أو أي شيء مختلف فيه ، ويكون سبباً للدخول في المحاجة ، كذلك الحال بالنسبة لكلمة "سبب" ، فيقصد بها الدافع الأساسي للحجاج ، ويشمل مجموعة الأشياء التي يمكن طرحها لمساندة المقترح ، ومن ثم نستنتج أن تولمين بنى الحجاج على مكونين أساسيين هما "القضية" و"السبب"⁵ .

من خلال هذين المكونين للحجاج - القضية / السبب - يتبدى لنا أن تولمين درس الحجاج كمجال تبريري فاهتم بالحجج التعليلية التي تأتي كداعم للقضية المختلف حولها ، خاصة وأنها تأتي على أوجه عدة ، وأورد أمثلة عن الحجاج من خلال تشكل قضاياها وتعددتها ، على نحو التشخيص الطبي ، أو الدفاع عن شخصية تاريخية ، أو التشكيك في شخص ما ، على أن تكون لكل قضية مقترحة مقدمة خاصة بها ، وعليها يبنى عليها الحجاج ، كأن تكون منافحة ، تشخيص ، اتهام ، تغليط ، وتتصل مباشرة بأسباب صريحة أو

1- تاريخ نظريات الحجاج ، فيليب بروتون ، تر: محمد صالح ناحي الغامدي ، مرجع سابق ، ص 59-60 .

2- المرجع نفسه ، ص 60 .

3- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

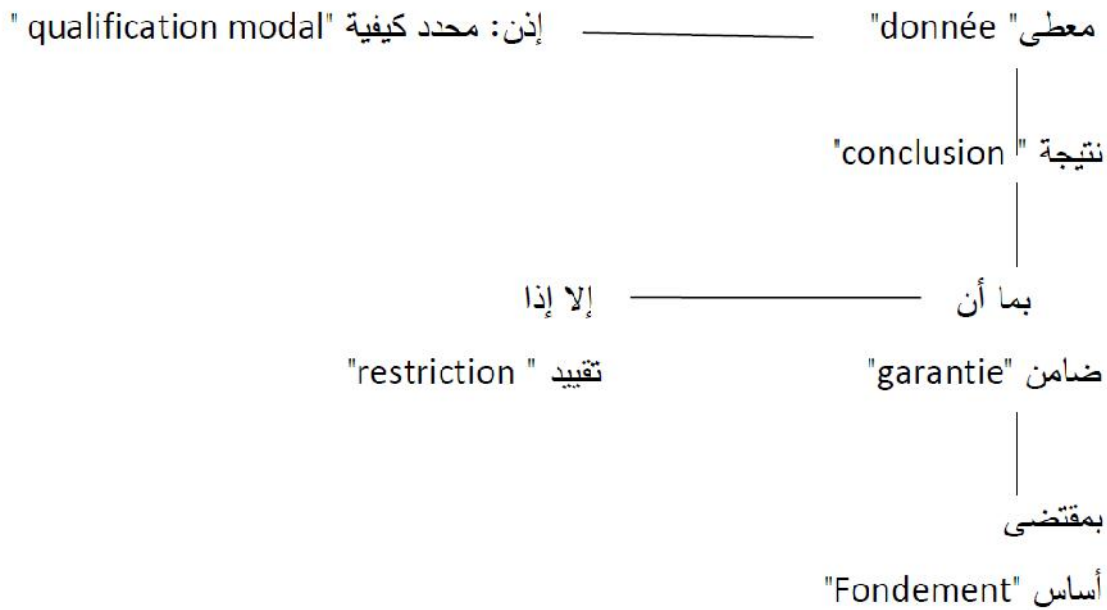
4- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

5- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

مضمنة ، تستدعي تبريرها لمناصرة الضعيف ، أو إسقاط التهمة ، وعلى هذا الأساس جعل تولين الوظيفة الأساس للحجة في التعليل والتبرير وكل وظيفة عدا ذلك اعتبرها ثانوية¹.

هذه التعددية الذي اختص بها الحجاج في مشروع تولين ، جعله يستعمل مصطلح "الحقل" كمجال دلالي عام تقسم عبره الحجج حسب موضوع كل قضية تحتاج إلى تبرير ، فتعدد أوجه الحجاج يجعلنا نبحث عن تأكيدات كثيرة كحجج لتبرير القضية وتعليلها ، واستعمل الحقل لبيان البعد المنطقي للحجج ، لأنه هو ما يجعل حججان مثلا تنتميان لذات الحقل خاصة إذا كانت قضيتهما وأسبابهما تنتميان لنفس نوع المنطق ، وعلى العكس من ذلك فإنه يختلف حقلهما إذا كان نوع منطق قضيتهما وأسبابهما مختلفا ، كأن يشخص مثلا طبيبين عن مرضين مختلفين ينتميان - مع ذلك - لذات حقل الحجاج ، في حين أن التقييم الفني ينتمي لحقل آخر مختلفا تماما².

وحتى نتبين مشروع تولين الحجاج نورد نموذجا تمثيلا يقوم على ثلاثة عناصر أساسية: (المعطى "م" ، الضمان "ن" ، النتيجة "ج") ، ويأتي على النحو التالي³:



نموذج مخطط تولين للحجة

1- ينظر: تاريخ نظريات الحجاج ، فيليب بروتون ، تر: محمد صالح ناحي الغامدي ، مرجع سابق ، 60-61.

2- المرجع نفسه ، ص 61.

3- المرجع نفسه ، ص 69.

وكمفهوم إجرائي للحجة فإنها ترتب منتظم لمعطيات معينة تأتي كمقدمة يفتح بها المتكلم باب الحجاج ، أثرت لتدعم نتيجة موضوع محدد هيئة ما ، والمرور من المعطيات إلى النتيجة يتوجب وجود ضامن ، وهذا الضامن قد يتعارض مع قيود تواجهه ، لذلك نجده يعتمد على أساس¹.

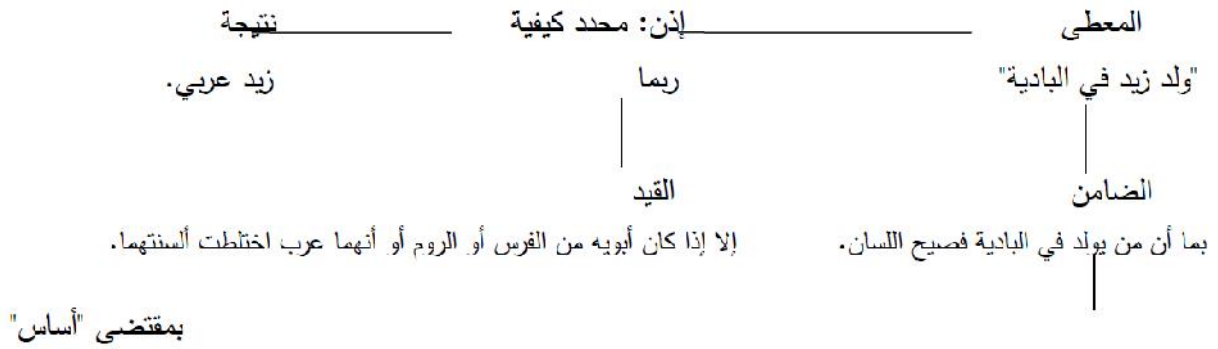
وحتى يكون مسار الحجة أكثر وضوحا نورد مثلا حجاجيا مرفقا بمخطط آخر نحو قولنا:
- ولد زيد في البادية.

- ربما زيد عربي بما أن من يولد في البادية فصيح اللسان.

- إلا إذا كان أبويه من الفرس أو الروم أو أنهما عرب اختلطت ألسنتهما.

- وذلك بمقتضى أن شروط الفصاحة تقتضي أن لا يختلط اللسان العربي بلسان آخر.

وكمثال توضيحي لمسار الحجاج في هذا المثال نورد المخطط التالي²:



وذلك بمقتضى أن شروط الفصاحة تقتضي أن لا يختلط اللسان العربي بلسان آخر.

مخطط توضيحي لمسار الحجة حسب نموذج تولمين

ونشير أخيرا إلى أن تولمين وقف في تحليله لمسار الحجة على خمسة فروق بني عليها مشروعه الحجاجي مؤكدا على الوظيفة التبريرية للحجة هي: الفروق بين الحجج التحليلية والحجج الجوهرية ، والفروق بين الحجج الصالحة قطعا والحجج غير الصالحة قطعا ، والفروق بين الحجج المستخدمة لضاامن والحجج المؤسسة لضاامن ، والفروق بين الحجج التي تحتوي على مصطلحات منطقية والحجج التي لا تحتوي على مصطلحات منطقية ، وآخرها الفروق بين الحجج اللازمة والحجج المحتملة ، وعلى هذا المنوال أسس تولمين لرؤية بلاغية

1- تاريخ نظريات الحجاج ، فيليب بروتون ، تر: محمد صالح ناحي الغامدي ، مرجع سابق ، ص 69.

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص 69-70.

مغايرة لبرلمان وتيتيكا رؤية تولى أهمية للتمييز بين الحجج التحليلية والحجج الجوهرية أولاً كون الحجج التحليلية تكون القضية فيها موجودة في الأسباب ضمناً أو مصرح بها وهو ما يجعلها حسب كدافع للحجاج¹.

3: الحجاج عند أزالد ديكر

تأثر ديكر و بفكر برلمان الداعي إلى فكرة «أنا نتكلم عامة بقصد التأثير»²، غير أنه لم يتوقف في مشروعه الحجاجي عند إحياء الخطابة القديمة، وتلقين التقنيات الحجاجية للجمهور، بل ربط الحجاج بمعطيات لغوية محضة استقاها من حقل اللسانيات، حيث حاول أن يبين أن الخطاب في مجمله لغة تحمل في كينونتها حمولة حجاجية تتبدى في بنية الأقوال نفسها، وهذه الوظيفة الحجاجية تترجمها ظواهر لغوية تتعلق بمسائل الصوت والصرف والنحو وغيرها من قضايا المعجم والدلالة، فبحث في منطق اللغة الداخلي المتحكم في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنام وتدرجي ينتج عنه إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب³.

وفق هذا التوجه انتقد ديكر وزميله أنسكومبر "Anscombe" تصور برلمان وتيتيكا للحجاج، باعتباره تقنية خطابية لا غير دون أدنى اهتمام لبنية الخطاب الداخلية، ومنذ منتصف السبعينيات أخذوا يبحثون في حجاجية اللغة، فاهتديا إلى تأليف كتابهما "الحجاج في اللغة"، وهو مؤلف أخرج الحجاج من منطق الفلسفة إلى منطق اللغة، ذلك «أن الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتابع وترابط على نحو دقيق فتكون بعضها حججاً تدعم بعضها الآخر، أي أن المتكلم إنما يجعل قولاً ما حجة لقول آخر هو بلغة الحجاج... على نحو صريح أو بشكل ضمني،... فيكون على المتلقي استنتاجها لا من مضمون هذه الأقوال الإخبارية بل اعتماداً على بنيتها اللغوية فحسب»⁴، دون اعتبار لصناعة الجدل وتأثير الخطابة.

يظهر من طرح ديكر أنه من أتباع المدرسة البراغماتية التي تهتم بالظاهرة اللغوية كأشكال دلالية في مقامات استعمالية معينة، فهو يركز على القول كأداء إجرائي تنتج عنه تأثيرات لغوية تسهم في فهم محتواه، وذلك بالنظر للعلاقة بين اللغة والكلام من خلال وقوفه على إنجازية الأفعال كنتيجة توجيهية للمتلقى، «إذ

1- ينظر: تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، مرجع سابق، ص 62-63.

2- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص 08.

3- ينظر: المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، مرجع سابق، ص 23.

اعتبر أن غاية الخطاب الحجاجي تتمثل في أن نفرض على المخاطب نمطا من النتائج باعتبارها الوجهة الوحيدة التي يمكن للمخاطب أن يسير فيها»¹ ، ومن ثم يدعن لخطاب المتكلم .

يرى الباحثان "ديكرو" و"أنسكومبر" أن كل قول يحتوي على فعل إقناعي ، فعندما نتكلم يعني أننا نتحاجج ، ومن ثم فإنه لا وجود لكلام دون شحنة حجاجية تحدد مساره الخطابي ، فالحجاج عنده علاقة دلالية تربط بين الأقوال في أي خطاب² ، ذلك أن الوظيفة التواصلية للغة تجعل الخطاب حجاجيا باعتباره « عملية يجري فيها نقل المعلومات والأخبار بين مرسل ومرسل إليه ، حيث يتولى الطرف الأول تزويد الطرف الثاني بمعرفة لم يكن يتوفر عليها من قبل»³ ، وهذه المعرفة ما هي إلا محصلة تفاعل مستويات اللغة في بنيتها المتكاملة .

لقد صاغ ديكرو تعريفه للحجاج من مفاهيم اللسانيات التداولية خاصة ما تعلق بأفعال الكلام التي نظر لها أوستين وسيرل ، حيث أعاد ديكرو صياغة الفعل الكلامي وإنجازيته من وجهة تداولية محضمة ، فالكلام كممارسة لغوية « لا يتمثل فقط في تبليغ المعلومات ، بل يتعدى ذلك ليجسد في ذاته نمطا من الفعل يؤدي إلى إنشاء وقائع في العالم باعتماد اللغة والكلام أداة في ذلك»⁴ ، وعلى هذا الأساس عرف الحجاج بأنه « فعل لغوي موجه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية " أي مجموعة من الحقوق والواجبات" ، ففعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطا معيناً من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار ، والقيمة الحجاجية لقول ما هي نوع من الإلزام ، يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميته واستمراره»⁵ لتحقيق غايته التأثيرية .

لم تعد اللغة في نظر ديكرو وعاء فكري يضم محتواه معلومات إخبارية الأساس منه إعلام وإبلاغ غيرنا بما يجهلونه ، بل تجاوز مفهومها إلى تصور جديد يهتم بفعل اللغة كأقوال ، أي هي الفكر ذاته في حالة العمل ، وعلى هذا الأساس عرف الحجاج على أنه « تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة استنتاجية داخل الخطاب ويتمثل ... في إنجاز متواليات من الأقوال ، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية ، وبعضها الآخر هو بمثابة

1- الحجاج في الشعر العربي ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 23 .

2- ينظر: اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 14 .

3- الحجاجيات اللسانية عند ديكرو وأنسكومبر ، رشيد الراضي ، مجلة عالم الفكر ، ع 1 ، سبتمبر ، 2005 ، ص 214 .

4- المرجع نفسه ، ص 217 .

5- اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 16 .

النتائج التي تستنتج منها»¹ ، فحجاجية اللغة تتبدى من خلال الدور الذي تؤديه الأدوات اللغوية في بناء الخطاب الحجاجي على وجه الإقناع والتأثير ، وذلك حسب طبيعتها الاستدلالية وحسب حاجة المتكلم إليها. إن معطيات السياق التداولي المحيطة بالحدث الكلامي جعل ديكرو وأنسكومبر يهتمان بالنسق البنيوي للغات الطبيعية ، رابطتين بين نظام تشكل اللغة وقضايا اللسانيات التداولية ، وهو ربط يدمج الظواهر التداولية خاصة ما تعلق بالجانب التلفظي في صميم الدراسة الدلالية واللسانية ، وأسموه بالتداولية المدججة² ، ولعل ما جعلها يقولان بهذا الرأي هو أن تصورهما « يقتضي بأنه توجد في أغلب الملفوظات بعض الظواهر التي تتحدد قيمتها التداولية بشكل مستقل عن مضمونها ، وهذه الظواهر لها وجود فعلي إلى درجة أنه لا يمكن اعتبارها دائما هامشية ، بل يتعلق الأمر بعلامات»³ شديدة الصلة بالبنية اللغوية التي يتركب منها الخطاب.

فديكرو وزميله يدعوان إلى حجاجية اللغة ، مما يترتب عليه حجاجية القول بالضرورة ، فهما « يفترضان أن الكثير من ألفاظ اللغة وتراكيبها وكلماتها ليس له معنى وصفي واضح ، ولا إخباري بين ، وعليه فإن وظيفة هذه الألفاظ حجاجية بالأساس ، وحتى إذا اشتمل معنى بعض الألفاظ على مكون وصفي إخباري ، فإنه يكون ثانويا وتابعا للمكون الحجاجي الذي هو الأساس في تسلسل الخطاب وتناميه»⁴ ، وبهذا الطرح يتبدى لنا أن « الموقف المبدئي من التداولية المدججة ، هو أن اللغة تحقق أعمالا لغوية ، وليست وصفا لحالة الأشياء في الكون ، وهذا يستلزم أن يكون معنى القول صورة عن عملية القول لا عن الكون»⁵ فحسب.

إذا مكمن الحجاج عند ديكرو هو في بنية اللغة ويظهر في أن كلام شخص معين يقوم بفعل الحجاج فيقدم قولاً "ق1" " أو مجموعة أقوال " يفضي إلى التسليم بقول آخر " ق2 " " أو مجموعة أقوال أخرى" يقدمها مخاطبه ، وفي الحجاج نقوم بعملين أساسيين أحدهما خاص بالمتكلم ، وهو التصريح بالحجة من ناحية ، والآخر خاص بالسامع وهو استنتاج هذه الحجة من ناحية أخرى سواء أكانت النتيجة مصرحا بها أم

1- للغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 16.

2- ينظر: الحجاجيات اللسانية عند ديكرو وأنسكومبر ، رشيد الراضي ، مرجع سابق ، ص 219..

3- المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

4- الحجاج في الحديث النبوي ، أمال يوسف المغامسي ، مرجع سابق ، ص 94.

5- نظرية الحجاج في اللغة ، شكري المبخوت ، ضمن كتاب: حمادي صمود ، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من

أرسطو إلى اليوم ، مرجع سابق ، ص 354.

ضمنية¹ ، وعلى هذا الأساس يكون الخطاب حجاجيا يوجه المتلقي توجيهها محمدا لفعل شيء ما ، أو الكف عنه ، أو تغيير وضع ما ، فهو دعوة إقناعية للتأثير فيه بفعل اللغة .

بعد التطور الذي شهده الدرس اللغوي خاصة ما تعلق بالدراسات البلاغية ، اتضحت معالم الحجاج كمسار بحث في أحد وجوه الاستدلال التي يلجأ إليها المتكلم على سبيل التأثير والإقناع ، وهو الحال الذي وقفت عليه اللسانيات التداولية باعتباره أحد قضاياها البارزة ، فاستعمال اللغة هو تداولها في موقف تواصل معين ، وعلى نية التأثير والإقناع بالقول فإنه لا يخلو أي تواصل من ملمح حجاجي يفرضه بنية اللغة ، وإذ ذلك جعلت التداولية المدججة الحجاج « علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب ، تنتج عن عمل المحاجة ، ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغوية فلا بد من أن تتوفر في الحجة "ق1" شروطا محددة حتى تؤدي إلى "ق2" ، لذلك فإن الحجاج مسجل في بنية اللغة ذاتها وليس مرتبطا بالمحتوى الخبري للأقوال ولا بمعطيات بلاغية مقامية² تحيط بالخطاب .

مايز ديكر و أيضا بين الحجاج والاستدلال ، واعتبرهما « ظاهرتين من مستويين مختلفين كأساس الاستدلال هو علاقة اعتقادات المتكلم بحالة الأشياء ، أي ترابط الأحداث والوقائع في الكون ، أما الحجاج فهو موجود في الخطاب³ » يمثله بناؤه اللغوي ، بمعنى « إن عمل المحاجة باعتباره علاقة بين حجة ونتيجة مختلف عن عمل الاستدلال ، فالمحاجة علاقة بين عمليين لغويين لا بين قضيتين ، وهذه الخاصية التي تجعله مرتبطا باللغة الطبيعية هي التي تجعل البحث في الحجاج مؤهلا نظريا لبيان الترابطات الخطابية الفعلية وتفسير توجيه الأقوال نحو بعض النتائج دون غيرها⁴ ، وحتى يتضح التفريق بينهما يمكن أن نورد مثلا لكل منهما:

فلاستدلال ترجمه علاقة بين الحجة "ق1" والنتيجة "ق2" ، وهذه النتيجة تحتكم إلى حدث معين في الكون نحو قول أحدنا مخاطبا آخر:

1 . Jean . Claude Anscombre et Oswald Ducrot .Largumentaion dans la langue. Pierre /Mardaga. Editeur. Bruxelles.1983. p11.

وينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، مرجع سابق ، ص33.

2 - نظرية الحجاج في اللغة ، شكري المبخوت ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ،

مرجع سابق ، ص 360 - 361 .

3- المرجع نفسه ، ص 362 .

4- المرجع نفسه ، ص 353 .

أ - مستوى نظرك ضعيف "ق1".

ب - عليك بزيارة الطبيب "ق2".

النتيجة "ق2" المتوصل إليها والتي يفترض على المتلقي اتباعها هي زيارة طبيب العيون لفحص عينيه أو إلزامه بوضع نظارات طبية، وهذه النتيجة جاءت لحجة قدمت وهي ضعف البصر في النظر، وبالتالي نكون هنا أمام فعل استدلال.

أما في قولنا:

أ - رغم قساوة العيش في الصحراء "ق1"

ب - فإن مناظرها جميلة "ق2".

فنحن في فعل حجج للعلاقة الموجودة بين "ق2" التي جاءت كنتيجة، و"ق1" الذي جاء كحجة لها، وكمقارنة بين المثاليين يتبدى لنا أن الاستدلال عمل استنتاجي خالص في حين أن الحجج إضافة إلى اتصافه بالاستنتاج فإنه يخرج إلى معنى التوجيه، أي توجيه المخاطب نحو نتيجة محددة وهي جمال الصحراء رغم قساوتها.

ويلخص ديكر و أنسكومبر مسار الحجج في جملة من المفاهيم أهمها: العلاقات الحجاجية، والمواضع الحجاجية، والاتجاه الحجاجي، والقوة الحجاجية، والسلم الحجاجي، وكعمل إجرائي للحجج جعله علاقة دلالية تربط الأقوال فيما بينها، حيث تقوم الممارسة الحجاجية على تقديم المتكلم قولاً معين كحجة، يحمل بها المخاطب على قبول قول آخر يأتي كنتيجة مصرح بها أو ضمنية وذلك حسب السياق، وهذا الترابط بين الأقوال الحجج، والأقوال النتائج تسمى العلاقات الحجاجية، وهي علاقات خطائية، لا تحتكم للاستلزام المنطقي، بل تسيرها وتؤطرها المواضع الحجاجية¹ التي تنبع من المعارف المشتركة بين المتخاطبين.

أما المواضع الحجاجية فقد اعتبرها ديكر وعمدة الحجج بل عدها الخلفية التي ينبني عليها النشاط الحجاجي على أنها قواعد يقبلها التفكير الجمعي، الأمر الذي يعين المتكلم في بناء حججه، حيث من خلالها يبرز جهده المبذول لتبرير وضعه ما أو موقف أو فعل، ويجعله مقبولاً لدى مخاطبه، فالعلاقة الحجاجية تستلزم وجود موضع بين الحجة والنتيجة، أي أنها تحدد مسار الحاجة بين المتخاطبين، لذلك نجد الحجج تختلف من مقام لآخر².

1- ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص98.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص99.

رغم أن ديكر و زميله حصرا الحجاج في بنية اللغة إلا أنها اعتدا بالسياق ، كونه ركنا أساسا في توجيه مسار الحجاج ، فالظواهر اللغوية على اختلافها الواردة في تراكيب القول هي ما يحدد المعاني الاحتمالية وراء كل حجاج تضييقا واتساعا ، بالربط بين الحجج والنتائج¹.

إضافة إلى ذلك فقد وقفا على حجاجية اللغة بتحديد فاعلية مكوناتها ، باعتبارها مجموعة من القرائن اللغوية تفيد في توجيه الخطاب وجهة حجاجية ، وحصرا في نوعين²:

أ- العوامل اللغوية: تشمل عناصر لغوية يحكمها عامل الإسناد منها ما يتعلق بالنحو ومنها ما يتعلق بالمعجم ، وحجاجيتها تكمن في حصر الاحتمالات الحجاجية بالربط بين مكونات القول الواحد نحو الحصر والنفي والشرط... الخ.

ب - الروابط الحجاجية: هي ما يربط بين قول وآخر ، أو بين مجموعة أقوال من مكونات لغوية تداولية تسمح بالربط بين المتغيرات الحجاجية سواء بين حجة ونتيجة ، أو بين مجموعة من الحجج داخل استراتيجية حجاجية واحدة ، وتشمل روابط خاصة بالحجج مثل "لأن ، لكن ، حتى..." ، وروابط خاصة بالنتائج مثل "إذن ، أخيرا ، وبالتالي ، ..." وغيرها من الروابط التي من شأنها الربط بين الأقوال.

بعد تحديدهما لمسار الحجاج كتوجيه خطابي يركز على مواضع عرض الحجج والنتائج في القول ، صنفا الأقوال على حسب الحجج المستعملة لخدمة النتائج ، كأن « يعمد المتكلم في مقام خطابي معين إلى وضع قولين " 1 - ق - 2 " يعتبرهما حجتين تخدمان نفس النتيجة»³ ، أو قد يورد أكثر من قولين " 1 - ق - 2 - ق 3 " تأتي كحجج لتأكيد نتيجته ، هذا كما يمكنه أن يقتصر على قول خطابي واحد " 1 - ق " لتأكيد النتيجة ، وهذا التغير في إدراج للحجج ؛ أي تتابع الحجج في استراتيجية معينة حسب مقتضيات القول ، وطبيعة السياق ، وما يفرضه المقام أطلقا عليه مصطلح القسم الحجاجي .

تدرج الحجج في القسم الحجاجي تتابعا حسب تفاوتها في القوة والضعف ، وهو ما يكسب الخطاب الحجاجي بأي لغة طبيعية كان قوة حجاجية تزيد من فاعليته وتبعده عن معطيات البرهان المنطقي والرياضي ،

1- ينظر: نظرية الحجاج في اللغة ، شكري المبخوت ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى

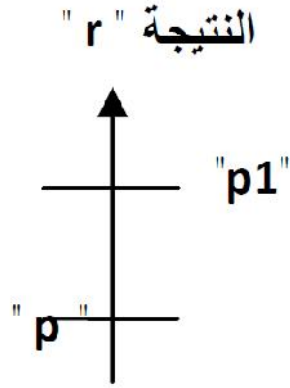
اليوم ، مرجع سابق ، ص 376.

2- ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة ، عبد اللطيف عادل ، مرجع سابق ، ص 100.

3- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

خاصة وأن الحجاج عماده إيراد الحجج على نية اتباع نتائجه الاحتمالية ، عكس البرهان الذي يقوم أساسا على تقديم الدليل القاطع الواجب اتباعه على وجه الفرض واللزوم¹.

إن تتابع الحجج واختلافها بين القوة والضعف ، أو ما سمي بقوتها الحجاجية جعلها تتدرج في ترتيب سلمي من أسفل لأعلى ، وفي هذا يقول ديكرود : « إن أي حقل حجاجي ينطوي على علاقة ترتيبية "الحجج" نسميه سلما حجاجيا² ، ومثل له بالخطاطة التالية³ :



حيث ترمز 'p' للحجة الأقوى في حين ترمز 'p' للحجة الأقل.

4: الحجاج عند ميشال ماير

بعد الأزمة التي وقعت فيها العقلانية الأوربية ظهر ميشال ماير بمشروعه الفلسفي الذي يقضي بعودة الفلسفة إلى وظيفتها الأولى المتمثلة في المساءلة⁴ ، ذلك أن فلسفة التفكير تأتي بعد استشكال يقع فيه الإنسان مما يجعله يطرح تساؤلات عدة تدعوه للتدبر والتفكير للإجابة عنها ، ويعد هذا التوجه البلاغي بأطروحاته الفلسفية « إحدى النظريات المعاصرة التي قامت بمعالجة الخطاب بصفة عامة ، والخطاب الذي يتم داخل عمليات التخاطب خاصة ، سواء كان تواملا عاديا أم حجاجا يهدف إلى الإقناع⁵ » ، جاعلا في سنة 1986 الموقف الفلسفي أكثر أهمية معتبرا أن السؤال أصل الفلسفة وبالبحث في حلوله نشأت ، بمعنى أن الفلسفة في

1 - ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة ، عبد اللطيف عادل ، مؤجع سابق ، ص 100 - 101.

2 - المرجع نفسه ، ص 101.

3 - ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

4 - ينظر: المرجع نفسه ، ص 104.

5 - عندما تتواصل نغير ، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجج ، عبد السلام عشير ، مرجع سابق ، ص 196.

أدق ممارساتها تعني إثارة الاستشكال لإعمال الفكر بالبحث والاكتشاف، دون الاعتداد بالأجوبة الجاهزة قبلاً¹.

بهذا الطرح حاول ماير تصحيح مسار الفكر الأوربي مركزاً على مبدأ الاستدلال، ساعياً لتصبح عنده حجاجاً ينفلت من النموذج التبريري المباشر كأدلة يقينية إلى استدلال بلاغي يمحصر نشاط الفكر ضمن دائرة الممكن والمحتمل²، وهو طرح يعتمد على تقديم الأسئلة والقدرة على إثارة الاستشكال، فركز اهتمامه على المسافة بين الأسئلة والأجوبة، فهو يرى أن الجواب لا يعني إغلاق البحث، فجعلها على اختلافها متكاملان متممان لبعضهما البعض وهذا ما أسماه بالاختلاف الإستشكالي³؛ فلولا الأسئلة لما وجدت الإجابة، ولولا الإجابة لما اتضح غموض السؤال.

وعن فاعلية السؤال كحركة دائمة في التفكير يصرح ميشال ماير قائلاً: «إن تأصل المسألة في الفكر يقطع مع الحاجة للمطلق أو لمعرفة قضوية قاطعة. إن الإقرار بالمسألة كأساس يعني الإقرار ونهائياً بأن الأسئلة وحدها هي الأصل، مما يعني انفتاحاً متعدداً على الأجوبة»⁴، بخياراتها المتنوعة، وعلى اعتبار التعدد واستحضار الآخر نشير إلى التواصل كفعالية حوارية تقوم على تناوب الذات السائلة والذات المجيبة، ومن خلال الإقرار والاعتراض أحياناً يتبدى لنا الملمح الحجاجي في المناقشات⁵.

وحتى يوضح حجاجية المسألة ربطها بالجانب الخطابي، كونها خاصية متأصلة في اللغة تطبع كل الإنجازات التلفظية وكل المبادلات الكلامية، التي تقوم على معادلة "سؤال - جواب"، جاعلاً العملية التخاطبية مساراً للمساءلة⁶، فحجاجية السؤال تكمن في دعوته للتغيير والتعديل، بآليات الاستدلال الخطابي لتحقيق غاياته الإقناعية.

لقد درس ميشال ماير البلاغة من منظور ثنائية "السؤال والجواب"، مركزاً على اللغة كجهاز معالجة لما هو مشكلة عند البشر، فالناس في حياتهم اليومية تشغلهم جملة من التساؤلات تفرضها عليهم الحاجة لإثبات الوجود، وقولاً بفكرة "أنا أفكر إذن أنا موجود" يطرحون مجموعة من الأسئلة عليها تكون إجابة

1- ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، مرجع سابق، ص 104.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 104-105.

3- ينظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، مرجع سابق، ص 105.

4- المرجع نفسه، ص 105.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص 105-106.

6- ينظر: المرجع نفسه، ص 106.

وحلا لمشاكلهم ، وتبقى اللغة خير وسيلة لتحقيق هذه الوظيفة ، ذلك أنها أداة تواصل وتعبير ، وحيثما يكون التواصل ينشأ مجال الحجاج .

لقد استقى ماير أفكاره من بلاغة أرسطو القديمة وما جاء به بيرلمان حديثا ، فإذا كان أرسطو درس الحجاج من خلال مقومات الخطاب الإقناعي المتمثلة في " الإيتوس ، الباتوس ، اللوغوس " ، فإن ماير جعل له تصنيفا آخر يشمل " الأخلاق ، السؤال ، الجواب " ، مركزا على الركنين الأخيرين الذين يبينان ما أسماه بالاستشكال ، ولما اهتم بيرلمان بمبدأ الانخراط ، انشغل ماير بالمفاوضة كمبدأ أساس للممارسة الحجاجية ، ومن ثم أصبحت البلاغة حسبه تشغل مساحة مركزية في تصورات الإنسان تهتم بأوجه استعمال الخطاب ، ومن خلال التداول الاستعمالي للغة يحصل الإعجاب والإقناع¹ .

مبدأ الممكن والمحتمل في أي تواصل خطابي يقوم به الإنسان يجعل البلاغة لا تخرج عن الطابع الحجاجي ، فالناس رغم القواسم المشتركة التي تجمعهم فإنهم يقعون أحيانا انطلاقا من استشكال يصادفهم في مواجهة وتعارض حجاجي يستدعي منهم أوجه استدلالية لإظهار الصواب وإن كان احتمالا ، وهذا العمل يعد جهدا إقناعيا يظهر حاجة الناس للحجاج من خلال الكلام وإثارة السؤال² .

وبناء على ما سبق نخلص إلى أن ماير درس الحجاج في حدود المسافة التي رسمها بين المتخاطبين ، حيث جعل المسألة كمفاوضة لهذه المسافة ، حيث يسعى كل طرف إلى إقناع الآخر بما يجب أن يكون مشتركا بينهما أو توسيعها بتأجيل هذا التناقض وتعميق الاعتراض ، وهي رؤية تجعل المتخاطبين يتعدان عن العنف من خلال الحوار والنقاش وتقبل الآخر³ .

ونشير أخيرا أن استراتيجية الحجاج التي بناها ماير والتي استقاها من الطابع المجازي للبلاغة وما تقوم به اللغة من تضمين ، وإبعاد للجواب الصريح ، وتخليط لمسارات المعنى ، تستوجب البحث والتأويل للكشف عن ما وراء ظهر السؤال ، وكلما اتسع مجال التأويل ازداد الحجاج قوة ، وبالتالي تتضح مقاصد المتكلم ، خاصة وأنه جعل التأويل في مقام الاستدلال⁴ .

1- ينظر: اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 106 . 107 .

2- ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة ، عبد اللطيف عادل ، مرجع سابق ، ص 107 - 108 .

3- ينظر: المرجع نفسه ، ص 108 .

4- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

ثانيا: الحجاج في الدرس العربي الحديث

حظيت البلاغة على قدم عهدها باهتمام كبير لدى الدارسين المحدثين - غربيين أو عرب على حد سواء - الذين أطروا بأفكارهم الدرس البلاغي المعاصر، اهتمام رغم جدته ينطلق من مشروع أرسطو ونظرتة للخطابة وينصهر في التدافع الفكري الذي شهده الدرس اللغوي في شقيه اللساني والنقدي وما ولده من مناهج ونظريات تدعو لدراسة الخطاب وفق نسق محدد وتحليل إجرائي يميز كل نظرية عن الأخرى، ولئن كان الغربيون هم الأولى في كل ضجة فكرية يشهدها الفكر، فإننا نجد العرب على نهجهم ينحون المسار نفسه مع مراعاتهم أحيانا الخصوصية العربية لثقافتنا، آخذين بعين الاعتبار ما قام به علماءنا العرب القدامى، من تأصيل للبلاغة وتحديد لأبوابها وتحليل لقضاياها، مما لا يدع مجالاً للشك أن تكون نسخا لما قدمه الغربيون، وبالتالي تكون أبحاثهم إقراراً بما قدمه أجدادهم القدامى، وإكمالاً لما لاحظوه إثراء تنويري للبلاغة العربية.

هذا التوجه البلاغي أسقط قول الداعين بأفول البلاغة والنادين بموتها، جاعلين قضاياها ومبادئها تركة شرعية للأسلوبية، هذا رأي دعا إليه الدارسون الغربيون، فإذا اتبعناه نكونوا قد أسقطنا البلاغة العربية وأدخلناها في دائرة التعتيم، يقول عبد السلام المسدي: « وإذا تبيننا مسلمات الباحثين والمنظرين وجدناها تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة، ووريثتها المباشرة، معنى ذلك أن الأسلوبية قامت بديلاً عن البلاغة»¹، والبديل ما يحل محل شيء كان حاضراً وغياب، أي « أن يتولد عن واقع معطى وريث ينفي بموجب حضوره ما كان قد تولد عنه، فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت، هي لها حبل التواصل وحبل القطيعة»²، وقول بهذا المعطى نكون قد أجحفنا في حق البلاغة العربية، وهو ما نستشفه من كلام محمد عبد المطلب في قوله: « فمن المؤكد أنه حدث تداخل بين اختصاصات البلاغة القديمة والأسلوبية الحديثة، غير أن البلاغة لم تعد قادرة على الاحتفاظ بكل حقوقها القديمة التي كانت تناسب فترة معينة من ماضينا والتي يجب على الباحث في الأسلوبية وضعها في اعتباره»³ أثناء دراسته.

وبعد الانعطاف الفكري الذي شهده الدرس اللغوي محاولاً احتواء معطيات اللسانيات الحديثة كعلم وصفي واستثمارها في معيارية البلاغة من خلال المشافهة التي جبلت عليها، فيما أصبح يعرف حديثاً باللغة في

1- الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط3، دت، ص52،

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1994، ص354.

الاستعمال التي نادت بها التداولية ، فكان الفيصل بين البلاغة والأسلوبية ، يقول محمد العمري : « وقد اعتقد بعض الباحثين إلى حين أن الأسلوبية يمكن أن تقدم بديلا حديثا للبلاغة غير أن البلاغة الأسلوبية ما إن حاولت تثبيت كرسيتها على الدكة التي كانت تستقر فيها البلاغة باطمئنان حتى اهتز من تحتها ومال على جانبه لانكسار إحدى قوائمها المتمثلة في البعد التداولي»¹ ، كونه بعد يهتم بدراسة شتى أنواع الخطاب الاحتمالية وتحديد كيفية تأثيرها ، والوقوف على ما يتبعها من آثار.

وفي خضم التداخل الشديد بين التداولية والبلاغة من خلال تقارب قضاياها ، واهتمامها بالمحنى الخطابي الذي أغفلته الأسلوبية ، « تدعم هذا المنحى بدراسات قيمة من قبيل دراسة لهنريش بليث بعنوان: "البلاغة والأسلوبية" ، أعاد فيها إلى الواجهة البعد التداولي الحجاجي للبلاغة القديمة»² ، وبدأ يشتغل على سلطة القول ومداهما التأثيرية لتغيير الاعتقاد والسلوك ، أو بالدفع لفعل شيء أو الكف عنه.

وبهذا التصور الجديد للبلاغة أصبحت « كما يرى معظم المفكرين البلاغيين المعاصرين - ماثلة في كل النصوص ، إنها مكون طبيعي في أشكال التواصل الإنساني هذا هو موضوع البلاغة الذي قد يتجسد أحيانا في مجموع من البنات الإقناعية "البلاغة الحجاجية" ، وأحيانا أخرى قد يتجسد في مجموعة من الصيغ التعبيرية والتصويرية التي تفرزها مختلف الأجناس والأنواع والأشكال والنصوص الأدبية ... "البلاغة الأدبية"»³ ، فحيثما تكون الحاجة للتواصل يكون الحجاج ، وكلما اتسعت دائرة الاختلاف بين المتخاطبين زاد الإدعاء ، ومن ثم يزداد دافع الحجاج.

وبعد العودة القوية للبلاغة وحضورها كحقل اشتغال يدعو له غالبية المفكرين المعاصرين وعلى رأسهم بيرلمان وتيتيكا ، أصبح الحجاج يؤسس له كمنظرة العصر ، في ما أسموه بالبلاغة الجديدة ، بلاغة تدرس الخطابات التواصلية على اختلافها في حدود الممكن والمحتمل ، وعلى أساس أن البلاغة العربية بلاغة قول وتأثير تضم البعد الخطابي التداولي إلى جانب التخيلي الشعري ، تأثر بأفكار بيرلمان ثلة من الباحثين العرب ، المهتمين بالبلاغة العربية ، محاولين مقاربتها بهذه الرؤية الحداثية ، على غرار صلاح فضل ، ومحمد العمري ، وطه عبد الرحمن ، وعبد الله صولة ، وغيرهم ، فتنفروا على حسب استعمالهم من جهة ، وعلى

1 الحجاج مبحث بلاغي في البلاغة ، - محمد العمري ، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته ، ج1 ، مرجع سابق ، ص21.

2 - أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة ، محمد العمري ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، الدار البيضاء ، ط1 ، 2013 ،

ص31.

3- البلاغة والأصول ، محمد مشبال ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2007 ، ص08.

خلفية توجهاتهم الفكرية من جهة أخرى ، سواء من منظور نقدي ، أو منطقي فلسفي ، أو بلاغي تداولي ، أو حتى لساني لغوي .

1: الحجاج عند طه عبد الرحمن

اهتم الباحث المغربي طه عبد الرحمن بالبحث في الفلسفة وقضايا المنطق ، ويعد من العرب الأوائل الذين طرخوا مجال التداولية ، فمزجت أبحاثه بين الفلسفة والتداوليات ، مشتغلا على المنطق الطبيعي وعلاقته بمنطق اللغة خاصة اللغة العادية التي تستعمل للتواصل اليومي ، فدرس الحوار باعتباره ممارسة كلامية بين طرفين يتداولان على استعمال اللغة ، وتحكمهما خلفيات ثقافية وفكرية مشتركة ، وأي اختلاف أو تباعد للرؤى بينهما يدخلهما في محاجة يستحضر كل منهما ما يملكه من حجج وأدلة لإقناع الآخر .

وفي هذا المعطى عرف الحجاج على أنه « فعالية تداولية جدلية ؛ فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي ؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية ، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية ، إنشاء موجهها بقدر الحاجة ، وهو أيضا جدلي لأنه هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة»¹ ، فالطابع الجدلي والتداولي حسب طه عبد الرحمان هو أهم ميزة تطبع الحجاج لذلك يجب مراعاته لنجاعة الخطاب الحجاجي وتحقيق غاياته .

وتبين مكانة طه عبد الرحمن العلمية في مجموعة مؤلفاته وما قام به من مقاربات فلسفية في مجال الدراسات اللسانية الحديثة خاصة ما تعلق بالتداولية ، حيث ألف عام 1987 كتابه "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" ، وفي عام 1989 ألف كتاب " العمل الديني وتجديد العقل " وهو كتاب يعنى بدراسة الخطاب الديني برؤية عقلية حديثة تراعي تغيرات العصر والحقائق العلمية التي توصل لها العقل البشري ، ولاهتمامه بالتراث قدم عام 1994 كتابا آخر كنظرة تقويمية تنويرية لتراثنا اللغوي والأدبي القديم عنونه بـ "تجديد المنهج وتقويم التراث" ، وقدم كتاب في جزئين أسماه "فقه الفلسفة 1" الأول سنة 1995 ، والأخر فقه الفلسفة 2" سنة 1999 ، إضافة إلى كتاب "اللسان والميزان" أو ما أسماه بالتكوثر العقلي ، وهو كتاب مهم يعنى بقضايا الفلسفة ومنطق اللغة ، ناهيك عن كتاب "سؤال الأخلاق" الذي ألفه سنة 2000 ، ليتبعه سنة 2002 بكتاب "الحق العربي في الاختلاف" ، فهذه الكتب وغيرها على اختلافها ، وتنوع موضوعاتها ، عولجت في أغلبها برؤية فلسفية خالصة ، تعكس الخلفية الفكرية لصاحبها ، خاصة وأنه ضمنها قضايا المنطق واللغة معا .

1- أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 65 .

رغم اشتغال الباحث طه عبد الرحمن بالفلسفة وقضايا المنطق إلا أنه لم يبنأ بأفكاره عن معطيات الدرس اللساني الحديث، فاهتم بالتداولية من خلال دراسته للكلام باعتباره فعالية اجتماعية لها دواعيها التي تجبر الإنسان للدخول في حوار تفاعلي مع غيره لتبليغ مقاصده، ولعل كتابه "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" تجسيد فعلي لمبادئ التداولية، لمراعاته للعملية التخاطبية وتحليلها، انطلاقاً من أغراض المتكلم، وتحديد مقاصده، وقوفاً على قواعد التخاطب التي تأتي كآليات تخاطبية يتوجب على المتخاطبين اتباعها إنتاجاً وتأويلاً.

وعلى ذكر الحوار وتداولية الكلام يأتي الحجاج كملمح استدلالي عند طه عبد الرحمن، فهو: «وحد الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، ... يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ... وهو أيضاً جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية»¹، فالمنهج الاستدلالي عند طه عبد الرحمن يعتمد على المحاوره كمجال تداولي يجسد البعد التواصلي للغة في أبعد صورته، ومن ثم عد التخاطب الطبيعي بين البشر استعمال للغة لغايات إقناعية وتأثيرية معاً.

وفي حديثه عن المحاوره مكن الحجاج أشار إلى المناظرة باعتبارها «النظر من جانبيين في مسألة من المسائل قصد إظهار الصواب فيها»² والاقتناع به على وجه الاحتمال لا اليقين، وهو الحال نفسه الذي يسعى له الحجاج، حيث يدخل المتكلم في تناظر جدلي عارضاً حججه، أو معترضاً على حجج خصمه، سعياً وراء الإقناع أو الإقناع جامعاً ما هو إبلاغي بما هو تحييلي.

اهتم طه عبد الرحمن بالعملية التخاطبية بدراسته للغة باعتبارها ممارسة اجتماعية يتواصل بها الإنسان، فحلل الخطاب واقفاً على مراتب حواريته، من حوار فمحاوره إلى تحاور، وهي على اختلافها تشترك جميعها في كونها فعاليات خطابية تعنى بشروط الاستدلال من جهة، وبشروط التداول اللغوي من جهة ثانية³، ووفق كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث صنف نظريات تحليل الخطاب، وهي "النظرية العرضية، النظرية الاعتراضية، النظرية التعارضية"، محدداً وجه الحجاج وآليات اشتغاله في كل منها، بدءاً من العرض ثم مرحلة الاعتراض، ثم مرحلة التعارض، أو ما أسماه بالتحجاج.

1- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 65.

2- المرجع نفسه، ص 46.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص 35.

وعلى الجملة فإن الطبيعة الاستدلالية للخطاب ينبني على الحجاج جعلت طه عبد الرحمن يفرد للخطاب كتاباً خاصاً أسماه بـ "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي" راصداً للدليل جملة من المعارف والوسائل المختلفة، منطقية، وبلاغية، وفلسفية، ولسانية، حيث أدرج الحجاج في دائرة الأفعال اللغوية التي نادى بها التداولية، فوضع له تعريفاً تداولياً بقوله: أنه «فعل تكلمي لغوي مركب... وموجه، إما إلى إثبات أو إلى إبطال دعوة معينة»¹، بالحجة التي «ترد في سياق حوارى معين ينبغي على المتلقي استحضارها للتعرف على بنيتها والتمكن من تقويمها»²، وفي الوقت نفسه تأتي كدليل يضيف الطابع الاستدلالي على الفعالية التخاطبية انطلاقاً من مبدأ التفاعل الخطابي بين المتخاطبين.

2: الحجاج عند محمد العمري

في خضم التدافع الفكري الذي شهده الدرس اللغوي الحديث وما أتبعه من انتقادات موجهة للسانيات سوسير، ظهرت التداولية بمخرجاتها الجديدة كنقطة تحول لطبيعة البحث، حيث اهتمت باللغة في مجالها الاستعمالي من باب أنها محاورة تتسم بالمشافهة والقول أثناء الكلام، وبذلك لم تخرج في منحائها عن معطيات البلاغة العربية، وما تحث عليه من دور للمشافهة باعتبارها آلية تواصلية وخاصة لصيقة باللغة تعيننا في تحديد بلاغة القول.

بهذا المعطى الجديد في حديثه والقديم في أصالته أسس محمد العمري مشروع البلاغي، فأخذ يرافع من أجل بلاغة جديدة أشبه بنظرية التواصل،... بلاغة قوامها الاستمالة والإقناع، بلاغة تتكامل مع الحساب وتتعاقد مع الحكمة، بلاغة تستحق عنواناً حديثاً مثل: البلاغة والسياسة، قوة الخطاب وخطاب القوة³ مشروع يؤسس للخطابية في بعدها الجمالي الإبداعي من جهة، وفي بعدها الوظيفي التواصلية من جهة أخرى، حيث ظهرت إرهاباتها منذ الجاهلية في قول الشعر ومنذ التحري اللغوي الذي قام به علماءنا العرب في تقعيد اللغة وجمع مفرداتها، وغيرها من التقاليد الخطابية التي ميزت مختلف مستويات التعبير في الثقافة العربية.

1- اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 262.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 269.

3- البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، محمد

مشبال، مرجع سابق، ص 16.

لقد درس محمد العمري البلاغة بعدها مفهوما تداوليا محفوفًا بملامح الحجاج لاستعمالها ما أمكن من الفهم والإفهام، والاستمالة والاستدراج، والترغيب والترهيب، وآليات التخيل أحياناً¹، مستدلاً في ذلك بنص لأبي حيان، يبين فيه وظيفة البلاغة وما يمكنها فعله من تعديل للسلوك أو تغييره، أو تبني اعتقاد أو إبطاله، ومن جملة ما ورد فيه «... وكذلك البلاغة التي قد علم صاحبها وطالبها ما ينتهي إليه، ويقف عليه من تنميق لفظ، وتزويق غرض، وتغطية مكشوف، وتعمية معروف،.... وهداية متحير، وإرشاد متسكع، وإقامة حجة، وإرادة برهان، واستعادة مزيد، وتلطيف قول في عتب،... وقلب حال عن حال حتى تضمم بها أمور منتشرة، وتندمل بها صدور منقطرة، وتتسق بها أحوال متعاندة، وتستدرك بها حسرات فائتة، وتحمد نيران ملتبهة»²، وغيرها من الوظائف التي تنتهي إليه البلاغة، وحجاجيتها تكمن في مزيتها التأثيرية وما تعود إليه من نتائج احتمالية.

وعلى هذا الأساس عرف البلاغة على أنها «علم الخطاب الاحتمالي المؤثر»³، وبهذا المفهوم تسير البلاغة في اتجاهين مختلفين لا يمكن الفصل بينهما، أحدهما شعري يعنى بما هو تخيلي إبداعي، والآخر خطابي يعنى بما هو تصديق تداولي، على افتراض إدعاء يقتضي احتمالية التصديق، فالمتكلم يدعي الصدق، وحتى يثبت ذلك عليه أن يقنع مخاطبه، وإلا بقي خطابه معلقاً في التداول، مثله مثل خيال الشاعر؛ عليه أن يلج وجدان المتلقي حتى يؤثر فيه⁴.

يرى العمري أن «للبلاغة العربية... مهدان كبيران أنتجا مسارين كبيرين، مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة، ونظراً للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة النيرة التي أسهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو

1- البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، محمد مشبال، مرجع سابق، ص32.

2- المقابسات، المقابسة الثانية، بعنوان علم النحو، أبو حيان التوحيدي، ص121. نقلاً عن: البلاغة والخطاب، محمد مشبال، مرجع سابق، ص32.

3- مشروع بلاغة عامة، حوار مع محمد العمري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع1، 2012، ص178. نقلاً عن البلاغة والخطاب، محمد مشبال، مرجع سابق، ص289.

4- ينظر: البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، محمد مشبال، مرجع سابق، ص44.

وشعريته»¹، وبهذا الشكل يكون قد حاور التراث البلاغي القديم العربي واليوناني، متبعاً تفريق أرسطو بين "فن الشعر" البويتيك و"فن الخطابة" الريطوريك، ولهيمنة الشعر على التنظير البلاغي العربي جعل كتاب "فن الخطابة" خديماً لكتاب "فن الشعر" لإبراز الجانب الخطابي للشعر، فانتهى إلى مصطلح "خطابية" مقابلاً لريطورية أرسطو تاركاً كلمة بلاغة في معناها العام لتدل على المعنى الحديث للريطورية، تهتم بدراسة جميع الخطابات على اختلافها².

إذا يرجع اختيار مصطلح الخطابية عند محمد العمري إلى اعتبارات كثيرة، فهو مفهوم إجرائي يقصد به علم الخطابة، أي العلم الذي يجعل مجال الخطابة موضوع اشتغاله، فيستخرج تقنياتها وما تحويه من مكونات حجاجية بهدف الإقناع، الذي يعد أبرز المكونات الحجاجية التداولية هيمنة في التراث الغربي منذ أرسطو إلى اليوم، وبهذا المفهوم مايزها عن الشعرية التي تهتم بدراسة الشعر في ذاته باعتباره خطاب تخيلي، بغض النظر عن أغراضه وخصائصه، وبحصره للخطابية والشعرية نظر للبلاغة على أنها ذلك العلم الكلي الذي يتسع للخطاب التداولي الحجاجي وامتداداته الخطابية والشعرية معاً³.

شغلت البلاغة بشموليتها المعرفية فكر محمد العمري بعدما رأى أنها «كأغلب العلوم الإنسانية - أو كلها - مفهوم تاريخي يتغير بحسب الثقافات والحقب: فمفهومها عند الجاحظ وابن سنان الحفاجي مثلاً بعيد كل البعد عن مفهومها عند عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، ومفهومها عند كل هؤلاء "أي إلى حدود القرن السادس الهجري" بعيد عن مفهومها عند عبد الصلاح الصفدي وابن حجة وغيرهما من بلاغيي العصور المتأخرة، ونظير هذه الاختلافات الملحوظة في الثقافة العربية موجود ومرصود بقوة في الثقافة الغربية من أرسطو إلى بيرلمان»⁴، مما جعله مجدداً يطرح أسئلة عدة توسع دائرة البحث عن البلاغة.

وبعد تقص تاريخي لمسارها المعرفي توصل إلى أنها علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال، في خطوة أولية حصرها في معنيين مختلفين، أولهما أنها صفة للكلام من باب حسنه، وتشمل الإنشاء والكفاءة

1- البلاغة بين التخيل والتداول، محمد العمري، مرجع سابق، ص 6.

2- ينظر: البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب،

محمد مشبال، مرجع سابق، ص 43.

3- ينظر: سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري نحو بلاغة عامة، إدريس جبري، ضمن كتاب: البلاغة

والخطاب، محمد مشبال، مرجع سابق، ص 260.

4- المرجع نفسه، ص 280.

التعبيرية ، ومن وصف بها يسمى بليغا ، وثانيها أنها لغة واصفة لهذا الإنشاء أي الخطاب ويسمى المشتغل بها بلاغيا ، وبالتالي يعنى بالعلم الذي يصف هذه الكفاءة وهذا الحسن¹ .

ولم يهتم محمد العمري في مشروعه البلاغي بالكفاءة التعبيرية وحسن الكلام بقدر اهتمامه بالعلم الذي يصفها ، أي حسب قوله: « العلم الذي يصف آليات اشتغال هذا الكلام الإنشائي ، ونسمى المشتغلين بهذا الكلام بلاغيين ، فهناك إذن كلام بليغ "خطبة بليغة" ، وكلام بلاغي "الحديث عن بلاغة تلك الخطبة" »² ، وتأتي البلاغة وسطا بينها كعلم واصف للخطاب الاحتمالي المؤثر تدرس مكونات ما أنشئ من خطابات واقفة على خصائصه ومميزاته .

وكتحليل لمشروعه البلاغي فإننا نجد بنى الخطابية على ثلاثة ركائز ، نجملها في الآتي³:

أ- علم الخطاب: يتصل أولها بمكون علم الخطاب ، ويشمل مجموع المعارف والآليات والمفاهيم وما يتبعها من مقامات وسياقات تعيننا في تحليل الخطاب ، ومن هذا فإنه حيثما وجد الخطاب واتسم بالاحتمالية والتأثير وجدت البلاغة .

ج - الاحتمال: رَبُّطُ البلاغة بدراسة الخطاب وتحليله قد يجعلها حمالة أوجه ، ولكن حصرها بالطابع الاحتمالي للخطاب يجعلها رخوة تتدافعها اختلاف الرؤى حول ما هو نسبي ومتوقع وممكن وراجع ، دون أن تدعي أي منها امتلاك الحقيقة المطلقة .

ب - الأثر / التأثير: فأخذنا بأن البلاغة تعنى بالخطاب الاحتمالي المؤثر ، فإن من طبيعة هذا الخطاب أن يحدث فعلا في المتلقي بترك أثر في نفسيته ، «سواء كان تأثيرا فعليا "الإثارة والإفادة" أم تأثيرا جماليا "الإمتاع" ، وهذا التأثير هو عمود البلاغة والأساس الذي يسوغ إطلاق تسميتها على أي مقارنة نظرية أو عملية تتوخى درس الوظيفة التأثيرية بتجلياتها في أنماط الخطاب الأدبي وغير الأدبي»⁴ .

وفي ضوء ما ورد حول الخطابية وما أرساه العمري في مشروعه البلاغي يتبدى لنا أنه درس البلاغة باعتبارها مفهوم يشمل الإقناع والحجاج والتداول ، ذلك « إن كل فعل تواصلي بما فيه الشعر يروم إيصال

1 - سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري نحو بلاغة عامة ، إدريس جبيري ، ضمن كتاب: محمد مشبال ، البلاغة

والخطاب ، مرجع سابق ، ص 181 ..

2 - المرجع نفسه ، صفحة نفسها ..

3 - ينظر: المرجع نفسه ، ص 282 - 283 .

4 - المرجع نفسه ، ص 282 .

رسالة ما تؤثر في مستمعها وبالتالي فإن كل قول بليغ مسكوب في لغة طبيعية هو فعل إقناعي من حيث الوظيفة وحجاجي من حيث الاستراتيجية، وتداولي من حيث استعماله اللغوي على نحو خاص¹، ويتضح هذا أكثر بعد الوقوف على الوجه البلاغي لأي فعل تواصلية إنتاجية وتلق، حيث نكون أمام بلاغتين، « بلاغة الإنتاج وبلاغة التلقي، فبلاغة الإنتاج هي الفعالية القولية التي تؤول العالم على نحو مخصوص بواسطة اللغة الطبيعية، وهي البلاغة التي يتوسل بها المنشئ في أثناء تعبيره عن مقاصده، أما بلاغة التلقي فهي العلم الذي يعنى بتفسير البلاغة الأولى، أي هي علم تحليل الخطاب من جهة إبراز² خصوصية القول.

وأهم ما نخلص إليه من هذا المسار المعرفي أن محمد العمري سعى إلى ربط البلاغة العربية بالإقناع والحجاج والتداول، فاستعمل هذه المفاهيم على نحو متقارب، انطلاقاً من مصطلح الخطابة الذي استعمله في كتاب "في بلاغة الخطاب الإقناعي"، باعتبار أن الخطابة فن إلقاء الخطب، وهي تختلف عن خطابة أرسطو المترجمة بالربطوريقا، القسيمة للربطوريقا أي الشعرية بمصطلح العمري، مما جعله يترجم الربطوريقا بالخطابية تفادياً للبس والخلط بينها وبين الخطابة العربية³.

وبعد ضبطه لمصطلح الخطابية تحد عن الإقناع بعده الفعل الذي يحدثه التأثير في المتلقي، مما يدفعه إلى اعتقاد ما، أو إلى تغيير سلوك، وهو ما يجعل الإقناع هدف بلاغة الحجاج وغايته، ليتقل في كتابه "البلاغة بين التخييل والتداول" إلى مصطلح التداول في حدود المناسبة المقامية، « بالبحث عن عملية إقناعية خطابية من جهة، وبملائمة العبارة للمقاصد ضمن نظرية النظم الإعجازية "أو ما يمكن أن ندعوه تداولية لسانية في مقابل التداولية المنطقية النصية"، وارتبط من جهة ثالثة بالبحث عن بلاغة ذوقية تقوم على الصحة والمناسبة⁴، فيتضح من كل هذا أن العمري درس التداول في إطار بحثه عن الإقناع في ضوء مقارنته للفعالية التواصلية مراعيًا ذوق المتلقي من جهة ومقاصد المتكلم من جهة ثانية، ومدى مناسبة مستوى التعبير مع مقام التواصل من جهة ثالثة.

1- الحجاج والتداول في البلاغة العربية القديمة، محسن الزكري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، محمد مشبال، مرجع

سابق، ص 291.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- ينظر: المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، 1999، ص 30.

أما الحجاج فقد درسه انطلاقاً من سؤال أوليفي ريبول "هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي"، محاولاً إبعاد الحجاج عن مظاهر البرهان المنطقي والرياضي، واقفاً على علاقته بالبلاغة، فعده «خطاباً عقلياً يهدف إلى الإقناع بدون أن تكون له الصرامة الشكلية التي تتمتع بها البرهنة»¹، فهو يشير هنا إلى فعالية الخطيب البليغ، وما يتصف به خطابه من بلاغة أثناء الإنتاج، ليقابله البلاغي الذي يدرس الإقناع في هذا الخطاب من منظور بلاغة الحجاج، ساعياً للكشف عن الاستراتيجية التي تحقق هذه الغاية، معتداً بمفهوم الخطابة عند أرسطو كونها آلية الكشف عن سبل الإقناع الممكنة في أي موضوع².

وعلى العموم فإن العمري قد وسع من دائرة الحجاج لتشمل بصفة عامة كل السبل الممكنة والمؤدية للإقناع، متأثراً بأراء أوليفي ريبول، بما فيها الصورة وغيرها من وسائل الإشهار المرئية، إضافة إلى التشبيه والاستعارة، باعتبارهما قياس، أي حجاج ينطلق من مقدمات وينتهي إلى نتائج³، في خطاب يتسم بالاحتمالية ويجمع التخيلي بالتداولي، فالخيال يجعل النص المخيل منغلقاً على نفسه، مفتوحاً على قراءات عدة، وبفعل المقامية يصبح موضوع التداول متنازعا فيه بين طرفين، تقبله يقتضي علو الحجة وقوة تأثيرها⁴.

3: الحجاج عند أبي بكر العزاوي

يعد أبو بكر العزاوي أحد ثمار الثقافة العربية الغربية في الدراسات اللسانية الحديثة التي تعنى بالتداولية وتحليل الخطاب، تتلمذ على يد أستاذه أوزفيلد ديكر ورائد الحجاجيات اللغوية، يبحث حول "الروابط الحجاجية والمنطقية في اللغة العربية"، فعالج الظاهرة الحجاجية مستندا «إلى اللغة في بعدها الطبيعي والاصطناعي، إلى جانب النحو والبلاغة مع العناية بالاستعارة من حيث هي عنصر أساسي في الاحتجاج اللغوي يتجاوز ما قد يقصد من الاستعارة الفنية.... كما يستند إلى المنطق وعلم النفس والنظريات اللسانية»⁵ الحديثة.

1- البلاغة بين التخيل والتداول، محمد العمري، مرجع سابق، ص 214.

2- ينظر: الحجاج والتداول في البلاغة العربية القديمة، محسن الزكري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، محمد مشبال،

مرجع سابق، ص 293.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص 293-294.

4- ينظر: البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب،

محمد مشبال، مرجع سابق، ص 40.

5- الدكتور أبو بكر العزاوي أستاذ الحجاجيات، عباس الجراري، مقال ضمن: مجلة طنجة الأدبية، ع 56، مجلة ثقافية شهرية

تصدر عن شركة linamsolution، طبع: Volkimprimerie، جوان-جويلية، 2015، ص 17.

واجتهادا منه ألف عام 2006 كتاب "اللغة والحجاج" باكورة أعماله البحثية في مجال التداوليات الحجاجية في الوطن العربي، ليتبعه عام 2007 بمؤلف آخر تحت عنوان "الخطاب والحجاج"، والذي يأتي كعمل إجرائي لآليات تحليل الخطاب على اختلافه حجاجيا بمعطيات نظرية ديكرولغوية، وحتى يتم مشروعه أضاف كتابا ثالثا بعنوان "حوار حول الحجاج" سنة 2010، فنظر للحجاج على أنه «نشاط لغوي واجتماعي يهدف إلى تقوية أو تخفيض مقبولية قولة ما لدى المستمع أو القارئ وذلك ببناء متسلسلة من الأقوال والجمل المتناسكة ببنية داخلية تهدف إلى تفتيد أو تأكيد مقولة ما قبل إصدار الحكم»¹ بوجه استدلالي يدعو إلى إقناع مخاطبه.

فنظرية الحجاج اللغوي التي أرساها ديكرولغوي وأتبعها أبو بكر العزاوي تشكل قراءة جديدة في تحليل الخطاب، وتقدم تصورا جديدا في دراسة المعنى، ف«إخضاع أي نص للحجاج أو عرضه على النظرية الحجاجية، هو الذي يساعد على فهمه وإدراك مرامييه وما يتصل بهذه المرامي، مما قد يكون ظاهرا أو خفيا، وهذا ما يجعلنا لا نستغرب توسيع دائرة تطبيق هذه النظرية على مختلف النصوص وجميع الخطابات، سياسية كانت أو أدبية، أو حتى إخبارية»² بما فيها الخطاب الديني نحو ما قام به أبو بكر العزاوي مع القرآن الكريم. بلور العزاوي أراء ديكرولغوي وحاول تطبيقها بداية على الخطاب القرآني، فقدم مثلا بسورة الأعلى واقفا فيها على تسلسل مجموعة من الآيات كأقوال تخدم نتيجة واحدة، وتجمعها علاقات حجاجية داخل بنية اللغة، وهو ما أسماه بالمنطق الطبيعي للخطاب، وهو كون العملية الحجاجية تستلزم تتابع مجموعة من الحجج لبناء نتيجة يريد المتكلم بناءها، وعلى هذا الأساس بنى الحجاج على ثلاثة أسس رئيسية هي "الحجة، الرابط الحجاجي والمنطقي، والنتيجة".

ينطلق أبو بكر العزاوي من فكرة «أنا نتكلم عامة قصد التأثير، وهذا...، أن وظيفة التأثير والإقناع قائمة في اللغة ذاتها وليس خارجها؛ إذ تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفية حجاجية، أي أن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال نفسها، في المعنى وكل الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية

1- تحقق الحجاج في الخطاب انطلاقا من تحليل كتاب الخطاب والحجاج للدكتور أبو بكر العزاوي، هشام الشنوري، مقال

ضمن: مجلة طنجة الأدبية، المرجع نفسه، ص18.

2- الدكتور أبو بكر العزاوي أستاذ الحجاجيات، مقال ضمن: مجلة طنجة الأدبية، عباس الجراري، مرجع سابق، ص17.

الخاضعة لها»¹، فالحجاج عنده يكمن في منطق اللغة، ويشمل جملة من «القواعد الداخلية للخطاب والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متناسق وتدرجي»² تشكل الصورة العامة للخطاب. ويعود اهتمام أبو بكر العزاوي بنظرية الحجاج في اللغة لاعتبارات عدة أجملها في الآتي³:

أولاً: التوجه الحدائي الجديد لنظرية الحجاج في بحثها عن المعنى، وبهذا تميزت عن النظريات الدلالية الحديثة، إضافة إلى ما تقدمه من تفسيرات جديدة وجريئة للعديد من الظواهر اللغوية.

ثانياً: نظرتها الحديثة جعلتها تتجاوز العديد من مشكلات تفسير المعنى خاصة العوائق التي واجهت النظريات الوصفية والمنطقية المرتبطة بمفهوم الصدق.

ثالثاً: توجهها اللساني ذو النزعة التواصلية وامتدادها لوظائف أخرى تتجاوز التواصل والإخبار إلى التأثير والإقناع.

يرى العزاوي أن الحجاج «يتمثل في تحقيق متواليات من الجمل والأقوال، البعض منها بمثابة الحجج والبعض الآخر بمثابة النتائج، لتكون التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضاً وأساساً بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها»⁴، وعلى هذا الأساس أوجز تعريفاً أكثر بساطة لمفهوم الحجاج ليكون «تقديماً لمجموعة من الأدلة والحجج التي تؤدي إلى نتيجة معينة، والتي يكون القصد منها التأثير في الآخر وإقناعه بفكرة أو تغيير آرائه ومواقفه بخصوص موضوع ما»⁵، وبهذا الطرح تعد أبحاثه أكثر وضوحاً وتبسيطاً للنظرية الحجاجية في العالم العربي، خاصة وأنها امتداد لنظرية الحجاج في اللغة التي طورها أستاذه أوزفالد ديكر، ولها من التميز ما يجعلها تختلف عن الدراسات التي اشتغلت على الحجاج من وجهة منطقية أو فلسفية أو حتى بلاغية منذ القديم مع أرسطو إلى اليوم مع بيرلمان.

1- الحجاج اللغوي قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،

ط1، 2017، ص13.

2- المرجع نفسه، ص13-14.

3- ينظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، ط1، 2006، ص8-9.

4- المشروع الحجاجي للدكتور أبي بكر العزاوي، عبد اللطيف عادل، مقال ضمن كتاب: الحجاج اللغوي قراءات في أعمال

الدكتور أبي بكر العزاوي، حسن مسكين، مرجع سابق، ص66.

5- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

فالتبيعة التواصلية التي خص بها اللسان البشري جعلته يضطلع بوظيفة حجاجية ، وفي إطار هذه الوظيفة أصبح الخطاب مجالا خصبا للدراسات الحجاجية ، فشملت مقارباتها مختلف الخطابات سياسية أو أدبية أو فلسفية ، أو إشهارية أو دينية ، وتوزعت هذه المقاربات بين بلاغية كلاسيكية ومنطقية ولغوية ، ولاهتمام المقاربة اللغوية بمنطق اللغة ودراستها للقواعد الداخلية للخطاب ، في ما يعرف بالتداولية المدجة أصبح الخطاب وسيلة الحجاج على اعتبار أن الحجاج كامن في كل قول وفي كل خطاب¹.

وفي ضوء ما سبق نرى أن أبا بكر العزاوي يأخذ بالرأي الذي يقول أن « كل عملية تواصلية أو موقف تواصلية يستدعي حجاجا ؛ فأن تتواصل يعني أن تحاجج وتقنع وتؤثر وتعمل على استمالة المتلقي وجعله يذعن للأطروحة المقدمة إليه ، وعليه فإن الحجاج يرتبط بكافة أشكال التواصل اللغوي ، وغير اللغوي² ، ومن ذلك التواصل الإشهاري الذي يقوم على خطاب الصورة.

ونشير إلى أن هذه الخطابات التي اشتغل عليها أبو بكر العزاوي لا يجمع بينها أي رابط سوى انتماؤها إلى المفهوم العام للخطاب ، وهو ما وقفنا عليه في كتابه الحجاج والخطاب ، حيث قسم فصوله إلى أربعة أنماط من الخطاب بدءا من الخطاب القرآني ثم الخطاب الشعري ثم خطاب المثل الشعبي ، وأخيرا الخطاب الإشهاري ، ولأن الباحث يهتم بالحجاج اللغوي فإنه يبحث في الآليات اللغوية في الخطاب بتحليله للظواهر اللغوية التي تشكل بنية الخطاب ، معتبرا الأسماء والأفعال والظروف والحروف مجالا للمقاربة الحجاجية³.

وحتى يتضح مشروعه الحجاجي ميز العزاوي « بين نمطين من الحجاج الطبيعي: الأول باعتباره تقنيات بلاغية ومنطقية وأصولية وكلامية تنتمي إلى البلاغة القديمة أو الحديثة ، أو المنطق الطبيعي ، أو فلسفة العلوم ، أو أصول الفقه وعلم الكلام ، والثاني بوصفه آليات لغوية محضة وهو موضوع نظرية الحجاج في اللغة⁴ الذي يسعى لتأسيس دعائمه ، وكبيان إجراءات لمشروع العزاوي الذي أجراه على الخطاب القرآني ممثلا في سورة الأعلى ، فإن تحليله الحجاجي يقوم على استقراء مجموعة الحجج الكامنة في السورة ، فاصلا بعضها

1- ينظر: نحو مقاربة حجاجية لغوية للخطاب كتاب "الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزاوي أنموذجا، محمد سعيد البقالي،

مقال ضمن كتاب: الحجاج اللغوي قراءة في أعمال الدكتور أبي بكر العزاوي، حسن مسكين، مرجع سابق، ص131.

2- المرجع نفسه، ص134.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص133-134.

4- نحو مقاربة حجاجية لغوية للخطاب كتاب "الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزاوي أنموذجا، محمد سعيد البقالي، مقال

ضمن كتاب: الحجاج اللغوي قراءة في أعمال الدكتور أبي بكر العزاوي، حسن مسكين، مرجع سابق، ص134.

عن بعض ليرز أهمية كل منها بالنسبة للأخرى ، والمتأمل في السورة يجد أن آيتها الأولى جاءت على شكل نتيجة ، تتطلب وفقا للعلاقة الحجاجية إيراد حجة أو أكثر تبعا للوظيفة الحجاجية للغة أساسا¹.

ولأن السورة جاءت لغرض دعوي ، فإنها تستلزم الإقناع لإفحام المخاطبين ، وهو ما نلمحه في آياتها من خلال العلاقات الحجاجية وما تستدعيه من روابط حجاجية كأدوات تعليلية لضمان نجاح اتساق الجمل في السورة ، وهي - حسبه - على أهميتها لا تؤثر حتى لو غابت عن هذه العلاقات اللامتناهية ، بل على العكس تجليها وتعطيها حضورا أقوى ، خاصة وأن العلاقات الحجاجية قد تكون تعليلية أو استنتاجية ، أو استدلالية ، أو سببية ، أو استلزامية².

وتأتي السورة كبنية متماسكة تضم متواليات من الحجج تخدم نتيجة أساسية ، وهي تسييح المولى عز وجل ، وجاءت وكأنها رد على سؤال أو استفهام مضمّر ، مفاده لماذا نسيح؟ ، فجاءت الحجج تباعا: الذي خلق فسوى ، الذي قدر فهدى ، الذي أخرج المرعى ، جعله غثاء أحوى ، ، وحتى تكون السورة ذات فعالية تواصلية حجاجية بين المولى عز وجل وعباده المؤمنين ، وجب بناؤها بناء محكما ومتلاحما يراعي تماسك كل مكونات النص من كلمات وعبارات وجمل وفقرات وكل ما يجعل من السورة ككل في حد ذاتها حجة³.

وعن دور الروابط الحجاجية وما تقوم به من توجيه للحجاج يستدل العزاوي بالرباط الحجاجي "بل" الذي ورد في بداية المقطع الثالث للسورة باعتباره ممهدا لحجج مناقضة لما سبقها ، وهي حجج من شأنها أن تبطل مفعول الحجج السابقة نظرا لقوتها الحجاجية ، التي تستطيع دحض ما سبقها من دلائل ، ومن ثم تغيير وتحوير مجرى الآيات ، ولأن العنصر الدلالي تزداد قوته الحجاجية كلما ورد بعد رباط حجاجي ، فإن الحال نفسه بالنسبة لآيات سورة الأعلى ، فالآيات التي وردت بعد الرباط الحجاجي "بل" باعتبارها تفسير لإيثار الناس الحياة الدنيا ، وزهدهم عن الآخرة ، جاءت أقوى حجاجيا ، أي أن القوة الحجاجية للسورة انتقلت

1- ينظر: نحو مقارنة حجاجية لغوية للخطاب كتاب "الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزاوي أنموذجا ، محمد سعيد البقالي ،

مقال ضمن كتاب: الحجاج اللغوي قراءة في أعمال الدكتور أبي بكر العزاوي ، حسن مسكين ، مرجع سابق ، ص 137.

2- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

3- ينظر: المرجع نفسه. / وينظر أيضا: تحقق الحجاج في الخطاب انطلاقا من تحليل كتاب الخطاب والحجاج للدكتور أبو بكر

العزاوي ، هشام الشنوري ، مقال ضمن: مجلة طنجة الأدبية ، مرجع سابق ، ص 18.

من النتيجة الأولى "إيثار الحياة الدنيا" رغم ضعفها إلى نتيجة أخرى تناقضها وأكثر منها قوة، وهي "الآخرة"¹.

ووفق هذا التحليل الحجاجي يسير أبو بكر العزاوي في باقي فصول كتابه "الحجاج والخطاب" التي أفردتها لخطابات متنوعة شملت الخطاب الشعري، ثم خطاب المثل الشعبي، ثم الخطاب الإشهاري. أشرنا سابقا إلى أن أبا بكر العزاوي تتلمذ على يد واضع ومنتزعم نظرية الحجاج في اللغة الأمر الذي جعله يتبنى أفكاره وآراءه، وبعد تشبعه بالتراث العربي، أخذ يبحث في منطق اللغات الطبيعية الأمر الذي جعله يربط المنطق بالحجاج، مما جعل مشروعه الحجاجي يمتاز بخصوصية نلمح فيها سمات التجديد نورد بعضها في الآتي²:

- 1 - فضل السبق في الاهتمام بنظرية الحجاج في اللغة أو ما يسمى بالحجاج اللغوي ومنطق اللغة في الوطن العربي، وقد تجاوز بأفكاره في تناولها أستاذه ديكرو.
- 2 - إذا كان ديكرو طبق الحجاج اللغوي بدراسته للروابط الحجاجية في اللغة الفرنسية فإن أبا بكر العزاوي طبقها على اللغة العربية، بإنجازه بحثا يبين فيه الوظيفة الحجاجية للروابط "بل، لكن، لا سيما، إذن، حتى، ..." وربطها مع الخصائص التركيبية والتداولية.
- 3 - تطبيقه للحجاج اللغوي على النصوص والخطابات بشتى أنواعها، بعد أن كانت مقتصرة فقط على الجمل.
- 4 - تطبيق نظرية الحجاج في اللغة على ظواهر جديدة، كالأستعارة، والإيقونة، وظاهرة الانسجام النصي، وتعالق الروابط في إطار منطق النص، نحو ما فعله في نموذج الحجاج والانسجام في القرآن الكريم، في تحليله لحجاجية خواتيم سورة البقرة.
- 5 - بعد اكتشافه لحجاجية الإيقونة قام بتحليل حجاجي للصورة الإشهارية، فدرس العلاقة بين الحجاج بالصورة الإشهارية من مبدأ أنه "لا تواصل من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل"، ليجزم أن الحجاج قد يكون بغير اللغة، خاصة وأن الثورة الرقمية جعلت الصورة تحضر أكثر في كل المجالات.

1- ينظر: نحو مقارنة حجاجية لغوية للخطاب كتاب "الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزاوي أنموذجا، محمد سعيد البقالي، المرجع نفسه، ص 138،

2- ينظر: سمات التجديد في المشروع الحجاجي للدكتور أبو بكر العزاوي، رشيد شجيع، مقال ضمن كتاب: الحجاج اللغوي قراءة في أعمال الدكتور أبي بكر العزاوي، حسن مسكين، المرجع نفسه، ص 128-129.

-
- تداولية الخطاب التعليمي الديني وبواعثه
الحجاجية"
- الخطاب التعليمي الديني و الحجاج

المبحث الأول: الخطاب والحجاج

أولاً: البلاغة والخطاب

بلاغة الخطاب موضوع نقدي شغل فكر الدارسين البلاغيين على مر العصور، ونعني ببلاغة الخطاب؛ البحث في نظام البنية اللغوية التي تشكله وربطها بسياق القول الذي يجعلها تنصهر مع عناصر غير لغوية تضيف على النص صفة الخطابية فنستحضر المتكلم والسامع والسياق والزمان والمكان، فالخطاب لم يعد بنية لغوية مغلقة تحكمها جملة من القواعد اللغوية همها فقط ضبط المعنى أو تحديد الدلالة، لقد ضاق به مقام البنية وأصبح يسعى لانفتاحها ليصبح أكثر تأثيراً، وقد انفتح مساره « لأن مقصده التواصل الرابطة بين المتحاورين يقتضي تجاوز هذه الدلالة الإشارة اللغوية المباشرة إلى إدراك الدلالة الإيحائية التداولية التي يقتضيها سياق التلقي»¹، من هذا كله يتضح لنا أن البلاغيين في دراستهم للخطاب اللغوي اهتموا بالخطابية أساساً أو ما يجعل الخطاب تداولاً بين طرفين، وهي لب الدراسات التداولية حديثاً وتقوم عليها أهم نظريات التواصل، وهذا الجانب البلاغي له حضور فعال في كل نشاط لغوي بين البشر.

1 - مفهوم الخطاب:

الخطاب مفهوم تناولته أغلب الدراسات الإنسانية الحديثة، فتجاذبته العلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفة والاتصال والدين، لكن أهم حقل علمي اشتغل على دراسته السيميائيات في بعدها التواصلية الإشاري الذي يدرس الإشارات والرموز الدالة في التخاطب، واللسانيات في بعدها التواصلية التداولية باعتبارها العلم الذي يدرس اللغة في الاستعمال، وما دامت دراساتنا تخص الخطاب اللغوي أساساً التواصل البشري، والذي تبني عليه العملية التخاطبية، فهو خطاب يستلزم تداول طرفين يتحاوران في أخذ الكلام تلفظاً قصد التأثير وإفهام بعضها بعضاً، وبهذا المفهوم للخطاب يظهر جلياً خاصية الاستعمال الفعلي للغة، فالتلفظ باللغة هو حديث بين متكلم و سامع للتعبير عن مقاصد الكلام، وهذا هو التوجه الذي تبنته الدراسات التي تعنى بالخطاب كرسالة تواصلية بين بني البشر.

إن المعاني المعجمية لمادة "خ ط ب" في معاجم اللغة وإن تعددت، تكاد تكون محصورة في معنى الكلام باللغة والتلفظ بمفرداتها، فلسان العرب مثلاً يرى أنها من الخَطْبُ وهو: « الشآن أو الأمر، صغر أو

1 - بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي، سعيد جبار، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق

محمد مشبال، مرجع سابق، ص 162.

عظم ... يقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟... والخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والخطاب والمخاطبة، مراجعة الكلام، وقد خاطبه مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان»¹، فالتخاطب على وزن تفاعل فهو يحمل دلالة التشارك في القيام بشيء ما، وهو الكلام في هذا المقام، أي يتوجب وجود اثنين متكلم وسماع، على نحو ما نجده في الخطبة وهي من المعاني المعجمية لمادة "خ ط ب"، وفيها جاء «الخطبة مصدر الخطيب وخطب الخطاب على المنبر، واختطبت يخطب خطابة، واسم الكلام: الخطبة، قال أبو منصور: والذي قال الليث إن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخطبة اسم للكلام»²، فالخطاب كلام نحو خطبة الخطيب على المنبر، وهنا إشارة إلى عناصر التواصل اللغوي "متكلم، رسالة وسماع موجود بالضرورة".

وبهذا المعنى جاءت "خ ط ب" في القرآن الكريم ولكن في سياقات مختلفة وعلى صيغ متعددة فعلى صيغة الفعل يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾³، وفي صيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾⁴ وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾⁵، وقد جاءت تفاسيرها امتدادا للمعنى العام الذي وقفت عليه معاجم اللغة.

وعن مفاهيم مصطلح "الخطاب" عند علمائنا العرب القدامى، فإننا نجد لها لا تكاد تخرج عن مفهوم الكلام وإن كانت بمصطلحات مختلفة، فإذا كان «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع»⁶ حسب ابن أجيروم (ت 989 هـ)، أو كما أورد ابن هشام أنه «القول المفيد بالقصد، والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه»⁷ فإنه لا يختلف عن مفاهيم الخطاب التي ترى أنه «اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه»⁸، يعني أن كل من الكلام والخطاب في تصورهم ناتج عن استعمال اللغة بين طرفين متكلم

1- لسان العرب، ابن منظور، ج15، باب الخاء، مرجع سابق، ص1194.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- سورة الفرقان، الآية 63.

4- سورة النبأ، الآية 37.

5- سورة ص، الآية 20.

6- نظم الأجرومية، ابن أجيروم، دار الإمام مالك، ط1، الجزائر، 2002، ص107

7- الإعراب عن قواعد الإعراب، ابن هشام، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، دت، ص35.

8- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الأمدي، تح: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، ج1، ط2،

وسامع ، وكل منهما عبارة عن قول يعبر عنه بلفظ مركب مفيد يريد إيصال قصد لشخص آخر ، وبالتالي خاصية النطق أو التلفظ التي تجعل التواصل كلاما هي ما تجعل التكلم تخاطبا ، وفي هذا يقول الجويني: « الكلام ، والخطاب ، والتكلم ، والتخاطب ، والنطق ، واحد في حقيقة اللغة ، وهو ما به يصير الحي متكلماً »¹.

إذا الكلام ما هو إلا تعبير لفظي يتواصل به قصد الإفادة ، لكن حقيقته « ليست هي الدخول في علاقة بألفاظ معينة بقدر ما هي الدخول في علاقة مع الغير ، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الكلام إنما هو " العلاقة التخاطبية ، وليس العلاقة اللفظية " وحدها: فلا كلام بغير تخاطب ، ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة "المخاطب" (بكسر الطاء) ، ولا مستمع من غير أن تكون له وظيفة "المخاطب" (بفتح الطاء) »² ، فالمعنى المعجمي لمفردات اللغة وحدها - وإن كانت في تراكيب مختلفة - غير كافية لإنجاح التواصل ، لذلك يتوجب استعمالها في سياق التخاطب الذي يستدعي متكلم له وظيفة التأثير والإفهام وسامع له وظيفة الاستجابة والفهم.

ولعل الدرس الأصولي تعج أبحاثه بمفاهيم الخطاب ، ذلك أن الخطاب يعد المرتكز الذي قامت عليه أعمالهم ، فقد وقفوا على اشتقاقات عدة لمادة "خ ط ب" ، ومنها صيغتا اسم الفاعل "مخاطب" واسم المفعول "مخاطب" اللتان تمثلان طرفا الخطاب³ ، كما استعملوا صيغة لفظ الخطاب في نفس المجال الدلالي الذي حددناه لغويا ، فهو « أحد مصدرى فعل خاطب يخاطب خطابا ومخاطبة وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم ، نقل من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسمية ، فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به وهو الكلام »⁴ ، الموجه من متكلم إلى سامع.

وحدثنا يشهد الخطاب تجاذبا كبيرا بين اتجاهي الدراسات اللغوية في بعديها؛ البنيوية الشكلية والوظيفية التواصلية ، « لهذا ، فهو يُطلق إجمالا على أحد مفهومين؛ يتفق في أحدهما مع ما ورد قديما عند العرب ، أما في المفهوم الآخر ، فيتسم بجذته في الدرس اللغوي الحديث .

1- الكافية في الجدل ، تح: فوقية حسين محمد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر ، 1979 ، ص 32.

2- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 215.

3- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ،

لبنان ، ط 1 ، 2004 ، ص 36 .:

4- المرجع نفسه ، ص 36 ، وأيضا: الخطاب الشرعي وطرق استشهاده ، إدريس حمادي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

المغرب ، ط 1 ، 1994 ، ص 21.

وهذان المفهومان هما:

- الأول: أنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير ، بإفهامه قصدا معينا .

- الآخر: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة¹ ، وما يفرق هذين المفهومين هو مجال البحث أو توجه الدراسة ، لذلك: « لتحديد الخطاب وتحليله ... علينا أن نحدد الاتجاه الذي ننتهي إليه والمجال الذي نشتغل فيه وفق أسئلة إبستمولوجية محددة ، نجيب من خلالها عن هذه الأسئلة: لماذا هذا التعريف؟ ، ما هي الأدوات والإجراءات المناسبة؟؟ ، إلى ماذا نبغي الوصول؟ وكيف؟؟... »².

والدراسات الغربية الحديثة في أغلبها تنظر للخطاب على أنه كلام ما فوق الجملة ، فالباحثة "ديبورا شيفرن" في تعريفاتها وقفت على الخطاب من زوايا مختلفة ، بوصفه أكبر من الجملة ، أو بوصفه استعمال ، أو بوصفه ملفوظا ؛ فالخطاب بوصفه أكبر من الجملة يمثله الاتجاه الشكلي الذي يعنى بشكل الخطاب وبنيته فندرس ترابط واتساق عناصره ومدى انسجامها ، بينما الخطاب بوصفه أداء أو استعمالا يعنى به المنهج الوظيفي ، الذي يتجاوز في اشتغاله شكل الخطاب فيستدعي المقام وعناصر السياق والعلاقة بين طرفي الخطاب وطبقاتهم ، في حين الخطاب بوصفه ملفوظا يأتي كنقطة تقاطع بين المنهجين البنيوي والوظيفي³ ، وهو الجانب الذي تدرسه التداولية .

فالسانيات التداولية تنظر للخطاب كتركيب لغوي ناتج عن استعمال للغة بين طرفين في سياق تواصل محدد ، لذلك فهي تنظر للخطاب على أنه « تشكل لغوي مركب يشترط فيه التماسك والانسجام ويحمل دلالة يمررها المرسل إلى مخاطبه من أجل إبلاغه معلومة ما ، أو التأثير فيه عقليا أو وجدانيا أو سلوكيا ، وبالتالي فهو يشكل نسقا أو " بنية منتظمة " لها قواعدها التي تتحكم في صيرورتها وتناميها من أجل إنتاج هذه "الدلالة الكلية" »⁴ ، وهذه الضوابط تشمل الخطاب اللغوي عموما كتابيا كان أو شفويا ، وكل ما يمكن عده خطابا من وسائل التعبير التي تحقق إبلاغ المقاصد والأغراض .

1- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي ظافر الشهري ، المرجع نفسه ، ص 36-37 .

2- تحليل الخطاب الروائي ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 4 ، 2005 ، ص 26

3- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 37-38 .

4- بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي ، سعيد جبار ، ضمن كتاب البلاغة والخطاب ، إعداد وتنسيق

محمد مشبال ، مرجع سابق ، ص 161 .

يتضح أن «الخطاب معنى قاصد مقصود في لباس المقام، أو في خلية الظرف التخاطبي ... تميزه ملامح أسلوبية ... وبلاغية ... سمحت بتحقيقه إنجازا وتلقيا ... يمتد إلى صانع الخطاب وشروط التكون»¹، وزمانه ومكانه، هذه الخصائص كلها تعين في تحديد نمط الخطاب تفسيره، ومن ثم تحقيق بلاغته.

2- أنماط الخطاب

لتحديد نمط الخطاب يتوجب رصد المعايير الخارجية التي يحتكم لها، معايير قد تكون اجتماعية أو ثقافية أو سياسية تفرض عليه مقاما محددا نستطيع من خلاله معرفة نوع الخطاب المدروس، هذه المعايير الخارجية أضفت نمطيتها على الخطابات اللغوية، وبناء على ذلك يصنف الخطاب إلى²:

الخطاب السياسي: هو خطاب أصحاب الحكم ورجال السياسة، يعالج قضايا الدولة وعادة ما يستقي موضوعاته من إيديولوجية معينة.

الخطاب الديني: هو خطاب يتخذ من أمور الدين والعقيدة موضوعا له وقد يشمل قضايا المجتمع في بعدها الديني.

الخطاب العلمي: يتميز بدقة مصطلحاته ويكون إخباريا يطابق الواقع في معظمه، وتظهر في ثناياه خصائص العلم المدروس وقد نلمح في هذا الخطاب مظاهر الجانب التعليمي لدرجه في طرح الحقائق.

الخطاب الأدبي: هو خطاب يعالج الأحداث والوقائع في شكل مواضيع فنية، معتمدا على الجانب الأدبي الإبداعي، وتمثله الأجناس الأدبية شعرا كانت أم نثر، فيضم القصيدة، القصة، الرواية، المسرحية، ... الخ.

الخطاب الإشهاري: خطاب تمثله السيميائيات بكل تجلياتها، فيهتم بالأبعاد السيميائية للعلامة، سواء أكانت لغوية أو غير لغوية، وأهم ما يمثله الصورة الإشهارية وما تحمله من أفكار متداولة بين المرسل والمتلقي.

لكن باعتبار الخطاب رسالة لغوية تحمل في بنيتها موضوعا معيناً وفق آليات وأنظمة مضبوطة، فإننا نحتكم في تنميته إلى التقسيم التقليدي المتوارث في تصنيف الخطابات، والذي يقوم على ثلاث ركائز أساسية

1- صناعة الخطاب البني العميقة للتأويلية العربية، جلال الدين محمد بازي، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015، ص26.

2- ينظر: بلاغة الحججة في خطاب الخلفاء الراشدين دراسة وصفية لنماذج خطابية، هناك حلاسة، مركز الكتاب الأكاديمي،

عمان، الأردن، ط1، 2016، ص38-39.

هي: الموضوع، البنية، والآلية، فمن حيث الموضوع يوجد خطاب ديني، وخطاب علمي، وخطاب سياسي... الخ، أما من حيث البنية فينظر إلى الجانب الفني الإبداعي، أي جنسه الأدبي شعرا هو أم نثر كما أشرنا سابقا، في حين الآلية تنظر إلى إجراءات اشتغاله، فيصنف إلى خطاب سردي، وخطاب وصفي، وخطاب حجاجي¹.

ومهما يكن الترميز الذي نصنف به الخطاب فإنه يظل مفتوحا لخطابات أخرى يمكن أن تدخل، وهو ما يترك الباب مفتوحا لمعايير علمية أخرى يصنف وفقها الخطاب.

3 - بلاغة الخطاب ... كيف تتحقق؟

في الدراسات البلاغية الحديثة كثيرا ما يترادف في الذكر مصطلحا البلاغة والخطاب، فنقول خطاب بليغ باعتبار الخطاب كلاما، وخطيب بليغ باعتبار الخطيب متكلم، لكن تساؤلا يطرح مفاده كيف تتحقق بلاغة هذا الخطاب، أو بالأحرى ما هو الشيء الذي يجعل الكلام بليغا؟.

في حقيقة الأمر إن « القول ببلاغة الخطاب تحتم على الدارس تجاوز وصف بنياته اللغوية المعجمية والتركيبية إلى البحث عن عناصر أخرى مساهمة في تحقيق التواصل بين المتحاورين وإنجاحه²، بمعنى أن تخير الألفاظ واستقائها ووضعها في نظم تركيبية يضيفي على الخطاب فنية وجمالا توحى ببلاغته، على أساس أن « المستوى الوصفي الداخلي للخطاب كبنية مغلقة متعاقبة هو ضروري في المرحلة الأولى لنعرف طريقة اشتغال الخطاب داخليا³، لكن الخطاب في بنيته الداخلية يمتد إلى عناصر خارجية تعين على إنجاحه، لذلك فإن معرفة « هذه البنية وطرق اشتغالها تدعونا إلى وضعها ضمن سياق تواصل عام يشترط ربط ما هو داخلي بنيوي بما هو خارجي سياقي تداولي لإتمام الصورة الدلالية العامة التي يقصدها المتكلم وهو يتلفظ خطابه ويحرص على بنائه بشكل خاص⁴، يجعل مخاطبه متأثرا به مشدودا إليه.

1- ينظر: الخطاب وخصائص العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، أحمد المتوكل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،

2010، ص25.

2- بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي، سعيد جبار، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق

محمد مشبال، مرجع سابق، ص 161.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

4- بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي، سعيد جبار، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق

محمد مشبال، مرجع سابق، ص 161.

والدراسات العربية مثلا على مر عصورها اهتمت بالكلام ووقفت على أوجه بلاغته، فكانت خاصيتي الفصاحة والبيان أساس البلاغة في العربية، فاشتربت في الكلام مطابقتها لمقتضى الحال ليكون بليغا، إضافة إلى تخير اللفظ ليكون المتكلم فصيحاً بليغا، وهنا إشارة إلى امتداد البنية اللغوية التي تشكل الخطاب إلى مقتضيات السياق التواصلي لتحقيق بلاغته « فكل خطاب إذن لا يمكنه أن يكون بليغا إلا إذا كان موافقا للسياق الذي أتى فيه، وتحقيق بلاغته من خلال المعنى الذي يؤديه الملفوظ العام في صورته المركبة¹ التامة.

يرى الخطيب القزويني في إيضاحه أن « البلاغة هي مرتقى علوم اللغة وأشرفها فالمرتبة الدنيا من الكلام هي التي تبدأ بألفاظ تدل على معانيها المحددة، ثم تندرج حتى تصل إلى الكلمة الفصيحة والعبارة البليغة²، فكأن به يشير إلى أن بلاغة الخطاب تتحقق بالتدرج وذلك بالانتقال من الدلالة المعجمية للألفاظ لتصل إلى المعنى الحقيقي الذي يرومه المتكلم، ومن ثم تصبح ألفاظه فصيحة وعباراته بليغة.

فالبلاغة إذا علم له قواعده وضوابطه يتوجب توفرها في أي خطاب للقول ببلاغته، لذلك ارتكز البلاغيون على أركان ثلاثة تحدد شروط البلاغة ومن ثم عدت أساس علومها، وهي المعاني والبيان والبدیع، وكل هذه العلوم مجتمعة تسعى لتحقيق غاية البلاغة الأسمى وهي التأثير وسلب العقول من أجل الفهم والإفهام، فعلم البيان يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال لتحقيق غرض بلاغي معين، وهذه الأحوال قد تكون حذفاً أو ذكراً أو تعريفاً أو تنكيراً أو تقديماً أو تأخيراً،... الخ، بينما علم البيان يعنى بالطرق التي تعبر عن المعنى الواحد، فتزيد الكلام جمالية وفنية نحو التشبيه والاستعارة والمجاز وغيرها من أوجه البيان التي تؤدي إلى وضوح الدلالة، في حين علم البديع ينظر في طرق تحسين الكلام وتنميته فتتزين ألفاظه ومعانيه ومن أساليبه: الطباق، والسجع، والجناس، والمقابلة،... الخ³.

هذه الشروط التي أتينا عليها ما هي إلا خصائص بلاغية تخص الخطاب اللغوي باعتباره كلاماً يحتكم إلى قوانين علوم البلاغة، لكن العملية التخاطبية تبدأ بالمتكلم الذي يقوم بجهد كبير في تحقيق البلاغة،

1- بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي، سعيد جبار، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق

محمد مشبال، مرجع سابق، ص 170.

2- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، الخطيب القزويني، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص3.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص 4-5-6.

فبلاغة الكلام من بلاغة المتكلم ، وبلاغة هذا الأخير « ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ »¹ يشد الأذهان ، وحتى تكتسب هذه الملكة أداة البلاغة « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات »² ، وهذه الملكة ما هي إلا قدرة عقلية وفكرية يوظفها المتكلم في إنتاج الخطاب وفق سياق تواصل معين ، الأمر الذي يجعلها تستدعي كفايات يتوجب توفرها في المتكلم أثناء إنتاجه للخطاب³ ، وبموجبها تحدد بلاغة المتكلم في العملية التخاطبية .

فالكفاية اللغوية بالمنظور التداولي الحديث ما هي إلا الملكة اللغوية في الدرس العربي القديم ، وهي إن اختلف في ضبط مفهومها تقوم على قدرة المتكلم على الإبلاغ السليم بلا عي أو تكرار ، قدرة تجعل لسانه طليقا مطاوعا له أثناء الكلام ، حيث ورد في البيان والتبيين ما بيانه أنه « حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ »⁴ وقد حصرتها الأبحاث التداولية في الآتي⁵:

- الكفاية اللغوية: نقصد بها المعرفة الحصيفة بلغة التواصل ونطقها ، وخصائص نظامها صرفيا معجميا وتركيبيا ، لأن الوقوف على المعنى المقصود من بنية اللغة لا يتم إلا بتحديد دلالة أجزائها .
الكفاية الموسوعية: وتعني المعرفة الشمولية وغير المتناهية للموضوعات التي يتم الحديث عنها بهذه اللغة .

الكفاية المنطقية: ويأتي هنا دور العقل واستخدام الاستدلال المنطقي في طرح الأفكار ومعالجة الموضوعات المطروحة .

1- في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني ، مرجع سابق ، ص 21 .

2- البيان والتبيين ، الجاحظ ، مرجع سابق ، ص 138- 139 .

3- بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي ، سعيد جبار ، ضمن كتاب البلاغة والخطاب ، إعداد وتنسيق

محمد مشبال ، مرجع سابق ، ص 170 .

4- البيان والتبيين ، الجاحظ ، مرجع سابق ، ص 113 .

5- ينظر: بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي ، سعيد جبار ، سعيد جبار ، ضمن كتاب البلاغة

والخطاب ، إعداد وتنسيق محمد مشبال ، مرجع سابق ، ص 170 .

الكفاية البلاغية التداولية: ونقصد بها كل الاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم من أجل بلوغ المقاصد التي يرمي إليها.

فالمعرفة باللغة إذا والقدرة على التعبير بها، تجعل المتكلم موسوعي المعرفة منطقي الطرح، وهي معايير بلاغة المتكلم منتج الخطاب، « ويمكن اعتبارها مداخل أساسية يرتكز عليها المتلقي وهو يستقبل الخطاب من أجل فهمه وإدراك مقاصده»¹، فالمتلقي العنصر الثالث في العملية التخاطبية لم تغفله الدراسات التداولية فجعلت إثارته ولفت انتباهه مرمى يستهدفه المتكلم في تسديد مقاصده، ومن ثم فإن القول ببلاغة الخطاب يرجع لمدى امتلاك المخاطب لمداخل التلقي الأساسية التي تمكنه من التفاعل مع كفايات المتكلم المشار إليها سابقا، وهذه المداخل تأتي تدرجا مجملة في الآتي²:

- المدخل المعجمي: يقابل الكفاية اللغوية للمتكلم، وبه يستطيع متلقي الخطاب معرفة معاني مفردات اللغة المستعملة في التواصل، فلا يعقل نجاح تواصل بلغة يجهل أحد المتخاطبين مدلولات مفرداتها المعجمية.

المدخل المنطقي: وهي مرتكزات عقلية يتكأ عليها المتلقي، تساعد على الاستنتاج وتسهيل الفهم من خلال الربط بين مكونات الخطاب.

المدخل الموسوعي: ويشمل المعارف والمكتسبات التي يمتلكها المتلقي والتي تعينه في فك شفرات النص وتحليل بنيته اللغوية، مستعينا بالسياق للربط بين الدلالة اللسانية الإشارية والدلالة التداولية الإيحائية للخطاب.

فالتواصل الفعال هو تخاطب بليغ بين متكلم وسامع لحد التداوت، تداوت يرى « أن بلاغة الخطاب لا تتحقق على مستوى مفردات الخطاب أو تركيباته، بل تتعدى ذلك إلى قدرة الخطاب على إبلاغ دلالات محددة لمتلقيه، وقد لا تتجسد مباشرة في لفظه، فيكون المكون اللساني هو بمثابة الجسر الذي يعبر من خلاله

1- بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي، سعيد جبار، سعيد جبار، ضمن كتاب البلاغة والخطاب،

إعداد وتنسيق محمد مشبال، مرجع سابق، ص 170.

2- المرجع نفسه، ص 170-171.

المتلقي إلى المعنى الذي يرمي إليه المتكلم ، وبالتالي فإن بلاغة الخطاب تتحقق بنجاح الفعل التواصلي الرابط بين طرفي التحوار " المرسل / المتلقي " ¹ .

ثانياً: في الخطاب التعليمي الديني

1 - مفهوم الخطاب التعليمي

عند الحديث عن الجانب التعليمي في الخطاب يتبادر لنا البعد التعليمي في جانبه العلمي التربوي الذي يعد موضوع اللسانيات التعليمية ، وتتجلى فاعلية هذا الحقل التطبيقي للسانيات في مبادئه العلمية وعملها الإجرائي الذي تستخلص نتائجه في نقل المعارف والأفكار بين المعلم والمتعلم قطبا التواصل في العملية التعليمية ، فالعلمية ملمح يجعل تبادل المعرفة يتسم بالموضوعية ودقة الطرح ، حيث تقوم على فرضيات تزعم إلى الاستدلال العقلي أو تستند إلى التجربة والملاحظة في تقديمها ، وإذاً يمكن القول أن أي خطاب تتوفر فيه هذه المداخل العلمية خطاب علمي .

إذن العملية التعليمية أداء تواصلي « ينحصر دورها في دراسة آليات اكتساب وتوصيل المعارف المتعلقة بمجال معرفي معين ، فهي تمثل في آن واحد تفكيراً وممارسة يقوم بها المدرس لمساعدة المتعلم ، لكي يتحصل على معارفه في أحسن الظروف الممكنة ، وليس من شك أن هذا التفكير التعليمي يؤكد ... العلاقة القائمة بين المدرس والمتعلم ، والتي هي بالأساس وضعيات تعليمية ² بالغة الأهمية لما لها من نجاعة تربوية في تلقي المعارف والعلوم .

لكن طرح هذه الحقائق والمعارف العلمية تحتاج إلى نوع من التبسيط والمرونة لتسهيل فهمها ، خاصة إذا كانت موضوع تلقين في مقام تعليمي بين متعلم ومعلم ، الأمر الذي يجعل الخطاب العلمي ينزع إلى التعليمية في تقديم موضوعاته ، فيصبح محصلة تفاعل تواصلي بين المعلم والمتعلم ، وهذه الخاصية التفاعلية تفرض على الخطاب العلمي وضعيات تعليمية تجعله خطاباً تعليمياً تهدف موضوعاته نقل المعارف والأفكار العلمية وتبادل الخبرات .

1 - بلاغة الخطاب كيف تتحقق قراءة في نموذج من نص رحلي ، سعيد جبار ، سعيد جبار ، ضمن كتاب البلاغة والخطاب ،

إعداد وتنسيق محمد مشبال ، مرجع سابق ، ص 171 .

2 - قراءة في تعليمية مادة القواعد في المرحلة الابتدائية ، جيلالي بن يشو ، مجلة اللغة والاتصال ، مختبر اللغة العربية والاتصال ،

كلية الآداب واللغات والفنون ، جامعة وهران ، العدد 1 ، 2005 ، ص 81 .

إن محتوى الخطاب ومضمونه هو ما يحدد طبيعته ، وبذلك يتحدد نوع الخطاب الذي أمامنا ، لكن المقام التخاطبي الذي يتم فيه هذا الخطاب تفرض عليه ملامح مخصوصة القصد ذات أبعاد تداولية يفرضها السياق ، فالبعد التعليمي في التخاطب يضيف على الخطاب ملمح التعلم في تلقي مضامينه ، ومن ثم يصح القول أنه خطاب تعليمي يفرضه المقام التخاطبي للعملية التعليمية .

فبناء محتوى الخطاب التعليمي يستدعي رصد مجموعة من المعارف العلمية في مجال معين وتقدم بمقاربة بيداغوجية يسهم كل من المعلم والمتعلم في حوار تفاعلي في إنجاحها ، وتقوم على مجموعة من الركائز التي تجعل الخطاب التعليمي على محك الأخذ والعطاء الإيجابي ، على نحو أهمية الموضوع ، والفئة المستهدفة ودرجة استيعابهم ، المشاركة الفعالة علاوة على استثمار مهارات التلقي والتدريس ، وكل ما من شأنه تفعيل العملية التعليمية وتبسيطها .

إذا وأخذنا بما سبق يعتبر الخطاب « التعليمي قطب الرحي في العملية التعليمية... » ، فهو يشكل عملا إجرائيا في العملية التواصلية ، كما يعد الحصيلة المعرفية التي تستدعي من المرسل امتلاك آليات التبليغ والاختزال لنقلها إلى المتلقي فهو أساس جوهرى لا يمكن الاستغناء عنه¹ في نقل المعارف « خطاب يتم فيه تحويل المادة العلمية إلى مادة "خطاب" ذات طابع تعليمي ، وهو أيضا خطاب يتكرر فيه خطاب الآخر وهي ميزة خاصة بالعمل التربوي»² ، وبهذا المفهوم فإن كل نوع من الخطابات السابقة الذكر سياسية كانت ، أو دينية ، أو فلسفية ، يمكن أن تكون خطابات تعليمية وذلك بوضعها في سياق تخاطبي تعليمي فنقول خطاب تعليمي فلسفي ، خطاب تعليمي ديني ، وغيره ، وهذا نسبة للموضوع العلمي الذي بني عليه محتوى الخطاب .

ولعل أهم سبل التعلم والتلقين التي شهدتها الفكر العربي هي ظاهرة الحفظ التي تعتمد على قوة الفهم واستحضار الذاكرة ، حيث يلجأ المتعلم إلى حفظ المادة التعليمية واستظهارها على المعلم ، وفي الغالب يسهل فهم ما يقدم له من معلومات ، وهذا الأسلوب التعليمي رغم نجاعته له من السلبيات ما يجعله عرضة للانتقادات اللاذعة ، ذلك أن المعارف والعلوم على اختلافها تأتي مثورة وبالتالي يصعب حفظها ، الأمر الذي

1- تعليمية النص التعليمي للغة العربية وآدابها في الجامعة ، خذير المغيلي ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، جامعة

غرداية ، العدد 08 ، 2010 ، ص 360 .

2- ينظر : L.DABENE et AL, Variation et rituels en classe de langue, P52, Paris . Hatier .

Credif, juin 1990. نقلا عن: تعليمية النص التعليمي للغة العربية وآدابها في الجامعة ، خذير المغيلي ، المرجع نفسه ، ص 362 .

جعل علماء العربية يهتدون إلى أهمية الأدب ودوره في احتواء العلوم وتسهيل فهمها ، فكان الأدب سبيلهم في ذلك حيث نظم لهم المتنور شعرا في ما عرف بالمتون ، وأفرد لهذا المجال بحر الرجز كإيقاع شعري يتماشى في حركاته خفة وسرعة مع قوة الذاكرة.

ولأن هاته المتون لم تأت إلا لغاية تعليمية ، فقد استثمرت في مختلف العلوم ، فنجدها في علوم العربية وفنونها ، صوتا وصرفا ونحوا وبلاغة ، وكذلك في علوم الدين فقها وتفسيرا وتأويلا ، وكذا علوم الطب والحساب والفلك ، والأخلاق ، ومن ثم سميت بالمتون التعليمية ، وهي منظومات شعرية يضم محتواها موضوعات علمية على اختلاف تخصصاتها ، ليسهل حفظها ويتيسر فهمها ، على نحو ألفية ابن مالك ، وقطرة الندى وبل الصدى في النحو ، وشبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ومتن ابن عاشر في فقه علوم الدين ، وقد شاع هذا في الحواضر العلمية.

تعد حاضرة توات من الحواضر العلمية التي شهدت اهتماما بهذا الجانب التربوي في حراكها العلمي والفكري ، خاصة وأن موقعها الجغرافي وقتئذ أهلها لأن تكون أرض ارتكاز لقوافل العلم والتجارة الرحالة ، بين شمال إفريقيا ودول الساحل ، ناهيك عن مواطن الدرس والتعلم المنتشرة في الإقليم من مساجد وزوايا ، وهو ما استوجب هذه المتون التعليمية كأسلوب تربوي تعليمي ، فاستعملت في تيسير فهم الدين وعلوم اللغة وغرس فضائل الأخلاق . وأغلب هذه المتون يتناثر على خزانات المخطوط المنتشرة بالإقليم .

إن الغاية العلمية من هذه المتون تدور في فلك الحفاظ على العربية أداء وفهما لأنها السبيل الأول للتلاوة الصحيحة للقرآن الكريم وفهم آياته ، فكانت أولويات القائمين على النهضة الفكرية بتوات البحث في اللغة والوقوف على خصائصها نحوا وصرفا وصوتا ، حاثين على أهمية هذه العلوم اللغوية في تنمية الفكر وشحذ الأذهان للناشئة ، ومن المتون التعليمية اللغوية نجد مخطوط " نبذة عن الأفعال وتصريفها" لصاحبه "عبد الكريم" ، وهو وإن كان « كاملا خاليا من الخرم إلا أننا لم نعثر على ما يقربنا من مؤلفه أكثر من حيث معرفة أصوله أو نعتة أو مكان تأليفه ، إلا ما ورد من تأريخ تاريخ إنهائه "أواخر شهر ذي القعدة عام 1327هـ" ¹ ، وهي ظاهرة نعاني منها كثيرا في أبحاثنا التاريخية لذلك ندعو باحثي المخطوط وأرباب خزاناته إلى تكثيف البحث والتقصي علنا نقف عن الاسم الكامل لعلماء المنطقة .

1 - مخطوطات المتون التعليمية في إقليم توات نماذج تطبيقية ، عبد القادر قصابوي ، أولاد السي هو بلحاج أعلام وآثار ، جمعية

الدراسات والأبحاث التاريخية والثقافية لأولاد السي هو بلحاج ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2015 ، ص207 .

والمتصفح لهذا المتن التعليمي يجده يحتوي على عشر لوحات كتبت بخط واضح تسهل قراءته، ومقسمة إلى فصول ابتدأها بفصل في أحوال الثلاثي وفصل في أحوال المضعف وفصول عامة. ولأنه جاء لغاية تعليمية فقد زين بمداد مختلف بين أحمر وأصفر... حتى يسهل تلقيه وتلقيه. فهو متن أتبعه المؤلف بالشرح لصعوبته لتسهيل فهمه¹، وللتوضيح ذلك نستشهد بما ذكره في "فصل في أحوال الثلاثي"²:

ثم الثلاثي قد يجيء فعلاً::: بالضم ثم الكسر ثم فعلاً.

بعدها يقدم شرحاً للبيت في الهامش بلون أحمر نحو:

- فَعْلٌ مضارعه يَفْعُلُ

- فَعَلَ مضارعه يَفْعَلُ

- فَعَلٌ مضارعه يَفْعَلُ

ويحتكم في شرحه إلى المشهور من آراء اللغويين، وهذا التقسيم أشار له سيبويه بقوله: «أعلم أنه يكون كل ما تعداك إلى غيرك على ثلاث أبنية على فَعَلَ يَفْعَلُ وفَعَلَ يَفْعُلُ وفَعَلَ يَفْعَلُ»³، وهنا يتضح لنا التفرس اللغوي للناظم بعلوم العربية وحرصه الشديد لتلقي الناشئة المبتدئين وليس بعيداً عن علم الصرف يأتي العروض كموضوع للدرس والتلقي لمتن تعليمي آخر وجدناه بإحدى خزانات المخطوط بالولاية، موسوم بـ "تقريب المبادئ" فالعنوان يبدو غامضاً لا يبين على العلم المقصود، لكن بعد تقصي محتواه يتبدى لك مضمونه العلمي، ويمكن أن يكون ذلك تعمداً من الناظم، وكتبيان لمقصوده الغامض يقول⁴:

وبعد فالقصد بما أقول::: لما على العروض قد يؤول

وهو الذي اخترعه الخليل::: من فيض من له العطا الجزيل

1- ينظر: مخطوطات المتون التعليمية في إقليم توات نماذج تطبيقية، عبد القادر قصابوي، أولاد السي حمو بلحاج أعلام وآثار،

مرجع سابق، ص 207.

2- المرجع نفسه، ص نفسها.

3- الكتاب، سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ج4، ط2،

1982، ص 38.

4- مخطوطات المتون التعليمية في إقليم توات نماذج تطبيقية، عبد القادر قصابوي، أولاد السي حمو بلحاج أعلام وآثار، مرجع

سابق، ص 208.

ونراه يسترسل في سرد المسائل العروضية مستعملاً أسلوب النداء للفت انتباه المتلقي بعبارة يا سائلاً وهو خاصية تعليمية يرتكز عليها القدامى في التلقين للفت المتعلم قصد الإذعان والتركيز ، فيقول الناظم عن الجزء كيف يشكل¹:

يا سائلاً عن تركيب الجزء فمن ::::: سبب ثم وتد قولاً فمن

فسبب خف كفل شفل ::::: ووتد كفعل مجموعاً نقل

وفي أبيات أخرى نلفي الناظم يتحدث عن البيت وتقسيماته مستعملاً مصطلحات العروض ونفس التقسيم المعتمد في ذلك فيقول²:

وأسماء أربعة للبيت ::: صدر عروض حشو ضرب أيت

ويبلغ البيت إلى إثني عشر ::::: اسماً له انتهى الأسامي ترا

فآخر الصدر عروضاً يا فتى ::::: وآخر العجز فضرِب يا فتى

ولأن البحث اللغوي جاء نتيجة إرهاب ديني فرضته عربية اللسان القرآني كان الدين محط بحث كذلك فقها وبلاغة وتفسيراً ، ولقدسية مصادر التشريع الإسلامي ولي البحث فيها من العناية والدقة ما يجعله فيصل الخصم في ما أشكل حول قضاياها ، لقد كان تحرياً علمياً دقيقاً يتوهج جنباً إلى جنب مع البحث اللغوي ، فكان الدين الإسلامي في مختلف جوانبه عقيدة ، معاملة ، وحدوداً ، موضوعاً علمياً يتوجب تعلمه ليكتمل الفهم الصحيح للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ولأجل ذلك رصدت موضوعاته ضمن متون تعليمية لتسهيل فهمها عن طريق الحفظ الميسر لمضامينها ، نحو ما نجده من مسائل فقهية في منظوم الدرّة المتمثل في "متن شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص" لصاحبه عبد الرحمن بن أحمد العالم بن أحمد الأنصاري الأَنْزَجِيرِي ، التي تضمنت مجموعة من المسائل الفقهية معتمداً فيها الناظم على الألفاظ كوسيلة تعليمية تثقيفية وهو منهج يعتمد على الذكاء وقوة الفهم ، لذلك كان هذا المتن التعليمي موجهاً لمتلقٍ مخصوص وفي ذلك يقول الناظم موضحاً³:

1 - مخطوطات المتون التعليمية في إقليم توات نماذج تطبيقية ، عبد القادر قصابوي ، أولاد السبي هو بلحاج أعلام وآثار ، مرجع

سابق ، ص 209.

2 - المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

3 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن أحمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجلأوي

الأَنْزَجِيرِي ، تحقيق: سالم بن عبد الكريم ، دار الهدى للطباعة والنشر ، عين مليلة ، الجزائر ، 2011 ، ص 31.

وأستعين الله في قصيدة ::::: ضمنتها مسائلا مفيدة
 من جملة الألباز والمعيات ::::: لشحد أذهان ذوي المصافات
 من رجز يقرب المثور ::::: جعلته مزدوجا مسطورا
 سميته بشبكة القناص ::::: لما حوته درة الغواص
 وأسأل الله وفاء الوعد ::::: فهو الذي له وجهت قصدي

2- مفهوم الخطاب الديني

الدين - وإن اختلفت طبيعته العقدية - تشريع قدسي يضبط بتعاليمه المخصوصة حياة الأفراد والمجتمعات، فالإنسان قديما جعل لنفسه ضوابط يحتكم إليها في علاقاته اليومية، وهي إن كانت تدخل ضمن معتقدات روحية إلا أن أبعادها الإنسانية جعلت منها قيما أخلاقية تدعو للفضيلة التي يدعو لها الدين، « ومن هنا نشأت كثرة الديانات منذ أن دب على ظهر الأرض إنسان، فكانت الأساطير والخرافات والسحر والشعوذة ومحاوله السيطرة على القوى الخفية والتقرب إليها بالأضاحي والقرابين، مما يزر به تاريخ الشعوب في الشرق والغرب، على حد سواء؛ ثم ظهرت الديانات البشرية من زرادشتية إلى كونفوشية إلى بوذية وجينية... الخ، حتى نزلت الديانات السماوية الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلامية»¹.

يتبين لنا أن الدين فعالية اجتماعية مرتبطة بالحياة البشرية منذ الوجود، ذلك « أن التدين عنصر أساسيا في تكوين الإنسان والحس الديني، إنما يكمن في أعماق كل قلب بشري، بل هو يدخل في صميم ماهية الإنسان، مثله في ذلك مثل العقل سواء بسواء»².

فالخطاب الديني مفهوم يراد به خطابات تتخذ من الدين مرجعية ترتكز عليها لبناء مقاصدها، فالدين في اللغة « جنس من الانقياد والذل، فالدين الطاعة، يقال دان له يدين دينا، إذا أصحب وانقاد وطاع. وقوم دين، أي مطيعون منقادون»³، أما اصطلاحا ف« يصعب وضع تعريف دقيق لكلمة "دين"، فاللفظ يأخذ حمولته الدلالية من الخلفية الفكرية التي تعرفه، فالدراسات الانتربولوجية تربطه بصفة عامة

1- المعتقدات الدينية لدى الشعوب، جفري بار ندر، تر: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، 173، 1975، ص 08.

2- الزمان والمكان مقال في فلسفة الدين، ولتر ستيس، تر: زكريا إبراهيم، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت،

لبنان، 1967، ص 45.

3- مقاييس اللغة، أبي الحسن أحمد ابن فارس، ج 2، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، دط، 1979،

بالمعتقدات التي يكونها الإنسان في علاقته بالكون والطبيعة وما يترتب عن ذلك من سلوك اجتماعي يجسد هذه العلاقة ويعبر عنها¹، في حين توجد رؤية أخرى للدين تخص «الثقافات التي ارتبطت بالديانات السماوية... من خلال التركيز على المعتقدات والشرائع التي تربط الإنسان بخالقه والإذعان لأوامره، وهذا المفهوم هو السائد في الثقافة العربية الإسلامية، بحكم تحديده من المصدر الأساسي للإسلام المتمثل في القرآن الكريم»² شرع الله في الكون.

وانطلاقاً من الرؤية الإسلامية العربية «فالدين إذن يرتبط بما جاء به الإسلام من تعاليم تهم الجوانب العقديّة والتشريعية على حد سواء، ويعتبر القرآن الكريم المصدر الأساسي لهذه التعاليم التي تحدد علاقة الإنسان بخالقه»³، وأي خطاب يضم محتواه تعاليم النص الشرعي يسمى خطاب ديني، وقصد تحديد مفهومه نقول «أنه ذاك الخطاب أو تلك الخطابات المتعددة التي عملت على شرح هذه العلاقة وتفصيل هذه التعاليم الملزمة للإنسان المسلم في حياته العامة»⁴ حيث تصبح تعاليمه مفروضة عليه يؤديها على وجه اللزوم. أشرنا سابقاً أن الخطاب محصلة تفاعل تواصل بين طرفين متكلم ومرسل وسامع مستقبل «فالأول يث الرسالة وهو يدرك جيداً المقاصد التي يرغب في تحقيقها لدى مخاطبه، والعلاقة الرابطة بين طرفي التواصل هي متعددة المظاهر حسب وضعية كل واحد من الآخر، وتكون هذه الوضعية هي الموجه الأساس لأساليب الرسالة ومكوناتها»⁵، ولأن موضوعنا خص للخطاب الديني المنبثق عن تعاليم التشريع الإسلامي فإن الرسالة المحمولة تؤول وفق ثلاثة اتجاهات أساسية هي:

- «- المرسل في موقع أعلى من المرسل إليه: الله ← الإنسان
- المرسل في موقع متساو مع المرسل إليه: إنسان ← إنسان.
- المرسل في موقع أدنى من المرسل إليه: الإنسان ← الله»⁶.

1- بلاغة الإقناع في خطاب الوعظ، سعيد جبار، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، مرجع

سابق، ص 220.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها..

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها..

4- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

5- المرجع نفسه، ص 221.

6- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

هذه هي العلاقات التي يقوم عليها الخطاب الديني في الثقافة العربية الإسلامية ، فالوضع الأول موجه من أعلى منزلة إلى أدنى منزلة فهو خطاب الله تبارك وتعالى إلى عباده ، والمتمثل في القرآن الكريم ، ومن ثم فهو خطاب موجه أساسي وملزم تضم مقاصده الأوامر والنواهي ، ولأن الرسول ﷺ مبلغ لرسالة إلهية يمكن أن نعد الحديث النبوي ضمن هذه العلاقة ولكن بدرجة أقل لتفاوت المنزلة بين المرسل والمتلقي ، وفي الوضعية المقابلة نجد الخطاب من خلال العلاقة بين طرفي التواصل موجه في اتجاه عكسي لأنه خطاب صاعد من العبد إلى ربه وبالتالي يكون الخطاب دعاء لأن العبد يكون في مقام ضعف فيناجي ربه مستغيثا متضرعا ، في حين يتولد بين الخطابين السابقين نوع ثالث يضم مجموعة من الخطابات المتساوية في العلاقات التي تجمع طرفيها - وإن تفاوتت نسبيا - وتكون في مجملها توضيح وشرح للناس لما جاء في الخطابين السابقين القرآن الكريم والحديث النبوي¹ .

وبهذا المعطى يعد القرآن الكريم « خطابا مركزيا في الثقافة العربية الإسلامية ، وهو الخطاب الذي ستتفرع عنه كل الخطابات الدينية الأخرى ، فهو خطاب عام وشامل وتميزت بلاغته في قدرته على التواصل مع شرائح بشرية مختلفة»² ، فهو كلام الله للعالمين كافة ، فكان فصل الخطاب وحجة الله لعباده ببلاغته ونظمه البياني المعجز ، « لذلك جاءت ملفوظاته دقيقة في تحديد مخاطبها عبر أسلوب النداء الذي يتصدر مجموعة من الآيات القرآنية ؛ ويمكن أن نجمل ذلك في:

- خطاب عام: "يا أيها الناس"

- خطاب خاص: "يا أيها الذين آمنوا" ، "يا أيها الكافرون" ، "يا أيها المنافقون".

- خطاب الجنس: "يا بني آدم" ، "يا بني إسرائيل" ، "يا أيها الإنسان".

- خطاب التخصيص: "يا نساء النبي" ،

- خطاب العين: "يا أيها النبي" ، "يا آدم" ، "يا موسى" ، "يا نوح" ،»³ .

ولأن تعاليمه كانت أوامر ونواهي يجب اتباعها كانت الحاجة لفهم مستنير ييسر على المسلمين ما ورد في القرآن الكريم ، ف« تولد عن هذا الخطاب المركب "الخطاب القرآني" ، ظهور خطاب مصاحب لا يقل

1- بلاغة الإقناع في خطاب الوعظ ، سعيد جبار ، ضمن كتاب البلاغة والخطاب ، إعداد وتنسيق محمد مشبال ، مرجع

سابق ، ص 222 .

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها ..

3- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

عنه أهمية ويرقى ليكون هو الآخر خطاباً مؤسساً وهو " الحديث النبوي الشريف " فكلام الرسول ﷺ كان بمثابة المفصل لمجمل الكلام الإلهي والموضح لما التبس منه إدراك المخاطبين ومع التحولات التاريخية وتوقف الحديث النبوي كخطاب مفسر ومفصل للخطاب القرآني ، كان لابد من ظهور خطابات جديدة تحل محل الخطاب النبوي وتستلهم شرعيته في التشريع وتوجيه الأمة¹ ، فظهرت خطابات دينية تنطلق من القرآن الكريم والحديث النبوي كخطاب مؤسس ، نحو علوم القرآن وتفسير الحديث ، والفقه ، ... وغيرها.

إذن يصنف الخطاب الديني إلى خطاب مؤسس وهو القرآن الكريم وحديثه ﷺ ، وخطابات فرعية تتولد عنها وتعمل لنفس الغرض الذي يسعى له الخطاب المؤسس ، « ونحن حين نتحدث عن الخطاب الديني هنا فإننا نقصد ما يمكن أن نسميه "الخطاب الديني الوضعي" تمييزاً له عن الخطاب الديني المقدس ... هذا الخطاب ، وهو كل خطاب ديني خارج القرآن الكريم والحديث النبوي دون أي استثناء ، خطاب بشري له كل خصائص الخطاب البشري ؛ خاصة قابليته للخطأ والصواب ، وبالتالي للانتقاد² ، من منطلق أنه اجتهاد لعلماء تفقهوا في الدين وبدؤوا يصدرون الأحكام الشرعية لما أثير من أحداث في حياة المسلمين انطلاقاً من ما جاءت به النصوص الشرعية .

3- الخطاب التعليمي الديني "شبكة القناص أنموذجاً"

بعد رصدنا لمفهوم الخطاب التعليمي وخلصنا إلى أنه خطاب يضم محتواه مجموعة من المعارف والخبرات في مجال معرفي معين لغاية تعليمية يفرضها سياق التخاطب ، فإن أي خطاب معرفي وفق هذا المعطى يمكن أن يكون خطاباً تعليمياً إذا كانت غايته الأساس نقل المادة العلمية للمتلقي قصد التعلم ، ومن ذلك الخطاب الديني الذي يعنى بأمور الدين متخذاً النصوص الشرعية - القرآن الكريم والحديث النبوي - مرجعية قدسية يحتكم إليها ، فيسعى إلى شرحها وتبسيطها في طابع تعليمي يقوم على التفاعل التواصلي بين طرفي العملية التعليمية .

1 - بلاغة الإقناع في خطاب الوعظ ، سعيد جبار ، ضمن كتاب البلاغة والخطاب ، إعداد وتنسيق محمد مشبال ، مرجع

سابق ، ص 223 .

2 - بعض خصائص الحجاج في الخطاب الديني من خلال خطاب السيد يوسف القرضاوي في برنامج "الشرعية والحياة" ،

ضمن كتاب البلاغة والخطاب ، إعداد وتنسيق محمد مشبال ، مرجع سابق ، ص 290 .

فكثيرة هي الخطابات الدينية التي تعنى بأمور الدين؛ فمنها ما يدرس علوم القرآن ومنها ما يهتم بعلوم الحديث وغيرها يعنى بالفقه والسيرة....، ولأن الفقه سبيل الهداية والرشاد لاتباع التعاليم السمحة التي يقوم عليها الدين الإسلامي عبادات ومعاملات وحدودا، اخترنا هذا الجانب الديني كأنموذج لدراستنا، بعد أن استوقفنا شبكة القناص لعبد الرحمن بن محمد الانزجميري بمسائلها الفقهية التي كانت مادة علمية صرفة قدمت بطريقة تربوية لغاية تعليمية، ومن ثم لا ضير إن عدت في نظرنا خطابا تعليميا دينيا، أراد به الناظم تقديم مجموعة من الأحكام الشرعية لفئة مخصوصة من المتلقين بأسلوب اللغز الدقيق الذي يستدعي استحضار الذكاء وقوة الذاكرة.

وقبل أن نلج ثانيا البحث نقف برهة ونستوقف الشبكة موضوعا دينيا ومحتوى علميا ومنهجيا تربويا وغاية تعليمية حتى تتبلور لنا قراءة شاملة تنور لنا مسار الدراسة.

من منطلق أن الخطاب الديني من أهم أنواع الخطاب تضمننا لأساليب الإقناع والاستدلال، " فقد تنوعت الأساليب التي عرضت بها مسائل الفقه الإسلامي، وابتكرت قرائح رجال هذا العلم الشرعي طرقا مختلفة لبحثه، حتى أثري رصيده بعدد ضخم من المصنفات دلت على التفاني في خدمته، والاهتمام به وبتوضيح مسائله التي لا تحصر"¹، فتضاربت الآراء في العبادة حول الفقه والعقيدة، وكثرت جراها المذاهب والفرق، الأمر الذي جعل المناظرات في المراكز الثقافية والمجالس العلمية في أمور الدين تشع بين العلماء والفقهاء.

ويعتبر المذهب المالكي أيسر المذاهب وسطية واعتدالا، وأنجعها فعالية في التفقه وفهم تعاليم الدين، لذلك أولي عناية تامة من قبل الأعلام والطلبة باعتباره ميزة لهذه الأمة ومن مقومات كيانها، وهذا ما كان يحذوهم إلى القيام بالرحلات العلمية للاتصال بالشيوخ والأخذ عنهم ومناظرتهم والسماع منهم وقراءة مؤلفاتهم ومقابلتها، بحيث لم يكن بعد المسافة حائلا دون هذه الرحلات، بل كان العالم الإسلامي على رحابته ورقعته بمثابة البلد الواحد"²، فاعتمد رجاله وعلماؤه أساليب الإقناع والاستدلال المنطقي في مناظراتهم الدينية مع علماء المذاهب الأخرى، وفي منهجهم هذا يظهر لنا جوانب الحجاج من خلال أسلوب المناظرة والسماع وقراءة المؤلفات الفقهية ومقابلتها.

1- درة الغواص في محاضرة الخواص، برهان الدين إبراهيم بن فرحون، تحقيق: محمد أبو الأجنان، وعثمان بطيخ، دار

التراث، القاهرة، مطبعة التقدم، ص 05.

2- المرجع نفسه، ص 11.

إذاً اعتمد الفقهاء في تكريس الدين الإسلامي أساليب عدة نلمح فيها إشارات الحجاج والاستدلال لتأكيد مسألة دينية أو تنفيذها، أو من أجل تلقينها للطلبة والدارسين، " وكان من هذه الأساليب ... أسلوب الألغاز، وهو أسلوب " يتطلب ذكاء وقادا وبديهة صافية وقلما فصيحاً ومعرفة دقيقة وفي مجال الفقه يضاف إلى ذلك استيعاب مسائله وخاصة ما كان نادراً منها"¹. واللغز في أصل معناه اللغوي الحفر الملتوي، وهو موضوع علم الألغاز الذي تتبارى بعض العقول في صوغ بعض تراكيبه الدالة على معاني مقصودة بصفة خفية، مع استحسانها وانتباه الأذهان لها، حتى ائتلف من ذلك علم واستقام، وعدّ من فروع البيان².

ويعتبر كتاب درة الغواص في محاضرة الخواص لبرهان الدين إبراهيم بن فرحون المالكي "ت799هـ" من المصنفات الدينية التي تطرقت إلى مسائل فقهية بأسلوب الألغاز كمنهج تربوي تعليمي يحاضر به الطلبة حتى تكون عاملاً لإثارة العزم فيهم وتجديد نشاطهم الذهني، وتوفير القوة النفسية التي يحتاجها الطالب للمضي في أشرف طريق، وهو طريق اكتساب العلم، وهو يعتبر أيضاً أن المحاضرة بالألغاز تحذ الأذهان وتفتح الجنان، وتفاضل بين الأقران، وتحرك روح التنافس الحميد بينهم"³.

والمتصفح لدرة الغواص يكتشف أن برهان الدين ابن فرحون ارتكز في مؤلفه على التخاطب الحواري الذي يشترط وجود متلقي سامع، فاستقى لخطابه الفقهي متلقي افتراضي يلازمه في افتتاح ألغازه" التي بلغت 628 لغزاً... فإن قلت... وجوابه قلت، مستعملاً الأسلوب الثري القريب من أسلوب الفقه الذي يهتم بالتفصيل ويشيح عن تنميق العبارة وتزويقها"⁴ ومن خلال عبارة "فإن قلت... قلت" يتبدى لنا أسلوب الحاجة الإقناعي الداعي إلى تغيير وتوجيه رأي الطلاب أو تأكيده أحياناً، ولا يتحقق ذلك بطبيعة الحال إلا باستحضار ابن فرحون المحاضر مرسل الخطاب جملة من الموجهات والأدلة الحجاجية لتتم عملية الإقناع والتأثير.

ولأهمية هذا الكتاب الفقهي المنشور، فقد اشتغل عليه علماء إقليم توات الذين كانوا طلبة علم رحالة، يجوبون مشارق الأرض ومغاربها للتلمذة والأخذ عن فقهاء المالكية، ولأن الإقليم عرف حراكاً فكرياً في مختلف مجالات المعرفة خاصة الجانب الديني، الذي شجعتة كثرة العلماء والمشايخ وانتشار المساجد

1- درة الغواص في محاضرة الخواص، برهان الدين إبراهيم بن فرحون، ص45.

2- ينظر المرجع نفسه، ص28-29.

3- المرجع نفسه، ص45.

4- المرجع نفسه، ص47.

والزوايا، فقد شهد المذهب المالكي انتعاشا كبيرا في المنطقة ولقي كتاب درة الغواص في محاضرة الخواص إقبالا ملفتا، من قبل الطلبة ومشايخ الزوايا، وكان أسلوب تأليفه منهجهم في التعليم الفقهي، الأمر الذي جعلهم يشجعون على حفظه وتدارسه.

ولأن الكتاب كان منشورا فكانت الحاجة إلى تسهيل حفظه غاية ملحة عصرئذ، فما كان من الشعر إلا سبيل غايتهم، خاصة وأن الإقليم كان يشهد اهتماما بالفكر والأدب لما لهما من خدمة للدين والعربية، الأمر الذي جعل أحد علماء الفقه المالكي يركز لنا الدرّة في قالب شعري تعليمي وبنفس المنهج التعليمي المعتمد على التخاطب مع متلقي افتراضي بالألغاز لتنشيط الذهن وتقوية الفهم، مستفتحا للغز بعبارة: إن قلت... قلت. فنظم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجي "ت1399هـ/ 1979م" منشور الدرّة شعرا على إيقاع الرجز المعهود في المتون التعليمية، وأسماها: شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص يقول في مطلعها معرّفا بشخصه ومصليا على الرسول الكريم ﷺ¹:

يقول راج رحمة وغفران ::: أسير ذنبه عبيد الرحمن
ابن محمد هو ابن أحمد ::: وفقه الله بكل مقصد
حمدا لمن قد فتح الأبواب ::: وبسر الأمور والأسباب
ثم الصلاة والسلام أبدا ::: على الرسول الهاشمي أحمد
نور الهدى والداع للرشاد ::: وصفوة الله من العباد
فاتح ما أغلق من قلوب ::: عُلقُ بإذن عالم الغيوب
صلى عليه الله صباحا ومساءً ::: والآل والصحب ومن به اقتفى

وعن سبب تأليفه القصيدة ومضمون محتواها يقول²:

وأستعين الله في قصيدة ::: ضمنتها مسائل مفيدة
من جملة الألغاز والمعيات ::: لشحذ أذهان ذوي المصافات
من رجز يقرب المنشور ::: جعلته مزدوجا مسطورا
سميته بشبكة القناص ::: لما حوته درة الغواص

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن أحمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص 30.

2- المرجع نفسه، ص 31.

وأسأل الله وفاء الوعد :::: فهو الذي له وجهت قصدي

وبعدها يشرح للمتلقي المعنى المقصود من اللغز وبيان أهميته وجذوره التاريخية عند المسلمين فيقول¹:

باب بيان القول في مقدمة :::: تُبَيِّنُ لِلطَّالِبِ سِرَّ الكَلِمَةِ

واعلم بأن أصل هذا الوضع :::: ثبت عن نبينا بالرفع

من طرحه بعض المسائل على :::: بعض صحابه الكرام الفضلا

حسب ما ضمنه البخاري :::: جامع الصحيح في الأخبار

حكيمته اختبار ذهن المُلقَى :::: عليه في الفهم لما يُلقَى

وبعدها مباشرة يشرح في توضيح منهجه في منظوم الدرّة مستحضرا منهج ابن فرحون في المحاضرة

فيقول²:

وذا أو ان الخوض في التعليقة :::: معللا له بتلك العلة

وحيث قلت الفعل مسندا إلى :::: مستتر لغير مذكور خلا

فلا بن فرحون بأل :::: فهو لدرته حيثما نزل

ولا ضير أن نستدل بمثال باب بيان اللغز في المياه حتى يتضح لنا منهج الشيخ عبد الرحمن بن محمد

الزجلاوي في شبكة القناص فيقول³:

باب بيان اللغز في المياه :::: على طري ق لم يكن بالواه

إن قيل إن كان بقاء طحلب :::: يسلبه التطهير أم لا يسلب

قلت إذا طبخ فيه سلبه :::: إذ عسر الاحتراز بعد سلبه

ذكر ذا الطرطوشي في تعليقه :::: فهو دليل طالب لحجته

إن قلت هل يصح طهرنا بما :::: من شجر جمع أم ذا ذو احتما

قلت يجوز مثل ما تحللا :::: من برد أو من جليد حللا

إن قلت ماء قد تغير بما :::: ينفك والوضو به لم يجتما

1 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجلاوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 31- 32 .

2- المرجع نفسه ، ص 32- 33 .

3- المرجع نفسه ، ص 32- 33- 34 .

قلت التغير الذي قد ذكرا :::: بكوب أو دلو جديدين جرا

إلا لطول مكثه بالدلو :::: أو بحبال جددت في المترو

أو لسوان أو نواضح نفي :::: إن التغير بهذه خفي

وقيدَّ ابن رشد الكوبَ الجديد :::: بعدمِ الفُحشِ بتغييرٍ مزيدٍ

وهكذا يواصل سرده للألغاز الواحد تلو الآخر متبعا أبواب الفقه بابا بابا كالعبادات والمعاملات والحدود.

ومن خلال تصفحنا لهذا الخطاب الديني تبين لنا أنه خطاب في بعد تعليمي لتدارس المسائل الفقهية ، استعمله عبد الرحمن بن محمد العالم في محاضرة الطلاب ، وفق منهج الفقيه المالكي برهان الدين ابن فرحون في الدرّة ، ويمكن أن نلمح فيه جانبا من المحاجة من منطلق أنه يشتمل على آلياته ، وهي حضور طرفا التخاطب المتمثلة في الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم والمتلقي الافتراضي الذي أشار إليه في بداية القصيدة ، والذي تمثله التاء المتصلة بالفعل قال كضمير إحالة يعود عليه . كما أن التلفظ بالخطاب باد من خلال عبارة "فإن قلتُ قلتَ" يقوم على الحوار الكلامي ، وهو المبدأ الذي تقوم عليه التداولية في مفهومها الإجرائي ، والمتمثل في الاستعمال الفعلي للغة في التخاطب بين البشر ، إضافة إلى ذلك نلمح أساليب المحاجة بادية من أجل الإقناع والتأثير في المتلقي لتوجيه رأيه أو تأكيده أو حتى نفيه ، وذلك بأساليب التفسير والتمثيل والاستشهاد بحجج برهانية دامغة ، وهذا ما سيأتي بيانه في الجانب التطبيقي من الدراسة .

ثالثا: بواعث الحجاج وتقنياته

1: بواعث الحجاج

إن التواصل في بعده الحجاجي أساسه تفاعل متخاطبين حول موضوع ما متبعين في ذلك جملة من آليات الإقناع والتأثير ، ومن ثم فالخطاب الحجاجي يحتكم إلى علاقة تخاطبية تتعدى في وظائفها وظيفة التواصل والتعبير فيبني المتكلم خطابه حسب مقاصد عدة نحو - « قصد التوجه إلى الآخر وقصد إفهامه مرادا مخصوصا ، من غير أن يسعى إلى جلب اعتقاد أو دفع انتقاد ، ولا أن يزيد في يقين أو ينقص من شك ، وإنما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدتين التخاطبيتين المذكورتين قصدتين معرفيتين هما: " قصد الادعاء" و " قصد الاعتراض" ¹ ، وهذان القصدان هما دعمتا الخطاب الحجاجي .

1- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 225.

وبيان ذلك يأتي من تحديد مفهوم المصطلحين والتفريق بينهما ، فقصد الادعاء نعني به « أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا ، حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد لما يقول من نفسه وتتمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة ؛ ذلك لأن الخلو عن الاعتقاد يجعل الناطق ، إما ناقلا لقول غيره ، فلا يلزمه اعتقاده ، وإما كاذبا في قوله ، فيكون عابثا باعتقاد غيره ، ولأن الخلو عن الاستعداد للتدليل ، يجعل الناطق ، إما متحكما بقوله ، فلا يتوسل إلا بالسلطان ، وإما مؤمنا بقول غيره ، فلا يحتاج إلى برهان¹ ، فالقصد الإدعائي يعد بادرة افتتاحية للخطاب الحجاجي تستدعي لا محالة اعتراض من باب الاختلاف .

فردا على من ادعى يأتي حق الاعتراض ، وهو قصد نعني به « أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا ، حتى يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدعيه ، ذلك لأن فقد المنطوق له لهذا الحق يجعله ، إما دائم التسليم بما يدعيه الناطق ، فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه ، وإما عديم المشاركة في مدار الكلام² ، فينقص من قيمة الخطاب الحجاجي .

ومن خلال المفهومين يتبدى لنا المعطى الإجرائي للمحاجة ، والتي تأتي كممارسة اجتماعية يجسدها تواصل إثنين أو أكثر ، فتستدعي متكلم يكون في مقام المدعي ، وسامع يكون في مقام المعارض ، وهذه الوظيفتين - الادعاء والاعتراض - هما الباعث الأساسي للحجاج ، فلا يمكن تصور خطاب فيه ادعاء من المتكلم دون أن يقابله اعتراض من السامع ، والمتبع لشبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص يلحظ أنها خطاب حجاجي قائم على فرضية الإدعاء والاعتراض ، تجسدها الفعالية التواصلية بين الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم الذي جاء في مقام المعارض ومخاطبه الافتراضي الذي يمثل حالة الادعاء ، حيث - وإن كان افتراضيا - يعرض مسألة فقهية ما مدعمة بجملته من الحجج لبناء خطابه وتقوية إدعائه ، متوخيا اعتراض معلمه لها .

ولعل القصد الذي يرومه المتكلم وراء خطابه يعد كذلك من بواعث الحجاج ، فأول ما يقوم به هو أن يؤسس لادعائه متوخيا تداعيات الاعتراض ، فيأتي خطابه مثقلا بالحجج والأدلة الدامغة ، فمحتوى الخطاب هو مقصود صاحبه ، إلا أن القصد قد ينأى أحيانا عن المخاطب أثناء تلقيه ، الأمر الذي يجعل المتكلم يعتقد لخطابه فيعد العدة لإيصال مقصوده .

1- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 225 .

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

وعلى ذكر القصد نجد شبكة القناص باعتبارها خطاباً تعليمياً ، فإن الناظم يركز اهتمامه على جملة من البواعث الرئيسية والتي تجعل من خطابه خطاباً حجاجياً ، على نحو ما نجده في القصد المتوخى من المضمون والممثل في شخذ الأذهان واختبار أصحابها لمعرفة تمكنهم من تعاليم الدين ، يقول الناظم¹:

حكمته اختبار ذهن المُلَقَى :::: عليه في الفهم لما يُلَقَى

إضافة إلى ذلك يمكن أن نلاحظ نقطة جوهرية في العملية الحجاجية ؛ وهي نقطة الاختلاف بين المتحاجين ، ويمكن اعتباره الداعي الأساس للحجاج ، وهو باعث يجعل أرضية الحجاج أكثر خصبة ، خاصة وأن الحجاج لا يكون في أمور يقينية مسلم بها ، أو في حقائق علمية مفصول في أمرها ، ولأن نتائجه غير إلزامية فإنها تزيد من حدة الاختلاف ، الأمر الذي يجعل قوة الادعاء والاعتراض تشتد بينهما ، فغاية كل واحد منهما هي التأثير في الآخر وإقناعه من أجل تغيير رأيه أو تعديل سلوكه لكن مبدأ الاختلاف بينهما قد يجعل تحقيق ذلك عسيراً.

ومبدأ الاختلاف هو الذي ينطلق منه عبد الرحمن بن محمد العالم في الشبكة ، حيث يعرض المسألة الفقهية على أساس أنها محل اختلاف بينه وبين مخاطبيه المتعلمين ، فيوردها في حوارية تفاعلية على شاكلة سؤال افتراضي يطرحه المتعلم ، ليقدم جواباً احتمالياً حسب طبيعة السؤال كأن يقول مثلاً²:

إن قلت بئرٌ ماؤها تغير :::: بخُشْبٍ أو بحشيشٍ قد طرا

وجوزوا الطُّهْرَ به قلتُ فَهِيَ :::: بئرُ الصَّحاري طويت بالعضه

أو عُشْبٍ أو بخُشْبٍ فغيراً :::: طهورها فلا يضرُّ ما عراً

إذ اضطررنا دَعَا إليه :::: فاعتمدن في مثلِ ذَا عليه

تشير شبكة القناص إلى مسألة فقهية تدخل ضمن باب المياه ، فالماء أساس الطهارة ، ولأهميته أورد الناظم مختلف الأوجه الاحتمالية التي قد تلحق بالماء أو قد تطرأ عليه ، ومن بينها هاته الحالة التي أوردتها مُلغزاً في شكل سؤال افتراضي طرحه عليه أحد المتعلمين ، وهو تغير ماء البئر نتيجة خشب أو حشيش وقع فيه ، مشيراً إلى أن بعض الفقهاء قد قالوا بطهره ، حتى يثير الشك حياله ويزيد حدة الاختلاف ومن ثم تشتد قوة الادعاء ، فيجيبه بأن هذا البئر واقع تحت شجر به شوك ، مما يسهل وقوع الشوك به ، أو أنه قد وقع فيه

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص32.

2- المرجع نفسه ، ص34.

شيء من العشب أو الخشب أدى إلى تغييره ، فهذا الماء يعتبر طاهرا رغم ما لحقه من تغير وذلك راجع إلى أن الحالة الاضطرارية هي التي دعتنا إلى استعماله .

ومبدأ الاختلاف هذا ؛ هو ما يجعل المتكلم يدافع عن رأيه لإيصال مقصوده ، وهو باعث يؤدي إلى باعث آخر يتمثل في الدفع لفعل ما ، بمعنى أنه ما دام الإقناع مجال العملية الحجاجية والاختلاف منطلقها فإن القيام بفعل ما هو آخرها ويأتي كنتيجة للتأثير في المتلقي بعد اقتناعه ، وبالتالي هو أهم بواعث الحجاج حيث يتطلب « وعيا بأليات من شأنها تحريك المعنيين بالكلام صوب الفعل وتغييره بما ينسجم مع المقام ، وتتطلبه مقاصد النص وطموحات الخطيب " المتكلم أو المخاطب " بوصفه مفكرا ذو رؤية معينة يسعى إلى إرسالها ، أو يفند بها حججا أخرى مناوئة¹ تأتيه من طرف مخاطبه .

فالدفع لفعل شيء ما أو الكف عنه هو غاية الحجاج ، وهو ما نستشفه من خلال شبكة القناص ، في أغلب المسائل الفقهية التي يعرضها ومن ذلك دعوته إلى استعمال ماء البئر الذي طرأ عليه تغير بخشب أو عشب وقع فيه لجواز استعماله ، وبالتالي هو دفع المخاطب إلى فعل ما يقوم به .

ويمكن أن نشير إلى المقام إجمالا كباعث حجاجي يضم كل ما يمكن أن تكون له صلة بالعملية الحجاجية منذ بدئها فزمن الخطاب ومكانه ومنطلقه وغاياته وظيفه كلها بواعث حجاجية تدعو للحجاج وتفعله ، فالسياق التخاطبي بين طرفي الخطاب هو ما يستدعي هذه البواعث ويجعلها دعائم لقصد الإدعاء أو قصد الاعتراض ، فيوظفها كل من المتكلم المدعي والسامع المعترض .

وفي هذه العملية التعليمية التي تعنى بالخطاب الديني يتبدى لنا السياق بكل ملابساته المقامية التي تحيط بالخطاب ، من طرفي العملية التخاطبية " الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم والمتلقي الافتراضي " ، والمكان ويشمل المدارس القرآنية والزوايا عادة ، وزمن الخطاب ، وذلك حسب الوقت المحدد لتدريس هذه المتون التعليمية ، وتكون عادة بعد العاشرة صباحا ، أو بعد صلاة العصر مساء ، إضافة إلى الغرض والهدف الذي يسعى إليه المتخاطبان والمتمثل في فهم الدين والتفقه فيه وكل ما من شأنه يخدم مقام التعلم الديني .

2: تقنيات الحجاج

يتعلق الأمر هنا بالعمل الإجرائي للحجاج كأسلوب لإنجاح الخطاب الحجاجي ، فالمعنى الحجاجي لا يتوقف على ملفوظ القول فحسب بل تدخل اعتبارات أخرى غير مقالية يحددها السياق ، فيأتي الحجاج

1 - الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه قراءة في كتاب المساكين للرافعي ، هاجر مدقن ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،

تلميحا في الكلام حسب رغبة المرسل ، وبذلك نجد للنص « ضربان: ضرب هو نص بلفظه ومنظومه ... »؛ وضرب هو نص بفحواه ومفهومه ، نحو قوله تعالى: "ولا تقل لهما أف" ، "ولا تظلمون فتيلًا" ، "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره" ، ... ، فقد اتفق أهل اللغة على أن فهم ما فوق التأنيف من الضرب والشتم ، وما وراء الفتيل والذرة من المقدار الكثير أسبق إلى الفهم منه من نفس الذرة والفتيل ، والتأنيف¹ ، وهذا راجع إلى طبيعة المعاني وقربها للأذهان فهما قبل ألفاظها .

عموما فقد تأتي في مجملها تلميحا في بنية الخطاب من خلال منطوق اللفظ ودلالته ، وهذا ما أشار له أبو حامد الغزالي بقوله: « ومن قال: إن هذا معلوم بالقياس ، إن أراد به أن المسكوت عنه عرف بالمنطوق فهو حق ، وإن أراد به أنه يحتاج فيه إلى تأمل ، أو يتطرق إليه احتمال ، فهو غلط »² ، فالخطاب الحجاجي يأتي صريحا في بنيته من خلال تقنيات أسلوبية يستعملها المتكلم أثناء الكلام ، وفي نفس الوقت يأتي تأكيدا على المعاني الحجاجية التي يرومها ، والتي قد يوردها تلميحا في خطابه .

ففي الممارسة الحجاجية وانطلاقا من مقاصدها التداولية نرى أن المتكلم صاحب رسالة يسعى لإيصالها بشكل صحيح ، لذلك تراه « يزوج ... بين هذين الضربين في الحجاج كما يزوج بينهما في أغراض الخطابات الأخرى ، لأن المرسل إليه يفهم ما يضمرة في خطابه تماما مثلما يفهم ما يظهره فيه ، فإذا كانت تتجلى كفاءة المرسل التداولية في صناعة الخطاب ، فإنها تتجلى الكفاءة التداولية للمرسل إليه عند تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه »³ ، ومن خلال كفاءتهما التداولية تتبدى أصول العملية الحجاجية ومبادئها ، والتي لا تعدو أن تكون جملة من الأدوات والتقنيات المخصوصة يفرضها سياق العمل الحجاجي حصرا على المتكلم ، فيبني خطابه انطلاقا من هذه الأدوات والتقنيات الحجاجية .

إن هذه الأدوات ليست حجج المتكلم بعينها ، وإنما هي قوالب تنظم العلاقات بين الحجج ونتائجها وفق تقنيات الحجاج ، حيث يعتمد المتكلم إلى توظيفها بمعانيها وخصائصها ، فينوع في توظيفها وفق متطلبات السياق ، فهي أدوات تعنى بالمعاني وكيفية ورودها خدمة للمعنى الحجاجي الذي يريده المتكلم⁴ .

1- المستصفي من علم الأصول ، محمد أبو حامد الغزالي ، تح: محمد سليمان الأشقر ، مؤسسة الرسالة ، ط1 ، ج ... ، ص20 .

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص476 .

4- ينظر: المرجع نفسه ، ص477

ويعد بيرلمان وزميله أول من قسم تقنيات الحجاج اللغوية وصنفوها إلى فئتين أولها تقنيات طرق الوصل وهي « ما يتم به فهم الخطط التي تقرب العناصر المتباعدة في الأصل لتمنح فرصة توحيدها من أجل تنظيمها ، وكذلك تقويم كل منها بواسطة الأخرى سلبا أو إيجابا »¹ ، وثانيها تقنيات طرق الفصل و « هي التي تكون غاياتها توزيع العناصر التي تعد كلا واحدا ، أو على الأقل مجموعة متحدة ضمن بعض الأنظمة الفكرية أو فصلها أو تفكيكها »² ، فطرق الفصل والوصل تتصل بقصد الإدعاء والاعتراض ، فالإدعاء يستدعي استحضار تقنيات طرق الوصل في بناء الحجج ، والاعتراض كذلك يستدعي استحضار تقنيات الفصل لدحض حجج المدعي .

ويمكن أن نقسم تقنيات الحجاج إجمالا إلى:

- « الأدوات اللغوية الصرفية ، مثل ، ألفاظ التعليل ، بما فيها الوصل السببي ، والتركيب الشرطي ، وكذلك الأفعال اللغوية ، والحجاج بالتبادل ، والوصف وتحصيل الحاصل .

- الآليات البلاغية: مثل تقسيم الكل إلى أجزائه ، والاستعارة ، البديع ، التمثيل .

- الآليات شبه المنطقية: ويجسدها السلم الحجاجي بأدواته وآلياته اللغوية ، ويندرج ضمنه كثير منها: مثل الروابط الحجاجية: "لكن ، حتى ، فضلا عن ، ليس كذا فحسب ، أدوات التوكيد" ، ودرجات التوكيد والإحصاءات ، وبعض الآليات التي منها الصيغ الصرفية ، مثل التعدي بأفعال التفضيل والقياس وصيغ المبالغة³ وغيرها .

إذن هذه هي تقنيات المحاجة التي لا يكاد يخلو منها أي خطاب حجاجي ، بل أحيانا نجد أن المتكلم يتغنى ذلك لإقناع مخاطبه ، وهي فنيات تجعل الحجاج في مفهومه الواسع « لا يعني حشد الحجج ، وربط مفاصل الكلام وتعليق بعضه البعض الآخر فحسب ، بل يعني كذلك جملة من الاختيارات الأخرى على مستوى التركيب وأزمنة الأفعال وصيغ الكلمات وأنواع الصور ومصادر التصوير ... اختيارات تراعي غاية الخطاب ، وتلائم وضع المتلقي ومقتضيات المقام »⁴ ، وحتى تتضح جليا سنوردها تباعا بشكل من التفصيل والتحليل وهذا بيانها:

1- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 477 .

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

4- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 88 .

1.2- الأدوات اللغوية

وهي معطيات لسانية تسهم في تشكيل بنية الخطاب الحجاجي شكلا ومضمونا، «ونقصد بها أدوات الاتساق والترابط والانسجام»¹، وما ينضوي تحتها من أدوات لغوية يوظفها المتحاجان حسب دواعي الحاجة، فتفاوت باختلاف المقام، فغاية الإقناع هي ما يزيد من قوة الخطاب الحجاجي، فتستدعي الحجاج بعضها بعضا في قالب لغوي يتجاوز الوظيفة التواصلية للغة، فتصبح اللغة من «كونها وسيلة تواصل إلى وسيلة تأثير في العالم والسلوك، ويصير الكلام ذا قوة بلاغية كامنة فيه تظهر من خلال الآثار والنتائج المترتبة»² عنها.

وحتى تتضح الصورة نورد بعض المسائل اللغوية التي تزيد من فاعلية الحجاج نحو:

أ - الإحالة: هي علاقة دلالية تختص بها اللغات الطبيعية، ويقصد بها أن يشار في النص إلى مذكور سابق أو لاحق بأحد عناصر الإحالة، وهي «حسب الباحثين: الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة»³، وهذه العناصر هي ما يبرز البعد الحجاجي للإحالة، ويكمن في «أن العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها»⁴، ولأنها علاقة دلالية محضة، فإنها شديدة الصلة بالمعنى «ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية، إلا أنها تخضع لقيود دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه»⁵، وهنا المكمن الحجاجي للإحالة، وتشير الأبحاث إلى أن الإحالة قسمين: أولها مقامية تحتكم إلى مقام النص وما يحيط به من ظروف وملابسات خارجية، فهي تقوم بدور هام في إنتاج النص إلا أنها لا تسهم بشكل فعال في اتساقه، وثانيها نصية تحكمها بنية النص، وقد تكون قبلية أو بعدية وهي المسئول المباشر في اتساق النص وانسجامه.

ب - الحذف: الحذف ظاهرة لغوية تتميز بها اللغات البشرية، ولكن بدرجات متفاوتة، فالعربية مثلا لميل أصحابها للإيجاز في القول نجد الحذف ظاهرا للعيان في كلامهم، والحذف نقيض الذكر، وغايته الاستغناء عما كثر في الاستعمال، فنشكل «فراغا بنيويا يهتدي القارئ إلى ملئه»⁶ بناء على قدراته ومعارفه،

1- خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عباس حشاني، مرجع سابق، ص 89.

2- في اللسانيات التداولية، خليفة بوجادي، مرجع سابق، ص 94.

3- لسانيات النص، محمد خطاي، مرجع سابق، ص 17.

4- المرجع نفسه، ص 16-17.

5- المرجع نفسه، ص 17.

6- المرجع نفسه، ص 21.

« فهو علاقة داخل النص ، تكمن حجاجيته في جعل القارئ يملأ هذا الفراغ بالاعتماد على ما ورد في الجملة الأولى أو استناداً على ما سبق»¹ ، فبلاغة الحذف تكمن في قدرتنا على الإيجاز دون أن نخل بالمعنى ، وهو مكمن حجاجي يستعمله المتكلم من أجل التأثير والإقناع .

ج - الوصل: الوصل مأخوذ من وصل الشيء بالشيء أي ضمه إليه ، وبالمفهوم النصي هو « تحديد الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منتظم » ، فهو آلية من آليات الاتساق ، خاصة و « أن النص عبارة عن جمل أو متتاليات متعاقبة خطياً ، ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النص ، ولما كانت وسائل الربط في إطار الوصل متنوعة فقد فرع ... هذا المظهر إلى إضافي وعكسي ، وسببي وزماني»² ، وتكمن حجاجية الوصل في دوره الانتظامي في تماسك وترابط العبارات والجملة ، وهو عمل حجاجي يتكأ عليه المتكلم في الربط بين أفكاره فيكون سبيله لتبليغ مقصوده وبالتالي التأثير في السامع وإقناعه .

د - التكرار: يعد التكرار من الأساليب اللغوية التي لها دور فعال في ارتباط أجزاء الكلام ، وهو ظاهرة لغوية تزيد من إيضاح المعنى وإبرازه ، « إن تكرار الأصوات والكلمات والتراكيب ، ليس ضروريا لتؤدي الجملة وظيفتها المعنوية والتداولية ، ولكنه " شرط كمال" أو "محسن" أو " لعب لغوي" ومع ذلك فإنه يقوم بدور كبير في الخطاب الشعري أو ما يشبهه من أنواع الخطاب الأخرى الإقناعية»³ ، وهنا تتجلى حجاجيته ، حيث إنه « بتشكيلاته المختلفة ثمرة من ثمرات قانون الاختيار والتأليف ، ومن حيث توزيع الكلمات وترتيبها تقيم تلك الأنساق المتكررة علاقات مع عناصر النص الأخرى»⁴ ، كما أنه قد يخرج التكرار إلى أغراض بلاغية أخرى كالتأكيد على مقصوده وهو عمل حجاجي نلمحه من خلال إلحاح المتكلم المتكرر للتأثير في نفسية السامع من ثم إقناعه .

1- خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي ، عباس حشاني ، مرجع سابق ، ص 90 .

2- لسانيات النص ، محمد خطابي ، مرجع سابق ، ص 23 . مفتاح ، محمد ، 1992 - الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ،

المركز الثقافي العربي ، ط 3 ، ص 39 .

3- تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص ، محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، ط 3 ، 1992 ، ص 39 .

4- الاتجاه الأسلوبية والبنوي في نقد الشعر العربي ، عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، مصر ، دط ، دت ،

2.2- الأدوات البلاغية

فن القول ووضوح الدلالة من التعريفات التي وقف عليها علماء العربية في تحديدهم لمفهوم البلاغة، حيث ورد في البيان والتبيين « قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة»¹، ولا يتم ذلك إلا بوسائل مخصوصة وما يتبعها من أساليب القول المتنوعة التي تدعم الكلام ليصبح بليغا، أو هي أدوات البيان التي يرد إزاءها « المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه»² لأن وروده بالدلالات الوضعية يجعله ناقصا، أو قد ينحى به المعنى المراد منه، وأدوات البيان متعددة منها: التشبيه والاستعارة والكناية، وكذلك الطباق والمقابلة، فهي ظواهر بلاغية ترد في الكلام لدواعي فنية إمتاعية، ولكن المتأمل في دلالاتها وسياق ورودها يلقي أنها بصر بالحجة، ذات حمولات حجاجية يوردها المتكلم لغايات استمالية إقناعية، وهنا يتعالتق الإقناع والجمال من منطلق أنهما « مترابطين، متصلين لا يكاد أحدهما ينفصل عن الآخر أو يقوم بغير الآخر»³، وبتفاعلهما تتحقق الغاية الإقناعية للخطاب.

فهذه الأدوات البلاغية تعد من أساليب البيان « وهو اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»⁴، فأساليب البيان هي أدوات بلاغية ترتبط « بطرق التعبير المختلفة باختلاف صيغ التراكيب اللغوية، ... تمتاز بالوضوح في مقام، والخفاء في آخر، أو التمام في مقام، والنقصان في آخر، لتصل في نهاية المطاف إلى غاية واضحة، وهي التعبير عن المعنى وفق مقتضى الحال، فيصبح المرسل مخيرا أمام العديد من طرق التعبير التي يختار منها ما يناسب سياق الحديث»⁵ تشبيها أو استعارة أو كناية أو غيرها.

ونحصر التمثيل لبعض هذه الظواهر البلاغية في ثلاثة منها، كونها تضطلع مباشرة بالمحاجة، وهي

الاستعارة، التشبيه والكناية:

1- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ط7، 1998، ص88.

2- مفتاح العلوم، السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص329.

3- دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، سامية الدريدي الحسني، عالم الكتب الحديث،

الأردن، ط1، 2000، ص114.

4- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ط7، 1998، ص76.

5- النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، أحمد فهد صالح شاهين، مرجع سابق، ص60.

أ - الاستعارة: تعرف في العربية بأنها « تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه »¹ ، وهي من الصور البيانية التي تضيف على الخطاب ملحة التعبير وقوة التصوير ، وإضافة إلى وظيفتها الجمالية تعد آلية من آليات الاستدلال الحجاجي فتزيد الحجج فاعلية في التأثير ، حيث يسعى المتكلم من خلالها إلى إحداث تعديل في سلوك مخاطبه ، أو تغيير رأيه ، وبالتالي فهي تعكس قدرة المتكلم على الإقناع والتأثير ، وحجاجيتها تكمن في « الخاصية التي تغلب على القول المجازي الاستعاري ، هي أن الجنس الذي يدخل فيه المستعار أو قل إن شئت المستعار منه يكون مباينا للجنس الذي يدخل فيه المستعار له »² ، وهي خاصية تجعل الاستعارة تنواز في عملها الحجاجي عن غيرها من صور المجاز الأخرى .

وأثبتت البلاغة العربية أن الكلام عادة والشعر خاصة « لا يجب إلى النفوس بالنظر والمحاكاة ، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ويقربه منها الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشيء متقنا محكما ، ولا يكون حلوا مقبولا ، ويكون جيدا وثيقا ، وإن لم يكن لطيفا رشيقا »³ ، فحتى يلقي الكلام القبول ويحقق مقصود صاحبه يتوجب عليه الأخذ بمسالك التأثير البلاغية وبلورتها مع المسعى الحجاجي لتحقيق الغاية الإقناعية .

ب - التشبيه: أو ما يعرف بالتمثيل لدى بعض الدارسين ، وهو مسلك من مسالك البيان في البلاغة العربية ، يستحضره المتكلم كآلية حجاجية للإقناع ، وذلك من خلال فعله التأثيري في المخاطب ، فيضفي على الكلام نوعا من الجمالية والفنية ، والتشبيه في العربية هو « الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى »⁴ ، ويقوم على أركان محددة هي: المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجه الشبه ، وهي عناصر تأتي « متكاملة غير أن المرسل يلجأ إلى حذف أو تبديل لأحد هذه العناصر لغايات سياقية يهدف المرسل من خلالها إلى إقناع المتلقي ، وتقديم نصوص أكثر حجاجا بحسب حال المتلقي فجملة التشبيه الواحدة تؤدي أكثر من معنى في حال انزياحها عن أصل الترتيب التركيبي بين الحذف والذكر والتبديل »⁵ ، مما يعطي معاني جديدة ومختلفة للخطاب .

1- البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج1 ، مرجع سابق ، ص153 .

2- أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، دت ، ص297 .

3- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ،

لبنان ، ط1 ، 2006 ، ص91-92 .

4- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، مرجع سابق ، ص165 .

5- النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص63-64 .

ج - الكناية: هي وجه من وجوه البلاغة مثلها مثل الاستعارة والتشبيه ، عرفها البلاغيون بأنها « لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ »¹ ، فالمفردات لها معناها المعجمي المتواضع عليه ، إلا أن المتكلم « قادر على أن يعبر عما يريد بغير ما توحى به الكلمات من الدلالات ، والمتلقي قادر على فهم غاية المرسل من نصه ، بانتقاله من المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن المرتبط بدلالات سياقية »² ، إضافة إلى وظيفتها الجمالية تعد من أدوات الإقناع البلاغية التي يلجأ إليها المتكلم بإيراد اللفظ بظاهر معناه من أجل التأثير في مخاطبه .

وقولا بهذا المعطى التعريفي للكناية نتوصل إلى أن المعنى في الكناية على ضربين:

أ - معنى عام: تحدده معاجم اللغة وهو ما تواضع الناس على استعماله فأصبح متداولاً بينهم ويظهر جلياً من بنية الخطاب السطحية .

ب - معنى خاص: نستخلصه من بنية الخطاب العميقة ، وهو محصلة تفاعل المعاني المعجمية للمفردات مع السياق اللغوي الذي ترد فيه وما يتبعه من ظروف وملابسات تعين المتلقي في فهم الخطاب .
وصفوة القول في الكناية أن « الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ... ، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض »³ ، وهذا المبحث البلاغي - الكناية - ما هو إلا أسلوب من أساليب التعبير البيانية لا يجد فيه المتلقي صعوبة في تحديد المعنى الثاني الخفي ، وهو مقصود خطاب المتكلم ، وحتى « يتمكن ... من إدراك المعنى الثاني ، ... يجب عليه أن يعتمد على المعنى الأول المتولد من اتحاد تلك المفردات ، لينطلق من خلالها للاستدلال على المعنى الثاني ... المرتبط بأعراف ، وتقاليد ، وعادات ، وضوابط اجتماعية ودينية وثقافية ... خارجة عن نطاق النص اللغوي »⁴ ، تحتكم للسياق الخارجي .

1- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، مرجع سابق ، 248 .

2 - النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص 61 .

3 - دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، دط ،

دت ، ص 262 .

4 - النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص 62 .

وخلاصة القول أن الأدوات البلاغية السابقة الذكر وغيرها تعد من تقنيات الحجاج التداولي يلجأ إليها المتخاطبان على سبيل الاستدلال الإقناعي للتأثير في بعضهما بعضاً، عليها تحدث تغيير على مستوى السلوك أو المعتقد أو مطاوعة أحدهما للآخر للقيام بفعل ما أو الكف عنه.

2.3 - الوسائل المنطقية

يعنى بهذا المجال الفلاسفة وأهل المنطق وعلماء الكلام، وهو بحث في آليات المنطق وما يتصل بها من تقنيات تجابه العقل البشري، يستعملها المتخاطبان في الممارسة الحجاجية، ومن منطلق استنادها لقوانين المنطق يمكن عدّها دعامة أساسية في تشكيل بنية الخطاب الحجاجي، وتأتي كوسيلة إقناع وتأثير في المتلقي تدعوه لتغيير رأيه، أو فعل أمر، أو تعديل سلوكه ما، والمتبع للأبحاث الفلسفية ومؤلفات المنطق يلقي أن منهجهم اعتمد على أساسين استدلاليين يكشفان لنا مظهرات الممارسة الحجاجية في خطاباتهم، وهما: الاستنباط "القياس"، والاستقراء، يقول أرسطو: «إن كل اقتناع إنما يحصل بالقياس أو ينشأ من الاستقراء... فكل الخطباء ينتجون الاعتقاد باستخدام الأمثلة أو الضمائر، ولا شيء غيرها كحجج»¹ ويمكن توضيحها في الآتي:

أ - الاستنباط "القياس": ظهر القياس كمبحث استدلالى منذ البلاغة اليونانية، حيث «في دراسة أرسطو للقياس اهتم كثيراً بالاستنباط كمبدأ في الاستدلال ينطلق من العام إلى الخاص، وحدد الشروط الأساسية لشرعيته الصورية بدءاً بصورته القاعدية»²، ويقوم القياس على ركنين أساسيين، هما المقيس يرمز له بـ "س"، والمقيس عنه، ويرمز له بـ "ع"، وما يجعلنا نقيسها هو مجموعة الصفات التي قد يشتركان فيها ويرمز لها بالرمز "صا"، وهي ما يحدد القيمة الناتجة عن الربط بينهما ويرمز لها بالرمز "ق"، ويمكن أن نوردتها تمثيلاً نحو: العلم كالطعام ينفع ويضر، فاطلب منه ما ينفعك³، ففي المثال المعطى توفرت عناصر القياس التي توصلنا إليها من خلال الاستنباط، فالمقيس هو العلم والمقيس عنه هو الطعام وما يجمع بينهما من صفات دعنا للقياس بينهما هي الضرر والنفع، وهما ما يؤديان إلى نتيجة حتمية تمثلت في أخذ ما ينفعنا من

1- الخطابة، أرسطو طاليس، مرجع سابق، ص 31.

2- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، محمد طروس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 1،

ص 23، 2005.

3- ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 98.

العلم ، ومن هذا نخلص إلى أن « القياس فعالية استدلالية خطابية مبناها على مسلمات ... وعمليات »¹ أهمها الحوارية التي تستدعي وجود طرفين متكلم وسامع ، وغموض الخطاب ، إضافة إلى حملته التي تدعو إلى مبدأ استقلالية مستوى اللغة عن مستوى الوجود - ، علاوة على ترتيبية الصفات التي لا تقبل بالثالث المرفوع وتجعل الحقيقة محصورة في رأي أحد الطرفين لا رأيها معاً² ، ويمكن أن يرد القياس في صور متنوعة أهمها القياس المتسلسل ، والقياس التعزيزي ، والقياس الإضماري³ .

ب - الاستقراء: هو الوجه الثاني من أساليب الاستدلال المنطقي ، واستقرأ الشيء تتبعه ، والاستقراء كإجراء عملي في البحث العلمي هو تتبع الظاهرة للوصول إلى الحقيقة ، ومن الناحية الاستدلالية « يتجه الاستقراء ... من الخاص إلى العام ، ويشكل نشاطاً ضرورياً للمنهج العلمي ، ولعدد من الاستدلالات اليومية » ، ذلك أنه يستخلص قوانينه من تشخيص الظاهرة من الملاحظة وتتبع تطوراتها ، « ويميز المناطق عامة في الاستقراء بين استقراء تام يسمح بالاستنتاجات انطلاقاً من مجموع الظواهر المعنية ؛ وبين استقراء تعميمي ، يكتفي بعينة من الظواهر »⁴ .

وعلى أساس أن الحياة قائمة على التواصل وقولاً بأنه لا تواصل من غير حجاج فإن الحاجة إلى الاستقراء في العملية الاستدلالية هي ما يجعل الاستقراء التعميمي أكثر أهمية في المعرفة الإنسانية مقارنة مع الاستقراء التام الذي يستمد قانونه من فحص حالات معينة ، والوقوف على استثناءاتها الجوهرية ، علاوة على أن الاستقراء التعميمي « أكثر جرأة وكشفاً وقابلية للخطأ ؛ إذ ينجح ذهننا غالباً إلى التعميم بالمعنى الذي يلائمنا ، ولأسباب عاطفية ، غير أنه يواجه دائماً بمدى تمثيلية الظواهر الملاحظة بالنسبة للمجموع ، أو مدى أحقيتنا في استخراج قانون عام ، انطلاقاً من عدد محدود من الظواهر »⁵ ، وعلى العموم مهما بلغت درجة التعميم في الاستدلال الاستقرائي فإنه لا يمكن عده حقائق يقينية .

1- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 98 .

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص 101 .

3- ينظر: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية ، محمد طروس ، مرجع سابق ، ص 24 - 25 .

4- المرجع نفسه ، ص 25 .

5- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

المبحث الثاني: تداولية الخطاب التعليمي الديني وبواعثه الحجاجية "شبكة القناص".

أولاً: مفهوم التداولية

اللغة ظاهرة اجتماعية يتواصل عبرها الإنسان مع غيره لقضاء حاجاته ، ويتجلى ذلك في أنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »¹ ، بمعنى أنها تداول في استعمال اللغة بين بني البشر أثناء التواصل ، فمن تعريف ابن جني تبدى لنا جوانب عدة كانت أساس الدراسة في ما يسمى حديثاً بالتداولية ؛ فاستعمال اللغة للتعبير ما هو إلا أداء لغوي فعلي يقتضي متكلم و سامع ، يتواصلان معا في شكل حوار تخاطبي يفرضه سياق معين ، حسب الغرض المقصود الذي يرومه المتكلم .

وفي هذا المعطى نرى أن « الموضوع الذي تتناوله التداولية هو الطريقة التي تؤول بها التراكيب اللغوية في المقامات المختلفة ، والتي تستعمل فيها للتعبير عن غايات محددة ، فالمرسل والمخاطب والمقام وظروف المقال ، وكل ما يقوم بين هذه العناصر من تفاعل له دور كبير في تحديد المعنى الذي يعد غاية التواصل »² ، وهذه الرؤية اللغوية ما هي إلا امتداد لجملة من الدراسات اللسانية التي أخذت اللغة موضوعاً لها ، « ولفهم حقيقة اللغة ، يدعو هذا الاتجاه إلى الاهتمام بما أهملته اللسانيات في الجانب الاتصالي ، لا سيما دراسة علاقة اللغة بمستخدميها ؛ حيث لا يمكن أن تبقى محصورة في علمي النحو والمعاني ، والإلمام بكل العناصر الفاعلة في عملية الإبلاغ »³ ، كطرفي الخطاب ، والسياق ، والحوار ،

فأخذنا بهذا المنظور اللساني الحديث يتبين لنا أن « التداولية ليست علماً لغوياً محضاً ، بالمعنى التقليدي ، علماً يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة ، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ؛ ويدمج ، من ثم ، مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة "التواصل اللغوي وتفسيره" »⁴ ، ذلك أنها تنطلق في فلسفتها اللغوية من مجموعة حقول معرفية وعلوم إنسانية تسهم في إنتاج الكلام وتأويله ، فتنظر إلى الخطاب كبنية لغوية يتداول تلقيها المتخاطبان في

1- الخصائص ، ابن جني ، ج 1 ، مرجع سابق ، ص 44 .

2- النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد شاهين ، عالم الكتب ، الأردن ، ط 1 ، 2015 ، ص 02 .

3- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، خليفة بوجادي ، مرجع سابق ، ص 35 .

4- التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، مرجع

سياق تواصلية معين، وبالتالي فهي بحث في الشروط الواجب توفرها في التواصل لتحقيق غاية الفهم والإفهام.

ولتأصيل مصطلح التداولية عدنا إلى معاجم اللغة فوجدناها من مادة "د و ل"، فالزنجشري في أساس البلاغة يقول «والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم. والدهر دول وعُقْبٌ ونُوبٌ، وتداولوا الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه: يراوح بينهما»¹، ونفس المفهوم ألفيناه لدى ابن منظور في اللسان حيث يقول: «وتداولنا الأمر: أخذناه بالدول وقالوا: دوايك. أي مداولة على الأمر، ... ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة»²، ويدخل في هذا المعنى أي شيء يتداول في الاستعمال، بما فيها اللغة أثناء التواصل حيث يتداول طرفان على استخدامها، ومن ثم كانت موضوع التداولية.

ويرجع استخدام مصطلح التداولية إلى الفيلسوف تشارلز موريس "1938" الذي اهتم بتجديد علم الرموز أو ما يعرف بعلم السيمياء العام "Semiotics" الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام أساسية؛ أولها علم النحو "Syntax" الذي يهتم بدراسة الرموز الشكلية بعضها ببعض، وثانيها علم الدلالة "Semantics" الذي يرى أنه يعنى بعلاقة الرموز بالأشياء التي تدل عليها، وآخرها التداولية "Pragmatics" التي تعنى بالبحث في العلاقة بين الرموز وترجمتها الشفوية، أي بمستعملها³.

ولعل ما جعل التداولية تستقر كمكون ثالث إلى جانب التركيب والدلالة داخل النموذج السيميائي العام ليس، هو نشأتها في أحضان الفلسفة، علاوة على سعيها للإجابة عن أسئلة تشكل جوهر العملية التواصلية نحو: من يتكلم ولمن؟، لأجل ماذا يتكلم؟، ماذا نقول بالضبط؟، ماذا نفعل حين نتكلم؟، وغيرها من الأسئلة التي ترد في استعمالنا اللغوية⁴.

1- أساس البلاغة، الزنجشري، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج1، مادة

دول، ص303.

2- لسان العرب، ابن منظور، ج16، باب الدال، مرجع سابق، ص1456

3- ينظر: مفهوم البراغماتية ونظرية المقام، منال النجار، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ إسماعيلي

علوي، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط2، 2014، ص65-66.

4- ينظر: ما التداوليات، عبد السلام إسماعيلي علوي، مقال ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، المرجع نفسه،

ص17-19.

والتداولية ترجمة عربية عن "Paragmatique" بالفرنسية، و"Paragmatics" بالإنجليزية، واشتقاقها يرجع للأصل اليوناني "Pragma"، الذي يعني فعل أو عمل أو نشاط، ويرجع استعمالها إلى الفلسفات اللسانية التي تعنى بدراسة اللغة في حال استعمالها، محللة العلاقة ما بين النشاط اللغوي ومستخدميه وفق سياق معين، فتحدد القصد اللغوي أو اللفظي الذي يتخطى الجمل والنص¹.

فالتداولية توجه لساني حديث ينظر «إلى الكلام أو الخطاب على أنه مجموعة من الملفوظات التي تحمل في طياتها أفعالا أو تنتج أفعالا»²، كأن يقول كبير المسؤولين الحاضرين لمراسيم افتتاح مؤتمر معين "والآن أعلن عن الافتتاح الرسمي لفعاليات المؤتمر"، فهو هنا وإن كان كلامه عبارة عن جملة يعلم بها أمرا، إلا أنه يريد منها إنجاز فعلا ما وهو الشروع مباشرة في أشغال المؤتمر، وبهذا نكون أمام «فعل كلامي براغماتي أي إن لكل قول فعله، ذلك أنه لا يوجد ملفوظ أو منطوق لساني قائم بذاته، وإنما يكتسب أهميته من خلال الفعل الذي ينتجه»³، كأن يكون أمرا أو نية، أو شكرا، أو عزاء، أو تنبيه، أو وعيد، ... الخ.

ونشير إلى أن التداولية يستعملها بعض الدارسين العرب بالبراغماتية في معناها اللغوي، وهو يختلف عن مصطلح براغماتية ذو المعنى الفلسفي الذي «عرفته العربية بلفظه الدخيل "البراغماتية أو البرغماتية أو البرغماتية" من خلال البحوث الفلسفية التي قام بها بعض الباحثين المبعوثين لدراسة الفلسفة الحديثة في الغرب، ومن خلال ترجمة بعض أعمال وليم جيمس وأشهرها كتابه "paragmatism" الذي ترجم في النصف الأول من القرن العشرين، وبعضهم استخدم مصطلحات "الذرائعية" و"النفعية" و"العملية" ترجمة له»⁴، الأمر الذي جعلها تتداخل مع البراغماتية المقابلة للتداولية كتوجه لغوي.

ولدفع اللبس نقف على ترجمة هذا «المصطلح في حقل علم اللسان، والراجع ... أن الترجمة الأولى علم الذرائعية ثم علم الفائداتية "الفوائدية" والترجمة الأولى من الناحية الدلالية غير دقيقة، لأن الذريعة تعني: الوسيلة المفضية إلى الشيء... وقد ظهرت الترجمة الأخيرة "الفائداتية" في صدر الستينيات، والصواب

1- ينظر: البراغماتية القول فعلية في تحليل أعال الخطاب السياسي خطاب ترامب والملك سلمان نموذجا، سامي كليب، دار

الفراي، بيروت، لبنان، ط1، 2017، ص117.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص118.

4- النظرية البراغماتية اللسانية "التداولية" دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، محمود عكاشة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر،

ط1، 2013، ص14.

لغويا "الفوائدية" ثم ظهرت "التداولية"، وصارت أشهر ترجماته، وقد ظهرت في صدر السبعينيات¹، وهو المصطلح السائد لدى كثير من الدارسين العرب.

إذن فالتداولية أو ما يعرف بعلم استعمال اللغة توحى بحركيتها وتداولها في إطار تواصل بين المرسل والمتلقي للربط بين القول والفعل أثناء الكلام، واستعمل مصطلح التداولية الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن المهتم بالمنطق وفلسفة اللغة حيث يقول: « وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التداوليات مقابلاً للمصطلح الغربي براغماتياً لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالاته على معنيي الاستعمال والتفاعل معا، كما أننا وضعنا مصطلح المجال التداولي الذي يتردد في النص. وقصدنا به كل المقتضيات العقدية والمعرفية واللغوية - القريب منها والبعيد - المشتركة بين المتكلم والمخاطب والمقومة لاستعمال المتكلم لقول من الأقوال بوجه من الوجوه»²، ومن ذلك الحين أخذ الدارسون يدرجونه في أبحاثهم.

وتتجاذب التداولية عدة علوم معرفية، خاصة اللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس «لأنها تشي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة، كالبنية اللغوية وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، والعمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج، والفهم اللغوي، وعلاقة البنية اللغوية بالاستعمال»³، ولعله هو ما صعب من تحديد مفهوم خالص لها، حيث نجد تعريفات متعددة وتختلف حسب رؤية كل باحث.

وانطلاقاً من «أنها جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»⁴ كما قال موريس "1938"، تكاد تسيّر أغلب التعريفات التي تؤصل لها، ومن ذلك تعريف ماري ديير وفرانسواز ريكاناتي الذي يرى أنها «دراسة استعمال اللغة في الخطاب»⁵، فدراسة العلاقة بين العلامات ومستعملها ما هي إلا بحث في اللغة في حال الاستعمال، أي اللغة كخطاب، وأوجز تعريف وأكثره تقبلاً للتداولية أنها «دراسة اللغة في الاستعمال، أو في النصوص، لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأصلاً في

1- النظرية البراجماتية اللسانية "التداولية" دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، محمود عكاشة، ص14-15.

2- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص28.

3- التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، مرجع

سابق، ص16.

4- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، تر: سعيد علوش، ص08.

5- المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، دط، ص166..

الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب في سياق محدد، مادي واجتماعي ولغوي وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام¹ معين. ووفق هذه المعطيات التي تعنى بحال اللغة واشتغالها الفعلي يمكن أن نعرف التداولية بأنها «مذهب لساني يدرس علاقة النشاط بمستعمليه، وطرق صياغة العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أساليب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية»²، وبهذا الطرح اتسع مجال البحث اللساني من دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها إلى دراسة ما وراء اللغة، أي دراسة الإنتاج اللغوي في سياقه العام وما يتبعه من آثار اجتماعية وأفعال إنجازية للغة، متجاوزاً في ذلك مكونات البنية من صوت وصرف ونحو ودلالة.

ثانياً: أركان التداولية

نقصد بأركان التداولية العناصر الأساسية التي تشكل العملية التواصلية ويفضلها يتشكل لنا الجانب الوظيفي في بعده التداولي، فالتواصل أساسه دخول طرفين في فعالية حوارية حول موضوع ما وفق ظروف سياقية تجمعها، وتجعل المقام يتماشى ومقتضيات القول، مما يضفي على الخطاب طابعاً حجاجياً غايته التأثير والإقناع.

ويمكن أن نجمل هذه الأركان في ثلاثة عناصر أساسية تشمل السياق وما يتبعه من ظروف وملابسات تحيط بالحدث الكلامي، ثم عناصر السياق ويدخل فيه طرفا التواصل والزمان والمكان، لما لهما من أهمية في تحديد مسار الخطاب، ثم المعرفة المشتركة ونقصد بها ما يجمع بين المتكلم والمخاطب من معارف تساعد في إنجاح التواصل وتفعيله، وتشمل الافتراض المسبق، أي أن يرد كلام المرسل بناء على ما يفترض أن يكون رداً من قبل السامع، وكذا الأقوال المضمرة، ونقصد به ما يتعدى حدود التركيب اللغوي أثناء الكلام ودلالاته يحدده السياق التداولي، وأخيراً الاستلزام الحوارية الخطابية الذي يعنى بما نفهمه من معنى نتوصل له مباشرة من التركيب والمرتبطة بدلالة سياقية خاصة بالمقام التخاطبي.

1- أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 14،

2- التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، مرجع

1 - السياق:

لا يتم معنى الكلمة إلا بتسويقها، هو المبدأ اللساني الذي انطلقت منه النظرية السياقية، وهو بعد اجتماعي يحيط بالبنية اللغوية ويجعل مفرداتها بلا قيمة إلا بدخولها في سياق يضبطها، فالتكلم وهو يتكلم يبنى لنفسه سياقاً محددًا يشارك فيه مخاطبه، فيختار الظروف الملائمة، نحو زمان التخاطب ومكانه، وطبيعة مخاطبه ومدى تقبله لمقاصده، وهذه المعطيات السياقية كانت محل اهتمام اللسانيات التداولية التي شخصت الجانب الوظيفي للغة، فدرست اللغة بالنظر لعلاقتها الاجتماعية وهي فعالية تواصلية بين المتكلم والسامع، وهي إن كانت تبحث في لغة الاستعمال اليومي وسياقه الاجتماعي، فإنها حاولت مطارحة جمالية اللغة في شقها الإبداعي، فعملت على ملائمة دلالة التركيب اللغوي مع مفاهيمها وأدواتها الإجرائية.

وتكمن أهمية السياق عند تحليلنا لأي نص للوقوف على معانيه، إضافة إلى بنيته اللغوية تحكمه ظروف البيئة التي ولد فيها وطبيعة كل من المنشئ والمتلقي، مما يجعلنا نقول أن السياق يحكمه بعدان: أحدها داخلي والآخر خارجي، فالبعد الداخلي يتعلق باللغة وتراكيبها من حيث موقع الكلمة مع مثيلاتها، فنحدد دورها في الجملة والهيئة التي انتقلت فيها الكلمات مع بعضها البعض، أما البعد الخارجي فيشمل الظروف والخلفيات المحيطة بالنص سواء ما تعلق بالمخاطب أو المخاطب، أو ما اتصل بالبيئة الزمنية والمكانية النابع منها النص، ويشمل كذلك الأسس الفكرية والحياتية القائمة وراءه، بمعنى أن السياق الخارجي يدرس ما عبر عنه البلاغيون بالقرينة الحالية أو المقام، إضافة إلى الجانب اللغوي فهو يشمل كل القرائن الخارجة عن التعبير الحرفي للغة من مرجعيات معرفية وخلفيات ثقافية وظروف اجتماعية وظروف الزمان والمكان وكل ما يدخل في خصوصيات المتخاطبين وتجاربهم الشخصية¹، وهذا الجانب من السياق هو ما أقصته اللسانيات البنيوية من اهتماماتها فوصفها منتقدوها بقصور دراستها، ولتدارك الخطأ جعلوا الملابس والظروف الخارجية المحيطة ببنية النص نقطة ارتكاز ومحور أساس بعد الانعطاف الذي شهده الدرس اللساني الحديث اشتغلت عليه التداولية.

وتزداد أهمية التداولية حين نعلم بأن «الرسالة الشعرية تفتقر إلى السياق، إذ تنتمي إلى تواصل تحليلي ومفترض بين الباحث والمتلقي. فالمدع يجرّد من ذاته ذاتا تخيلية تمكنه من اختلاق سياق معين يضمن له التواصل

1- ينظر: السياق وأثره في المعنى، المهدي إبراهيم الغويل، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، دط، 2011، ص 14-

والتفاعل وبث الرسالة ، كما أن المتلقي يقلب اللغة فيتخيل ذاتا تبث له الرسالة وتعتبره مقصودا بها ، فيتفاعل وينجز حدث القراءة ثم يتخيل سياقاً معيناً لهذا الحدث وذلك التفاعل»¹ الحوارية .

وترجع أهمية السياق في البحث التداولي إلى تشعبه وتداخله مع منطلقات الحقول المعرفية الأخرى ، فنظرية السياق هي بحث في المعنى ، وبالتالي فـ «إن الاهتمام بالسياق ... هو وليد علم الدلالة ... وعلم الدلالة ممارسة علمية تهتم بدراسة المعنى اللغوي ، وذلك لتميزه عن المعنى كما تهتم به مجالات أخرى بعيدة عن الدرس اللغوي كالإشهار والسياسة والأدب والفلسفة وعلم النفس»² ، وغيرها من الحقول المعرفية التي تعنى بالمعنى وتعتبر مرجعية أساسية للقضايا التداولية .

لقد أعادت التداولية الاعتراف بالسياق في دراستها للمقام الذي جعلته شرطاً أساسياً في كل فعالية تخاطبية ، ذلك «أن العناصر المكونة لهذا المقام تتمثل في المرسل ، والمستقبل ، والسياق ، والأهداف ، والمقاصد ، وقوة فعل الكلام ، والملفوظ ، و... من الممكن أن يضاف إليها عنصراً الزمان والمكان ، ثم أن التداولية تتميز عن الدلالة في كونها تهتم بالمعنى في علاقته بمقام الكلام»³ ، الأمر الذي جعلها تحظى بالريادة في الدرس اللساني الحديث .

والخطاب التعليمي الديني يعتمد على السياق في تحديد مساره ، وتحقيق مقاصده ، وهذا راجع إلى أن السياق من المكونات الأساسية للمقام التعليمي ، حيث يشكل مع عناصر المقام الأخرى نسق العملية التعليمية في تجسيد هدفها التربوي بكل نجاعة وفاعلية ، فيسهم في نشر القيم وتقويم السلوك بناء على تعاليم الدين وما تتطلبه الحياة الاجتماعية للأفراد ،

ولا تنأى شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص عن ما يقدمه السياق من دور في إنجاح هدفها التعليمي النبيل ، ولأنها عبارة عن إغاز وإتباع لما التوى من المعنى ، فإن الناظم تخير لفظه وأحسن صياغة تركيبه ، فجعل الواحد منه في سياق لغوي تضافت بنياته الصوتية والصرفية والنحوية مع ما يحيط بالنص من ظروف وملابسات تساعد المتعلم في فهم النص وتلقيه ، حيث راعى في هذا المقام التعليمي نفسية المتعلم ومستواه وقدرته العقلية ، ومدى تقبله لهذا النوع من الخطاب .

1 - السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ، علي آيت أو شن ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب ،

ط1 ، 2000 ، ص 09 .

2 - المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3 - النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص 11 - 12 .

فحتى نفهم المراد من أي عبارة وردت في شبكة القناص لابد من معرفة معناها المعجمي الذي تشير إليه مباشرة ، ثم الوقوف على معناها الوظيفي ، وذلك بتسويقها أي بتحديد موقعها في التركيب اللغوي الذي يضمها جنباً إلى جنب مع مفردات أخرى ، وحتى يكتمل معناها الحقيقي نتمم السياق اللغوي بسياق مقامي يعيدنا إلى ما تحيل به الكلمة من معنى اجتماعي ومن ذلك كلمة النقل في قوله¹:

إن قلت شخص بصلاة نسيا :::: سورتها ولا سجود روي

قلت فهذا في صلاة النقل :::: ولا سجود عند أهل النقل

فكلمة النقل محل الشاهد تعني أهل العلم وعلماء الدين الذين نقلوا نصوص الحديث النبوي الشريف حسب السياق الذي وردت فيه ، وهي بذلك تختلف في معناها عن كلمة النقل التي تعني مركبة السير من سيارة وحافلة وغيرها ، وهذا الفرق الجوهرى في المعنى ما كنا نصل إليه لولا رجوعنا إلى سياق الكلمة.

2 - عناصر السياق:

أ- المرسل - المخاطب - المعلم:

الطابع الاجتماعي للغة يجعلها تقوم على ثنائية الاستعمال حتى يتداول عليها طرفان أحدهما متكلم ومرسل والآخر سامع مستقبل ، فالوظيفة التواصلية للغة تجعلها وسيلة تعبيرية يستعملها الفرد لتحقيق مقاصده « ولا تظهر تلك اللغة إلى الوجود دون استعمال المرسل لها وتحريرها من الوجود المضمّر بالعقل إلى الوجود المعلن بالفعل ، لذلك يعد المرسل محور إنتاج الخطاب ، فهو الذي يختار العلامات المناسبة من أجل التعبير عن مقاصد ومعتقدات معينة ، ... يسعى إلى تحقيقها من خلال خطابه ، مراعيًا بذلك استخدام العلامات المناسبة في سياقها الملائم لها»² ، وكلما تمكن المتكلم من إحكام لغة التعبير كلما سهل عليه تحقيق أغراضه.

ولا تظهر الأهمية الاجتماعية للغة إلا من خلال استعمالها اليومية ، والحال نفسه بالنسبة للأعمال الفنية حيث يتفنن المبدع في توظيفها في نصه ، ذلك التوظيف الذي تتنوع فيه وجوه اللغة بتنوع دلالاتها المختلفة ، الناتجة عن عملية التلفظ ، كما لا يمكن أن يكون المرسل « ناطقاً حقيقياً إلا إذا تكلم لساناً طبيعياً معيناً وحصل تحصيلاً كافياً صيغته الصرفية وقواعده النحوية ، وأوجه دلالات ألفاظه وأساليبه في التعبير

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 84.

2- النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص 12.

والتبليغ»¹ ، فتصبح اللغة قوة فاعلة تحقق إضافة إلى قوتها الإخبارية والتبليغية إنجازاً لأفعال معينة يستدعيها السياق.

إذا عدنا للمثال السابق ووقفنا على قوله:

إن قلت شخص بصلاة نسيا :::: سورتها ولا سجود رويًا

تبين لنا أنه كلام صادر من متكلم في مقام مرسل للخطاب ، وهذا البيت يتكون من مجموعة من المفردات التي تحمل معانٍ معجمية محددة ولورودها في تركيب لغوي وترابطها مع بعضها البعض تمتد إلى معنى سياقي عام يجمعها ، تفرضه ضوابط البنية اللغوية التي تتفاعل مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية التي تجعل العبارة تتماشى والمعنى المطلوب ، والسياق على أهميته في تحديد المعنى - كما أشرنا فإنه لا يمكن أن ندرك المعنى التداولي للعبارة ، وما تحيل عليه القوة الإنجازية إلا بالمعطيات المعرفية التي يجب على المتحاورين امتلاكها.

وتتضح أهمية القالب المعرفي في أنه يساعدنا في معرفة ما تحيل عليه مفردات البيت محل الشاهد من قوة إنجازية القصد ، حيث نلاحظ أن كل من الناظم عبد الرحمن بن محمد صاحب شبكة القناص ومخاطبه المتعلم الذي يستفسر عن مسألة فقهية تتعلق بركن من أركان الدين يدرك أن الصلاة فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل ، وأن لها أحكام وفرائض إن تركت لم تجبر ، وأن من هذه الفرائض ما يدخل في باب السهو ويجب على المصلي إدراكها لتصح صلاته ، ويعلم أيضاً ما يترتب على المصلي إن سها زيادة أو نقصان ، ولكن ما غاب على المتلقي المتعلم هو التفريق بين السهو في الفرض والسهو في النفل لذا جاء البيت على هذه الصيغة:

إن قلت شخص بصلاة نسيا :::: سورتها ولا سجود رويًا

ليجيبه الناظم مستدلاً بأنه لم يرد نص يوجب السجود القبلي ولا حتى البعدي في صلاة النافلة قائلاً:

قلت فهذا في صلاة النفل :::: ولا سجود عند أهل النقل

وحتى تكتمل الصورة يلجأ للقالب المنطقي الذي يستعمل كأداة تدعم القالب المعرفي ، والذي يساعد المتعلم في تأويل الخطاب وإدراك القوة الإنجازية الكامنة وراء العبارات ، وهي " الطمأنينة والارتياح " على أساس أن صلاته صحيحة ما دامت نافلة . واستخلصنا مقامياً ، بالربط بين الدلالة اللغوية للعبارة مع المعنى السياقي الذي وردت فيه .

1- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 37.

ونشير إلى الجانب الاجتماعي الذي يربط المتخاطبين وهو الإطار التعليمي ، ومن البيت نفهم أن المرسل يريد طمأنة مخاطبه ، خاصة وأن عملية الإخبار في تلك العبارة صادرة من مخاطب أعلى مرتبة ومن أهل الحل والربط ، الأمر الذي جعل المتعلم يلجأ إليه ويسأله .

هذا ولا نغفل الكفاءة اللغوية للناظم التي أهلتها للتواصل بالألغاز مع مخاطبه ، وهذه الكفاءة ما هي إلا « قدرة المتكلم على معرفة كيف يستعمل اللغة ، ومعرفة ما يجب قوله في ظروف معينة ، ومتى يجب عليه السكوت ومتى يجب عليه الكلام ، إنها المعارف التي تزداد على الكفاية اللغوية الصرفة المتمثلة في ثراء الرصيد المعجمي عند مستعمل اللغة وتمكنه من قواعد لغته ، والسيطرة على المعاني ووضوح خطابه»¹ ، وهذا ما نلاحظه في شبكة القناص فإن لصاحبها قدرة على الكلام تتبدى في رصده الألفاظ في ذهنه مخوفة بمعانيها ، وهذا ما يشير له أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين قائلا: « إذا أردت أن تصنع كلاما فأحضر معانيه ببالك وتنوِّق له كرائم اللفظ واجعلها على ذكر منك ، ليقترب عليك تناولها ولا يتعبك تطلبها واعمله ما دمت في شباب نشاطك ، فإن غشيك الفتور وتخونك الملل فأمسك»² ، فإنتاج الكلام عمل شاق بالنسبة للمتكلم فهو إعمال للفكر وإجهاد للنفس لتحقيق غايته الإقناعية ، خاصة وأنه يتطلب نشاطا وتركيزا تاما للتأثير في مخاطبه حتى لا يصيبه الفتور والضجر .

وحصر المتكلم لمعانيه يعقبها تخيره الألفاظ المناسبة لمعانيه ، ومراعاته لمخاطبه ومقامه ، خاصة وأن موضوع الكلام يقوم على الإفهام فيأتي الخطاب - حسب قول الجاحظ - : « ... مقبولا قصدا وخفيضا على اللسان سهلا ، وكما خرج عن ينبوعه ونجم من معدنه ... وإياك والتوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ... ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار المستمعين على أقدار الحالات واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال»³ ، ولو رجعنا إلى شبكة القناص لوجدنا فيها تخيرا للألفاظ ومراعاة للمقامات ، حيث جاءت ألفاظه دقيقة في معانيها على أقدار متلقيها ، متجنبنا التعقيد والغريب نظرا لطبيعة الخطاب وخصوصيته التعليمية ،

1 - الكفايات التواصلية والاتصالية دراسة في اللغة والإعلام ، هادي نهر ، در الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ،

الأردن ، ط1 ، 2003 ، ص 89 .

2 - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، ط1 ، 1320 هـ ، مطبعة محمود بك الكائنة في جادة أبي السعود في

الاستانة العلية ، ص 100 .

3 - البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج1 ، مرجع سابق ، ص 136 .

وهو وإن كان في ما التوى من المعنى له فائدة على المتلقي ، خاصة وأنه يملك من الكفاءة والقدرة ما يؤهله لفهمه وفك إغازه .

وعلى أساس أن هذا الخطاب التعليمي الديني جاء شعرا منظوما ، فإن الناظم عبد الرحمن بن أحمد العالم الأنزجيري احتكم إلى آليات نظم الشعر وعمل على اتباعها تدعيا لقدرة التواصلية ، يقول صاحب الصناعتين: « وإذا أردت أن تعمل شعرا فاحضر المعاني التي تريد نظمها في فكرك وأخطرهما على قلبك واطلب لها وزنا يتأتى فيه إيرادها وقافية يحتملها ... فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن منه في أخرى ... أو تكون في هذه أقرب طريقا وأيسر كلفة منه في تلك¹ ، وهو ما تبين لنا بعد تحليلنا لشبكة القناص ، حيث جاءت على بحر الرجز ، وهو البحر الأنسب في أغلب المتون والخطابات التعليمية المنظومة ، لما يتميز به من بساطة وخفة تتماشى مع الحفظ والاستذكار ، وهو ما ساعد الناظم في احتواء معانيه وترتيبها في ذهنه ويتغنى بها في قافية نظمه .

وما يمكنه تفعيل الجانب التواصلية في هذه العملية التعليمية هو دراية المعلم التامة بموضوعه ، فالكفاءة العلمية تزيد من ثقة المتعلم بمعلمه ، فبالرغم من أن المعلم يكون في مركز قوة وسلطة بحكم مكانته العلمية إلا أن المعرفة بالموضوع والإلمام بحيثياته تعد شرطا أساسا للتأثير في المتعلم ، لأنها تجنبه الخلط والوقوع في الخطأ وتبعده عن التناقض في الأقوال .

والكفاءة العلمية للناظم عبد الرحمن بن أحمد العالم تبدو ظاهرة من خلال تتبع مضامين شبكة الفناص ، خاصة وأن محتواها التعليمي يمس علم الفقه فضم مسائل فقهية تعنى بأمور الدين والدنيا ، فهو علم ليس بالسهل طرقه ، ولا باليسر فهمه ، ولأهميته انتقى الناظم لخطابه متلقيا من خاصة الخاصة ، متلقيا متعلما لشحذ ذهنه واختباره بخفاء المعنى رغم جلاء المبنى ، خطاب تلغز فيه قصوده عليها تكون سبيلا لترسيخ ما اكتسبه مخاطبه من معارف دينية ، وفي هذا يقول²:

وأستعين الله في قصيدة ::::: ضمننتها مسائل مفيدة

من جملة الألغاز والمعيات ::::: لشحذ أذهان ذوي المصافات

1 - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، مرجع سابق ، ص 104 .

2 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن أحمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجلوي

الأنزجيري ، نرجع سابق ، ص 31 .

وقوله المصافات إيعاز منه للتأدب مع مخاطبه للرفع من قيمته ومن ثم التأثير فيه ، فهو يعمل على أدبيات العملية التعليمية التي تشجع المتعلم لإعمال فكره والمشاركة في إنتاج الخطاب ، هذا علاوة على تواضع الناظم مع مخاطبه " المتعلم " وقد أشار إلى ذلك في بداية المتن ، فبعدهما أعلى من شأن المتعلم نراه يستصغر نفسه ويقلل من شأنه مدعياً أنه أسير ذنوب ارتكبتها قائلًا¹:

يقول راجي رحمة وغفران :::: أسير ذنبه عبيد الرحمن

فعبيد الرحمن تصغير لعبد الرحمن تواضعا منه وتوسلا للمولى عز وجل ليوفقه في مراده .

ب - المرسل إليه - المخاطب - المتعلم :

يشكل المخاطب الطرف الآخر في الفعالية التواصلية ، فهو عنصر أساس في بناء الخطاب وتكوينه ، فهو المستهدف بالخطاب ، وعليه تحدد مضامينه ، حيث يقوم بدور غير مباشر في توجيه المرسل عند اختيار ألفاظه وأدواته وصياغة خطابه ، مراعيًا الموقع الاجتماعي وما يتبعه من معطيات سياقية تحيط بمخاطبه ، على هذا الأساس يعد « المتلقي عنصرًا مهمًا في تشكيل بنية النص ، واختيار علاماته اللغوية المناسبة ، التي يوحى بها المرسل لحظة إنتاجه للنص ، من خلال قناة تواصلية تربط طرفي الخطاب بعلاقة اجتماعية رسمية أو غير رسمية تفرض على النص نوعًا من القيود »² ، نحو ما نجده في العملية التخاطبية التعليمية التي تجمع بين المعلم والمتعلم .

ونظرا للدور الذي يؤديه المخاطب في عملية التخاطب فقد أولى أهمية بالغة عند علماء العربية القدامى حيث « أشار اللغويون والبلاغيون ... إلى تأثير المتلقي على المرسل عند إنتاج خطابه ، وأبرزوا دوره في مستوى تشكيل الخطاب اللغوي وتحليله ، مثل تقسيمهم أحوال المخاطب على ثلاثة أصناف ، فهو: خالي الذهن ، أو شاك متردد ، أو جاحد »³ ، ويتبدى ذلك في سؤال المبرد للكندي في ما روي عن ابن الأنباري لما وجد في كلام العرب حشوا في قولهم: " عبد الله قائم " ، ثم " إن عبد الله قائم " ، ثم " إن عبد الله لقائم " فرأى أنها على اختلافها تؤدي معنى واحد ، ليجيبه المبرد قائلًا: « بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد

1 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، نرجع سابق ، ص 30 .

2 - النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص 16 .

3 - المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم: إن عبد الله قائم جواب عند سؤال سائل ، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عند إنكار منكر لقيامه¹ ، وعلى هذا الحال بنوا تقسيمهم لأصناف المخاطب الثلاث التي أشرنا لها سابقا .
والحال نفسه في العملية التعليمية حيث يكون التركيز على المتعلم باعتباره محور الفعل التعليمي ،
وجب على المعلم مراعاته وتحفيزه على التعلم ، باحترامه والأخذ بآرائه ومنحه الاستقلالية الذاتية للتعبير عن أفكاره بكل حرية ليتعوذ على النقد ، ومن ثم تشجيعه على المبادرة والإبداع ، وبهذا التصور يصبح للمتعلم حضور فعلي في العملية التعليمية التي لم تعد « مجرد عملية تلقين أحادية القطب تقوم على براعة المعلم وحده الذي يقوم في أغلب الأحيان بالدور الرئيسي في صنع المعارف بطرائق تسعى لحشو الأدمغة بمصنفات من المعارف النظرية ليس إلا »² ، فالمتعلم في الغالب صاحب قابلية مسبقة وله قدرات عقلية « واستعدادات أولية ومواقف تسمح له بفهم العالم الذي يحيط به ويتفاعل معه بطريقة الخاصة ، والحكمة تكمن في استغلال تصورات ومكتسباته القبلية في التعلم أي بمساعدته على كيفية التصرف لاكتشافها وبناء مفاهيمه وتوظيفها في وضعيات معينة قصد امتلاكها بصورة أفضل »³ ، ومن ثم تسهل عليه عملية التعلم .

إن هذا الطرح يتماشى مع مبدأ التدريس وفق المقاربة بالكفاءات الذي تدعو له نظريات التحدي الحديثة ، وهي طريقة أعطت للمتعلم مكانته المحورية لإنجاح العملية التعليمية وتفعيلها انطلاقا من ما يحمله من مكتسبات ومعارف يعمل المعلم على استثمارها ومشاركتها في بناء خطابه ، فيضمن محتواه قضايا ومشكلات يعيشها المتعلم فيعمل على إثارتها ليجعله - المتعلم - يعمل فكره جاهدا لحلها مهما واجهته من صعوبة أو مشقة .

وإذا رجعنا إلى مدونة الدراسة فإننا نلقي صاحب الشبكة يعمل على إشراك المتعلم في إنتاج خطابه وبناء محتواه ، حيث اختار متلقيا خاصا يمتاز بالنباهة والذكاء وله زاد معرفي يؤهله لإعمال فكره وحل ما يثار له من مسائل فقهية تعنى بأمور الدين والدنيا ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على انتباهه إلى أهمية هذا النوع

1 - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، عارضة بأصوله وحققه بالمقارنة مع أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني وبمصادره الأخرى علق عليه: نصر الله حاجي مفتي أوغلي ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004 ، ص 222. نقلا عن في اللسانيات التداولية ، خليفة بوجادي ، مرجع سابق ، ص 177.

2 - المعلم والمتعلم بين متطلبات المقاربة بالكفاءات وتحديات الراهن ، كمال بن جعفر ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر ، كلية الآداب واللغات ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، 2011 ، ص 410.

3 المرجع نفسه ، - صفحة نفسها .

من طرق التعليم قبل اكتشافها حديثاً ، فعمل على تقريب المعارف وإكسابها للمتعلم تدريجياً وتوجيهها وتنشيطها جاعلاً المعرفة تأخذ منحى آخر توظف من خلاله استعدادات المتعلم وتبعث قدراته المعرفية .

فحاول تيسير تعاليم الدين التي اختارها كمادة بيني عليها خطابه وتكون « موضوع التعلم ، إذ لا تصبح غاية يتم اختيارها وفق أسس معينة وأهداف مضبوطة ، وإنما ينتقل الاهتمام والتركيز إلى الكفاءة التي تفرض ما يمكن اختياره من المضامين والمحتويات التعليمية ، أي تختار المضامين وفق الكفاءات المراد تحقيقها وتنصيها وتثمينها لدى المتعلم»¹ ، ولكون مخاطبه كفوٌ ويمتاز بخصوصية معرفية فذة عمل على إثارة المسائل الفقهية بالإلغاز وتعمية المعنى ، ليجعله متعلماً يتقن البحث والتحري المعرفي في مختلف المواقف الاجتماعية .

إن الناظم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد العالم الأنزجيري يريد أن يدخل مع مخاطبه في محاجة معرفية غايتها التعلم ، لتغيير معتقد أو تعديل سلوك ، أو الدفع للقيام بفعل ما أو تركه ، معتمداً على « التفاعل بين الذات والمحيط من خلال العلاقة التبادلية بين الذات العارفة وموضوع المعرفة ، ... بالإضافة إلى انطلاقها من مبدأ أن المعلم لا يقدم معارف جاهزة للمتعلم وإنما يثير فيه مجموعة من التساؤلات ويقدم له التوجيهات التي تدفعه إلى استثمار موارده لاكتساب المعارف بعد اكتشافها وتنظيمها وبنائها بصورة تسمح بتوظيفها واستغلالها»² عند الحاجة إليها في مختلف الحياة اليومية .

ج - الزمان والمكان :

بعد أن أغفل البحث اللساني الحديث قضيتي الزمان والمكان من اهتماماته ، كونها يتصلان بالمقام ويسهمان في تشكيله ، ركزت التداولية في أبحاثها على الإشارات المقامية أساساً ، لما لها من دور في توجيه المعنى وتحديدته ، نحو ما نجده في الزمان والمكان كآليتين مقاميتين تتصلان بالسياق العام للنص ، تعينان في تحليله وتفكيك شفرائه ، فاستعمال المتكلم لليل كإشارة زمنية ، تختلف عن إشارته إلى النهار ، فلكل منهما دلالة خاصة تحددتها وظيفتها في تشكيل المعنى العام للنص ، والحال نفسه بالنسبة للمكان ، فما يصلح لمكان ما لا يصلح لمكان آخر ، فالمسجد للعبادة والملعب للرياضة ، ولا يمكن لأحدهما أن يقوم مقام الآخر ، وهذا ما يبين أن الزمان والمكان عنصران مهمان في توجيه الخطاب وتقريب المعنى للمخاطب .

وللزم أهمية بالغة في تكوين السياق اللغوي للنص حيث يساعد بتفاعله مع المصاحبات اللغوية في استمرارية التركيب وقصر دلالاته في الزمن الواحد ، هذا ناهيك عن جعله - التركيب - يدل على زمن معين

1- المعلم والمتعلم بين متطلبات المقاربة بالكفاءات وتحديات الراهن ، كمال بن جعفر ، مرجع سابق ، ص 408 .

2- المرجع نفسه ، ص 408 .

بزمن آخر ، نحو ما ورد في السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿ آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾¹ ، وأيضا قوله: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾² ، فكلا الآيتين تشيران إلى أن الأمر سيقع سواء تعلق بأمر الله أو انشقاق القمر على أساس أن حدوثهما محتم وسيقع بالفعل ، ومن ذلك في شبكة القناص يقول الناظم³:

إن قلت هل تعرف نَقْشَ خَتَمِ :::: الإمام مالك أقول نَعَم

هو حسبنا الله إلى الوكيل :::: فقيل في ذاك له مَقول

فقال قد رأيت قوما قالوا :::: فانقلبوا بما به قد نالوا

من نعمة من ربهم وفضل :::: ولم يَمَسُّهُمْ سُوءٌ يَسِلي

وأتبعوا رضوانه فنالوا :::: ما لم يكن غيرهم ينال

فالناظم عبد الرحمن بن محمد العالم في حوار مع مخاطبه يسأله عن أسرار الإمام مالك وأهم المبادئ التي ينبنى عليها مذهبه ، وهو التوكل على الله لا غيره وإخلاص النية له خدمة للدين حتى ننال رضوانه ونسعد بأنعمه وفضائله ، ومن بين النعم التي طلبها الناظم ، أن يعينه المولى عز وجل في نظم هذه القصيدة تيسيرا لفهم تعاليم الدين وتعليم مبادئه ، مستهلا بطلب الرحمة والمغفرة حيث يقول في ذلك⁴:

يقول راج رحمة وغفران :::: أسير ذنبه عبيد الرحمن

وعن تحليل الزمن في هذه الأبيات يتبدى لنا أن الأبيات الأولى تشير إلى أن أنعم الله وعطائه ينالها عباده المخلصون في الدنيا قبل الآخرة ، في حين أن البيت الذي استهل به قصيدته عبارة عن دعاء وطلب للمولى عز وجل لنيل المغفرة والثواب ولا يكون ذلك إلا في المستقبل أي في الآخرة ، خاصة وأنه يسعى جاهدا لينعم بجنة الخلد فنظم هذه القصيدة لأجل ذلك داعيا الله أن يعينه في تأليفها يقول⁵:

وأستعين الله في قصيدة :::: ضمنتها مسائل مفيدة

هذا ويجعل التركيب ينتقل من زمن إلى آخر نحو ما نجده بظاهرة الالتفات البلاغية ، كأن ينتقل من الماضي أو المضارع ، أو الأمر إلى زمن آخر ، مثل الانتقال من الماضي إلى المضارع في قوله تعالى ﴿ أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ

1- سورة النحل ، الآية 01 .

2- سورة القمر ، الآية 01 .

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 224 .

4- المرجع نفسه ، ص 30 .

5- المرجع نفسه ، ص 31 .

فَثِيرٌ¹، أو من المضارع إلى الماضي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ²، أو من الأمر إلى الماضي نحو قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًى وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ³، وغيرها من أوجه انتقال الزمن الأخرى. وعن ظاهرة الالتفات في مدونة الدراسة نشير تمثيلا لا حصرا إلى انتقال الزمن من المضارع إلى الأمر وذلك في قوله⁴:

إن قلت ماء يمنع التطهير به ::: وأكل معجون به فلنتنبه

حيث ورد الفعل يمنع في الشطر الأول مضارعا لينتقل الزمن إلى الأمر في الشطر الثاني في الفعل "فلنتنبه".

ومن صورته كذلك انتقاله - الزمن - من المضارع إلى الماضي في البيت الذي يليه مباشرة في قوله⁵:

وليست الصلاة تمنع بما ::: من الثياب قد أصاب فاعلما

والحديث عن الزمان هو حديث عن مناسبة الخطاب وتاريخ إلقاءه، باعتباره امتدادا إلى السياق الخارجي للنص، وبالتالي يعد عنصرا من عناصر المكونة للخطاب، كونه يعيننا في التعرف على أحوال المشاركين في الخطاب وتحديد طبقاتهم، ولنا في أسباب النزول بيانا وتوضيحا لورود الزمن في السياق القرآني وما يقوم به من إجلاء توضيح في تفسير آبي الذكر الحكيم.

وعن علاقة الزمن بتاريخ نظم القصيدة فقد أشار له الناظم عبد الرحمن بن محمد في نهاية نظمه سعيا منه لتأريخها وتقييدها بزمن تاريخي حتى يوضح لنا العصر الذي عاشه، ومن ثم يمكن تشخيص أحداثه ورصد حيثياته، حتى لا تقع في خلط أو شك في زمن تأليفها، يقول موضحا ذلك⁶:

وها هنا قد انتهى نظام ::: لدرة الغواص بالتمام

في رجب الفرد بعام مائتين ::: والألف كاشفا لكل غبن

1- سورة فاطر، الآية 09.

2- سورة النمل، الآية 87.

3- سورة البقرة، الآية 125.

4- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الغواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص35

5- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

6- المرجع نفسه، ص224.

ويأتي المكان قرين للزمان في إنتاج النص وبداية تشكيله ، كونه يرتبط مباشرة ببيئة المتكلم وحياته الاجتماعية ، « فالنص يرتبط بواقعه الثقافي ، اللغوي ، وبخلق رموزه الخاصة التي يشكل منها الواقع واللغة »¹ ، فمكان التخاطب يساعد في تحديد دلالة الملفوظات وبالتالي الوصول إلى المعنى الحقيقي للنص ، فالعربية هي لغة تواصل غالبية الأقطار العربية إلا أن فصاحتها تتفاوت من دولة لأخرى ، بل نجدتها في الوطن الواحد تتفاوت مستويات أدائها من إقليم لآخر ، ولنا في بلدنا الجزائر مثالا لذلك ، حيث لا يكاد اللسان العربي الجزائري يقف على حرف واحد رغم تماسكه ووحدته الوطنية .

وتستند شبكة القناص إلى دلالة المكان في تشخيص أحداثها ، فهي فعالية اجتماعية بين طرفين يتحاوران في سياق تعليمي يفرض خصوصية معتبرة للمكان الذي تجرى فيه ، فعلاوة على أهميته كونه مخصص لغاية نبيلة هي التعلم فإنه محفوف بالقداسة والرفعة والتعظيم كونه يعنى بتدارس القرآن وتعليم علومه وتيسيرها للناشئة تدبرا لآياته وفهما لأحكامه وعملا بتعاليمه ، وإذ لا يكون مكان قول هذا الخطاب التعليمي الديني إلا في الكتابات والمدارس القرآنية والزوايا في الغالب .

ورغم هذا فإن دلالاته - المكانية - تمتد إلى سياق المسألة الفقهية التي يريد الناظم طرقها في خطابه التعليمي ، نحو ما نجده في باب المياه متحدثا عن حكم الطهارة بآء وجد بدلو أو كوب أو سوان قائلا²:

إن قلت ماء قد تغير بما :::: ينفك والوضو به لم يَحْتَمَا

قلت التغير الذي قد ذكرا :::: بكوب أو دلو جديدين جرا

إلا لطول مكثه بالدلو :::: أو بحبال جددت بالمترو

أو لسوان أو نواضح تفي :::: إن التغير بهذه خفي

فالدلو والكوب والسوان رغم أنها وسائل لحفظ الماء ويستعملها الإنسان للطاهرة ، إلا أنها تحمل دلالة إضافية تتمثل في دلالة المكان ، باعتبارها موضع وجود الشيء الذي هو الماء ، والناظم هنا استعملها على وجه التخصيص للدلالة على معنى محدد وهو أن الماء المتحدث عنه هو ماء أخذ من منبعه سواء بئر أو نهر أو بحر أو

1 - القارئ الحضور النابه والتوق إلى نص جديد ، لحسن هزوز ، مقال ضمن كتاب: سؤال المنهج في الخطاب النقدي المعاصر ،

تنسيق محمد القاسمي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 2014 ، ص118 .

2 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأندلسي ، مرجع سابق ، ص33-34 .

كان نتيجة لتساقط المطر ، وحفظ به في هذه الأواني ، فجعله محل شك لمخاطبه السائل ، ليرد عليه بجملة منالْحججيدعم بها احتمالات استعماله .

وفي موضع آخر نجده يستحضر المكان بدلالته الخاصة المتمثلة في الموضع الأصل أي منبع الماء ، والمتمثل في البئر أو النهر أو البحر ، نحو استعماله البئر وحكم الطهارة بمائه على اختلاف حالاته كأن يسقط في البئر عارض يستدعي الشك ، نحو قوله¹:

إن قلت بئر ماؤها تغيراً :::: بُخُشِبِ أو بِحشيش قد طرا
وجوزوا الطَّهْرَ بها قلت فهي :::: بئر الصحاري طويت بالعضه
أو عُشِبِ أو بُخُشِبِ فغيراً :::: طهورها فلا يضر ما عرا
إذ اضطرارنا دعا إليه :::: فاعتمدن في نحو ذا عليه

فالناظم هنا استعمل المكان بدلالة خاصة ، فالمكان في هذه الأبيات هو البئر ، لكن أي بئر؟ ، هل هو بئر في البيت؟ ، أم في الحديقة؟ ، أم في بستان؟ ، فكل هذه الأماكن لو وجد فيها البئر تكون مغطاة على أساس أنها قريبة من السكان ، ولا يعقل أن نستعمل ماء بئر غير مغطى ونحن في بلد مأهول بالسكان كل من قصدناه يزودنا بالماء ، ولكن المكان الذي يعنيه صاحب شبكة القناص هو البئر الموجود بالصحاري القاحلة البعيدة عن السكان ، واضطر أحد المارين به على الوضوء من مائه فوجد به عارض ما كالعشب أو الحشيش ، ... الخ ، كونه غير مغطى فانتابه شك في ذلك .

وهناك استحضار آخر لصور المكان في شبكة القناص وهي دلالة البحيرة وما تحويه من معاني ، بعد أن استجمع بها الماء نتيجة سيلان الأودية أو تساقط المطر حيث استشهد به الناظم للتعبير عن حالات استعمال مائها ومدى صحته للتطهر ، ومن أوجهها سقوط حيوان ضخم في ماء راكد كماء البحيرة مثلا فيقول²:

وإن تقل في راكد من ماء :::: ما حكمه عند ذوي الآراء
إن مات فيه حيوان ضخم :::: والنزح للرفع خلا فالحكم
جوازه إن من تغير سلم :::: والحيوان ذاك بحري قد علم

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 34.

2- المرجع نفسه ، ص 36.

فراكد هنا إشارة منه على ماء استجمع في مكان ما فشكل بحيرة ، والحيوان الضخم الذي سقط فيها هو حيوان بحري ، وحيوان البحر لا يلحق بهاء البحر أي تغير إذا مات فيه ، ولذلك جوز العلماء استعماله ، على عكس الحيوان البري الذي قد يغير لونه أو طعمه .

ونشير أخيراً أنها تعددت صور استعمال المكان في شبكة القناص فإضافة إلى المكان موضع تواجد الماء من دلو وكوب وسوان إلى منبعه الأصلي من بئر ونهر وواد ، نجد دلالات أخرى للمكان تتصل بجسد الإنسان وثوبه ، استدل به الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم الأَنْزَجِيرِي لبيان أحكامها من جهة ، وتبسيطها للمتعلمين على اختلافها وتنوع حالاتها .

3- المعرفة المشتركة:

نقصد بالمعرفة المشتركة ما ينبغي أن يتقاسمه كل من المتكلم والسامع من معطيات وخلفيات تعنى بموضوع لتخاطب ، فهي إضافة إلى عناصر السياق التي أشرنا لها آنفاً تعتبر أساساً يعتمد عليه كل من المخاطب والمتلقي في إنجاح العملية التواصلية ، حيث من خلال ما يشترك فيه مع مخاطبه من معارف ينطلق في إنتاج خطابه ، والحال كذلك بالنسبة للمتلقي فيما يجمعه بالمتكلم من معطيات معرفية يتمكن من تفكيك الخطاب وفهم مضمونه ، والوصول إلى ما تحمله التراكيب من أقوال مضمرة تقترن بسياق الخطاب ، ومن ثم يمكن اعتبار المعرفة المشتركة مكمناً للمحاجة بين المتخاطبين كونها تقوم على الفهم والإفهام الذي يجسده الإقناع لفعل شيء والاقتناع بتركه أو تعديل سلوكه أو تغييره .

وتتأسس المعرفة المشتركة على عدة ضوابط نحصرها إجمالاً في:

- المعرفة التامة بالبيئة أو المحيط الذي يتم فيه التواصل ، فنقف على الحياة العامة لطرفي التواصل "فكرياً ، ثقافياً ، اجتماعياً ، ... الخ" ، ومعرفة طريقة تفكيرهم وقابليتهم للتواصل والتفاعل فيهم بينهم ، ومدى استطاعتهم ترجمة أقوالهم إلى أفعال وسلوكيات داخل المجتمع¹ ، وتشخيصاً لهذا الجانب في شبكة القناص على درة الغواص نجد أن المعرفة المشتركة أساس نجاحها ، ذلك أن المتخاطبين تجمعها مجموعة من المعطيات المشتركة التي تفعل تواصلها ، ولأدل على ذلك طبيعة الخطاب الذي جاء في مقام تعليمي مما يجعله في سياق خاص يتطلب الأخذ بعين الاعتبار المعرفة بموضوع التعلم ، ومستوى المتعلم وطريقة تفكيره ، مع مراعاة مستوى ثقافته ومستوى تفكيره خاصة وأن عبد الرحمن بن محمد بنى خطابه على نمط إيجائي بالغاز المعنى وإخفاءه .

1- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 49.

- التمكن من اللغة المستعملة ومعرفة نظامها أداؤها في مختلف مستوياتها إضافة إلى القدرة على التواصل بها¹، فلا يعقل أن نكون في مقام تعليمي معرفي ويخاطب المعلم مخاطبيه المتعلمين بلغة لا يتقنونها ولا يعرفون حتى أبجدياتها، وفي شبكة القناص نجد أن اللغة المستعملة يشترك في استعمالها كل من الناظم ومخاطبيه، الأمر الذي سهل تواصلها ويسر غايتها التعليمية، وعن أهمية المعرفة التامة باللغة نشير هنا إلى أن الناظم بالرغم من اختياره لشبكة القناص متلقي خاص ذو روية وذكاء خفيف الفهم، وعميق الدراية بموضوع الخطاب، إلا أنه لن يستطيع أداء رسالته التعليمية ولا تحقيق غايته التواصلية لو لم يستعمل العربية في تواصله مع مخاطبيه، لأنه في طبيعة الحال سيخفق في قناة الاتصال التي تجمعهم بهم.

فالمعرفة باللغة والقدرة على أداءها أساس أي تواصل، فبها يتم الإفهام تعبيراً وعليها يقوم الفهم تأويلاً، ولأهميتها نجد الغزالي يشدد عليها جاعلاً منها مقدمة من المقدمات الواجب توفرها فيقول: «أما المقدمة الثانية: أعني القدر الذي يفهم به خطاب العرب، وعادتهم في الاستعمال إلى حد يميز بين صريح الكلام، وظاهره، ومجمله، وحقيقته ومجازه، وعامه وخاصه، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه ومقيده، ونصه وفحواه، ولحنه ومفهومه»²، فهو تأكيد منه على أهمية المقدرة اللغوية لإنجاح أي فعالية تواصلية، فما بالك عن التواصل التعليمي خاصة إن كانت معارفه معماة وملغزة.

وتشير الأبحاث التداولية التي تعنى بدراسة أسس التخاطب أن المعرفة المشتركة تبنى وفق ثلاثة أسس رئيسية أهمها: الافتراض المسبق، الأقوال المضمرة، والاستلزام الحواري، وليبيانها أكثر نحاول إسقاطها على شبكة القناص موضوع دراستنا.

أ- الافتراض المسبق:

ويقصد به ما يتوقع ويفترض أن ينطق به المتكلم في بناء خطابه، باعتبار أن كل تواصل لساني ينطلق طرفاه من معطيات وافتراضات تجمعهم، مما يجعلها تشكل خلفية وأرضية لتواصلها، وعادة ما تتشكل بتفاعل البنى التركيبية العامة للخطاب مع السياقات المختلفة، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الافتراض

1- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص 49.

2- المستصفي من علم الأصول: أبي حامد الغزالي، تح: محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، ط1، ج2، ص386.

المسبق مفهوم تداولي تتضمنه العبارة في المقام الذي ترد فيه ، وتبرزها العلامات المشتركة والمعروفة مسبقا بين المتخاطبين¹.

وكمثال عن الافتراض المسبق قولنا مثلا:

هذا الماء صالح للوضوء .

وقولنا أيضا:

هذا الماء غير صالح للوضوء

ففي كلا العبارتين المتلفظ بهما خلفية متفق عليها وليس بها مجال للشك مضمونها أنه " يوجد ماء "

ويمكن أن نورد مثلا آخر نحو قولنا:

- أعد الصلاة .

وقولنا:

- لا تعد الصلاة .

ففي العبارتين اللتين تلفظنا بهما خلفية "افتراض مسبق" مضمونه أن المخاطب " قد قام بالصلاة " ، " ووقع خطأ أو سهوا فيها " ويستوجب إعادتها ، ولتتصور لو لم تكن خلفية مشتركة بين المتخاطبين في هذا المقام كيف تكون ردة فعل المصلي ، فقد لا يبالي ، أو يتجاهل .

وللافتراض المسبق دور كبير في نجاح العملية التواصلية ، فمثلا « لا يمكن تعليم الطفل معلومة جديدة إلا بافتراض وجود أساس سابق يتم الانطلاق منه والبناء عليه ، أما مظاهر " سوء التفاهم " المنضوية تحت اسم "التواصل السيء" ، فلها سبب أصلي مشترك هو ضعف أساس " الافتراضات المسبقة " الضروري² ، والذي يعيق بغيابه نجاح أي تواصل كلامي .

وكمثال عن الافتراض المسبق في شبكة القناص نورد قول عبد الرحمن بن محمد العالم³:

إن قلت ماء قد تغير بما :::: حل به من نجس ولا احتما

1- ينظر: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ،

مرجع سابق ، ص 30-31 ..

2- المرجع نفسه ، ص 32.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 35.

بل جوزوا صلاتنا به ولو :::: كان كثيرا ظاهرا في ما رأوا

قلت فهذا هو ماء المطر :::: قد شمل الطرُق عند المعبر

فخفف الشرع لرفع النكد :::: وإن بدا نجسه في الجسد

يعالج الناظم في هذه الأبيات مسألة فقهية يطرحها عليه مخاطبه - المتعلم - ويفترض أن يقع فيها أي مصلي يريد أن يتوضأ ولم يجد ماء ظاهرا يتوضأ به ، وتصادف بوجود بركة مائية تشكلت من مياه المطر ، وشك أن بها نجاسة ، ليرد عليه بجواز استعماله والوضوء به حتى ولو كان هذا النجس كثيرا ، وأثره ظاهرا بشكل جلي في الجسد.

فمن خلال هذا الحوار يتبدى لنا ظاهرا ملمح "الافتراض المسبق" كونه خلفية يشترك معطياتها كل من الناظم لشبكة القناص ومخاطبه المتلقي لها ، ومن بينها خلفية هذه الأبيات ، والتي تأتي على النحو التالي:

- علمهما بغياب ماء طاهر صالح للوضوء في تلك اللحظة.

- علمهما بوجود تراخيص شرعية يمكن استعمالها في حالة غياب ماء طاهر للعبادة.

- علمهما بوجود بركة مائية تشكلت نتيجة تساقط الأمطار.

- علمهما بوجود نجس في تلك البركة.

- علمهما بترك أثر على الجسد في حال استعمال ماء هذه البركة.

- علمها بأن الدين الإسلامي دين يسر ويقوم على التخفيف ورفع الحرج في العبادة.

فعموما هذه المعطيات وغيرها تعتبر أرضية تواصلية ينطلق منها كل من عبد الرحمن بن محمد ومخاطبيه ، فيتشكل من خلالها افتراضا مسبقا يفعل من درجة تفاعلها ونجاح هذه الفعالية التواصلية خاصة وأنها جاءت في مقام تعليمي يقتضي التركيز والتخطيط واستعمال كل ما من شأنه تحقيق غاية الفهم تأثيرا وإقناعا.

ب- الأقوال المضمرة:

يمتد التركيب اللغوي في دلالاته إلى دلالات تداولية تشكل معاني سياقية تحيط بالخطاب ، وهذه المعاني السياقية قد تكون معانيها مغايرة تماما لما تحمله الافتراضات المسبقة والمشاركة بين طرفي الخطاب ، فالشيء المضمّر هو ما خفي أو ابتعد عن الظهور ، وإذاك « فالأقوال المضمرة هي كتلة المعلومات التي يمكن

للخطاب أن يحتويها ، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث¹ ، ولجلالها واتساحها لا بد من قرائن مقامية تحيلنا إلى المعنى الحقيقي الذي تشير إليه .

ويمكن أن نستدل للأقوال المضمرة من شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص بقول

الناظم²:

إن قلت شخص للصلاة أدى :: تارك لمعة بعضو عمدا

وهو صحيح جسد ولم تجب :: إعادة عليه في الذي انتخب

قلت فتلك لمعة قد غسل :: محلها من قبل قشر حصلا

فلم تجب إعادة المحل :: على الذي شهره في الأصل

إن المتأمل للبيتين الأولين وهما يشكلان خطاب المتلقي الافتراضي في عرضه مسألته الفقهية التي انتابه

شك فيها قصد التعلم ، يعتقد أن مخاطبه - أي ناظم شبكة القناص - سيرد عليه بالآتي:

- صلاته صحيحة .

يعيد الصلاة .

- غسل اللمعة ويعيد الصلاة .

إعادة الوضوء ويعيد الصلاة من جديد .

وغيرها من التأويلات التي قد تتبادر إلينا من السياق الذي ورد فيه الخطاب .

ج- الاستلزام الحوارية:

يتأسس مصطلح الاستلزام الحوارية من منطلق أن أي تواصل لغوي قد يجعل طرفه في حوارهما

يعبران عن مرادهما بظاهر القول ، كما قد يعبران عنه بما خفي من القول ، أي أننا في حواراتنا قد نقول ، وقد

نقصد عكس ما نقول ، وهذه النقطة التي ينطلق منها جرایس في تحديده لمصطلح الاستلزام الحوارية ،

مركزا اهتمامه على إيضاح الاختلاف الذي يطرأ بين ما يظهر في القول جليا وبين ما يقصد وما يشار له خفيا .

1 - التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، مرجع

سابق ، ص 32 .

2 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 43 .

بمعنى أن « ما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية ، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر معتمدا على أن السامع قادر أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال ، فأراد أن يرسم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح وما يحمله من معنى متضمن فنشأت فكرة الاستلزام»¹ الحوارية في التخاطب اللساني .

ويختلف الاستلزام الحوارية عن الأقوال المضمرة كونه يرتكز على المعنى المقدم المشار إليه بدلالة سياقية يفرضها مقام التخاطب ، فإذا كان المعنى المقصود واضحا نستنتج من صريح العبارة ومعلوما لدى كل من المتكلم والمخاطب ، فإنه استنتاج يدخل في إطار الافتراض المسبق ، أما إذا كان المعنى المتوصل إليه غير معروف للمخاطب مسبقا ، ولا يستطيع استنتاجه إلا بدلالة السياق كونه ورد تضمينا أثناء المحادثة فيكون هنا استلزاما حواريا² .

وكمثال عن الاستلزام الحوارية في منظوم الدرّة نورد قول الناظم في باب التيمم³:

إن قلت شخص قد تيمم ولم :::: يستوعب العضوين خُلُوا من ألم

فلم يؤثر ذلك في صلاته :::: على الذي نُقل عن وَعَاتِهِ

قلت فذا قَدْ رُبِطَتْ يداه :::: ولم يجد مُيمًا عداه

فمرَّغ الوجه مع اليدين :::: من غير أن يستوعب العضوين

فتجزئ الصلاة بالتيمم :::: ذلك بلا خُلْفٍ إليهم نُم

هذه المقطوعة أتى بها الناظم ليعالج مسألة فقهية تدخل في باب التيمم ، وهو رخصة وضعها المشرع للمصلين في حال انعدام الماء ، ما يجعل الوضوء متعذرا ، لكن التيمم مثله مثل الوضوء له شروط توجبه وكيفية ووسائل يتم بها ، والناظم في هذا المقام يختبر مخاطبه المتعلم في وجه من وجوه جواز التيمم ، وهو الوجه الذي يكون فيه التيمم ناقصا أو غير تام ، ورغم أن المعنى صحيح معافي فيجسده إلا أن العلماء أجازه وقالوا بصحة صلاته ، ليجيبه بأن هذا شخص كبلت يداه ولم يجد من يفك قيده ودخل وقت الصلاة ، ولم يجد

1- الاستلزام الحوارية في سورة البقرة في القرآن الكريم دراسة وصفية تحليلية تداولية ، حجر نورما وحيدة ، بحث جامعي ،

قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية العلوم الإسلامية والثقافة ، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج ، 2010 ، ص 26.

2- ينظر: النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص 22.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 49.

سبيلا إلا التيمم ، ولكن اكتشف أنالقيد يحيل بينه وبين التيمم التام أيضا ، مما جعله يعزم على الصلاة بتيمم ناقص بتمريره لوجهه ويديه فقط على نية التيمم التام .

فالتأمل لهذه المعطيات المحيطة بالحدث الكلامي تبين أن معاني نستخلصها من دلالة السياق ، وهي معطيات غير مشتركة بين المتخاطبين ، مما يجعلها معاني وردت تضمينا في الخطاب واستنتاجها يستلزم استحضار دواعي الاستعمال ووسائل الاستدلال ، نحو تكبير يديه ، وتمرير وجهه ويديه ، الخ .
ويقوم الاستلزام الحوارى على مبدأ تداولي هام أشار له غرايس في أبحاثه والمتمثل في " مبدأ التعاون " الذي يخضع بدوره لمسلمات حوارية يتوجب على كلا الطرفين اتباعها لنجاح العملية التواصلية ، ونوجزها في الآتي¹:

1 - مسلمة الكيف: تتعلق بالقدر أو الكمية ، أي ما ينبغي أن يقدم من معلومات إخبارية في كل تواصل كلامي ، ويخص المتكلم أساسا ، وتتفرع إلى مقولتين:

أ - أن تؤدي دورك التام في الخطاب بأن تكون مشاركتك مفيدة بالقدر المطلوب من الإخبار .

ب - وأن لا تكون مشاركتك غوغاء تقدم فيها أكثر مما هو مطلوب .

2 - مسلمة الكيف: مفادها ألا تقل شيئا تعتقد أنه كاذبا ، وأن لا تقل ما لم تستطيع البرهنة على صدقه .

3 - مسلمة الملائمة: تقوم على شيء واحد هو أن تكون مشاركتك ملائمة للحوار الذي تريد الدخول فيه .

4 - مسلمة الجهة: أهم شرط فيها أن يكون كلامك واضحا جليا ، وتتفرع إلى ثلاث قواعد فرعية هي:

أ - الابتعاد عن اللبس .

ب - أن توجز كلامك .

ج - أن ترتب كلامك .

وحتى تتشكل ظاهرة الاستلزام الحوارى لابد من خرق إحدى هذه الخطوات الأربع السالفة الذكر .

1 - ينظر: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ،

فقولنا "أن شخصا تيمم ولم يمسح على عضوين أساسيين من جسده" تستلزم حواريا معنى العبارة "أن تيممه ناقص وبالتالي صلاته باطلة ، لأنها خرق للقاعدة الثالثة ، قاعدة الملائمة أو المطابقة ، ذلك أنها جواب غير ملائم للسؤال المطروح "هل تصح صلاة شخص صلى بتيمم ناقص؟". هذا وقد نظر غرايس للخطاب على أنه عبارات لغوية تضم في حملاتها الدلالية معان عدة ، بعضها صريح وبعضها ضمني ، ويمكن توضيحها في الآتي¹:

1 - المعاني الصريحة: هي ما تدل عليه الجملة ذاتها في صيغتها التركيبية ، ونمثل لها بعبارات هذين البيتين في قول الناظم ، فالمعاني الصريحة هي ما تشير له عبارات نحو: "شخص قد تيمم ، لم يستوعب العضو ، خلوا من ألم ، لم يؤثر ذلك في صلاته ، وأيضا: مرغ الوجه واليدين ، تجزئ الصلاة بالتيمم" ، فكلها عبارات لها معاني صريحة نستخلصها من ظاهر التركيب ولا لبس فيها ، وهي تشمل:

أ - المحتوى القضوي: ونعني به ما تشير إليه معاني المفردات مجتمعة بعد دخولها في تركيب إسنادي يضم بعضها بعضا ، فكل العبارات السالفة الذكر عبارة عن اشتراك مجموعة من المفردات لكل منها معنى مخصوص ، بعد دخولها في علاقة إسنادية لتشكيل المعنى العام للعبارة.

ب - القوة الإنجازية الحرفية: وهي قوة دلالية نستخلصها بأدوات لغوية ترد على الجملة فتعطيها صبغة أسلوبية معينة ، كالاستفهام والأمر ، والنفي والنداء ، والإثبات ، والتوكيد ، ... الخ ، والعبارات الواردة في المثال إضافة إلى قوتها الإخبارية فإن تحمل دلالات أخرى تترجمها قوتها الإنجازية التي نستنتجها من ضوابط لغوية كأسلوب النفي في قوله "لم يستوعب العضو" وأيضا لم يؤثر ذلك في صلاته" والأمر والاستفهام ، ... في مواضع أخرى.

2 - المعاني الضمنية: وهي معاني مخفية لا تظهر من صريح الجملة بل تحتاج إلى قرينة سياقية للوصول إليها ، وتشمل بدورها ، وهذا النوع من المعاني غالبا ما يعتمد الناظم في إخفائه فيوردها تضمينا في كلامه ، نحو ما نجده في طرح للقضية في البيتين الأولين في المسألة الفقهية التي يريد توضيحها لمخاطبه في قوله²:

إن قلت شخص قد تيمم ولم :::: يستوعب العضوين خُلوا من ألم

1- ينظر: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ،

مرجع سابق ، ص 34-35.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 49.

فلم يؤثر ذلك في صلاته ::::: على الذي نُقِلَ عن وُعَاتِهِ

فالصلاة الصحيحة تقتضي الطهارة الصحيحة نحو الوضوء أو ما يحل محله في غياب الماء كالتيميم مثلا ، لكن كل منهما يستلزمفعله على الوجه الصحيح لأداء الصلاة ، لأن نقصانها يؤدي إلى بطلانها ، وإذا كسمت المعاني الضمنية إلى قسمين:

أ - معاني عرفية: وهي دلالات وثيقة الصلة بالجملة وتلازمها في مقام معين ، كمعنى الاقتضاء مثلا ، فالصلاة تقتضي الطهارة .

ب - معاني حوارية: وهي معاني تتولد بناء على المقامات التي تنجز فيها الجملة كدلالة الاستلزام ، فالوضوء مصلا يستلزم غسل كل الأعضاء الواجب غسلها بالماء .

المبحث الثالث: الخطاب التعليمي الديني والحجاج

أولا: ملامح الحجاج في الخطاب التعليمي الديني:

تبين لنا إذن أن الخطاب الحجاجي خطاب استدلالي يتسم بوعي البناء ، هادف القصد ، يوجه في ظروف تفاعلية لاستدراج المتلقي ، لتغيير سلوكه ، أو تنفيذ اعتقاده ، فهو إضافة إلى كونه خطاب يقوم على مجابهة العقل والمنطق تحركه دواعي القول التي قد تكون اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو تعليمية يحددها سياق التخاطب ، وبذلك نقول أن « حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير ، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض ، بمعنى الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو "العلاقة الاستدلالية" ، وليس العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج ، ولا مخاطب "بكسر الطاء" من غير أن تكون له وظيفة "المدعي" ولا مخاطب "بفتح الطاء" من غير أن تكون له وظيفة المعترض»¹ ، فالخطاب الحجاجي فعالية تواصلية بين متخاطبين يدافع كل منهما على صدق دعواه من باب الإدعاء والاعتراض ، والمحاجة هنا تكون بهدف الوصول إلى الرأي الصائب لأحدهما ، فتكون نتيجتها ما هو محتمل الوقوع لا ما يجب أن يكون فعلا على وجه اللزوم .

فقولا بأن « الحجاج هو الأصل في الخطاب ، ثبت أيضا أن العلاقة الاستدلالية هي علاقة أصلية يتفرع عليها سواها ؛ فإذا تضمن الخطاب علاقة تخاطبية ، فيجب ردها إلى العلاقة الاستدلالية ، فالتوجه إلى

1- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 226 .

الغير لازم من لوازم الادعاء ، فلا يدعي إلا من يتوجه كما أن الفهم لازم من لوازم الاعتراض ، فلا يعترض إلا من فهم¹ ، فطبيعة الاستدلال في الخطاب هي ما تحدد نوعه حجاجيا ، أو برهانيا ، أو جدليا ، ... الخ .

بناء على ذلك يتكئ الخطاب الحجاجي على جملة من الأسس البنائية تجعله ينفرد بخصائص استدلالية مخصوصة تختلف عن باقي الخطابات الاستدلالية الأخرى ، لذلك لا يمكن أن نعد كل خطاب حجاجا وإن بني بناء استدلاليا « فقد تكون نهاية خطاب ما - ذاتية - أي دون أن تهدف إلى إقناع ، أو قل لا يشكل الحجاج هدفه الأساسي والمباشر ، وحتى وإن كانت هناك تعابير حجاجية فإنها تأتي بشكل عرضي ، فالخطاب اليومي الذي يجريه الناس فيما بينهم من أجل التعارف أو نقل المعلومات أو تبادلها أو تقديم معطيات ، لا يكون من أهدافه سوق حجة أو الاستدلال على موقف أو الدفاع عن أطروحة ، أو حمل الآخر على خطة أو الانخراط في عمل² ، وهذا راجع لغياب مبدأ التنازع والاختلاف الذي ينطلق منه الحجاج فعندما ألتقي شخصا لأول مرة وأفتح معه المجال للتعارف فيقول اسمي كذا وأعمل كذا وأسكن في كذا فإنه لا يحتاج لتقديم دليل أو حجة لإثبات ذلك حتى ولو كان كاذبا ، لأن سياق التواصل هنا نقل معلومة بقصد الإبلاغ والإخبار لا التأثير والإذعان ، ناهيك عن أن الحجاج ليس من دواعيه تصديق خبر أو تكذيبه ، فغياب دافع التنازع غيب الحجاجي خطاب تواصلنا والأمر سياتي في باقي الخطابات اليومية غير التي لا تحتاج استدلالا في نقل المعلومات .

إذن فتبتدى لنا ميزات الخطاب الحجاجي « بكونه خطابا مبنيا وموجها وهادفا يبني بناء استدلاليا يتم اللجوء فيه إلى الحجة والاستدلال والمنطق والعقل وموجها مسبقا بظروف تداولية ، تدعو إليها إكراهات قولية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية ، أو علمية ، أو سياسية تتطلب الدفاع عن الرأي والانتصار لفكرة ، وتتطلب نقاشا حجاجيا يلامس الحياة الاجتماعية ، أو المؤسساتية بهدف تعديل فكرة ، أو نقل أطروحة ، أو جلب اعتقاد ، أو دفع انتقاد³ ، فهذه الملامح هي ما يحدد خصوصية الخطاب الحجاجي وتميزه عن غيره ، ومن ثم لا يمكن القول بحجاجية أي خطاب إلا إذا وقفنا على الملمح الحجاجي في بناءه .

وباعتبار الخطاب الحجاجي فعالية تواصلية وفق بنية لغوية تحتكم لمجموعة ضوابط تقرب أطروحات المرسل إلى المتلقي عن طريق التفاعل الحوارية على نية التأثير والإذعان ، وإذك قسم الدارسون ملامح

1- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص226 .

2- عندما نتواصل نغير ، عبد السلام عشير ، مرجع سابق ، ص128 .

3- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص226 .

الخطاب الحجاجي إلى ثلاثة أبواب رئيسية ، أولها السمات الحجاجية ، ثانيها الضوابط البنائية ، وثالثها طبيعة الخطاب الحجاجي ، ويأتي بيانها في الآتي:

1 - من حيث السمات الحجاجية:

الحجاج فعالية اجتماعية بين متكلم وسماع لها أبعاد تداولية كونها تنطلق من نية كل منهما في تغيير سلوك الآخر نتيجة اختلافهما ، و « لما كان الاختلاف في الرأي سببا في الدخول في ممارسة الحجاج احتاج كل من المتكلم والمستمع إلى تحقيق نوع من "التزاوج" في نفسه ومواصلة هذا التزاوج حتى نهاية التخاطب ببلوغ الاتفاق بينهما»¹ ، والمقصود بالتزاوج أن تكون للمرسل ذاتين ، إحداهما ظاهرة تستقل ببناء الدعوى ، والأخرى باطنة تكون في مقام متلقي افتراضي له حق ممارسة الاعتراض على دعواه ، والحال نفسه بالنسبة للمستمع فتنشطر ذاته إلى اثنتين إحداهما ظاهرة تستقل بمبادرة الاعتراض ، والثانية باطنة تشارك ذات المتكلم حق ممارسة الادعاء² ، وأهم السمات التي تميز النص الحجاجي نورد³:

أ - القصد المعلن: ونعني به سعي المتكلم لإحداث أثر ما في السامع من خلال مقصود الخطاب ، وهو ما يعرف في اللسانيات بالطريقة الإيحائية .

ب - التناغم: كون النص الحجاجي ممارسة استدلالية يتوجب أن يبنى وفق منطق ما في كل مرحله ، فيأتي متسلسلا على نحو دقيق ، ويظهر ذلك من خلال ما يتركه الخطاب من تأثيرات في المتلقي ، قد تفتنه أو تزيد في انفعاله ، ومن خلال هذا التناغم يظهر لنا مدى اطلاع المتكلم ومعرفته بنفسية السامع ، ومن ثم يتفنن في صياغة الكلام بناء وتحليلا .

ج - الاستدلال: العمل الاستدلالي لا يخلو منه أي نص حجاجي ، فانساق وترابط عناصره راجع إلى نظام بنيته اللسانية ومدى تفاعلها مع السياق العقلي الذي بني عليه ، أي مراعاة تطوره المنطقي وفق نسق تفاعلي بين الاستدلال العقلي وترتيب العناصر اللغوية بقصد الإقناع .

د - البرهنة: حتى يصل المتحاجان إلى الغاية المنشودة ، وتحقيق الفكرة المرجوة ، لا بد أن يشمل الخطاب الحجاجي على البرهنة ، كإجراء عملي يضم جملة الحجج والأمثلة وكل تقنيات الإقناع الأخرى التي يمكن أن يوردها السياق الاستدلالي .

1- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 226 .

2- ينظر: المرجع نفسه ، صفحة نقسها .

3- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 26-27 .

وبناء على ما أوردناه آنفا وجدنا أن شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص تجسيدا لفعالية حوارية بين المبدع مؤلف الخطاب ومخاطبه الخاص - وإن كان افتراضيا - المتلقي لهذا الخطاب ، وتأتي كوسيلة تعليمية الهدف منها تيسير ما استعص على المتعلمين لمضمون درة ابن فرحون ، فينطلق الناظم من مبدأ اختبار أذهان متعلميه فيما حصلوه من تراكم معرفي ومكتسبات دينية تعنى بالعبادات والمعاملات والحدود وفقا لمعطيات الفقه المالكي .

وعلى أساس أنها فعالية تعليمية فإن سياقها التخاطبي يستدعي الدخول في ممارسة حجاجية لتأكيد اعتقاد أو تعديله ، أو تغييره تماما ، ومن ثم يمكن أن نعد شبكة القناص خطابا تعليميا دينيا اشتغل ناظمها على استراتيجيات خطابية تدعو إلى التواصل الفكري بإبداء الرأي والرأي الآخر حول مسألة فقهية يدعي أن المتلقي يجهلها ، فيصور لنا العملية التعليمية في شكل حوارية تفاعلية بينها منطلقها الاختلاف ، وعمادها التواصل ، وأساسها الحجاج ، وغايتها التأثير والإقناع ، يستهلها ببناء دعاويه بما يملكه من أدلة وحجج ، فاسحا المجال للمتعلم لممارسة حق الاعتراض على ما يقول .

ولعل أول سمة حجاجية نلمسها في الشبكة هي القصد المعلن للمتكلم والمتمثل في الغرض الذي نظمت لأجل هذا الخطاب ، فهو وإن كان ذو بعد تعليمي يعنى بتعلم الفقه وفهم أمور الدين بكل يسر ، فإن الناظم من خلاله يسعى لتغيير اعتقاد المتلقي أو تعديل سلوكه ، وهذه السمة الحجاجية نلمحها في قوله¹ :

وأستعين الله في قصيدة ::::: ضممتها مسائلا مفيدة

من جملة الألباز والمعيات ::::: لشحد أذهان ذوي المصافات

ثاني سمة حجاجية نلمسها في شبكة القناص هي بناؤها المحكم الذي جاء متسلسلا عبر كامل مراحلها فجاء خطابها مطابقا لمقتضى الحال ، ومراعيًا لنفسية المتعلم وخصوصياته ، وكونه متلق خاص يمتاز بالفطنة والذكاء ، فقد تفنن في صياغته وعمل على تولين معانيه .

وعلى أساس أن شبكة القناص نظمت لغرض تعليمي فإن الحوار هو أساس هذه الفعالية التعليمية ، ومن ثم يمكن اعتبار الحوارية ملمح من ملامح الاستدلال الحجاجي ، وتتبدى ذلك في الشبكة من خلال

1 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجلوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 31 .

التعبير الصريح للناظم قبل خوضه في أول لغز عن دخوله في حوارية تواصلية مع متلق افتراضي دون تحديد شخص معين المهم أن تكون له القدرة على فك الألغاز ، ويتجلى ذلك في قوله¹:

وذا أوان الخوض في التعليقة::: معللا له بتلك العلة

وحيث قلت الفعل مسندا إلى::: مستتر لغير مذكور خلا

ويمكن أن نلمح البرهنة كوجه استدلاي آخر يدعم به الناظم خطابه الحجاجي للتأثير في مخاطبه ، كإجراء آخر يشمل على مجموعة من الأدلة على وجه التمثيل والداعمة لدعواه نحو قوله في باب بيان اللغز في المياه²:

ذكر ذا الطرطوشي في تعليقه::: فهو دليل طالب لحجته

فاستدل له برأي الطرطوشي يأتي كدليل برهاني يدعم به حجته الأولى .

علاوة على هذه الملامح فإن ما يجعلنا نؤكد حجاجية شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص أنها تشتمل على أهم ميزات الحجاج التي ذكرها " أوليفي روبول " وهي:

أ - أنها موجهة إلى مستمع ، وهذا طبيعي مادامت خطاب صادر من متكلم فإنه بالضرورة يأتي نتيجة حوارية شفوية تفاعلية مع مستمع معين ، وهذا المستمع ذكره الناظم في البداية وإن كان افتراضيا .

ب - أنه يعبر عنه بلغة طبيعية ، وذلك كونه فعالية تواصلية بين طرفين من البشر فإنه خطاب يعبر عنه بلغة طبيعية ، وهي اللغة العربية ، وهي من القواسم المشتركة بينهما مما يُفَعِّل الممارسة الحجاجية في هذا المقام التعليمي .

ج - بما أنها فعالية حوارية فإن نتائجها لا تعدو أن تكون احتمالية ، فصاحب الشبكة يعلم أن مخاطبه في مقام تعليمي ، لذلك نجده يركز على تحقيق غاية التعلم بالتأكد من وصول المتعلم إلى درجة متقدمة من الفهم من خلال فكه لما خفى من المعنى في اللغز ، ولا يجبره على فعل ما يقوله له على زجه اللزوم ، بل يبقى ذلك على مدى اقتناعه هو .

عموما فإن هذه السمات الحجاجية لا يمكن أن تعتبر مجالا للبرهنة والمنطق وإن جانبت إجراءاتها أحيانا ، « وهو ما أكده أوليفي روبول حين أراد الجواب عن سؤال... هل يمكن أن يوجد حجاج غير

1 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص31 .

2 - الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 27 ، 28 .

بلاغية؟ ، مما قاده إلى تحديد ملامح الحجاج فجعلها خمسة يقول للجواب عن ذلك نعود إلى تحديد مفهوم الحجاج لتبين ما يميزه عن البرهان ، سأقول مستلها بحرية برلمان وتيتيكا: يتميز الحجاج بخمسة ملامح رئيسية:

1 - يتوجه إلى مستمع .

2 - يعبر عنه بلغة طبيعية .

3 - مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية .

4 - لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة

5 - ليست نتائجه ملزمة ، بناء عليه أتساءل: أليست هذه الملامح التي تميز الحجاج عن البرهان هي نفسها ما يجعله بلاغيا بالضرورة¹ ، وإذا وقفنا على خصوصية الخطاب الحجاجي انطلاقا من هذه الملامح وجدناه خطاب المتكلم للسامع بلغة التواصل الطبيعية وحقيقته لا تعدو أن تكون مسلمات احتمالية برؤية منطقية ، قد يستجيب لها السامع ، فيحقق الحجاج غاياته ، وقد يمتنع عن ذلك ، لذلك قلنا باحتمالية نتائجه وعدم إلزاميتها .

فبمنظور إحرائي نقول أن الخطاب الحجاجي ما هو إلا حوار قائم على اعتراض لفكر الآخر وكلامه لمخالفته اعتقادي الخاص ، مما يجعلني أرى خطابه في صورة الممكن والمحتمل لمجانبته الحقيقة وبعده عن اليقين ، فتعارضنا حول فكرة ما ، يتولد عنه صراع بالكلام بين منطلق الأنا ومنطلق الآخر² .

2 - من حيث الضوابط الحجاجية:

هذه الملامح التي رصدناها لحجاجية الخطاب توحى بمجموعة من الضوابط التي تفرق بين النص الحجاجي وغيره من النصوص الأخرى ، نجملها في الآتي³:

- أن يشمل موضوع الحجاج إحدى الثوابت الدينية أو العرفية أو العلمية فليس كل شيء يقبل الحجاج .

- أن تكون الألفاظ محددة الدلالة وواضحة المرجع .

1- الحجاج في الشعر العربي ، بنيتة وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 27 - 28 .

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص 29 .

3- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 465 - 466 .

- أن يكون الحجاج موافقا لما يقبله العقل والفعل ، وألا يقع المتكلم في تناقض في قوله أو فعله ، وإلا أصبح الخطاب زيفا وبهتاناً.

- أن يكون الحجاج في ما يشترك فيه المتحاجان ، فعدم توافقهما يجعلهما يرفضان قبول الحجج .
- يجب أن يخلو الحجاج من المغالطة والإبهام وكل ما يجعله غامضاً إلا في حالات يحاج فيها متلق خاصاً.

- لنجاح العملية الحجاجية يتوجب على المرسل امتلاك ثقافة واسعة وتنوع معارفه ، لأن ذلك يزيد الحجج فاعلية وبالتالي يتحقق الإقناع .

وهذا ما نلاحظه في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، حيث يشير صاحبها إلى أن محتواها يضم مجموعة الثوابت الدينية التي تقوم عليها الأمة الإسلامية ، يعالجها وفقاً لمقتضيات المذهب المالكي ، وفي هذا يقول¹:

وأستعين الله في قصيدة ::::: ضمنتها مسائلاً مفيداً

من رجز يقرب المنثور ::::: جعلته مزدوجاً مسطوراً

سميته بشبكة القناص ::::: لما حوته درة الغواص

أما في ما يخص الألفاظ فإن المؤلف تخير لموضوعه أحسن الألفاظ وأقربها دلالة ، رغم أن الموضوع في عمومها ألبساً تدخل ضمن ما يعرف بالتعمية ، الأمر الذي يجعل المعنى يغيب عن المتلقي ، ولكن لكونه خطاب موجه لمتلقي خاص ذو فطنة وذكاء ، فإن إخفاء المعنى وتلويحه لا يحيل في هذا المقام بين فهم محتوى الخطاب وعقل المتلقي ، بل يجعله يعمل فكره لتحقيق الفهم بكل سهولة ويسر ، وفي هذا يقول الناظم²:

من جملة الألفاظ والمعاني ::::: لشحد أذهان ذوي المصافات

ولأن الشبكة جاءت لغرض تعليمي فإن أساس نجاح هذه العملية التعليمية أن لا يقع المعلم - الناظم - في تناقض مع نفسه في قوله أو عمله ، وألا يقول ما لا يتقبله العقل أصلاً ، لأن خطأ كهذا يفشل العملية التعليمية ، ومن ثم تبطل المحاجة ، خاصة وأن المتعلم المستهدف من النخبة الواعية التي تمتاز بقوة الذكاء ، تجعله يكتشف أي خطأ يقع فيه المعلم - الناظم - وكون شبكة القناص تضم ما حوته درة الغواص

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجلوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 31.

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

التي تعد إحدى ركائز المذهب المالكي ، فإنه يستحيل على ناظمها أن يتناقض مع نفسه في أقواله أو أفعاله ، كلما كان المعلم في مقام القدوة لمخاطبه المتعلم كلما كان التواصل فعالاً والعملية التعليمية ناجعة .

يشترط في الخطاب الحجاجي أن يكون في ما يشترك فيه المتحاجان ، وإلا يرفض بتاتا رغم ما يحتويه من حجج ، وهذه الميزة نلمحها في شبكة القناص ، فالمرجعية الدينية المتمثلة في الدين الإسلامية مشتركة بين الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الأنزجيري ومخاطبيه الذين يتبعون المذهب المالكي ، فتصوروا لو كان خطابه موجهاً إلى متلقي يدين دينا آخر غير الإسلام ، فإنه يرفضه أصلاً ، بل حتى لو كان مسلماً ويتبع مذهباً آخر فإنه يدخل معه في جدل محتدم يبعده تماماً عن الممارسة الحجاجية ، لأن الغاية هنا تصبح من أجل الغلبة وليس لأجل إظهار الصواب .

مما يضمن نجاح العملية التعليمية ويفعل الحجاج أن يمتلك المعلم ثقافة واسعة ومعرفة متنوعة ، تعينه في استحضار الحجج تتحقق مهمته التعليمية وهي إقناع المتعلم بآرائه ، وهذا ما نلاحظه في شخص عبد الرحمن بن محمد العالم ، فهو يعد من كبار علماء توات المشبعين بالثقافة الدينية خاصة ما تعلق بالفقه المالكي ، ولأدل على ذلك براعته الأدبية وتفروسه اللغوي الذي مكنه من نظم مضمون الدرّة شعراً .

ولأن الحجاج يستهدف ثوابت واعتقادات الإنسان ويسعى لتغييرها في حدود الممكن والمحتمل ، فإن القيمة الحجاجية تتأسس على أنساق فكرية تتمزج فيها الأقوال بالأفعال ، والمسلمات بالمبادئ ، ضمن سياق تواصل قائم على الاستدلال الحجاجي ، ذلك أن الخطاب الحجاجي « يتخذ من العلاقات الإنسانية ، والاجتماعية حقلاً له ، يبرز كأداة لغوية وفكرية تسمح باتخاذ قرار في ميدان يسوده النزاع وتطغى عليه المجادلة»¹ ، فيعرض المرسل حججه حسب مقصود الخطاب وطبيعة الحجاج توجيهياً كان أو تقويمياً .

أ - الحجة التوجيهية:

هي قوام الحجاج التوجيهي ، ويقصد بها إقامة الدليل على الدعوى بناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل ، حيث يكون التوجيه هنا فعل إيصال المستدل لحجته إلى مخاطبه ؛ فنجد أنه ينشغل بتلقي المخاطب لها ورد فعله عليها ، ينشغل بأقواله من حيث إلقاؤه لها ، فالمقاصد والأفعال المصاحبة لأقواله ما يوليه عنايته الخاصة ، وإن كان ذلك يفضي به إلى إهمال علاقته بالمخاطب في العملية الاستدلالية ، التي تضمن لهذا الأخير حق الاعتراض² .

1- الحجاج في الشعر العربي ، بنيتة وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 24 .

2- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 227 .

والمأمل لخطاب شبكة القناص يلقي أن هذا النوع من الحجاج اعتمده الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم في خطابه الحجاجي حيث نجده يهتم أولاً ببناء حججه وتوجيهها الوجه الصحيح الذي يقتضيه الاستدلال الحجاجي من جهة ، ووفقاً لما تقتضيه أقواله من جهة ثانية ، وهذا قبل أن تكون في محل اعتراض من قبل مخاطبه .

ب - الحجة التقويمية:

هي وجه آخر لعرض الحجة في الاستدلال الحجاجي ، وتأتي بعد تعذر الحجة التوجيهية في إتمام العلاقة الاستدلالية ، والحال هنا أن يركز المرسل على أمرين أساسيين هما الغاية الحجاجية المتمثلة في الإقناع ، والحجج المضادة التي قد يجابه بها المتلقي ، لذلك يتوجب عليه وهو يبني خطابه أن يتوخاها تمحيصاً وتفنيداً باستحضار حججه ، ومن ثم فالحجاج التقويمي ما هو إلا « إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتاً ثانية ينزلها منزلة المعارض على دعواه ، فها هنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب ، واقفاً عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط ، ... بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقي فيبني أدلته أيضاً على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به ، ... وهكذا ، فإن المستدل يتعاطى لتقويم دليله بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه ، مراعيًا فيه كل مستلزماته التخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعاملية حتى كأنه عين المستدل له في الاعتراض على نفسه»¹ ، وهكذا نرى أن العلاقة الاستدلالية في الحجاج التقويمي منفتحة نوعاً ما مقارنة بالحجة التوجيهية ذلك أنها قائمة على عمل استلزامي لفعلي الإلقاء والتلقي .

وعلى هذا النحو تسير شبكة القناص فبعد بناء الحجج وتوجيهها يلجأ الناظم إلى مرحلة التوجيه التقويمي حتى يلزم مخاطبه بالتسليم بالنتيجة التي يرومها ، ويكون ذلك بالاهتمام بعملية تلقي هذه الحجج ومدى تقبلها من قبل المتلقي لتحقيق الغاية التأثيرية التي تحقق الإقناع ، فيرتقي بنفسه لمنزلة المتلقي وكأنه يخاطب ويحاجج نفسه بنفسه ، حتى يستطيع تحديد حجج خصمه المضادة لدعواه التي بناها قبلاً في حجاجه التوجيهي ، ولتوضيح نورد قوله في لغز المياه²:

باب بيان اللغز في المياه :::: على طريق لم يكن بالواه

1- اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص 228 .

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجي

الأندلسي ، مرجع سابق ، ص 32-33-34 .

إن قلت ماء قد تغير بما ::::: ينفك والوضو به لم يحمًا
 قلت التغير الذي قد ذكرا ::::: بكوب أو دلو جديدين جرا
 إلا لطول مكثه بالدلو ::::: أو بحبال جددت في المترو
 أو لسوان أو نواضح نفي ::::: إن التغير بهذه خفي
 وقيداً ابن رشد الكوب الجديد ::::: بعدم الفحش بتغيير مزيد

من خلال هذه الأبيات نرى أن عبد الرحمن بن محمد العالم اعتمد على الحجاج التوجيهي في بناء حججه التي هي عبارة عن سؤال افتراضي لغزا يطرح من قبل المتلقي ، وحتى يدعم حججه التوجيهية فإنه يلجأ إلى الحجاج التقويمي مركزا على فاعلية هذه الحجج ومدى تأثيرها في المتلقي من جهة ، وساردا مجموعة من الأوجه الاحتمالية التي قد يطرحها المتلقي الافتراضي ما دام هو في مقام التعلم .

3 - من حيث طبيعته الحجاجية:

إن التحاجج أو المحاجة تفكير استدلالي احتمالي ، والحقيقة فيه نسبية غير ثابتة ، ذلك أنه تحكمه الطبيعة الاجتماعية للغة ، فالخطاب الحجاجي نظام لغوي بني في سياق تخاطبي تحكمه العلاقة الاجتماعية التي تربط بين المتخاطبين ، فيتم خلاله نقل المعارف والاستنتاجات الفكرية عبر الوحدات اللغوية وتقنيات حجاجية مخصوصة ، بنية التأثير وكسب العقول .

- وطبيعة الخطاب الحجاجي يحددها المنظور اللساني الحديث بإجراءاته التداولية التي ترى أن « اللغة لم تعد مدركة باعتبارها لسانا ، أي نسقا مستقلا بذاته مفصولا عن الإنسان وثقافته ومجتمعه وتاريخه ، بل بدأ النظر يتوجه إلى اللغة عندما تتحول إلى فعل لغوي اجتماعي ، أي إلى خطاب ... يفترض متكلما ومخاطبا مع توفر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا المخاطب»¹ ، فيدرس النص داخل سياقه العام واقفين على مقاصده من خلال العلاقة بين المتخاطبين وفعل الأثر الذي يسلب عقولهم ، ومن ثم تتحقق غاية الإقناع .

إذن طبيعة الخطاب الحجاجي تحدد حسب لغة التواصل والتي بدورها يحددها نوع الجمهور المخاطب ، فقد يكون الحجاج إقناعيا إذا كان يستهدف متلقي خاص ، وقد يكون اقتناعيا إذا كان المستهدف متلقي عام ، ويعد كل من الإقناع والاقتناع دعامتا العملية الاستدلالية في أي خطاب حجاجي ، فالإقناع يرتبط بالجانب العقلي ، لأنه إذعان نفسي مبني على أدلة عقلية أكثر من الإقناع الذي قد يرتبط بما هو ذاتي ، باعتباره يمكن للمتكلم استعمال الخيال والعاطفة في حمل الخصم على التسليم بالشيء ، وبذلك يقسم الحجاج

1- بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب ، حسن المؤذن ، دار كنوز المعرفة ، ط1 ، 2014 ، ص 17.

حسب نوع الجمهور إلى نوعين: حجاج إقناعي موجه لإقناع جمهور خاص ، وحجاج اقتناعي يسلم به كل ذي عقل¹ ، ورغم هذا الاختلاف بينهما فإن الطبيعة الحجاجية لها خصوصية واضحة في أي خطاب حجاجي ، ويمكن توضيحها في الآتي:

أ - التفاعل: لا يمكن أن ينجح أي تواصل بشري إلا بالتفاعل الحواري بين طرفيه ، لكن في الخطاب الحجاجي ينطلق التفاعل من مبدأي الادعاء والاعتراض الذين تقوم عليهما العملية الحجاجية ، أي أن القضية الخلافية بين ملقي الخطاب ومتلقيه ، تجعل أحدهما في مقام المدعي والآخر في مقام المعارض له ، وكلما زادت حدة الاعتراض على الدعوى كلما زادت حدة التفاعل .

والحال نفسه نجده في شبكة القناص حيث يدخل كل من الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم ومخاطبه ، وكونه خطاب تعليمي يعنى بإيضاح تعاليم الدين ، فإنه من الواجب أن يدخل المتحاوران في تفاعل حيوي لتقريب ما اختلفا فيه ، بل نجد الناظم في كثير من الحالات يجعل أسئلة المتلقي الافتراضي مشحونة بدواعي الاعتراض حتى يزيد من حدة التفاعل .

ب - التأويل: هو عملية ذهنية غايتها الفهم وتأتي بعد تلقي النص القوي للمرسل ، الذي قد يكون مخطئاً أو مصيباً ، وبناء عليها تتم عملية الهدم والبناء بدحض حجج المرسل وبناء خطاب مضاد ، مع مراعاة سياق الخطاب ومقامه لما لهما من دور بارز في تعزيز التأويل .

أشرنا سابقاً أن خطاب شبكة القناص هو فعالية حوارية بين الناظم ونفسه التي يتمثلها في شكل متلق افتراضي ، تضم مجموعة من الأسئلة حول مسائل فقهية وفقاً للمذهب المالكي ، وما دام أن الحوار لا يخلو من الملمح الحجاجي فإن خطاب شبكة القناص يقوم على إدعاء واعتراض ، للوصول إلى نتيجة نهائية تبين الوجه المحتمل للقضية المعروضة ، وهذا العمل كله يعكسهتمكن المتلقي من عملية التأويل ومدى قدرته على دحض أدلة الخصم وبناء خطاب مضاد .

ج - الاعتقاد: يتعلق الاعتقاد بالقيم الإنسانية التي تقوم سلوك الفرد في المجتمع ، ولأنها معنوية لا تتصل بالاستدلال المنطقي البرهاني عدت من الجوانب الأساسية في العملية التخاطبية ، كما أنه ليس من السهل تغييرها في الممارسة الحجاجية ، خاصة وأنها من المسلمات عند الجميع وبالتالي لا يدخلها الشك² .

1- الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتكاه" ، عبد الله صولة ، مقال

ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد لغربية من أرسطو إلى اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 301 .

2- ينظر: عندما تتواصل نغير مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، عبد السلام عشير ، مرجع سابق ، ص 133 .

لا يخف علينا أن الخطاب التعليمي خاصة ما تعلق بالجانب الديني يشمل مجموعة من التعاليم التي تفعل قيم الإنسانية وتقويم سلوك الفرد في المجتمع ، وهي اعتقادات مسبقة يتشبث بها كل فرد على أساس أنها أصبحت من المسلمات التي يؤمن بها كل فرد من المجتمع العربي المسلم ، وهذا ما نلاحظه في شبكة القناص باعتبارها خطاب تعليمي موجه لمتلق خاص ذي ثقافة دينية واسعة.

د - تغيير السلوك: هو هدف الحجاج وغايته المرجوة ، ولا يتأتى ذلك إلا بالأثر الذي يتركه القول الحجاجي المتكلم في مخاطبه ، فينتج عنه تصرف أو رد فعل مغاير تماما لاعتقاده السابق ، لذلك يتوجب على المرسل استعمال كامل قواه الفكرية وأدواته اللغوية لإنجاح ذلك .

بطبيعة الحال أن مرمى أي ممارسة حجاجية هي تغيير سلوك أو تعديله ، والغاية نفسها تسعى لها شبكة القناص في محاضرة خواصها ، فهي اختبار لهم لمعرفة مدى تمكنهم من فهم تعاليم الدين وتنشيط لعقولهم ، لأنه كلما تفقهوا في أمور دينهم كلما انعكس ذلك على سلوكياتهم ، وبالتالي تفعيل القيم الإنسانية في مجتمعاتهم .

ثانيا: خصوصية الحجاج في الخطاب التعليمي الديني:

1 - حجاجية الخطاب التعليمي الديني:

يشتمل الخطاب التعليمي الديني في سياق معرفي له امتداد قدسي للنص الشرعي "القرآن الكريم والحديث الشريف" ، ذلك أنه خطاب يضم محتواه تعاليم الدين الإسلامي السمحة ، وهي تعاليم مستوحاة من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، وهو إن كان يقوم بوظيفة تربوية تعليمية ، فإنه يضطلع بوظيفة إبلاغية تبليغية « تهدف إلى تمكين مقتضى القول في نفس المتلقي الشاهد والغائب كتمكنها في نفس المتكلم»¹ ، وهي الغاية التي يسعى لها انطلاقا من غايتي التأثير والإقناع في فعاليته التواصلية في مقام تربوي تعليمي يهدف إلى تعليم مبادئ العقيدة الإسلامية واكتساب تعاليمها وزرع القيم النبيلة في المجتمع من خلال تعديل سلوك الفرد.

يتبدى لنا أن الغاية التي يسعى لها الخطاب التعليمي الديني تسير في نفس المسعى الذي تهدف له الوظيفة التشريعية للنص الشرعي ، فهي وظيفة تسعى « إلى تحقيق غاية التأثير والإقناع ، ولكن هذه الغاية لا تلبث أن تتحول إلى غاية وسطية ، أو وسيلة بين الغاية المضمونية التعليمية التربوية التشريعية وضمائنها

1 - مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص ، عيد بلع ، سياقات ، دار الكتب المصرية ، ط1 ، 2008 ،

إلى منجز فعلي في السلوك البشري للمستهدفين بالخطاب»¹، ومن هذا المنطلق سنحاول الوقوف على خصوصية الحجاج كأسلوب بلاغي يقوم على التأثير ويروم الإقناع، ف«التأثير يخاطب القلب والوجدان أي يخاطب في الإنسان إنسانيته والمشاعر المختلفة من الخوف والحذر والإشفاق وغيرها، أما الإقناع فيخاطب في الإنسان عقله المفكر الذي يختبر الفكرة ويتفحصها حتى إذا اقتنع بها استقرت يقينا»²، وما الخطاب التعليمي إلا فعالية حجاجية تنطلق من مرتكزات الاستدلال الحجاجي غايتها تغيير سلوك المتعلم أو تعديل اعتقاده أو عدوله عن رأيه، «ومن ثم جاء التأثير والإقناع بوصفها غاية أولية تؤدي إلى غاية التمكين لما يقتضيه الخطاب من غاية تعليمية تشريعية في السلوك الفعلي منهجا ملازما لهذه البلاغة تحقيقا للغاية الإبلابية التي كلف بها»³ المعلم في مهمته التعليمية.

يعرف الحجاج بأنه «توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة الطبيعية»⁴، فهو تعريف ينطلق من إحدى أهم الأسس التي يقوم عليها التواصل وهي اللغة الطبيعية، التي عدت أحسن وسائل الترميز دلالة، وعنهما أورد ابن جني قائلا: «أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»⁵، فكلمة قوم في تعريف ابن جني توحى بالطابع الاجتماعي للغة فالقوم تضم مجموعة من الأفراد يجمعهم لسان واحد يتكلمون به، لذلك فإن «الوظيفة الأساسية للسان البشري هي ما يسمح لكل إنسان أن يبلغ تجربته الشخصية لغيره، وسميت هذه الوظيفة وظيفه التبليغ والتواصل»⁶، وحتى نجعل غيرنا يشار كنا تجربتنا الشخصية لا بد أن يؤثر فيه الكلام الموجه له فيأتي في صورة بليغة تجمع بين جمالية اللغة وقوة الإقناع.

تقتضي الممارسة الكلامية ثلاثة عناصر أساسية، هي المتكلم والمخاطب وموضوع الكلام، وكان أرسطو من أوائل الذين اعتمدوا هذا التقسيم، غير أنه استعمل مقابل هذا المصطلحات التالية: الإيتوس والباتوس واللوغوس... الإيتوس يقابل المتكلم، والباتوس يقابل المخاطب، واللوغوس يقابل الموضوع أو

1- مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص، عيد بلبع، مرجع سابق، ص 215.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص 215 - 216.

4- مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، محمد الولي، مقال ضمن مجلة عالم الفكر، مرجع سابق، ص 11.

5- الخصائص، ابو الفتح عثمان ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، لبنان، دط، 1952، ص

6- مبادئ اللسانيات البنوية - دراسة تحليلية ابستيمولوجية، الطيب دبه، دار القصة للنشر، الجزائر، 2001، ص 106.

الخطاب¹ ، وفي هذا المعطى تتأسس العملية التعليمية لتضم المعلم والمتعلم والرسالة التعليمية المتمثلة في محتوى الخطاب ، فإذا كانت الغاية من العملية التعليمية هي استهداف المتعلم وإكسابه مجموعة من المهارات والمعارف التي يجهلها ، فإنها قد تمتد لأبعاد أخرى حسب السياق الذي ترد فيه ومقام المتخاطبين ، ومن ذلك البعد الديني الذي يسعى إلى تعليم الفرد مبادئ الدين الإسلامي وتعاليم الشريعة لأنها قوام المجتمع ، فالغاية الحجاجية بادية في العملية التعليمية إذ هي محصلة إفحام المتعلم وإقناعه لتغيير سلوكه من خلال المبادئ والقيم الأخلاقية التي يتعلمها ، فيحول ما تعلمه إلى منجز فعلي يتماشى واعتقاده الجديد ، فالنظرية الحجاجية تؤكد أن « الباث والمتلقي عنصران متجزران في الخطاب الحجاجي ، فبما أن هناك قصد تغيير رأي المخاطب أو المتلقي وهو الأمر الأساسي في أي مسعى حجاجي ، وبما أن هذا المسعى التعبيري لرأي المخاطب يصدر بالضرورة عن متكلم ما أو باث ، فإننا نؤكد أن أي خطاب حجاجي يتجذر في هذين العنصرين ؛ إذ المتكلم يراعي استعداد المتلقي لقبول ما يلقي إليه من حجج وهي الحجج التي ينبغي بالضرورة أن تنطوي على عناصر مقبولة² ، لا تخرج بالحجاج عن مسعاه الحقيقي .

يقوم البحث التداولي على مفاهيم محددة أهمها مبدأ اللغة في الاستعمال والقصدية والتلفظ ، والسياق بكل عناصره ، وهذه المبادئ استقى منها الخطاب الحجاجي خصوصيته التي تميزه عن الأنماط الأخرى ، وهذه الملامح الحجاجية نستشفها واضحة بكل أبعادها التداولية في الخطاب التعليمي الديني ، فمن الخصائص الحجاجية المميزة له نجد أن وجهه الإقناعي « لا يبنى على حجة منطقية خالصة وفق المفاهيم التي سادت في نظريات الحجج الأرسطي وتطوراتها الحديثة ... ولكنه يبنى على متكأ سياقي يتعلق بعناصر سياقية تحكم عملية التواصل بين المرسل والمستقبل³ ، فالعملية التعليمية إضافة لعناصرها الثلاثة تحتكم إلى عناصر أخرى لغوية وغير لغوية يفرضها سياق القول ومقام التخاطب التعليمي ، فتتظر إلى شخصية المتعلمين ومعارفهم وقدراتهم الفكرية حتى يتسنى للمعلم القيام بالدور المنوط به .

ولأن العلاقة التواصلية التي تجمع المتخاطبين في العملية التعليمية هي علاقة نبيلة يشوبها نوع من التواد والتأدب وتبتعد كلية عن الاختلاف الداعي إلى الصراع وبالتالي العداء ، فإن « السياق الذي يحكم طرفي الخطاب إنما هو سياق غاية في الشفافية والصدق ، ... ومن ثم قلنا بأن الإقناع هنا يعتمد على دعائم سياقية

1- مدخل إلى الحجج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان ، محمد الولي ، مرجع سابق ، ص12.

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص ، عيد بلبع ، مرجع سابق ، ص216.

بالدرجة الأولى ، ثم تأتي الصياغة بعد ذلك ليست من قبيل الإقناع بالحجة اللغوية الخالصة ، ولكن اللغة تأتي هنا وسيلة لتمكين الحقيقة من نفس المتلقي»¹ ، فالمتعلم في المقام التعليمي الديني غايته الاستزادة من المعارف الدينية التي تنير له دربه وتعديل سلوكه لذلك يتوجب عليه أن لا يخرج عن جادة الصواب الذي يتطلبه مقام التعلم ، لأنها مع لغة الخطاب التعليمي تزيد من فاعلية التلقي .

إن حصرنا للخطاب في المجال التعليمي الديني يوحي لنا بأن المتلقي المستهدف هو متلق خاص ، لكن الأمر عكس ذلك تماما ، فهو مثله مثل القرآن الكريم كرسالة محمدية نزلت إلى الأمة الإسلامية ، لكنه خطاب عام موجه للعالمين كافة ، حتى الطبيعة التعليمية قد تخرج في مسعاها إلى أي متلق تكون غايته تعليمية كالتفقه في الدين أو الاستزادة فيه ، أو تقويم سلوكه ، غير أنه أحيانا ليس لزاما أن يكون المتلقي مطوعا لغايتنا التعليمية ، فقد ينتابه نوع من الشك فيعاند أو يجحد ، وهي صفات « تجعل الخطاب موجها إلى الجمهور المتلقي توجيهها يصيب في مرحلة أولى مرمى الاقتناع إن تلقاه المعتقدون المؤمنون ، ويدرك في مرحلة ثانية الإقناع إن تلقاه الجاحدون الرادون»² ، ولكن غالبا ما يكون المتعلم - المتلقي - حاملا لنفس اعتقاد وتوجه المعلم - المتكلم - في العملية التعليمية .

إن الخطاب التعليمي الديني غائي في ذاته يقوم على قصدية محتواه ، فمضمونه موجه للتأثير في المتعلم وإقناعه حيث يشحذ المعلم الخطاب بجملة من الوسائل اللغوية وغير اللغوية لتتفاعل فيم بينها لتعميق اعتقاد مخاطبه أو دحضه أو استبداله باعتقاد آخر ، وهذا المبدأ يعتبر « من الأصول البنائية "ل" كل خطاب حجاجي يروم النجاعة ، ويهدف إلى التحويل»³ ، وليس الخطاب التعليمي الديني بمنأى عن ذلك .

وخلاصة القول إن حجاجية الخطاب التعليمي الديني قوامها التأثير والإقناع ، فهي لا تقتصر على الأبعاد السياقية فحسب ، بل تهدف إلى الإقناع باستعمال الظواهر اللغوية بلاغية وأسلوبية ، بوصفها ضغطا على المتلقي ، وبذلك تختلف عن حجاجية الخطابات الأخرى بالمفهوم الغربي ، وهذا راجع إلى خصوصية المتلقي العربي خاصة المسلم الذي يحتكم في تعايشه إلى المرجعية الدينية ، متعلما كان أو عاديا ، فنجد مدفوعا

1 - مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص ، عيد بلع ، مرجع سابق ، ص 219 - 220 .

2 - الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل ، في نماذج ممتلئة من تفسير سورة البقرة - بث في الأشكال والاستراتيجيات ، علي الشبعان ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط 1 ، 2010 ، ص 92 - 93 . نقلا عن الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية ، أمال يوسف المغامسي ، مرجع سابق ، ص 33 .

3 - المرجع نفسه ، ص 113 ، نقلا عن : المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

للتصديق بالبواعث السياقية التي تتجاوزها قوى أخرى تنازع المسلم في العمل ومنجزه الفعلي بمقتضى ما يصدق به ، يعني أن الإنسان ينازع نفسه بين مشاعره وغرائزه من جهة ، وبين ما اعتاد عليه من طباع وأخلاق قد تنافي ما يصدق به ، فتصبح الحاجة هنا ليست في مقابل المتعلم المسلم نفسه بوصفه الطرف الآخر في العملية التعليمية ، ولكنها في مقابل نوازع الشر التي تتجاذب هذا المخاطب¹.

وما خلاصنا له في قضية الإقناع الحجاجي يصدق كذلك على التأثير بوصفه غاية وجدانية تختلف من خطاب إلى آخر ، ولعل أهم أنواع الخطاب تأثيرا الخطاب التعليمي الديني من منطلق أنه تأثير شعري ، يرمي من خلاله المعلم - صاحب النظم - تحقيق غاية تربوية فيتعاطف مع مخاطبه - المتعلم - لاستدراجه واكتساب موقفه ، فالعاطفة في الشعر تعد أسلوبا من أساليب الاستمالة الحجاجية يستهدف بها المخاطب ، لكن التأثير في الخطاب التعليمي عموما والديني بالأخص يتعد كلية عن المغالطات والمبالغات الشعرية التي قد تخرج الخطاب عن وظيفته التربوية ، لذلك يبقى تأثير ينطلق من الغاية الإبلغية التبليغية ويهدف إلى إقرار مبادئ وتعاليم دينية جنبا إلى جنب مع الإقناع².

وعموما فإن شبكة القناص تأخذ حجاجيتها من حجاجية الشعر ويتأتى ذلك في ما يلي³:

- أغراضه: أي الموضوعات التي يطرقها الشعر ، وتشمل فنون الشعر المعروفة من مدح وهجاء ، ووصف ، وتغزل ، وما يتعلق من قضايا اجتماعية ، أو نفسية ، أو سياسية ، أو دينية يعبر عنها الشاعر بمقاصديات تداولية حجاجية يهدف بها إلى التأثير والإقناع ، وهذا ما نجده في شبكة القناص موضوع الدراسة حيث يعالج فيها الناظم مواضيع معرفية تخص تعاليم الدين في قالب تعليمي فاعتمد الوصف في تشخيص المسألة الفقهية ، معتمدا أساليب التأثير والإقناع.

- أهميته في المجتمعات: دور الشعر في المجتمع ظاهر للعلن ، ذلك أن له أبعادا متعددة أهمها البعد الاجتماعي الذي يجسده الشاعر بلسانه ، فالعرب قديما كانت تفتخر بظهور الشاعر في القبيلة كما تسعد وتفرح بالمولود الجديد ، وقد واكب الشعر حضارة العرب وتطورهم عبر العصور ، بل كان الشاعر حاضرا جنبا لجنب مع الملوك والخلفاء ، وزعماء الفرق السياسية ، ولأهميته في التعلم والحفظ ، وتثريب المثور للأفهام

1 - ينظر: مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص ، عيد بليغ ، مرجع سابق ، ص 220.

2 - ينظر: المرجع نفسه ، ص 221.

3 - ينظر: الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية ، عادل عبد اللطيف ، مؤسسة أفاق للدراسات والنشر والاتصال ، ط 1 ،

فقد واكب الشعر الحركة العلمية فنظمت المتون التعليمية في مختلف العلوم والفنون المعرفية ومن ذلك علم الفقه الذي نظمت فيه شبكة القناص .

- جمالية لغته: جمالية اللغة وضبطها في قالب شعري ، مع تصويرها في مجازات تعبيرية - تجعل من الشعر أسلوب حجاج يجذب المتلقي ، ويخترق كيانه مما يدفعه لتغيير مواقفه وأفكاره ، وهو ما نلاحظه في المتون التعليمية رغم بساطة أسلوبها وجزالة ألفاظها ، فنظمها الفني يعكس إحساس ناظمها المرهف ، حيث يحرص على اختيار معجم لغوي يتماشى مع فهم مخاطبه ومستواه ، وجمالية الشبكة تكمن في منهجها المتبع الذي يعتمد على الإلغاز والتعمية وإخفاء المعنى .

وتأخذ شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص بعدها الحجاجي من الظروف المحيطة بنظمها ، وباعتبار أنها خطابا تعليميا يعنى بأمور الدين ، فإنها قائمة على دافعية حجاجية يقتضيها مقام التخاطب ، فالشبكة جاءت عبارة عن فعالية حوارية على شكل مناظرة خطابية تجعل كل واحد من المتخاطبين ذو شحنة حجاجية تدفعه للدفاع عن رأيه بما يملكه من حجج للوصول إلى الصواب ، وإظهار الحقيقة .

وإجمالا فإن حجاجية شبكة القناص تظهر في نزعتها الخطابية التي تنبني عليها رسالتها الفنية ، فهي إرساء لكلمة الحق ، وبيان لتعاليم الدين ، وحث على اتباعها ، لتكون نمط حياة مجتمعية وسبيل نجاة إيمانية ، خاصة وأن موضوعها معلم عبادة لله تعالى ، وسلوك معاملة بين الناس .

2 - فعل الشعر هو حجاجيته الأسلوبية:

على ذكر العاطفة وبعدها التأثيري في النص الشعري ، تتبدى لنا قضية جوهرية في دراستنا وهي علاقة الشعر بالحجاج ، فالشعر عند اليونان في التفكير الفلسفي الأرسطي يتسم إضافة إلى العاطفة بالتخييل ، في حين التأثير والإقناع يعتبران دعامتان رئيسيتان للحجاج جعلها من سمات الخطابة ، وبهذا التفريق أبعاد أرسطو تماما الحجاج عن ميدان الشعر .

إن التسليم برأي كهذا خاصة وأنه صادر عن أحد مؤسسي الفلسفة اليونانية يجعلنا ننفي عن الشعر حجاجيته ، لذلك اعتبرناه افتراض مسبق في تاريخ المعرفة الإنسانية قد يأتي يوما من يفنده عبر العصور ، وهذا ما وجدناه عند احد علماء العربية الذي رفض تفريق أرسطو فيقول: « ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب ، من كثرة الحكم والأمثال ، والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى ، وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ

بإزائها، وفي إحكام مبانيها، واقتراناتها ولطف التفاتاتهم وتمييماتهم واستطراداتهم، وحسن مأخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقويل المخيلة كيف شاؤوا، لزيد على ما وضع من القوانين الشعرية¹، نلاحظ أن حازم أعاب على أرسطو نفيه لحجاجية الشعر، ورأى أن موقفه يعد تصور للشعر اليوناني فقط ولا يمكن تطبيقه على الشعر العربي، وتحليل قوله - حازم القرطاجني - نخلص إلى أنه من القائلين بحجاجية النص الشعري، خاصة العربي وذلك لخصوصية نظمه وطبيعة لغته، وما يتصف به إبداعه من كثافة اللفظ وغزارة المعنى على عكس الشعر اليوناني، وفي تعريفه للشعر يذهب إلى أنه عمل إجرائي للحجاج قائلا: «الشعر كلام موزون مقفى، من شأنه أن يجب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتُحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخيل له»²، فهو وإن كان تخيلي؛ فإنه يشترك مع الإقناع لتحقيق الغاية التأثيرية، فيصبح أداة تغيير لهوى النفس ومرادها، فيقتنع المتلقي بما أردنا نحن عن قصد تحبيبه إليه فيقوم به، أو يعرض عن ما أردنا نحن عن قصد تكريهه إليه، فعبر الحجاج يؤدي الشعر وظيفته الإقناعية فتصل رسالة الشاعر بحمولتها الاستمالية وطاقاتها الإقناعية إلى متلقيها بنجاح تام، لترجم في الأخير إلى أفعال إنجازية.

إن هذا المفهوم الإجرائي للشعر يجعله مجالاً خصباً للممارسة الحجاجية، فتداولية الشعر ما هي إلا قيم حجاجية تصاحب القول الشعري في مقام معين فيتحول إلى أفعال إنجازية ذات صبغة حجاجية يقوم بها المتلقي، وهو ما يمكن تسميته فعل الشعر، ولنا في ذلك محطات عديدة في التاريخ العربي، نحو ما جاء على لسان الجاحظ في البيان والتبيين «تزوج شيخ من الأعراب جارية من رهطه، وطمع أن تلد له غلاماً فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد حول، وإذا هي ترقص بنيتها منه وهي تقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا :::: يظل في البيت الذي يلينا

غَضبانَ أن لا نلد البنينا :::: تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

1- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني أبو الحسن، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، الدار العربية

للكتاب، 2008، ص 61.

2- المرجع نفسه، ص 63.

ولما سمع الأبيات مر الشيخ نحوهما حُضرا حتى وكج عليهما الخباء وقبل بنيتها وقال: ظلمتكما ورب الكعبة! ¹، فالمثال يوضح فاعلية الشعر في البيئة العربية وما له من دور في تعديل سلوك الفرد، فلولاه لما عدل الأعرابي وهو شيخ طاعن في السن عن موقفه الرافض للبنات، ولكن بعد تأثره بأبيات زوجته وما صاحبها من ظروف مصاحبة كمرافقتها لابتها لما رجع إليها، وهذا التصرف فعل إنجازي ناتج عن تأثر الأعرابي بالقول الشعري مما لا يدعو للشك في حجاجية الخطاب الشعري.

ونراه في موضع آخر يؤكد فعل الشعر وما يفعله الأثر في نفسية الفرد إذ يقول: «ومن قدر الشعر وموقعه في النفع والضرر، أن ليلي بنت النضر الحارث بن كلدة، لما عرضت للنبي ﷺ وهو يطوف بالبيت، واستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها:

يا راكبا إن الأثيل مَظَنَّةٌ :::: من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن قصيدة :::: ما إن تزال بها الركائب تخفق
فليسمعن النضر إن ناديته :::: إن كان يسمع ميت لا ينطق

فقال رسول الله ﷺ: "لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته" ²، فنفترض أن النبي ﷺ سمع الأبيات قبل قتله أبا ليلي النضر الحارث بن كلدة، فإنه يتعذر عليه فعل ذلك بعد أن يتردد حيرة في نفسه بين قوة إيمانه الذي يدفعه لقتل أهل الشرك والكفر وبين رأفة قلبه ورقته التي تستسلم لحنين الابنة ليلي وحبها لأبيها. إذن فعل الشعر هو حجاجيته وتغييره للواقع، ومن ذلك ما فعله الشعر بصاحبه وله في المتنبي حياة تجعله - الحجاج - يتماس مع الشعر، ولم يكن الشعر سببا في قتله بعدما حازه غلامه بيت يعد من أبرع وأجود ما نظم؟، ... وذلك لما أراد الفرار من المعركة خوفا على حياته فنادى عليه الغلام كيف تفر وأنت القائل؟ ³:

الخيل والليل والبيداء تعرفني :::: والسيف والرمح والقرطاس والقلم.

عموما إن الحجاج في الشعر يأتي ليوضح مراد الشاعر غير أن بنية الحجاج في الشعر العربي تنزع نحو التستر والخفاء، وهو الحال نفسه إذا أسقطناه على العملية التعليمية في بعدها الديني، فالرسالة هنا ما هي إلا مضامين دينية منظومة في متون شعرية لتقريبها للطلاب بأساليب حجاجية لا تكاد تبين عن مقصد الشاعر

1- البيان والتبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ج4، مرجع سابق، ص47-48.

2- المرجع نفسه، ص43-44.

3- ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1983، ص332.

الحجاجي ولا تكاد تفصح عن نية اقتحام مناطق المتلقي والفعل فيها ، فقد يقرأ البيت قراءة متعجلة أو قراءة بلاغية صرفة فلا يفتن إلى الحجة الكامنة فيه فيظن المتعلم - القارئ - أن المعلم - الناظم واصفا ناقلا وهو في مقام مجادلة ومحاجة وقد يراه آخر شاكيا معاتبا في حين هو نائرا مدافعا عن رأي أو مهاجما آخر¹.

إن الأسلوب هو ما يؤكد خصوصية الحجاج في الخطاب الشعري عموما والتعليمي خصوصا ، فالأسلوب هو الرجل - كما أكدت الدراسات البلاغية الحديثة - فهو سبيل المتكلم في تعابيره ليؤثر ويقنع مخاطبيه ، فجماالية الصورة وبراعة الأسلوب تعكسان قوة الإقناع والتأثير حيث « تنحل هذه الطاقة الضاغطة التي بهما تتحدد ماهية الأسلوب ، إلى جملة من العناصر المركبة أبرزها فكرة التأثير ، وهي فكرة لا تخلو من ضبابية لأنها تشع على حقول دلالية متداخلة الحدود ، فهي تستوعب مفهوم الإقناع ، باعتباره شحنة منطقية يحاول بها المخاطب حمل مخاطبه على التسليم الوضعي بمدلول رسالته² فيتأثر بها أيما تأثير ، ناهيك عن أنها « تشمل معنى الإمتاع ، باعتباره سعيا حثيثا نحو جعل الكلام قناة تعبره الموصفات التعاطفية ، فينطفئ عندئذ الجدول المنطقي العقلاني في الخطاب ، وتحل محله نفثات الارتياح الوجداني ، وتستقطب أخيرا فكرة الإثارة وبموجبها يكون الخطاب عامل استفزاز يحرك في المتقبل نوازع وردود فعل ما كان لها أن تستنفر بمجرد مضمون الرسالة الدلالية ، ولولا اصطباغ الخطاب بألوان ريشة الأسلوب³ ، لما كان هناك تأثير ونحريك للمتلقى ، وهذه الألوان ما هي إلا ظلال حجاجية يستأنس بها المخاطب لإفحام واستمالة مخاطبه .

وعلى هذا الأساس فإن « النص الشعري إذن ليس لعبا بالألفاظ فقط ، وليس نقل تجربة فردية ذاتية فحسب ، إنه يهدف كذلك إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج ، وهو يسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته ، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه⁴ ، وليست شبكة القناص على درة الغواص بمنأ عن ذلك باعتبارها متنا تعليميا نظمت شعرا ، لتنتقل حقائق دينية نقلها الناظم من تجربة فريدة عايشها فأرادها أن تكون مضمون خطابه فساقفه في سياق تعليمي عماده الإلغاز وغايته اختبار الأذهان في الفهم ، فجمعت بذلك إلى جانب وظيفتها الشعرية وظيفته توجيهية إقناعية .

1- ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 311.

2- الأسلوبية والأسلوب ، عبد السلام المسدي ، مرجع سابق ، ص 81.

3- المرجع نفسه ، ص 81-82.

4- الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، الأهدية للنشر ، ط 1 ، 2007 ، ص 35. / نقلا عن الحجاج في الخطاب عادل لولو ،

3- في بلاغة الخطاب التعليمي الديني:

انطلاقاً من التعريف القديم للبلاغة المحصور في أنها « فن القول » يتضح أن أي خطاب خرج عن مألوف الاستعمال اللغوي للتواصل هو بلاغة ، ويتبدى ذلك في النثر والشعر تحديداً ، إذ أنه خروج عن نمط الكلام اليومي ببنائه المخصوص فكان عمود الشعر بأوزانه وقوافيه وجه البلاغة عند العرب ، فقد عرفوا منذ الجاهلية بسليقة لسانهم وجزارة مفرداتهم وبلغة كلامهم ، فكانوا لا يتكلمون العربية إلا وفصاحتها اللغوية والبيانية بادية لا تكاد تخفيها ألسنتهم ، فشغفوا بفن القول من مآثور كلامهم شعرا ونثرا ، فولد ذلك - خاصة الشعر - ثروة لغوية يتداولونها في الاستعمال اللغوي ، فكان الشعر عندهم «ديوان علمهم ومنتهم حكيمهم ، به يأخذون وإليه يصيرون» ، ولما جاء الإسلام نزل القرآن الكريم بلسان العرب يقول تعالى: ﴿لَهُمْ لُبَيِّنَاتٌ مِّن قَوْمِهِ بِلسَانِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ فَسَمِعُوهُ قَوْلًا فَاخْتَلَفُوا فِيهَا لَأَسْفَهًا﴾ ، فراقت لهم بلاغته وأبههم نظمه المعجز ، فكانت بداية الدرس اللغوي العربي بتذاكره وتدارسه والتمعن فيه لفهم آياته ، وكلما أشكل عليهم لفظ عدوه غريبا ورجعوا إلى الحديث النبوي ثم ديوانهم الشعري لإبانتته وفهمه ، فكان الشعر إذا معجمهم اللغوي الذي يستعجم الغريب من كلامهم .

فاستعجم الغريب إذا هو إرهاب للممارسة التعليمية عند العرب فهو تيسير وتسهيل لفهم ما استعصى على العرب في معاني القرآن الكريم ، وهو ما يبين أن الخطاب الديني في مجمله خطاب تعليمي خالص ؛ فالقرآن لما نزل أخرج الأمة من ظلمات الجهل تنويرا ، والحديث النبوي أتم ما جاء فيه تفسيرا ، ليأتي الشعر ليسط تعاليمه تيسيرا ، فما يربط الشعر بالنص الشرعي هو الغاية التعليمية وهي وظيفة تربوية روحية نستشف معانيها من مرجعيتها الدينية .

إن بلاغة القرآن هيبحث في أسرار نظمه المعجز ، فهي حكمة سماوية واجه بها المولى عز وجل أهل البلاغة في الأرض ، كيقين ومحجة للهداية واتباع رسوله ﷺ ، فهو إثبات للحقائق عن طريق التغيير والتسليم بها بعدما كانت اعتقاد خاطئ يسير عليه سلوك البشرية فرادى وجماعات ، إن الحديث عن بلاغة القرآن هو حديث عن بلاغة النص الشرعي عموما وبالتالي فإن الظاهرة البلاغية تتحقق أيضا في الحديث النبوي الشريف على اعتبار أن موضوعاته مستوحاة من النص الشرعي الأصل وهو القرآن الكريم كلام الله إلى الخلق كافة .

1- تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور ، ابن حويل الأخصر ميدني ، دار هومه ، الجزائر ، دط ، 2009 ، ص 09 .

2- سورة إبراهيم ، الآية 04 .

إذن إن الدين عند الله الإسلام ، فهو تشريع ونظام حياة يتعايش به المسلمون ، منه يستمدون ضوابط سلوكياتهم ومكارم أخلاقهم وقيمهم الإنسانية ، فهو أولا عبادة لله خالصة ، وهو ثانيا معاملة فيما بينهم إشادة ، وهو ثالثا حدودا في الابتعاد عنها إفادة ، فهذا التقسيم هو في الإجمال أبواب الفقه الثلاثة التي يقوم عليها الدين الإسلامي ، وهي العبادات والمعاملات والحدود ، لذلك حرص المسلمون على البحث فيها وتعلمها ، ولأن النصوص الشرعية متشورة لا تمت للشعر بصلة وحاشا أن تكون كذلك ألقوا في ذلك متونا تعليمية عديدة نظما لتسهيل حفظها وفهمها ، وهو عمل أدبي في غاية الأهمية لما له من دور في المجال التربوي التعليمي¹

يتبدى لنا أن المبدأ الأساس الذي ظهرت لأجله هذه المتون التعليمية هو تذليل ما صعب من علوم وتقريب ما بعد من معارف ، ومن بين العلوم التي جاءت لأجلها ؛ علوم الدين وما تبعها من أحكام الشرع ، فكان نظمها وحفظها من باب البحث في الدين ، ومن ثم عدت المتون التعليمية التي تعنى موضوعاتها بأمور الدين خطابات تعليمية دينية ، لها أساليبها وخصائصها ، وهي إن كانت نمط مغاير لمألوف الشعر خاصة وأنها منظومة على رجزه فإن لها من البلاغة ما يجعلها تفند ما ذهبت له كثير من الأبحاث النقدية التي نفت البلاعة عن المتون التعليمية ، وجعلتها جافة خالية من الجمالية والمتعة ولم تجمع بين التأثير والإقناع ، ولكن بالأساس يكفي هذه المتون غايتها التعليمية النبيلة التي قدمت في بناء لغوي فرض بجزالة لفظه وبساطة نظمه خصوصيته البلاغية .

إننا في هذا المقام نعارض الدارسين الغربيين ومن حذا حذوهم من العرب في موقفهم الراض لبلاغة الخطاب التعليمي ، ذلك أنهم ينظرون للأسلوب التعليمي نموذجا للنمط المتدني من الأساليب ، « لقد عرض رمان سلدن لأراء البلاغيين الأوربيين في أنواع الأساليب فذكر أنواع الأساليب الثلاثة: المتدني والمتوسط والرقيع ، ... مشيرا إلى أن لهذه المهات الثلاث للخطيب ثلاثة أساليب: الأسلوب الواضح للدليل ، والأسلوب المتوسط للمتعة ، والأسلوب الرفيع للإقناع ، وفي الأسلوب الأخير تكمن القوة الكاملة للخطيب »¹ ، فهذه نظرة قاصرة محصورة على أساليب تعليمية محددة وقف عليها الغربيون ولا يمكن أن نعمم رأي "رمان سلدن" على الخطاب التعليمي في العربية ، فالخطاب التعليمي العربي يستمد بلاغته من خصائص لغته من جهة ومن وظيفته التي يؤديها في ظروف سياقية مفعمة بالتأثير والإقناع من جهة أخرى .

1 - مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص ، عيد بلبع ، مرجع سابق ، ص 41 - 42 .

وإجمالاً نقول إن الغاية التعليمية لا تعيب الوصف الذي عرضه الغربيون عنهم بأنهم «واضحون وموجزون في الأسلوب، يشرحون كل شيء ويؤثرون الوضوح على الغموض، ويستخدمون أسلوباً مهذباً ومركزاً، وخالياً من الزينة والزخرفة»¹، وفي الحقيقة هذا الوصف وإن كان صاحبه ينفي بلاغة الخطاب التعليمي فإن العربية تؤكد أنه فن من فنون القول، استمد بلاغته من إيقاع شعره وخفة حركاته وجزالة لفظه ومباشرته المعنى تأثيراً وقدرته على الإقناع تركيزاً تماشياً وسياق الحاجة.

ومن أوجه بلاغته أنه «يراعي أبعاداً في الخطاب تتجاوز حضور المخاطب، لأنه خطاب ذو تأسيس تشريعي يتجاوز العصور بما يقتضيه هذا التجاوز من تغير ظروف التلقي وملابساته،... فالمخاطب المعنى بالإبلاغ والإيضاح يتحتم عليه الوضوح في الاستعمال اللغوي، مع الاحتفاظ بالخصوصية والتفرد»²، كما أنه - الخطاب التعليمي - ليس بمنأى عن الغاية الجمالية فخصائصه الأسلوبية من إيجاز وجزالة وبساطة التي تقتضي الإبانة والوضوح تجمع بين الغاية التأثيرية والإقناعية، وهو جوهر القول البليغ، الذي تؤكد تعاريف البلاغة فـ «مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»³، وهذا ما يسعى له ناظمو المتون التعليمية باعتبارها منهج تعليمي لتيسير ما استعصى على المتلقي المتعلم حفظه وفهمه، فكان هذا النظم التعليمي سبيلهم في توضيح ذلك وإبانته كبيان وبلغة في ذلك المقام.

إن وجه البلاغة في الخطاب التعليمي الديني إذن هو التناسب بين الموضوع المدروس وأسلوب طريقته من ناحية، وبين الغاية التعليمية التشريعية وهذا الأسلوب من ناحية ثانية، ليصبح الأسلوب التعليمي في غاياته وأهدافه أسلوباً رفيعاً له فضل السبق في العملية التعليمية، وهذا ما يجعل الخطاب التعليمي بشكل عام والديني بشكل خاص يحقق غايته من خلال ما ينجزه من أفعال نتيجة تمكين الحقائق في النفوس، وبمقدار ابتعاده عن الخيال، فيأتي كمحاجة يتم فيها التحول بالقول إلى منجز فعلي في الواقع، حجاج قول بليغ من فنون القول الهادفة يخاطب القلوب إمتاعاً والعقول إقناعاً، ساعياً إلى إقرار منهج حياة منتظم، بتقويم سلوك الأفراد والجماعات.

1. مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص، عيد بليغ، مرجع سابق، ص 42.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان، ج1، مرجع سابق، ص 76.

الآليات الحجاجية في شبكة القناص



المبحث الأول: الحجاج اللغوي في شبكة القناص

أولاً: مفهوم الحجاج اللغوي

دأبت الأبحاث اللغوية تدرس اللغة على أنها أداة تعبير وتواصل بين البشر، ولكن جانبها الاستعمالي يجعلها حقيقة حوارية، تدعو لفعل ما، أو الدفع لإحداث تغيير معين، حيث أصبحت بتاريخيتها وبحكم تركيبها ومنطقها الداخلي رابطة اجتماعية فكرية من الدرجة الأولى، فهي أداة للتفكير وتلقي المعرفة، فكانت بأدواتها وآلياتها رموزه وطرق تجسيده، بل يمكن القول إنها الفكر نفسه في حالة العمل، فليس ثمة مجرد بغير رموز لغوية، ولا تفكير بغير لغة¹، وبذلك تجاوزت وظيفتها من كونها «وسيلة تواصل إلى وسيلة تأثير في العالم والسلوك، ويصير الكلام ذا قوة بلاغية كامنة فيه، تظهر حال النطق به، وقوة أخرى تأثيرية فعلية، على مستوى المتلقي تظهر من خلال الآثار والنتائج المترتبة»² عنه.

وكما تأتي اللغة في مفهومها الإحرائي أداء فعلياً بين مستعمليها تأتي كذلك كتفاعل فعلي بينهما على مستوى الفكر، «فاللغة تحمل محتوى، والمحتوى هو المعرفة، والمعرفة قوة»³ تبسط سلطتها عبر اللغة للتأثير وتحقيق غاية الإقناع، إن فعل اللغة يعني «إدارة المعرفة لصالح حياة أفضل على كل الأصعدة... مستمداً من اللغة قوة التغلغل في تلافيف الدماغ وقدرتها على صناعة قناعات جديدة نطمح أن تشكل نمطاً جديداً لحياتنا قائماً على المساءلة والمثاقفة والتغيير من حسن إلى أحسن»⁴، نحو ما نجده على الصعيد الاجتماعي وما يستدعيه استحضار القيم الدينية في تقويم المجتمع وتعديل سلوكه، فكان الدين الإسلامي مناصب النهج القويم وتعليم أحكامه خلاص المجتمع السليم.

إن منطق اللغة يجعل استعمالها غائي قصد التأثير، وهو وظيفة إقناعية قائمة في اللغة ذاتها وليس خارجها، مما يجعلها ذات صفة حجاجية مؤثر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي المعنى عموماً وما يشكله من ظواهر صوتية و صرفية ومعجمية وتركيبية ودلالية خاضعة لها، فمنطق اللغة هو ما يحكم الخطاب من قواعد

1- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، يناير، 2011، ص134.

2- ينظر: في اللسانيات التداولية، خليفة بوجادي، مرجع سابق، ص94.

3- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، مرجع سابق، ص58.

4- المرجع نفسه، ص78.

داخلية تتحكم في تسلسل الأقوال وتناميها تدريجياً¹، ونظراً لحجاجية اللغة اشتملت اللغات الطبيعية على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج، فالعربية مثلاً تشتمل على جملة من الروابط والعوامل الحجاجية، ولا يمكن تحديدها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية، ومن هذه الأدوات: "لكن، بل، إذن، حتى، لا سيما، إذ، لأن، مع ذلك، ربما، تقريباً، إنما، ما، إلا، ... الخ"².

وتنقسم الأدوات اللغوية إلى قسمين، فمنها الروابط الحجاجية ومنها العوامل الحجاجية، ونقصد بالروابط ما يربط بين قضيتين أو بين قولين، أو بين حجتين على وجه خاص، حيث يكون لكل قول دوراً محدداً في بناء الحجاج، نحو: الواو، الفاء، بل، لكن، لا سيما، حتى، إذن، لأن، إذ، بما أن، لا سيما، بما أن... الخ، أما العوامل الحجاجية فهي التي ليس لها علاقة بالربط بين الحجج وتناجها، ودورها يكمن في حصر الإمكانيات الحجاجية لقول ما وتقييدها، وتضم أدوات من قبيل، ربما، كاد، تقريباً، ما... إلا، قليلاً، كثيراً، وغيرها من الأدوات التي تؤدي وظيفة القصر³.

وما يمكن استخلاصه إجمالاً أن اللغة على أهميتها ودورها في التواصل والتعبير، تسهم في بناء النظرية الحجاجية وذلك لأنها آلية من آليات التأثير في المخاطب وإقناعه، وما يجعل هذه الأقوال متراسة في بنيتها منسجمة في معانيها، هي هذه الأدوات اللغوية التي تتوالى بين متغيرات القول، فتسهم في تشكيل الخطاب وترتيب مكوناته، فتربط بين القضايا المطروحة من جهة، وتربط المقدمات بالنتائج من جهة ثانية.

فالحجاج اللغوي هو حجاج اللغة وفعاليتها التأثيرية، وهو منحى لساني ينطلق من فكرة أننا نتكلم عامة قصد التأثير، فهو فعل لغوي ووظيفة أساسية للغة الطبيعية، ما دامت اللغة تنجز تسلسلات داخل الخطاب من نمط استنتاجي، وبالتالي فهو تحقيق لمتواليات من الجمل والأقوال، البعض منها حججاً وبعضها الآخر نتائج، لتكون التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال، بل محددة أساساً بواسطة بنية الأقوال، وما يشكلها من أدوات لغوية⁴.

1- ينظر: اللغة والحجاج عمق النظرية ودقة الإنجاز، حسن مسكين، ضمن كتاب: الحجاج اللغوي قراءة في أعمال الدكتور

أبو بكر العزاوي، تنسيق: حسن مسكين، مرجع سابق، ص 13.

2- ينظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، مرجع سابق، ص 26.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص 27.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص 21، 22.

ثانيا: الأدوات اللغوية في شبكة القناص

ولأهمية اللغة في أي حوارية فكرية ، فقد استطاعت ببنيتها التركيبية وما تحتويه من أدوات لغوية أن تنوع في وظائفها التعبيرية ، فشملت إضافة إلى الإبلاغية الجمالية والإقناعية ، وهو ما رصدناه في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص هذا الخطاب التعليمي الديني الذي ضم محتواه معارف دينية تعد حلولاً لمسائل فقهية يسعى صاحبها عن طريق المساءلة والجواب بعبارة "إن قلت قلت " ، أن تكون قوة فاعلة للتغيير وتعديل سلوك المجتمع .

1 - الروابط اللغوية:

أشرنا من قبل إلى أن الأدوات اللغوية لها وظائف عدة ، أهمها « الربط الحجاجي بين قضيتين ، وترتيب درجاتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب »¹ ، فالرابط الحجاجي « لفظ لا يدل بحد ذاته على أي معنى ، وإنما من طبيعته أن يربط فقط بين الألفاظ المختلفة لتبيان العلاقات القائمة فيما بينها »² ، وعادة ما تأتي هذه الألفاظ بين قولين ، أو حجتين يمكن أكثر ، حيث يسند لكل قول دورا محددًا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة للخطاب³ .

فعبد الرحمن بن محمد العالم الانزجيري يحاجم مخاطبه المتعلم - وإن كان مختبرا له في الغالب - ويدعوه إلى الفعل والتغيير ، باتباع ما يراه قويا وصحيحا في ما قد يعتريه من شك أو لبس في مسألة فقهية مستخدما سلطة اللغة باعتبارها وعاء أفكاره ووسيلة تواصله مع مخاطبه ، بها يحدث فعله فيه ويؤثر فيه ويغير ما يستطيع تغييره في حدود الممكن والمحتمل ، معتمدا على تقنيات استدلالية تقوم على وسائل وأدوات لغوية لعرض قضاياها المطروحة والربط بين متغيراتها الحجاجية ومن ذلك:

أ - الواو:

هي من الروابط اللغوية التي تستعمل عادة للجمع وضم الشيء للشيء ، وعادة ما تكون للعطف ، وهو ما جعلها تؤدي وظيفتها بكل حرية وطواعية ، فتأتي لتربط أجزاء الكلام بعد تدافعه فتجمع متعاطفيها مثلما يتدافع النفس عند خروج صوتها ، وحجاجيتها تكمن في توجيه الحجاج بالربط بين الحجج وترتيبها .

1- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 508 .

2- الشمسية في القواعد المنطقية ، نجم الدين القزويني ، تح: مهدي فضل الله ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1 ،

1998 ، ص 48 . نقلا عن عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتيجيات الخطاب ، مرجع سابق: ص 508 .

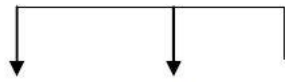
3- ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته ، ج 1 ، حافظ اسماعيلي علوي ، مرجع سابق ، ص 199 .

ونشير إلى أن "الواو" تتبدى حجاجيتها في مظهرين اثنين ، أولاهما تؤدي وظيفة الاستئناف حتى يحقق النص انسجامه الحجاجي ، وثانيهما أنها تقوم بتحقيق التوجيه الحجاجي وتعميقه مهما كانت وظيفتها حالية أو عاطفة أو غيرها¹.

ومن صور استعمالات صاحب شبكة القناص لهذا الرابط الحجاجي نورد²:

إن قلت شخص قد تزوج امرأة :::: بلا ولي وشهود مجزئة
ولا صداق وبنا فقررا :::: ذلك النكاح القاضي لما نظر
من غير أن يلزمه بمهر :::: قلت أجل هذا بحال كفر
فإن يكونا أسلما بعد البنا :::: فالحكم أن يقر رفعاً للعنا
وإن يكن قبل فمهر المثل :::: يلزم إن بنا بها عن كل

المتتبع لهاته الأبيات يجد أن الشاعر استعمل رابط "الواو" أربع مرات ، حيث جعل العامل الحجاجي الملفوظ الذي بعده في أعلى مراتب السلم الحجاجي ، ليسهم في تحديد المعنى الذي يرومه الناظم وأورده إجمالاً وتفصيلاً "ولي ، شهود ، صداق" ، فهذه كلها شروط ضرورية في عقد النكاح في الدين الإسلامي ، لكن أهميتها تتفاوت من شرط لآخر ؛ فيأتي الولي أولاً ثم الشهود ثم الصداق ، وجاء هذا الترتيب متساوفاً إجمالاً بواسطة العامل الحجاجي "الواو" عبر تجزئته للملفوظ إلى قطع خطائية حسب منزلة كل منها في السلم الحجاجي .



شخص نزوج امرأة بلا ولي وشهود ولا صداق = بلا ولي (بلا شهود + بلا صداق).

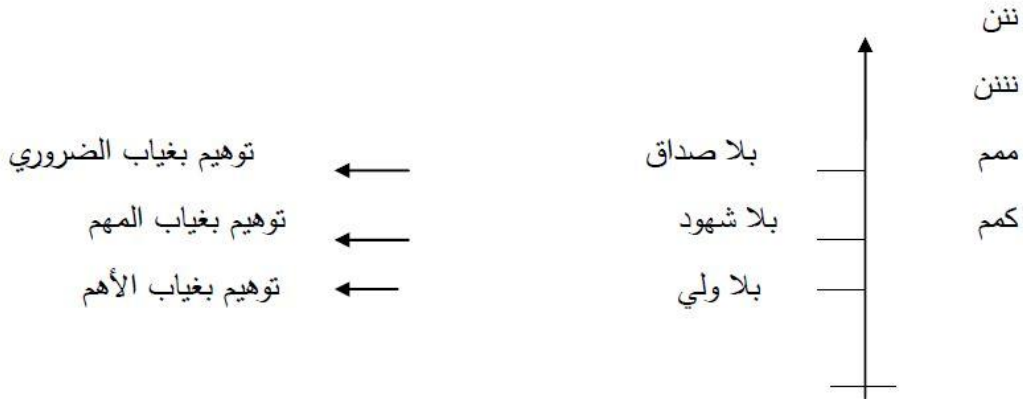
ويمكن تمثيل صورة ما تلفظنا به على السلم الحجاجي وفقاً للآتي:

1- القاموس الموسوعي للتداولية ، جاك موشلر - آن ريبول ، تر: عز الدين المجذوب وآخرون ، المركز الوطني للترجمة ، دار

سينا ، تونس ، ط2 ، 2011 ، ص111 - 112.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص116.



فمن حجاجية الرابط " الواو " أنها جعلت الملفوظ الكلامي يخرج بالنكاح عن أصله بتجزئته إلى ثلاثة مقاطع رئيسية أولها فقدانه أهم شرط فيه وهو الولي الشرعي الذي يتوجب حضوره لعقد نكاح ابنته ، ثم غياب الشهود وهو شرط مهم في عقد النكاح ليختمه بفقدان شرط أساسي آخر هو الصداق لكونه حق للمرأة ، فهو تمويه من المخاطب صاحب شبكة القناص لمخاطبه بغية إثارتة لإعمال فكره واستحضار ذاكرته ليغيب عن هذه المسألة الفقهية ، فإن لم يقتنع المخاطب إلى غياب الولي ، ليقول ببطلان هذا النكاح ، فإنه بفضل حجاجية رابط " الواو " سيتنبه لغياب الشهود ، وحتى يزيد من تمويه مخاطبه ، استعمل " الواو " مرة ثانية مغيبا الصداق من هذا النكاح ، وحتى يبين الوظيفة الحجاجية للرابط " الواو " جعله يؤدي وظيفة التوكيد حيث جعلها تؤكد له أن هذا الشخص رغم غياب هذه الشروط من عقد النكاح إلا أن نكاحه صحيح فقال " وبنا " ، ذلك أنه نكاح وقع بين مشرك ومشرقة قبل دخولهما الإسلام .

فلاحظ عبد الرحمن بن محمد العالم الأنزجيري استعمال الرابط الحجاجي " الواو " في المثال السابق في مواضع عدة ، وجاءت عطفًا بغية توجيه الحجاج وتعميقه ، ليسهم في تشكيل الخطاب وضبط منهجه بربط ما سبق من مقدمات بما يلحقها من نتائج ، وكأن به يريد أن يشخص لمخاطبه المتعلم تعاقب الأحداث وترتيبها حتى تثبت المسألة الفقهية المطروقة في ذهنه ليستطيع فهمها وتحليلها .

وبعيدا عن العطف الحجاجي الذي يقوم به " الواو " نجدها في مواضع أخرى تقوم بوظيفة الاستئناف

نحو قوله¹:

وإن تشأ قلت نكاح قرر :::: وعقده بعدة كان جرا

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

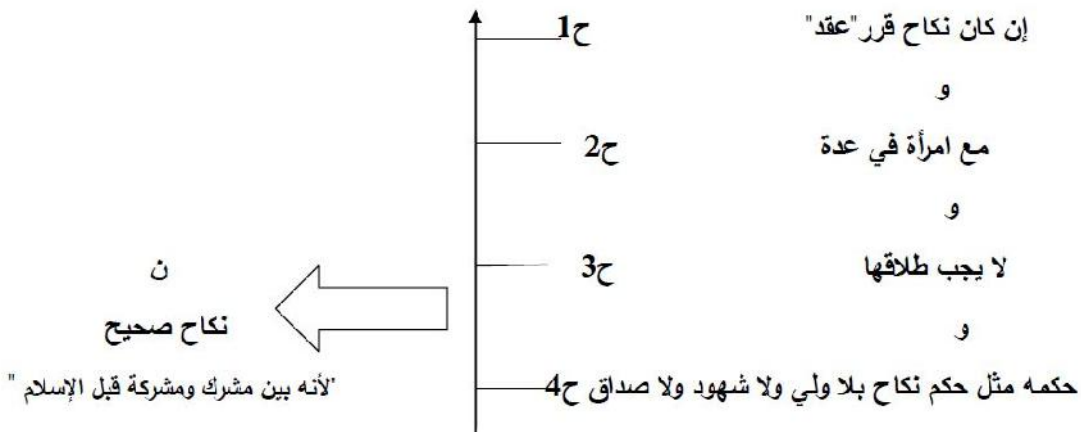
الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 116.

وَلَا يُكَلِّفُ طَلَاقَهَا وَهِيَ ::::: فِي الْحُكْمِ مِثْلُ ذِي مَضْتٍ لِلشَّبَةِ

نلاحظ في هاته الأبيات أن رابط "الواو" ورد أربع مرات متتالية ، أغلبها استثنائية جاءت في مستهل الحديث تمهيدا لعرض القضية وتقديمها في شكل حجاجي منسجم ، وذلك في قوله "وإن تشأ ، وعقده ، ولا يكلف ، وهي في الحكم" ، فهو هنا يعرض دعواه المتمثلة في النتيجة التي يريد إقناع مخاطبه بها ، فأورد له مجموعة من الحجج تباعا مستخدما "الواو" كرابط حجاجي يوصل الحجة بالحجة ليثبت النتيجة المرجوة وبالتالي تؤثر في المخاطب فيقبلها ، فانتقى من الحجج ما يناسبه وأكثرها فاعلية وإيهاما للمخاطب .

فالحجة الأولى أن الرجل قد عقد نكاحه بمعنى أنه اختار لنفسه امرأة كزوجة لتحل له دون غيره ، والحجة الثانية أن هذه المرأة قبل أن تصبح زوجته كانت في عدة نتيجة رحيل زوجها الأول بوفاة أو طلاق ، أو خلع ، والحجة الثالثة دخوله عليها رغم وجودها في عدة ، والحجة الرابعة رغم كل ذلك لا يجب عليه تطليقها ، فهذه كلها حججا جاءت مترابطة بواسطة الرابط الحجاجي "الواو" لتدعيم النتيجة التي يريد المخاطب وهي إيها مخاطبه ببطلان هذا النكاح ، وهو في الأصل صحيح كونه نكاح مشرك لمشركة ثم دخل الإسلام شريطة أن يسلم بعد انقضاء العدة ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، ولأنه إذا تزوجها ثم أسلم وهي في عدتها بطل هذا النكاح .

ويمكن أن نمثل له في السلم الحجاجي الآتي:



ب - لكن:

حرف ناسخ من إن وأخواتها مشبه بالفعل في عمله ، حيث يدخل على الجملة الاسمية ، فينصب المبتدأ اسما له ، ويرفع الخبر خبرا له ، من وظائفه أنه يفيد الاستدراك عادة ، حيث «تنسب حكما لاسمها ، يخالف المحكوم عليه قبلها ، كأنك لما أخبرت عن الأول بخبر ، خفت أن يتوهم من الثاني مثل ذلك ، فتداركت بخبره ، إن سلبا ، وإن إيجابا ، ولذلك لا يكون إلا بعد كلام ملفوظ به ، أو مقدر ، وقال

بعضهم: "لكن" للاستدراك والتوكيد¹، فلكن رابط حجاجي يستعمل وسطا في الكلام حيث يناقض ما قبلها ما يأتي بعدها، نفيًا أو إيجابًا، فإن جاء ما قبلها إيجابًا فإنك تستدرك بها للنفي، وإن كان ما قبلها سلبيًا، فإنك تستدرك بها للإيجاب.

وللتوضيح أكثر نورد المثال التالي:

زيد: لماذا لم تثبت حركة الاسم؟

- عمر: لم أثبت حركته لكنني تجنبت اللحن تسكينًا.

نرى أن عمر نفى إثبات حركة الاسم أولاً، ثم دخل في كلامه محاججا لدفع الخطأ عن نفسه بتسكينه حركة الاسم.

وهناك بعض التداولين من يقارن بين "لكن" و "الواو" ويقول بأن "لكن" لها وظيفة تداولية تخرجها عن وظيفتها الحجاجية بتوسطها الكلام لمغايرة المعنى ونقضه، كـ"ديورا شيفرون - Deborahschiffrin" التي ترى أنه بالرغم من أن "لكن" «من أدوات تنسيق الخطاب، إلا أن لها وظيفة تداولية مختلفة، وهي أنها تجعل للوحدة التي تليها فعلا مضادا، ولأن هذا الدور مؤسس على معناها المضاد، فإن مدى استعمالها الذهني أضيق من مدى الواو»² في انسجام الخطاب وترتيب حجاجه.

وقد أشار علماء العربية إلى معاني الرابط "لكن" وعلاقتها بالواو، حيث ذهب الكسائي والفراء وأبي حاتم إلى اقتران "لكن" بالواو، فتأتي مشددة وتكون عاملة عمل "إن" وهي غير عاطفة، أما إذا لم تسبق بالواو فتكون مخففة وعاطفة، ولأنها مخففة عدوها حرفا غير أصلي بل فرع عن "لكن" المشددة³.

في حين ذهب جمهور النحاة إلى القول بأنها حرف عطف واختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال⁴؛

- لا تكون عاطفة إلا إذا لم تدخل عليها الواو، وهو رأي الفارسي وأغلب النحويين.

- تكون عاطفة، شريطة أن تلحق بالواو، والواو في هذه الحال تكون زائدة. وهذا قول ابن عصفور

وسيبويه والأخفش.

1- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تح: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

ط1، 1992، ص515.

2- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص512.

3- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، مرجع سابق، ص587.

4- ينظر المرجع نفسه، ص587-588.

- أنها تأتي للعطف وتكون مخير في الإتيان بالواو ، وهذا مذهب ابن كيسان .

وأكثر ما اتفق عليه النحاة حول اقتران "لكن" بالواو سواء كانت عاطفة أو غير عاطفة أنها حرف استدراك نحو ما ذهب إليه يونس بن حبيب الذي يجزم أنها غير عاطفة بل تأتي لاستدراك ما قيل قبلها ، والواو عاطفة لما بعدها عطف مفرد على مفرد ، وأخذ بقوله ابن مالك في التسهيل وقال أنها غير عاطفة وقال في شرحه أن الواو قبلها تأتي عاطفة جملة على جملة¹ .

وعن حجاجية الرابط "لكن" فإنها تستعمل توخياً وتحفظاً لاستدراك ما ينقض به النتيجة المقدمة ، فتأتي لكن بمعاني مغايرة في بناء حجاجي محكم داحض تكون نتيجته أقوى من سابقتها .
ونشير إلى أنه حيثما ورد الرابط الحجاجي "بل" وما يماثله من روابط حجاجية ، يأتي على نمط "أ لكن ب" ويستلزم أمرين² :

أن يقدم المتكلم "أ" و"ب" باعتبارهما حجتيين مختلفتين ، الحجة الأولى موجهة نحو نتيجة معينة "ن" ، والحجة الثانية تأتي لنتيجة مضادة لها فتكون "لا ن" .

- تقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى أي أنها هي التي توجه القول أو الخطاب برمته .

وبالرجوع للديوان نجد عبد الرحمن بن محمد العالم يستعمل رابط "لكن" في سياقات مختلفة يستدرك بها ما فاته سلباً أو إيجاباً ومن ذلك قوله³ :

إن قلت أعرف صحيحُ جسد ::::: صلى على الأرض لغير سند

لكنه بظهر شخص سجد ::::: فلم يكن في فعله مفندا

قلت إذا لم يجد أين يسجد ::::: لكثرة الزحام ممن سجدوا

إلا على ظهر أخيه وسجد ::::: أجزا وذا بجمعة عنهم ورد

عن الذي نقله بن راشد ::::: عن أشهب مع شذوذ زائد

1- ينظر: الجني الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، مرجع سابق ، ص 587-588 .

2- اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 58 .

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 63 .

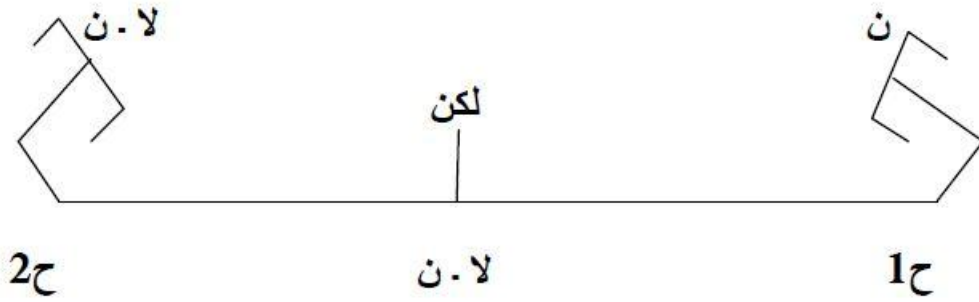
الآيات تعرض مسألة فقهية تدخل في باب الصلاة، حيث يريد الشيخ عبد الرحمن بن محمد العالم أن يختبر ذهن مخاطبه ملغزا حل المسألة ليرى إن كان سينتبه له أم لا، فاستعمل الرابط الحجاجي "لكن" ليستدرك ما أورده من كلام قبل "لكن" بما يأتي بعدها، فما ورد قبل "لكن" من كلام يتضمن حجة واضحة يستطيع أي واحد منا إدراكها وهي أن أحد المصلين صحيح معافي أدى صلاته كما جرت العادة على الأرض مستقبلا القبلة، وحتى يعارض كلامه وينقضه استعمل الرابط الحجاجي "لكن" استدراكا على ما يقتضيه الحكم الفقهي لهاته الصلاة صحيحة أم باطلة، كونه بدلا من أن يسجد على الأرض سجد على ظهر المصلي الذي أمامه.

فحجاجية الرابط "لكن" جعلت الناظم يخرج بالمعنى المراد كلامه من الإيجاب إلى السلب، وهي خاصية حجاجية استعملها صاحب الشبكة ليفعل أدائها التعليمي ويوهم مخاطبه - المتعلم - بأن هذه الصلاة باطلة لأن المصلي لم يضع جبهته على الأرض، وهي حجة داحضة لما قبلها وقوية تجعل المتعلم يقر ببطلانها، ليجيب عن المسألة على لسان مخاطبه الافتراضي - المتعلم - أنها صلاة صحيحة وما فعله المصلي جائز لأنه كان في صلاة الجمعة وهي صلاة تعرف بكثرة المصلين وازدحامهم إلى درجة أنك لن تستطيع أن ترقع أو تسجد بشكل صحيح وصحيح، فما كان للمصلي إلا أن يسجد على ظهر من أمامه.

فالحجة الأولى تخدم نتيجة من قبيل "شخص صحيح معافي صلى على بساط الأرض يفترض أن يسجد على الأرض، ولأنه سجد على ظهر شخص أمامه فصلاته غير صحيحة"، تعارض مع حجة أخرى وردت بعد الرابط الحجاجي "لكن" وهي "بظهر شخص سجد"، وهي حجة تخدم النتيجة المضادة للنتيجة السابقة "لا - ن" وتخدم النتيجة اللاحقة وهي أن الصلاة صحيحة رغم سجوده على ظهر من أمامه، وما دامت الحجة الثانية "لا - ن" أقوى من الحجة الأولى "ن"، فإنها ستوجه القول بمجمله نحو النتيجة "لا - ن"، أي صحة الصلاة لا بطلانها، وبذلك يمكن القول أن صاحب الشبكة استطاع بفضل الرابط الحجاجي "لكن" أن يغير رأي أو اعتقاد مخاطبه ويدفعه للتسليم برأي آخر.

ويمكن أن نمثل للوظيفة الحجاجية التي قام بها الرابط الحجاجي "لكن" في الخطاطة التالية¹:

1- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، مرجع سابق، ص 59.



ويمكن أن نشرح بيانات المخطط في الآتي:

ح1: الحجّة الأولى.

ح2: الحجّة الثانية.

ن: نتيجة الحجّة الأولى ح1

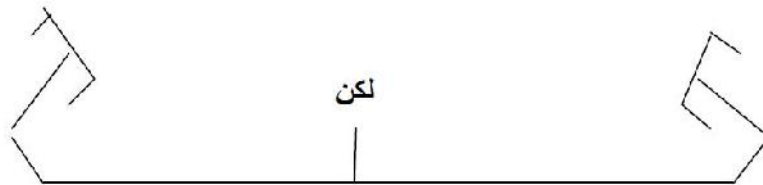
لا - ن: النتيجة المضادة للنتيجة ن.

لكن: الرابط الحجاجي.

أما عن وظيفة الرابط الحجاجي "لكن" في المثال السابق يمكن توضيحها في الشكل التالي:

"لا - ن" الصلاة صحيحة "

"ن" الصلاة غير صحيحة "



"ح1" صلاة الصحيح المعافى يفترض أن يسجد على الأرض "لا - ن" "ح2" سجوده على ظهر من أمامه. صلاة الجمعة وإزدحام المصلين "

ويمكن أن نورد مثالا آخر عن سياقات ورود الرابط الحجاجي "لكن" في شبكة القناص على درة

الغواص في محاضرة الخواص ، وذلك في قوله¹:

..... وقل ::: لقائل ما حكم بول الرجل

بيوله بوصفه الذي شرب ::: هل طاهر أو لا لأصل قد صحب

قلت الخلاف عنهم قد نقلا ::: فيه ابن راشد وأيضا حصلا

نقلا عن الشيخ تقي الدين ::: ابن دقيق العيد في التدوين

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 39-40.

أن الخلاف ها هنا موجود ::: في البول نفسه فلا جحود

إن زال وصفه من التغير ::: وانقطع الريح به في المخبر

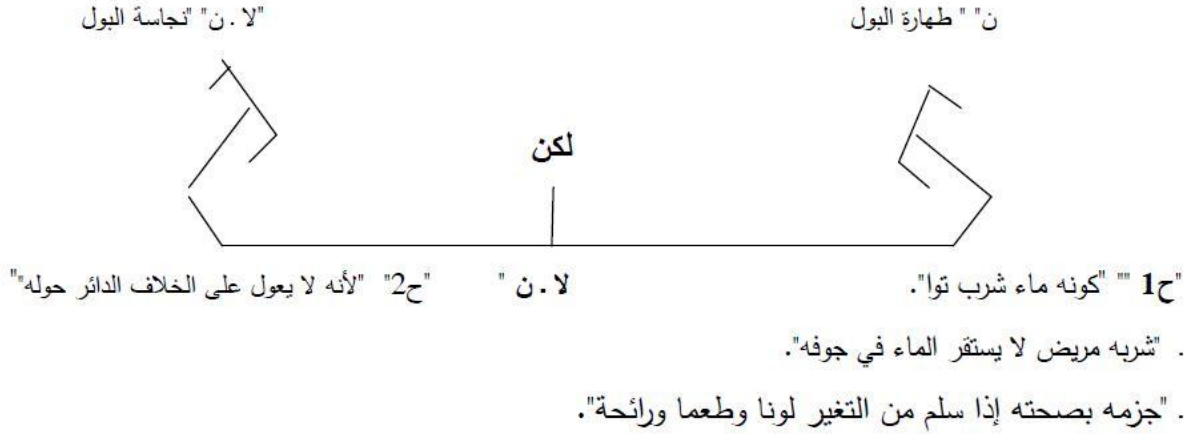
لكن ذا الخلاف لا يعول ::: عليه في الشذوذ في ما ينقل

تعالج الآيات مسألة فقهية تدخل في باب أحكام الأعيان النجسة ، أو ما يعرف في الفقه بطهر الخبث وتمثل في طهارة البدن والثياب والمكان ، وتشمل الأعيان النجسة "الدم المسفوح من حيوان بري ، وميتة الحيوان البري الذي له دم ، وبول الآدمي ، والمنى ، الخ" ، وهي مسألة فقهية تتمثل في حكم بول الرجل لما شرب أطاها هو باعتباره ماء شربه توا؟ ، أم نجس كونه يحمل صفات البول من لون أو رائحة؟ ، ولغاية تعليمية أورد صاحب الشبكة هذه المسألة في طابع تعليمي معتمدا الإلغاز وأسلوب التعمية كونه يخاطب متعلما حذقا ، فأورد مجموعة من الحجج ليدعم بها نتيجته الأولى التي أوردها في بداية كلامه ، ليستدرك عما قاله بالرباط الحجاجي "لكن" وسطا ليدحض ما أنى بعدها ما أورده قبلها ،

فبعد الرحمن بن أحمد العالم يطرح مسألة تبول الرجل هل يحكم لها بالطهارة؟ ، وأورد مجموعة من الحجج التي تخدم النتيجة الأولى وتدعمها ، وهي القول "بطهارته" وأورد حججه تباعا وهي: الخلاف الواقع في أمره ، الخلاف الواقع في البول نفسه ، كونه ماء شرب توا ، وكون من شربه مريض لا يستقر الماء في جوفه ، جزمه بصحته إذا سلم من التغير لونا وطعما ورائحة ، ليأتي بالرباط الحجاجي "لكن" تتوسط كلامه في قوله "لكن ذا الخلاف لا يعول عليه" ليناقض بها قوله قبلها ويدحضه ويأتي بنتيجة مغايرة " لا - ن" كنتيجة مضادة للنتيجة الأولى وهي أن هذا الخلاف لا يعول عليه وشذوذ الحكم وبالتالي القول بنجاسة ما تبول به الرجل .

فالحجج الواردة في بداية كلامه موجهة لصالح نتيجة محددة ، وهي أنه يمكن القول بطهارة هذا البول ، والأخذ به والإقرار كحكم صائب ونهائي ، ليأتي الرباط الحجاجي "لكن" ويقوم بوظيفته الحجاجية مؤثرا فيما بعده ويدعمه بحجة قوية داحضة لما سبقها وتخدم نتيجة مضادة " لا - ن" ، وهي أنه لا يعول على هذا الخلاف لشذوذه وبالتالي القول بنجاسة البول .

وحتى يتضح الدور الحجاجي للرباط "لكن" نورد المثال السابق في الخطاطة التالية:



خطاظة تبين الوظيفة الحجاجية للرباط "لكن"

ج- بل:

من الأدوات اللغوية التي يلجأ لها المتكلم لبناء خطابه الحجاجي ، ووظيفته الحجاجية تكمن في إبطال النتيجة التي سبقته ، وبهذا يمكن أن نشبه ب الرباط الحجاجي "لكن" في العمل ، ويرد على وجهين:

الأول: أي يسبق مفردا ، أي أن يقع بعده مفرد.

الثاني: أن يسبق جملة ، أي أن تعقبه جملة.

فالحالة الأولى أي عندما يقع بعدها مفرد فتكون حرف عطف وتفيد الإضراب ، وتأتي على وجهين:

أن تأتي بعد نفي نحو: ما جاء زيد بل عمر ، أو كانت بعد نهي نحو قولك: لا تعذر زيدا بل عمر ، ففي هذه الحالة جاءت لتقرير حكم الأول وتفنده وجعل ضده لما يأتي بعدها ، ففي المثال الأول أقررنا نفي المجيء لزيد وأثبتناه لعمر ، وأيضا في المثال الثاني أقررنا النهي عن عذر زيد وأثبتنا الأمر بعذر عمر¹.

أما إن وردت بعد إيجاب نحو: دخل عمر بل زيد ، أو أمر نحو قولنا: احفظ سورة بل حزبا ، فهي تفيد إزالة الحكم عما قبلها - فيصبح وكأنه مسكوت عنه - لما بعدها².

أما الحالة الثانية فهي التي تقع بعدها جملة فتكون إضرابا عما قبلها ، وهنا تأتي إما على جهة الإبطال نحو قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾³ ، وإما على جهة الترك للانتقال من غير إبطال نحو

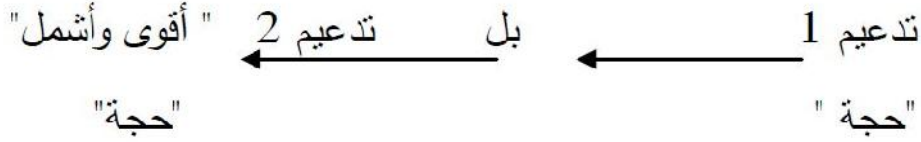
1- ينظر: الجني الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، مرجع سابق ، ص 236.

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص 237.

3- سورة المؤمنون ، الآية 70.

قوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (62) **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ**¹ ، قد أشار ابن مالك في شرح الكافية إلى أنه إذا وقع بعد بل جملة فهي تفيد التنبيه على انتهاء غرض ، واستئناف غرض آخر².

وتأتي "بل" كرابط حجاجي يتوسط الكلام على الشكل الآتي:



وتكمن حجاجية الرابط "بل" في أنها تسهم في بناء الخطاب الحجاجي بترتيب الحجج في السلم الحجاجي ، فتأتي متعاكسة بعضها مثبت وبعضها منفي³ ، وبعد وقوفنا على مواضعها في شبكة القناص ألفينا سياقاتها وإن اختلفت تؤدي الوظيفة الحجاجية ذاتها ، وهي أن المرسل قد يضرب عن الحجة التي أوردتها قبلا لضعفها ويستعمل الحجة الأعلى منها والأكثر قوة ومن ذلك قول صاحب شبكة القناص⁴:

إن قلت حل صَاد في غير الحَرَم :::: إرساله الشَّرْع عليه قد حتم

قلت فذا أمسكه إذ حَرَمًا :::: فهو وإن حل عليه حُرْمًا

كأنه قد صَاد وهو مُحْرَم :::: وقيل **بِل** حلّ وليس يَحْرَم

الآيات تدخل في باب الحجج وتعالج مسألة فقهية قد يقع فيها الحاج ، حيث كما هو معلوم أن الصيد يحرم على المُحْرَم ، لكن ولأن الغاية التعليمية لهاته الآيات ، والتي ينطلق فيها عبد الرحمن بن محمد العالم في خطابه التعليمي ، جعلت الإحرام يخرج لاحتتمالات عدة قد يقع فيها الحاج ، وأراد أن يثير انتباه مخاطبه - المتعلم - لها ، وهي أنه افترض أن حاجا اصطاد صيدا قبل أن يحرم ، فحتم عليه الشرع أن يرسله ، فأراد ذبحه بعد أن أحل ، فاختلف الفقهاء في حكمه ، فبعضهم قال بحرمة وجعله في مقام صيده في الحرم ، وبعضهم قال بجوازه ، ولكن الحجة الأولى التي أوردتها جاءت لتخدم نتيجة محددة وهي أن هذا الصيد محرم على هذا الحاج ، والحجة التي دعم بها هذه النتيجة هي "أنه في منزلة الصيد في الحرم" ، وبعد استعمال الرابط الحجاجي "بل" جعله يضرب عن هذه النتيجة ويبطلها ويستأنف كلامه لنتيجة أقوى منها وهي جوازه ،

1- سورة المؤمنون ، الآية: 63-63.

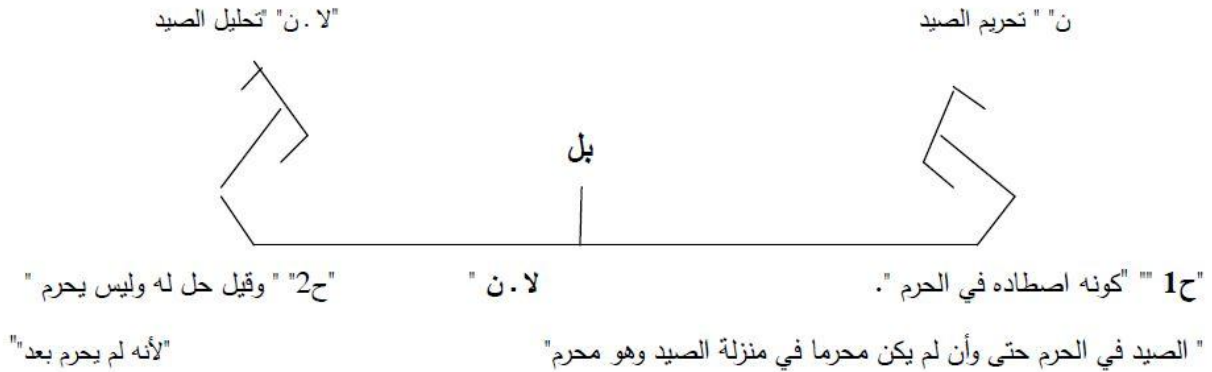
2- ينظر: الجني الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، مرجع سابق ، ص 236.

3- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 514.

4: شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 103.

داعماً هذه النتيجة بحجة أعلى من سابقتها بنفي حرمة بليس ، ويمكن توضيح عمله الحجاجي في الشكل التالي:



خطاظة توضح حجاجية الرابط "بل"

ومن بين استعمالاتها الأخرى نورد قوله¹:

إن قلت زوج منع استمتاعه :::: من زوجه الحائض مهما ضاعه

فوق إزارها أقول طلقا :::: لجهله في الحيض لما قلنا

فارتجع القاصي له لما امتنع :::: من غير نية له لما ارتجع

ف قيل يمنع من استمتاعه :::: وقيل بل يحل بارتجاعه

كناكح بحال هزل في اللزوم :::: وحل وطؤها له إذا يروم

يعالج صاحب شبكة القناص مسألة فقهية تدخل في باب النكاح ، يسعى من خلالها إقناع مخاطبه -

المتعلم - بحكمها الشرعي ، فيسرد عليه مجموعة من الحجج تخدم نتيجة معينة ، ليضرب عنها ويطلبها

باستعمال الرابط الحجاجي "بل" مستأنفاً كلامه بحجج مغايرة تخدم حجة ثانية أعلى مرتبة في السلم

الحجاجي ، فهذه المسألة الفقهية تعنى برجل طلق امرأته وهي في حالة حيض ، دون أن يعلم أنها ليست على

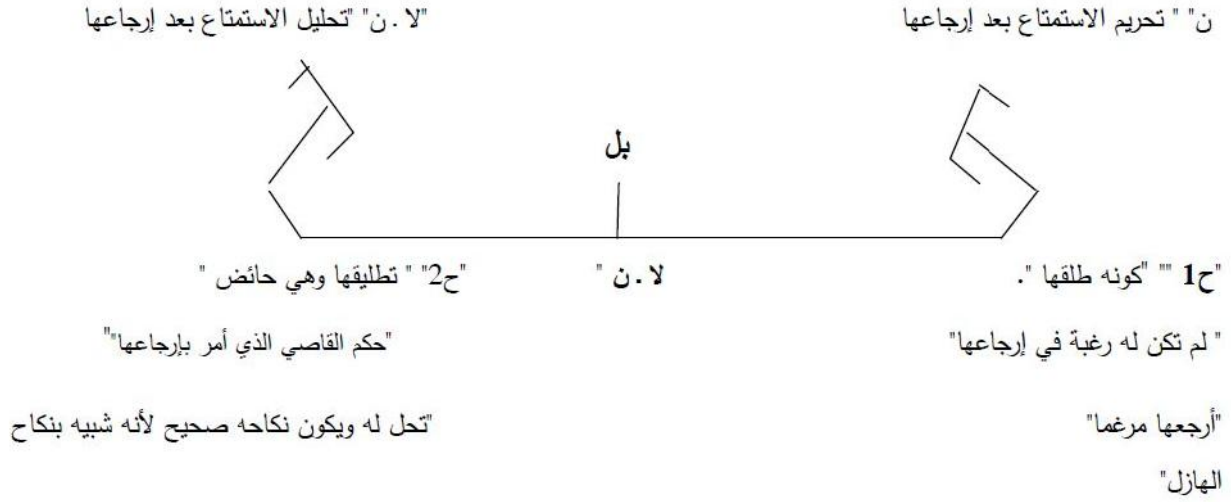
طهر ، الأمر الذي جعل القاضي يفرض عليه إرجاعها ، فقال بعض الفقهاء أنه يمنع الاستمتاع بها ، في حين

جوز بعضهم له ذلك ، لأنه في حال شبيهه بنكاح من كان هازلاً يلزم بهذا النكاح وله الحق في وطئها ونكاحه

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 120-121.

صحيح عملا بـ: إثنان جدهما جد وهزلهما جد النكاح والطلاق ، ويمكن أن نوضح الدور الحجاجي للرباط "بل" في هاته الأبيات في الشكل التالي:



خطاظة توضح حجاجية الرباط "بل"

فالمأمل في كل من الخطاطتين - هاته والتي قبلها - يلقي أن الرباط الحجاجي "بل" في كل منهما يجمع بين حجتي تدعمان نتيجتين متضادتين متناقضتين ، وبحجاجيته يجعل النتيجة المضادة "لا.ن" هي نتيجة القول برمته ، وذلك لترتيبها الأعلى في السلم الحجاجي ، ولقوة الحجة التي تدعمها كونها جاءت بعد رباط حجاجي وظيفته إبطال ما قبله .

د: حتى:

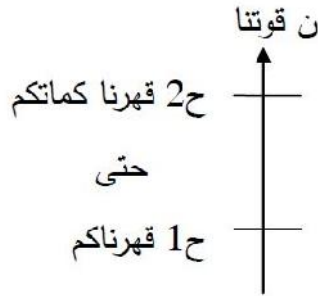
من الأدوات اللغوية التي تسهم في انسجام الخطاب واتساق معانيه ، فهي رباط حجاجي يعمل على بناء الحجج وفقا لما يريده المتكلم ، خاصة وأنه متعدد الأوجه الاستعمالية ؛ كأن تأتي حرف جر أو عطف أو حرف ابتداء عند البصريين ، أو تأتي حرف نصب عند الكوفيين ، فـ "حتى الجارة" تفيد انتهاء الغاية عادة ، ويرى البصريون أنها تجر بنفسها ، وقالوا أن مجرورها لا بد أن تتوفر في تركيبه مجموعة شروط وجب مراعاتها ، كأن يكون ظاهرا نحو قولك: "وصل الماء حتى الركبة" ، وأن يكون آخر جزء ، نحو قولك: "صعدت الجبل حتى القمة" ، أو ملاق آخر جزء ، نحو قولك: "سهرت الليل حتى الفجر" ، وأن يكون المجرور بها داخلا فيما قبلها على الغالب ، نحو قولك: "دعوت القوم حتى زيد" ، فزيد قد يكون داخلا في المدعويين كما قد يكون غير معني فلا يدخل ، فقط انتهت الدعوة عنده ، كما تأتي "حتى" لتفيد الغاية ، لأن الغاية تدخل وتخرج ، نحو قولك: دعوت القوم حتى زيد ، فقد يكون زيد مرة مدعوا ومرة غير مدعو¹.

1- ينظر: الجنبي الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، مرجع سابق ، ص 544-545.

وقد تأتي "حتى" في وجه استعمالي آخر لتؤدي وظيفة حجاجية أخرى ، كأن تأتي عاطفة ، فيشترط أن يكون المعطوف بعض ما قبلها كقولك ، وصل الجميع حتى الراجلين ، أو كبعضه ، كقولك: حضر الأقارب حتى أبنائهم ، وأن يكون غاية لما قبلها في زيادة أو نقص ، فتشمل الزيادة القوة والتعظيم ، ويشمل النقص الضعف والتحقير¹ ، وجمعت الزيادة والنقصان في قولهم²:

قهرناكم حتى الكفاة فإنكم :::: لتخشوننا حتى بنينا الأصاغرا

ويمكن تمثيلها في الآتي:



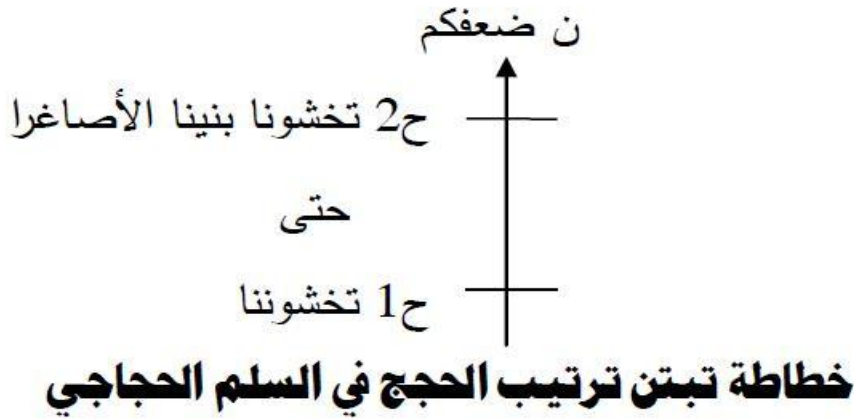
فالرابط الحجاجي "حتى" جعل الشرط الأول من البيت يضم حجتي أولاهما: "قهرناكم أنتم" ، وثانيها: "قهرنا كمتكم أيضا" ، وهما حجتان تخدمان نتيجة واحدة وردت في الشرط الثاني من البيت "أنتم تهابوننا" ، وما يميز الحجتي السابقتين هو ترتيب كل منهما في السلم الحجاجي ، والذي يتبدى من خلال الوظيفة الحجاجية للرابط "حتى" ، حيث تجعل ما بعدها أكثر قوة وفاعلية ، فإذا أتى الشرط الأول بحجج تبين قوتنا وجسامة بطولتنا ، فإن الشرط الثاني أتى بحجج مقابلة وتدعم في الوقت نفسه حجج الشرط الأول ، وتؤديان إلى نتيجة ضمنية من قبيل "أنتم ضعفاء" أو "أنتم جبناء" أو غيرها من نتائج احتمالية ، وبفضل حجاجية "حتى" جعلت الحجة الأخيرة "تهابون بنينا الأصاغرا" هي الحجة الأقوى ودليل على ضعف الخصم وهوانه³.

ويمكن تصوير حجج الشرط الثاني في السلم الحجاجي التالي:

1- ينظر: الجني الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، مرجع سابق ، ص 547.

2- المرجع نفسه ، ص 549.

3- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 518- 519.



ووجه الحجاج هنا أن ما بعد "حتى" يكون غاية لما قبلها فجعلت ما بعدها في أعلى السلم الحجاجي

وهناك وجه ثالث للرباط الحجاجي "حتى" وهو أن تأتي ابتدائية، وليس بالضرورة أن يليها مبتدأ وخبر، بل أنها صالحة لذلك فيستأنف بها الكلام، كما تصلح أن تليها جملة فعلية مصدرية بفعل مضارع مرفوع، أو ماض، والجملة التي تأتي بعدها لا محل لها من الإعراب، وتدخل "حتى" الابتدائية على جملة مضمونها غاية لشيء قبلها، فتشارك الجارة والعاطفة في معنى الغاية¹.

أما رابع استعمال لها - حتى - أن تأتي ناصبة للفعل، وهو رأي البصريين، حيث تأتي "حتى" عندهم لتنصب الفعل المضارع بنفسها، وأجازوا إظهار "أن" بعدها توكيدا وذهب البصريون إلى أنها جارة والناصب "أن" مضمرة بعدها، وفي هذه الحالة يكون لها مسألتان²:

الأولى: في معناها، أي لها معنيين: أحدهما الغاية، نحو: قولك: لن أصدق الخبر حتى أتأكد منه، والثاني التعليل، نحو قولك: لأتحرى الأمر حتى أتأكد منه، فكونها للغاية أن يحسن في موضعها "إليان"، وكونها للتعليل أن يحسن في موضعها "كي"، وزاد ابن مالك معنى ثالثا وهو أن تكون بمعنى "إلا أن"، فتكون بمعنى الاستثناء المنقطع.

والثانية: شرط الفعل المنصوب ب "حتى" أن يكون مستقبلا، أو مؤولا بالمستقبل، بمعنى أنه فعل قد وقع ولكن المخبر يقدر اتصافه بالعزم عليه حال الإخبار فيصير مستقبلا بالنسبة إلى تلك الحال فينصب،

1- ينظر: الجني الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، مرجع سابق، ص 551-552-553.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 554.

أما إذا كان الفعل حالاً ، أو مؤولاً بالحال يرفع ، ونعني بالمؤول بالحال أن يكون الفعل قد وقع ، فيقدر اتصافه بالدخول فيه ، فيرفع لأنه حال بالنسبة لتلك الحال .

ووقوفاً على مواضع الرابط "حتى" وسياقات استعمالها في مدونة الدراسة ، نلفي أن صاحب شبكة القناص أوردها حسب حاجاته إليها في بناء خطابه الحجاجي ومن ذلك قوله¹:

إن قلت دار اشتراها من شرط :::: عليه من سكتها بوقت قد ضبط
من وارث الميث لمن يعتد :::: ثم انقضت عدتها من بعد
وخرجت فطلب الذي اشترى :::: تسليمها بعد من الذي اشترى
فقال لا حتى تمر أربع :::: من السنين ثم بعد يقع
قلت فذي اشترط فيها أقصى :::: أمد حملها لريب نصا
وذلك خمسة من الأعوام :::: فزالت الريبة قبل العام
بوضعها أو نحوه فوجب :::: الباقي للوارث مما ضربا

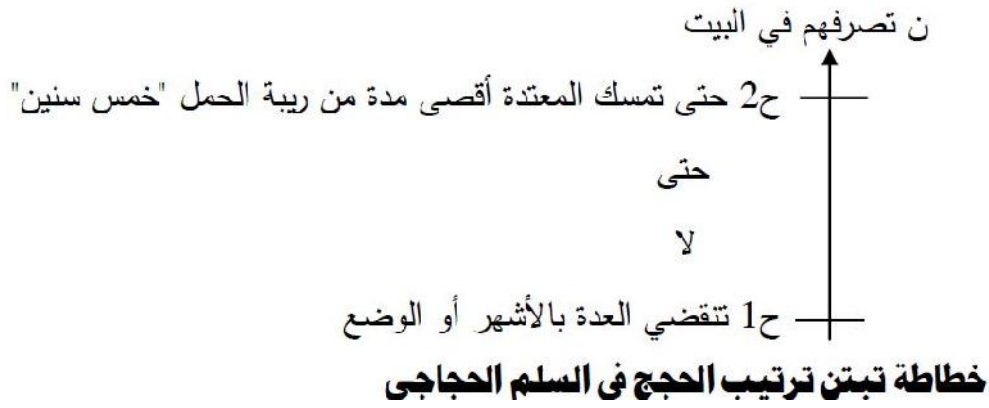
الآيات الواردة جاءت لغاية تعليمية يريد صاحبها - المعلم - أن يوضح إحدى المسائل الفقهية التي قد تواجهنا وتدخل في باب البيوع باعتباره من يدخل في المعاملات التي يقوم عليها الدين ، وعبد الرحمن بن محمد العالم يشخص لمخاطبه - المتعلم الافتراضي - حالة بيع تمثلت في رجل اشترى داراً من ورثة ميت شرطوا عليه أن تسكن بها المعتدة أرملة الميت حتى تنقضي عدتها ، ولما انقضت العدة بالأشهر أو الوضع وخرجت المعتدة من الدار ، أراد المشتري أن يستلم داره من الورثة ، فرفضوا طلبه بحجة عدم انقضاء المدة قائلين "حتى تمضي أربع سنين ونصف" ، فالحجج المقدمة تحدم نتيجة محددة وهي أن المشتري له الحق في تسليم داره ، وهو ما يتوقعه مخاطبه - المتلقي المتعلم الافتراضي - ليرد عليه عبد الرحمن بن محمد العالم بمجموعة من الحجج التي تحدم نتيجة مغايرة مستعملاً الرابط الحجاجي "حتى" ، وهي أن الورثة لما باعوا الدار اشترطوا على المشتري أقصى ما يمسك به النساء ريبة الحمل ، وذلك خمسة أعوام على المشهور ، فلما زالت الريبة عن المعتدة بالوضع ونحوه بعض من السنة الأولى كانت الدار تحت تصرف الورثة في ما تبقى من الأجل².

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 148.

2- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين إبراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 238.

فلاحظ أن الرابط الحجاجي "حتى" زاد من قوة وفاعلية الحججة التي جاءت بعده ، وهي هنا جاءت ابتدائية بعد انتهاء غاية لتكون استئناف لغاية أخرى ، فجاء كلام آخر يفند ما قبله بجملته فعلية تبتدأ بفعل مضارع منصوب ، وهو فعل قد وقع " مرور المدة الزمنية للعدة" ولكن صاحب الشبكة يريد أن يخبر عنه فقدر اتصافه بالعزم عليه حال الإخبار فصار مستقبلا بالنسبة إلى تلك الحال "تمر ما تبقى من ريبة الحمل من السنين" فنصب ، وما يزيد النتيجة تأكيدا والحجج قوة هو سبق "حتى" ب رابط حجاجي آخر "لا" ليكون الكلام الذي بعدها أكثر إسرارا وأقوى خدمة للنتيجة ، ولتوضيح هذا البناء الحجاجي نمثله في الآتي:



ويمكن أن نقف على حجاجية الرابط "حتى" في شبكة القناص في موضع آخر ونتبين ما يقوم به من دور في بناء الخطاب الحجاجي ، وذلك في قوله¹:

إن قلت زوج طاهر قد أُلزِمًا :::: رجعتها الزوج بحكم حُتْمًا
 قلت فذي بحال حيض طلقت :::: وعنه قد غفل حتى طهرت
 فإنه إلى تمام العدة :::: رجعتها يلتزم بالقضية
 وقال أشهب بنفي الجبر :::: إلا بطهر أول عن خبر

الملمح الحجاجي في الشبكة أن ناظمها يدخل في محاجة مباشرة مع مخاطبه ، فهو يسعى إلى تغيير معتقد ، ومن ثم تعديل سلوك في المجتمع يعني بأمور الدين ، وهو ما نراه في هذه الحالة التي تخص مسألة فقهية تدخل في باب الرجعة ، فالآيات من شبكة القناص التي جاءت كخطاب تعليمي يسعى عبد الرحمن بن احمد العالم إفحام مخاطبه - المتعلم - وإن كان افتراضيا بحجة معينة "الطهر" ليخدم نتيجة محددة وهي "عدم

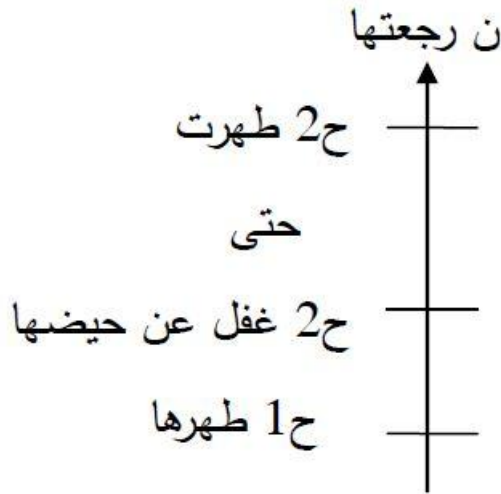
1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن احمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 130.

إرجاعها" على أساس أن طلاقه صحيح ما دامت في حالة طهر، وهذه المسألة الفقهية تخص رجلا طلق زوجته في حال حيضتها وغفل عنها حتى طهرت من تلك الحيضة فأجبر على رجعتها، ومثله من طلق في الثانية أو قبل أن تتم العدة¹.

فجاء الرابط الحجاجي "حتى" بحجة مغايرة بعده، وهي هنا ابتدائية، استأنف بها الكلام، حيث تلتها جملة فعلية مصدرية بفعل ماضٍ "طهر"، وهو فعل قد وقع "الطهر"، ولكن عبد الرحمن بن محمد العالم أراد أن يخبر عنه فقدر اتصافه بالعزم عليه حال الإخبار فصار مستقبلا بالنسبة إلى تلك الحال، والجملة الفعلية التي أتت بعدها "طهرت" لا محل لها من الإعراب، وأتت "حتى" ابتدائية على جملة "طهرت" لأن مضمونها غاية لشيء قبلها في المعنى، وما يميز الحجة التي أتت بعد "حتى" أنها أقوى حجة تخدم النتيجة المقصودة وهي "رجعتها".

وعن حجاجية "حتى" في الأبيات نورد الخطاطة التالية:



خطاطة تبين ترتيب الحجج في السلم الحجاجي

2- العوامل الحجاجية:

أشرنا سابقا إلى أن الأدوات اللغوية تصم إضافة إلى الروابط الحجاجية ما يعرف بالعوامل الحجاجية، وهي إن اختلفت عنها، كون العامل الحجاجي لا يربط بين متغيرات حجاجية ناتجة عن الربط بين حجة ونتيجة، فإنه يقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما²، وتعتبر العوامل الحجاجية عناصر لغوية تساعد في تحقيق إحدى وظائف اللغة وبناء العملية الحجاجية، وبذلك تكون ذات قيمة تأثيرية

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص أَلغاز فقهية، برهان الدين ابراهيم بن فرحون، مرجع سابق، ص 211.

2- الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، مرجع سابق، ص 56.

في تشكيل الخطاب تعين المتلقي على اكتشاف وفهم ما يريده المرسل ، وهو ما يجعلها - العوامل الحجاجية - عماد العملية التواصلية كونها محركا أساسيا تقوم عليه العملية التخاطبية ، وبهذا المنظور يكون استعمال العوامل الحجاجية لغاية إقناعية وحجاجيتها تكمن في بناء الخطاب الحجاجي في ضوء عملية التخاطب¹ .

وتقوم العوامل الحجاجية بتوجيه الحجاج وحصر الاحتمالات الممكنة للخطاب ، بتوجه الحجة نحو نتيجة محددة ، دون أن تبني القضايا أو تربط بينها ، وبحصر الاحتمالات تكون البنية الحجاجية اقتضاء يرومه المتكلم لتحقيق أهدافه ، وحتى يستطيع المخاطب تأويل الخطاب وتحديد التصور الصحيح من خلال المتغيرات والظروف التي يكون عليها المخاطب يلجأ إلى العوامل الحجاجية للوصول إلى الاحتمال الصحيح ومن ثم تحقيق النتيجة التي تعبر عن مقاصد المخاطب .

وحتى يتضح دور العامل الحجاجي نمثل له بالمثالين التاليين:

- الساعة تشير إلى الثامنة .

- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة .

نلاحظ أنه لا فرق بين المثالين إلا دخول أداة القصر " لا ... إنما " كعامل حجاجي في المثال الثاني ، حيث لم تحدث اختلافا في القيمة الإخبارية أو الإعلامية ، عدا القيمة الحجاجية للقول التي زادت قوة وفاعلية ، فتخرج القول إلى احتمالات وإمكانات عدة من قبيل :

الساعة تشير إلى الثامنة ، أسرع .

- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة ، أسرع .

غير أن القول الأول مقبول لأنه سليم في معناه ، بينما القول الثاني كونه غريب المعنى يتطلب سياقاً خاصاً حتى نستطيع تأويله ، ومن بين الإمكانيات الاحتمالية التي يطرحها الحجاج للمثال السالف " الساعة تشير إلى الثامنة " نتائج من قبيل : الدعوة إلى الإسراع ، التأخر والاستبطاء ، يوجد متسع من الوقت ، نشرة الثامنة ، خطاب الرئيس ، حلول الظلام ، ... الخ ، فهو يخدم النتيجة "أسرع" والنتيجة المضادة "لا تسرع" ، وبفضل العامل الحجاجي " لا ... إلا " الذي دخل عليه تقلصت إمكانياته الحجاجية وأصبح الاستنتاج العادي والمحتمل قولنا: لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة ، لا داعي للإسراع² .

ومن العوامل الحجاجية التي استوقفنا في شبكة القناص نذكر:

1- العوامل اللغوية في اللغة العربية ، عز الدين الناجح ، مكتبة علاء الدين ، صفاقس ، تونس ، ط1 ، 2011 ، ص 16-17 .

2- ينظر : اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، 28-29 .

أ- "لا...إلا"/ "ما...إلا":

هو تركيب يضم أداتين مختلفتين نحو "ما...إلا" أو "لا...إلا"، تعمل على ترتيب الحجج في السلم الحجاجي حسب درجتها الحجاجية، كأن توجه "ما...إلا" القول وجهة واحدة نحو الانخفاض، وعادة ما يستعملها المخاطب لإقناع مخاطبه بدفعه لفعل شيء ما أو تركه¹، ويأتي العامل الحجاجي "ما...إلا" ليفيد القصر في اللغة العربية، وما القصر إلا «جعل أحد طرفي النسبة في الكلام سواء كانت إسنادية أو غيرها مخصوصا بالآخر بحيث لا يتجاوزه إما على الإطلاق أو بالإضافة، بطرق مغلوبة»²، وعلى هذا الأساس يأتي "ما...إلا" كعامل حجاجي لإثبات شيء ما بالتخصيص، كأن يثبت صفة معينة بموصوف معين.

إذن "ما...إلا" من أدوات القصر التي يستعملها المتكلم لضرورة حتمية يقتضيها المقام، أو حاجة ملحة يدعو لها حال المخاطب، فالقصر لغة يعني الحبس ومن هذا استخلص معناه الاصطلاحي الراميتخصيص أمر بأمر بطريق مخصوص كأن نثبت صفة الكتابة على الجاحظ قصرا ونقول: ما الجاحظ إلا كاتباً³، حيث أدخول العامل الحجاجي "ما...إلا" إلى إثبات صفة الكتابة على الجاحظ دون غيره، حيث المقام يتطلب ذلك.

فقولنا: "ما الجاحظ إلا كاتباً"، يعني أننا نفينا عنه صفة أخرى يظن البعض أنه كذلك، وهي أنه ليس شاعراً، ولا خطيباً، وهو رد على من قال أن الجاحظ شاعراً بعد أن قرأ له أبياتاً، ورد أيضاً على من وجده يتحدث في كتاب "البيان والتبيين" عن الخطابة وقال عنه خطيباً⁴، فنلاحظ أن حجاجية العامل "ما...إلا" جعلت الجملة "الجاحظ كاتب" تؤدي معنى واحد وكأنها حبيسة له، فجاء القصر هنا قصر موصوف على صفة، حيث أثبتنا أن الجاحظ كاتباً لا شاعراً ولا خطيباً، فأتى الجاحظ مقصوراً، والكتابة مقصوراً عليها، فسلكت "ما...إلا" في عملها الحجاجي طريقاً مخصوصاً، فكان القصر الذي يقتضيه المقام سبيلاً لذلك.

1- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص 519-520.

2- الكليات، أبو البقاء الكفوي، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط2، 1998،

ص716-717.

3- ينظر: البلاغة فنونها وأفانها هلم المعاني، فضل حسن عباس، دار الفرقان، إربد الأردن، ط4، 1997، ص358.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص359.

وعادة ما يحوّج المتكلم لاستعمال القصر هو خصوصية المقام وطبيعة مخاطبه، الذي قد يكون له اعتقاداً أو رأياً مخالفاً، أو يكون شاكاً في ما قدم له، أو أن يعتقد الحكم يأتي شركة بين إثنيين أو أكثر¹، لذلك تأتي أدوات القصر كعوامل حجاجية تقوم بتقديم الحجة أو النتيجة داخل سلم حجاجي تنازلي من أعلى لأسفل، وما يكسبها قوتها الحجاجية كونها تحصر ذهن المخاطب في النتيجة التي يرومها المتكلم بعينها خاصة وأنها تأتي بعد أداة الاستثناء، مما يجعله وكأنه محبوس الرأي لا خيار لها لاحتمال آخر، ويمكن توضيحه في المخطط الآتي:

أداة النفي ← النتيجة → أداة الاستثناء ← تدعيم النتيجة.

ولأن مدونة الدراسة جاءت كخطاب تعليمي غايته توجيه المخاطب نحو الرأي السديد، فإن مراعاة المخاطب من الأمور الواجب اتباعها لنجاح العملية التعليمية التعلمية، ومن ذلك حاجة عبد الرحمان بن احمد العالم إلى القصر في شبكة القناص، حيث لجأ إليه في غير ما موضع مستعملاً العامل الحجاجي "ما...إلا" نحو قوله²:

إن قلت في ماء من الورد عُصِرَ :::: هل يجب التطهيرُ به إن أُضْطِرِرَ

ولا يصلي بعد إلا واحدة :::: بلا إعادة بقاء عائدة

قلت نعم ذاك مع التباس :::: مطهر به على الإحساس

فيتعدد الوضوء بعدد :::: أنية المعصور مع إنا تزيد

ثم بالأوضوية ذي تصل :::: واحدة من غير زيد تتل

الآبيات الشعرية تعالج مسألة فقهية تعنى بالوضوء، يريد صاحب شبكة القناص أن يثير انتباه مخاطبه - المتعلم - إلى حالة قد تجابهه، وهي التباس الأمر على رجل يريد الوضوء للصلاة، واشتبه عليه إناء أحدهما ماء، والآخر ماء من الورد، واحتمار هل يتوضأ بأحدهما أو كليهما، وهل يصلح الوضوء لصلاة واحدة أم تعدد الصلاة به، ليرد عليه مجيباً ومذهبا اللبس أنه ملزم بالوضوء بهما معا، دون أن يعيد الصلاة ثانية، لكن شريطة أن يصلي بهذا الوضوء صلاة واحدة³.

1- ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها هلم المعاني، فضل حسن عباس، مرجع سابق، ص 364-365.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن احمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص 37.

3- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص أغاز فقهية، برهان الدين ابراهيم بن فرحون، مرجع سابق، ص 73.

وعن ملمح الحجاج في الأبيات أنه استعمل أسلوب القصر بـ "لا....إلا"، وهي عامل حجاجي يفيد الحبس لإثبات أمر ما بأمر آخر، فأتت "لا....إلا" الحجاجية ودخلت على جملة "يصلي بعد واحدة"، التي قد نفهم منها إمكانية تعدد الصلاة بهذا الوضوء، ولأن من معانيها الحبس وقصر شيء على شيء فقد أدت بوظيفتها الحجاجية إلى جعل القصر إفراداً، حيث قصرنا فيها الحكم - الوضوء - على صلاة واحدة دون غيرها، وبذلك سعت إلى تغيير اعتقاد المخاطب في الحكم الذي ظن أنه شركة بين إثنين أو أكثر.

ويمكن أن نمثل لمسار هذا الحجاج في الشكل الآتي:

"لا" أداة النفي ← النتيجة "لا يصلي" → أداة الاستثناء ← تدعيم النتيجة "صلاة واحدة بلا إعادة".

ويمكن أن نورد مثالا آخر ولكن هذه المرة للعامل الحجاجي "ما...إلا" وذلك في قوله:

إن قلت ماء يمنع التطهير به :::: وأكل معجون به فلتنتبه

وليست الصلاة تمنع بما :::: من الثياب قد أصاب فاعلما

قلت هو الماء الذي قد وقعت :::: به بهيمة فما إن رفعت

إلا بعيد موتها به فلم :::: ينزح من الماء لما به ألم

فوقع الشك به هل نجسا :::: أم طهره باق لأصل لبسا

فما من الثياب قد أصاب :::: عفي عفي عنه دون غير شابا

تأتي الأبيات لتعالج مسألة فقهية أثارها الناظم صاحب الشبكة مع مخاطبه، وهي أن بئر أخرجت منه شاة ميتة ولا يستحب نزح شيء منها للوضوء أو لأكل ما يعجن منه، ومع ذلك تصح الصلاة بالثياب إذا أصابها أو لحقها شيء منه، وهذا إيهام من الناظم لمخاطبه حتى يوجهه لنتيجة يريدتها هو، وإذا استحضرننا المقام ووقفنا على الظروف المحيطة بالخطاب لوجدنا أن الناظم يستدرج مخاطبه لما يريده مدعماً قوله بمجموعة من الحجج، وحتى يزيد من فاعلية حججه لجأ إلى أسلوب القصر باستعمال العامل الحجاجي "ما....إلا" الذي يجعل المخاطب يذعن ويسلم بنتيجة محددة وهي أن هذا الماء لا يصلح للطهارة، وما يدعمها هو أن البئر عادة ما يكون ماؤها راکداً، فوقعت به شاة بعد أن ماتت، ولكن أخرجوها منه قبل أن يتغير ريحه أو لونه أو طعمه، لذلك لا يصح الوضوء به لما قد يلحقه من تغير.

وحتى تتضح الصورة أكثر نمثل لمسار الحجاج في هاته الأبيات في الشكل الآتي:

"ما" أداة النفي ← النتيجة "لا يصلح" → أداة الاستثناء ← تدعيم النتيجة "رفعت بعد موتها"

ب -إنها:

هي تركيب ضم "إن" و"ما" فصارا كأنهما كلمة واحدة، وهي من أهم طرق القصر في العربية، ومن وظائفها حسب ما أورده الجرجاني أنها «تجيء لخبر يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما يُنزل هذه المنزلة»¹، كأن تقول: «إنها هذا ابنك»، أو «إنها هو جارك السابق»، فمن معانيها أنها تفيد التنبيه، فلا تقال «لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من»² واجب الأبوة وحرمة الجار.

وحجاجية "إنها" تكمن في أنها تستعمل في التواصل لحصر وتقييد النتيجة التي يرومها المخاطب ويريد إقناع مخاطبه بها، من باب تنبيهه لا من باب أنه منكر لها، ومن ثم فهو يسعى لتأكيد الأمر في نفسه³، فالعامل الحجاجي "إنها" من أدوات الإقناع التي تعطي النتيجة بعدها الحجاجي في الحوار بين المتخاطبين. فلو قلنا مثلاً: البحري شاعر، نكون أمام جملة اسمية تفيد الإخبار والإعلام بشاعرية البحري لا غير، لكن إذا ألحقنا بها العامل الحجاجي "إنها" حسب مقام معين يقتضيه الخطاب، نكون أمام عمل حجاجي يهدف إلى توجيه الملفوظ نحو نتيجة محددة تضيق وتحصر الاحتمالات التي يكون عليها حال المتنبئ ككونه شاعراً مثلاً.

ولقد وردت "إنها" في سياق حجاجي ضمن البنية اللغوية لشبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، ومن ذلك قول ناظمها⁴:

باب بيان لغز الاستنجاء :::: على سبيل القصد والسواء

إن قلت هل يجوز الاستجمار :::: بنجس قلت إذا يضار

للماء بعده وإنها منع :::: في الاقتصار دون ما إذا جمع

سياق الأبيات يوحى بأنها تعالج مسألة فقهية أثارها عبد الرحمن بن محمد العالم مع مخاطبه، تدخل في باب الاستنجاء، أو ما يعرف بغسل مخرج الأذى بالماء المطلق، وما يريد توضيحه صاحب شبكة القناص في هذه المسألة يتعلق بالاستجمار - أي استعمال الحجارة أو المدر أو الرمل اليابس لإزالة النجاسة - مع وجوب

1- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص 330.

2- المرجع نفسه، صفحة نفسها.

3- القيمة الحجاجية لأسلوب القصر في اللغة العربية، محمود طلحة، مجلة الخطاب، ع3، دار الأمل، 2008، ص 115-116.

4- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص 46.

نقاوته وطهره، غير أن السؤال يتعلق بحكم الاستجمار باستعمال حجارة أو مدر به نجس، ليجيبه نعم شريطة ألا يقتصر الاستجمار بالأحجار، بل استعماله فقط لتخفيف النجاسة لاتباعه بالاستنجاء بالماء¹. وعن العملية الحجاجية في الأبيات نجد أن صاحب الشبكة دخل في محاجة مع مخاطبه، لتغيير اعتقاده، وتوجيهه إلى نتيجة محددة يرومها هو، وتتمثل في أنه يمنع الاقتصار على الاستجمار بالحجر النجس، إلا في حالة اتباعه بالغسل بالماء، ودعم هذه النتيجة بحجة ذات طاقة حجاجية عالية تدفع باتجاه نتيجة الخطاب، وهي أنه يمنع تطهير النجاسة بشيء نجس، ولتقيدها استدعى المقام استحضار الرابط "إنها" لتنبية المخاطب الذي لم يكن منكرا لها "النتيجة"، أي أنه على دراية مسبقة بهذا الحكم الذي جاء كنتيجة، وكان بحاجة فقط إلى التنبية، فعمل الرابط "إنها" بحجاجيته على تأكيد النتيجة وحصرها على احتمال واحد دون غيره.

ولا ضير أن نورد مثالا عن سياقات "إنها" في الشبكة وذلك نحو قوله²:

إن قلت شخص رجله قد أخرجاً :::: من خفها وفيه بعد أوجا

وجوزوا المسح على الخفين :::: له وإن لم يغسل الرجلين

قلت فذا فعل هذا قبلا :::: نقض طهارة بها قد حلا

وإنما يبطل لو كان فعل :::: ذاك بعيد نقض طهره به حل

المقام هنا مقام تعليمي لذلك جاء مدونة الدراسة في حوارية تفاعلية بين الناظم - المتن التعليمي - ومخاطبه، ومن ذلك هذه الأبيات الشعرية التي تدخل في باب المسح على الخفين، والمسألة التي تعالجها هي أن رجل أخرج إحدى رجله من الخف ثم ردها ولم يغسل رجله ومع ذلك يجوز له المسح، ليبين له الحكم معتبرا السياق ومقتضيات المقام، وهو أن الأمر يتعلق برجل توضعاً ولبس خفه، ثم خلع إحدى رجله من الخف وهو على وضوءه الأول، ففي هذه الحالة يجوز له المسح، لأنه يبطل عليه إذا نقض وضوءه وخلع الخف³.

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية، برهان الدين ابراهيم بن فرحون، مرجع سابق، ص 89.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص 50.

3- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية، برهان الدين ابراهيم بن فرحون، مرجع سابق، ص 95.

تبادر لنا ملامح المحاجة في الآيات من خلال الحوار الدائر بين صاحب شبكة القناص ومخاطبه، وللغاية التعليمية الداعية إلى الإقناع لجأ عبد الرحمن بن محمد العالم إلى تدعيم النتيجة التي يريد إيصالها لمخاطبه بحجة قوية أوردتها بعد الرابط الحجاجي "إنها" قامت بتوجيه الخطاب نحو نتيجة محددة، وهي أنه يبطل المسح إذا أخرج الرجل إحدى رجله من الخف وقد نقض وضوئه الأول، حيث حصرت "إنها" بوظيفتها الحجاجية ذهن المخاطب - المتعلم - في احتمال واحد، لا يخرج إلى غيره، وذلك من باب تنبيهه فقط.

ج- أدوات النفي:

النفي من ظواهر اللغة في العربية، اشتغل على مسأله علماءنا العرب نحاة وبلاغيون، كونه أدوات لغوية تستعمل في تشكيل الخطاب واتساقه، وكذا كونه يأتي لإثبات الخبر أو نفيه، وبذلك فهو عامل حجاجي يسهم في توجيه الخطاب الحجاجي نحو نتيجة معينة "ن" يريد المتكلم، ويلزم مخاطبه باتباعها، وبذلك عد النفي عاملاً من العوامل الحجاجية التي تدفع لتغيير اعتقاد، أو تقويم رأي إثباتاً أو نفيًا.

وتتعدد أدوات النفي في العربية من ذلك "لا، لن، لم، ما" على الأشهر، وأهميتها تظهر في وظيفتها وعملها في تشكيل الخطاب والربط بين عناصره، وهو ما يمكن أن ننظر إليه من وجهة حجاجية أشار إليها أنسكمبر بقوله: «يوجد في اللغة صرافم، عوامل حجاجية تشد الملفوظ وتبدل / توجه أقسام النتائج المرتبطة بالجملة في الملفوظ في بدايته»¹، وعادة ما يأتي النفي كعامل لغوي لإثبات قضية أو نفيها، كأن يحول الجملة عن معناها الأصلي سلبا أو إيجابا يقول ابن يعيش: «اعلم أن النفي إنما يكون على حسب الإيجاب لأنه إكذاب له فينبغي أن يكون على وفق لفظه لا فرق بينهما إلا أن أحدهما نفي والآخر إيجاب»²، وبذلك يعتبر عاملاً حجاجياً يسهم في تشكيل الخطاب وتوجيه ذهن المخاطب نحو نتيجة يريد مخاطب قصرها.

وعن حجاجية النفي فإنه يتصدر القضية أو الجملة المنفية عادة بأحد أدواته كاللام مثلاً في قولنا:

- يعنى عن الظالم.

- لا يعنى عن الظالم.

فالجملة الأولى " يعنى عن الظالم " جملة مثبتة تدعو إلى نتيجة حقيقية هي أنه يجب أن يعنى على الظالم، لكن بعد أن ألحقنا بها أسلوب النفي تغير شكلها، وبالتالي تغير معناها، حيث أن الرابط الحجاجي "لا" لما دخلت على الجملة تصدرتها ابتداءً ونفت ما كان مثبتاً وأصبحت الجملة منفية "لا يعنى عن الظالم".

1- العوامل اللغوية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، مرجع سابق، ص 47.

2- شرح المفصل، ابن يعيش موفق الدين، عالم الكتب، دت، ج 8، ص 107.

ووفق هذا المفهوم أسس ديكرول نظرية السلام الحجاجية ، مؤكداً أن عامل النفي له دور كبير في تحديد وجهة الخطاب الحقيقية بل اعتبره أدق العوامل تحديداً لمنزلة الملفوظ من السلم الحجاجي¹.

وحتى تتوضح الصورة أكثر عن عاملية النفي وتحدد وظيفتها الحجاجية نقف على المثالين التاليين:

أ - لم يقرأ زيد جميع كتب مالك بن نبي .

ب - قرأ زيد بعض كتب مالك بن نبي .

فالمثال الأول يطرح قضية موجهة نحو نتيجة سالبة وهي أن زيد لا يعرف مالك بن نبي جيداً ، وحجته في ذلك أنه لم يقرأ جميع كتبه ، وهي حجة قوية ومقبولة مبدئياً ، لكن عاملية النفي ودوره الحجاجي جعل هذه الحجة تضعف أمام الحجة التي عقبها الرابطة "لا" نحو ما نجده في المثال الثاني ، حيث قام الرابطة "لا" بوظيفته الحجاجية فوجه النتيجة في اتجاه عكسي نحو نتيجة إيجابية وهي أن زيد يعرف مالك بن نبي ، وحجته في ذلك أنه على الأقل قرأ بعض كتاباته ، فحجاجية النفي في المثال الثاني جسدها في عاملية الرابطة "لا" وما قام به لتوجيه الخطاب الحجاجي نحو نتيجة محددة "ن" يقصدها المتكلم ويريد حصر مخاطبه للتسليم بها ،

ونشير إلى أن النفي في أصله تلفظ على تلفظ ، وفي العملية الحجاجية يمكن اعتباره توجيه على توجيه ، لأنه بمجرد إلحاق عامل النفي على الجملة تتحدد النتيجة "ن" بسرعة ، فيسهل على المخاطب فهمها ، ومن ثم فإن عامل النفي علاوة على وظيفته التوجيهية في الخطاب الحجاجي له وظيفة أخرى تتمثل في وصف البنية الدلالية العميقة فيظهره نفيه بعد أن يبدو مثبتاً².

ومن جماليات النفي في العربية أنه يستعمل من وجهة بلاغية فيخرج عن معناه الأصلي ويكون لغير التأكيد والإكذاب ، ومن ثم لا يكون نفيًا لإثبات سبق ، ومن ذلك ما أورده الزركشي في البرهان في علوم القرآن أن « من النفي نفي الشيء مقيداً والمراد نفيه مطلقاً وهذا من أساليب العرب يقصدون به المبالغة في النفي وتأكيدهم كقولهم: فلان لا يرجي خيره ، ليس المراد أن فيه خيراً لا يرجي ، غرضهم أنه لا خير فيه على وجه من الوجوه ومثله قوله تعالى " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " ليس المراد نفي الشفيع بقيد

1- ينظر: العوامل اللغوية في اللغة العربية ، عز الدين الناجح ، مرجع سابق ، ص 49.

2- ينظر: المرجع نفسه ، ص 50-51.

الطاعة بل نفيه مطلقاً "إذ هم لا شفيح لهم مطاع ولا غير مطاع" ¹ ، وهذا الانزياح للنفي وخروجه عن معناه الحقيقي ما هو إلا أسلوباً حجاجي يستعمله المتكلم لتقييد مخاطبه وحصره لتوجيهه نحو النتيجة "ن" التي يريدناها هو .

وعن حجاجية النفي في منظوم الدرّة وسياقات استعماله نورد الأمثلة الآتية²:

إن قلت هل يباح طهرنا بما :::: مستعمل من غير كره لزمنا

قلت نعم إن كان في تجدد :::: ونحو الاستحمام والتجدد

فلا كراهة على ما ذكرنا :::: سند في طرازه وشهرا

وردت الأبيات في حوار تعليمي أساسه التواصل الهادف لإبراز الصواب في مسائل الدين ، وكونها تدخل ضمن خطاب تعليمي ، فإن المعلم صاحب شبكة القناص أوردها متنا شعرياً منظوماً ، ليسهل دوره في العملية التعليمية ، ويعالج صاحبها مسألة فقهية تتعلق بالماء المستعمل للطهارة ، أن يتوضأ الرجل بقاءً توضأً أو استحماماً به قبلاً ، فظاهر الأبيات يوحي بأنه يُكره ذلك لكن بالرجوع إلى سياق الأبيات نلاحظ أنه لا كراهة في ذلك ، وحتى يقنع مخاطبه بهذه النتيجة ويتأكد من قوة حجته وفاعلية خطابه استعمل أسلوب النفي كآلية حجاجية يوجه بها ذهن مخاطبه للنتيجة التي يريد إقناعه بها ، فجاءت "لا" كرابط حجاجي يوجه القول على القول ، وتخدم نتيجة مغايرة هي أنه لا كراهة في وضوء الرجل بقاءً استعمله من قبل ، ولتأكيد ذلك دعمها بحجة أخرى هي أنه هذا الرأي قال به أبو علي سند عنان بن إبراهيم الأسيدي أحد الفقهاء في كتابه الطراز.

ومن استعمالات النفي في الشبكة قوله³:

باب بيان اللغز في أحكام :::: نجاسة تاتيكَ في النظام

إن قيل قيء حال عن حال الطعام :::: وحكموا بطهره في ذا المقام

قلت عنّا البلغمَ والصفراءَ :::: والكلُّ طاهرٌ فلا مرأء

1- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي بدر الدين ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1957 ،

ج3 ،

396-397 .

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص37 .

3- المرجع نفسه ، ص38 .

تعالج الآيات مسألة فقهية تدخل في باب "أحكام الأعيان النجسة" ، ومغزى المسألة الفقهية التي تثيرها أن رجلاً تقياً مادة متغيرة ، عن حال الطعام وقالوا بطهارتها ، ليجيبه موضحاً المسألة بأن ما خرج من المعد قد يكون بلغماً "نخامة" أو صفراء ، باعتبارهما طاهرين عند مالك مثلما عد المعدة طاهرة ، وهما عكس السوداء والدم النجسان¹ ، فصاحب الشبكة أتى لمخاطبه بحجة قد توهمه بأن هذه المادة نجسة باعتبارها خرجت من المعدة على شكل قيء ، ولكي يزيد من شكوكه أكد له طهرها ، وهي حجة توجه الخطاب إلى النتيجة "ن" التي يرومها ، وهي أن هذه المادة نجسة ، فأتى بالرباط الحجاجي "لا" ليجعل الحجة التي بعده أكثر قوة ، وداحضة لما قبلها فقال: أنه "لا مرأء" أي لا شك في طهره هذه المادة باعتبارها الصفراء أو بلغماً .
وهناك استعمال آخر للنفي ورد بواسطة الرباط "لم" الذي يدخل على الفعل المضارع فيجزمه على الغالب ، وهو المشهور² ، وقد ورد استعماله جنباً لجنب مع الرباط "لا" حتى يقوى حججه ويوجه مخاطبه لما يريد وذلك في قوله³:

إن قلت شخصٌ إن بعُسرهُ تَقَمُّ :::: بيِّنَةٌ لم تُسْمَعَنَّ فلا يُقَمُّ
قلت فذا عليه دينٌ نَجَمًا :::: دفع نَجْمًا واحداً وأنجماً
فادَّعى الإِعْسَارَ بلا تَغْيِيرٍ :::: حالٌ ولا مَوْجِبَ إِعْسَارٍ يُري
فإن أتى بحجة عليه لا :::: تُسْمَعُ واللَّحْمِي على ذا عُوْلاً

هذه المسألة تخص رجلاً عليه دين منجم فدفع منه نجماً أو نجمين على الأكثر ، ثم ادعى الإعسار ، ولم يعلم تغير حاله ، ولم يظهر عليه ما يوجب عسره لذلك قالوا بعدم سماع بيئته⁴ ، نلاحظ أن الناظم دخل مع مخاطبه في محاجة قوية ، ولأدل على ذلك استحضاره أسلوب النفي بكثرة ، حيث استعمله خمس مرات في هذه الآيات أربع منها مثلها الرباط "لا" ومرة واحدة مثلها الرباط "لم" ، وعن حجاجية الرباط "لم" أنه يدخل على الفعل المضارع فيجزمه "المتسمعن" لينفي ما كان مثبتاً ويوجه المخاطب نحو النتيجة "ن" المرجوة وهي أن

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص أَلغاز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 76.

2- ينظر: الجني الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، مرجع سابق ، ص 266.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 176.

4- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص أَلغاز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 278.

بينه هذا الشخص لا تسمع ، وحتى يدعم النتيجة أورد أربع حجج منفية أيضا بالرابط "لا" ليسهم في توجيه الخطاب الحجاجي .

المبحث الثاني: الحجاج البلاغي في شبكة القناص

أولا: الحجاج البلاغي

1 - مفهومه:

لم تعد البلاغة في الدراسات الحديثة مجرد فن القول وتنميق الكلام ، بل أصبحت مرجعية أساسية في كل حوار أو فعالية حجاجية ، فالبلاغة تختلف عن الخطابة التي عدها العرب قديما « نوعا من القول والتخاطب ، فهي بعد أسلوب في هذا القول ، لذلك جاز الحديث عن بلاغة الخطاب »¹ ، باعتبار الأسلوب البلاغي هو الوجه الجمالي في أي خطاب ، لاعتماده على الاستمالة والتأثير واشتماله على الوسائل البلاغية المعروفة معاني وبيانا وبديعا ، ومن ذلك الخطابة بما أنها من القول الذي يعتمد الأسلوب الخطابي ، ومن ثم فهي خطاب إقناعي بلاغي يسعى إلى تحقيق الوظيفة الإقناعية بواسطة الاستدلال الحجاجي ؛ وبالتالي يعد الحجاج البلاغي فعالية تواصلية غايتها سلب العقول وتأسيس الإفحام والإذعان ، عن طريق الحجاج بالصورة وأساليب المعنى وبديع اللغة .

وتجدر الإشارة إلى أن الأساليب البلاغية قد تخرج عن سياقها البلاغي فتتزاخ عن وظيفتها الجمالية الإنشائية كما تنص البلاغة ، لتؤدي وظائف أخرى كالوظيفة الإقناعية كما هو مطلوب في الحجاج ، بمعنى أن الأساليب البلاغية تتصف بميزة التحول التي تفرضها طبيعة التواصل فتؤدي أغراضا تعبيرية أو تنجز مقاصد حجاجية لتفيد أبعادا تداولية² ، ذلك أن محسنا بديعيا مثلا يمكن أن يكون « حجاجيا إذا كان استعماله ، وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر يبدو معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة ، وعلى العكس من ذلك ، فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب ، فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرقة أي باعتباره محسن أسلوب ، ويعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع »³ في وظيفته التعبيرية .

1- الحجاج والاستدلال الحجاجي ، حبيب أعراب ، مقال ضمن كتاب " الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في

البلاغة الجديدة " ، إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي ، مرجع سابق ، ص 43 .

2- ينظر : التداولية والحجاج ، صابر الحباشة ، مرجع سابق ، ص 50 .

3- التداولية والحجاج ، صابر الحباشة ، مرجع سابق ، ص 51 .

إن هكذا تصورا للحجاج « فتح الأبواب أمام عود الخطاب ورجوع وظيفة الإقناع والتأثير في صورة لم تعرفها من قبل ، وأصبح الخطاب يعتمد في إنجاز تلك الوظيفة وإحداث التأثير أساليب متنوعة منها ما يقوم على بلاغة الصورة ، ومنها ما يقوم على بلاغة الخطاب الفائقة التأثير »¹ ، فهذه الوظيفة الإقناعية نتجت عن فنون البلاغة التي استثمرها الخطاب الحجاجي ، وتتلخص أهميتها « فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه ، فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة وعلاقات حجاجية ، تربط بدقة أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه أمكن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب ؛ ... أي أن الحجاج لا غنى له عن الجمال ، فالجمال يرفد العملية الإقناعية ويسر على المتكلم ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية والفعل فيها »² ، قوة وتأثيرا .

يتبين لنا أن الحجاج من الأوجه الجمالية للبلاغة يستثمر مبادئها لتحقيق وظيفته الإقناعية ، فهو « ترسانة من الأساليب والأدوات يتم اقتراضها من البلاغة ، أو من غيرها كالمنطق واللغة الاعتيادية ، ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب ، ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل ، وغير الممكن والمتوقع ، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس »³ ، فالبلاغة العربية مثلا وهي تقسم أبوابها إلى علومها الثلاثة المعاني والبيان والبدیع ، ما هي إلا تجسيد للعملية الحجاجية في بعدها التداولي ، وذلك من خلال تحقيق الوظيفة الإقناعية المتمثلة في الوضوح والتأثير ، وبالتالي فهي تأكيد على تمام القول وحسن الكلام معنى وبيانا وأسلوبا ، ليكون أكثر قوة وتأثيرا .

وكتحليل إجرائي للبلاغة نقول أن « علم المعاني يستهدف البحث عن كيفية تجنب الأخطاء والاستهجان في تأدية المعنى من خلال كلام معين ، ويستهدف علم البيان البحث عن كيفية تجنب أوجه الغرابة والتعقيد في الكلام ، بينما ينصب علم البديع على تحسين الكلام وإضفاء جمالية التعبير عليه . إن البلاغة إذا هي الطريقة والوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيها إلى عقل وقلب السامع ، وما يقتضيه ذلك من

1- من تجليات الخطاب البلاغي ، حمادي صمود ، دار قرطاج ، تونس ، ط1 ، 1999 ، ص 133 .

2- الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 120 .

3- محاولات في تحليل الخطاب ، صابر الحباشة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ،

2009 ، ص 124 . تقلا عن أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي ، مثنى كاظم صادق ، مرجع سابق ، ص 48 .

وضوح ومحسنات وإبانة وإظهار وإقناع»¹، فبلاغة الخطاب هي بلاغة الإقناع وتتبدى في أدوات البلاغة ووسائلها التي يستعملها المتخاطبون أثناء المحاجة.

وغير بعيد عن المنظور العربي للحجاج وإجراءاته العملية يذهب الغرب في دراساتهم البلاغية التي تعنى ببحث الحجاج، حيث يقول روبول في حديثه عن الحجاج البلاغي: «إننا لن نبحت عن جوهر البلاغة لا في الأسلوب، ولا في الحجاج بل في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتحديد، بعبارة أخرى ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث المتعة والتعليم والإثارة، كل خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين بالحجاج»²، وهكذا يتبين لنا أن الحجاج البلاغي أوجد لنفسه مكانته المنهجية في مختلف العلوم والحقول المعرفية محتفظا بخصائصه الأصلية، يكسب تأييد المتلقي في قضية أو القيام بفعل أو تغيير سلوكه، فهو يسعى لمس اعتقاده على نية المحتمل والممكن من جهة، ثم إقناعه بدغدغة مشاعره وفكره معا، وبهذا يصح القول أن الحجاج البلاغي هو حجاج العقل والقلب، إذ يجمع بين المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية التي وردت عليها³.

2 - الخطاب بين البلاغة والحجاج:

قد تؤثر البلاغة وتمتع المتلقي وتسميله، لكنها لا تقنعه ولا تفحمه إلا إذا امتدت إلى المحاجة وإلا وسمت بالضعف والسبات أمام العقل، الأمر الذي يستدعي تدعيمها بالحجج العقلية والتي قد يلحقها الضعف كذلك، فيأتي الحجاج إذن لبناء الرأي الصائب وتسويغه، في حين يأتي الأسلوب البلاغي لعرض هذا الحجاج في صور وتقنيات تقتضيهما جمالية التلقي⁴.

وفي ضوء هذه المعطيات البلاغية ومسالك التداخل المنهجي مع مفاهيم الحجاج تتبدى لنا جملة من السمات النعتية يخضع لها ما يمكن أن نسميه بالحجاج البلاغي في بنائه وطرح موضوعه، ويمكن تحديدها في الآتي⁵:

- اتصاله عضويا بالخطابة في شكلها المنطوق والمكتوب.

1- الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مرجع سابق، ص 43.

2- البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2012، ص 22.

3- ينظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مرجع سابق، ص 45.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص 46.

5- ينظر: المرجع نفسه، صفحة نفسها.

- احتكامه لإرادتين هما إرادة المتكلم وهو في مقام المؤثر والمقنع ، وكذا إرادة المتلقي عندما يكون في دور المؤثر والمقنع .

- ورود حججه المعروضة في تنظيم محكم وخضوعها للتراتبية ، والقوة والضعف ، والبدء - والختم ، والإيصال ، والإثبات ، ... الخ .

- ابتعاده وعدم قابليته للقولية والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية .

فهذه الخصائص والسمات وإن حصرناها في الحجاج البلاغي ، فإنها لا تخرج عن الأهداف العامة لأي حجاج والتي نرصدها في الآتي¹ :

- يستهدف التأثير في المتلقي سامعا كان أو قارئا وذاك حسب طبيعة الخطاب الحجاجي منطوقا أو مكتوبا ، فيجعله يشارك المتلقي ويقاسمه اعتقاده الخاص ، أي التأثير في المتلقي وجعله يغير سلوكه ، أو القيام بالفعل المطلوب منه .

- الحرص على استمالة وإغراء المتلقي من الناحية الذهنية والعاطفية ، أي استهداف عقله وقلبه ليتم التوافق مع مخاطبه .

وصفوة القول « إن البلاغة هي قبل كل شيء عتاد بنائي وتبليغي يتوسله الخطيب أو القائل عموما ، لفرض موضوعه أو رأيه أو قناعته ، ولأجل تأييد الآخر أو التأثير فيه ، إلا أن الصور البيانية والحيل المجازية واللغوية "فن الإيصال" وحدها لا تحقق التصديق والتدليل ما لم تسند بأدوات ترجيح الرأي وتسويغه عقليا وهذه الأدوات هي التي يوفرها الحجاج أو المحاجة² ، وهو ما نسميه الحجاج البلاغي .

ثانيا: الآليات البلاغية في شبكة القناص

لما خلق المولى عز وجل البشر جعلهم محدودي القدرة حتى يحوجهم إلى مقاصد وغايات تقتضيها ظروف حياتية يعيشونها يوميا ، فهذا الضعف الذي جبل عليه الإنسان إعجاز رباني ليجعل من الحاجة لشيء دافع للبحث عنه وتحقيقه ، فما يحتاجه المرء من حاجات وأغراض هي مقاصد تخصه هو بعينه ، لكن قد يجدها عند غيره ممن يتعايشون معه ، الأمر الذي يجعله يعبر عنها بإحدى وسائل الترميز الدالة ، إشارة أو لونا ، أو حالا ، أو تصويتا لغويا ، بهذا يكون قد دخل في عملية تواصلية إبلاغية عمادها اللغة وأساسها التأثير والإقناع .

1- ينظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي ، حبيب أعراب ، مرجع سابق ، ص 46 .

2- المرجع نفسه ، ص 45 .

فالطابع الاجتماعي للبشرية يجعل من اللغة لا تعدو أن تكون «أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»¹ في تواصلهم العادي وكذا الإبداعي على اختلاف فنونه القولية، ولأن الإبداع يقوم على اللغة في التأثير والإقناع فإنه لا يخلو من أدوات البلاغة؛ من معاني وبيان وبديع، يستخدمها المتكلم كآليات حجاجية في استراتيجياته الخطابية للتأثير في مخاطبه وسلبه عقله فيدفعه لفعل عمل أو الكف عنه، أو تغيير اعتقاد أو سلوك أو تعديله،

1 - الحجاج وعلم المعاني:

علم المعاني هو أحد الأبحاث التي تركز عليها البلاغة العربية، فإن كانت البلاغة في أوجز تعريفاتها هي «فن القول»، فإنها لا تتأتى إلا بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومن ثم فإن علم المعاني «هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»²، فالبلاغة في أتم معناها هي رصد للعلاقة الاجتماعية التي تجمع الإنسان مع أخيه الإنسان بتركيب لغوية يطابق محتواها مقتضى الحال الذي يفرضه سياق مخاطبتها، فمراعاة ما يقتضيه المقام من مقال هو غاية البلاغة وقمتها وذلك بضبط تداول اللغة بين مستعملها لتحقيق التأثير والإقناع، ومن ثم إنجاز أغراضهم التعبيرية.

وقولا بأن اللغة أداة تواصلية فإنها في الوقت نفسه آلية حجاجية تتجاذبها البلاغة والتداولية في أبحاثها قصد مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالمباحث البلاغية - خاصة ما تعلق منها بعلمي المعاني والبيان - ما هي إلا أساليب وصور فنية ذات طاقات حجاجية يستعملها المتكلم في عباراته وتراكيبه اللغوية في سياق تخاطبي تفرضه ظروف معينة، نحو ما نجده في مقام التعليم الديني وظروفه المخصصة، التي يفرضها المكان والزمان، وطرفا العملية التعليمية ومضمون الخطاب وطبيعته.

ولنا في مدونة الدراسة مثال لذلك حيث جاءت شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص لصاحبها عبد الرحمن بن محمد في سياق تعليمي يفرض على طرفيه التقييد بمقتضيات المقام ومطابقتها حتى تنجح العملية التعليمية وتتحقق الغاية منها وتحصل الفائدة، ومن أولى هذه الشروط أهمية حسن استعمال

ابو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ص 33.

2- الإيضاح في علوم البلاغة الم=عاني البيان والبديع، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002،

اللغة من تخير للفظ وسبك للعبارة وقوة في التصوير ، وهذه المسائل وإن كانت من مباحث البلاغة إلا أن اتصالها باستعمال اللغة جعلها ممارسات تداولية تظهر جليا في العملية التواصلية .

فعلم المعاني مبحث بلاغي يعنى بـ « تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »¹ ، فمراعاة سمات التراكيب اللغوية وتوخي الخطأ في الكلام ، أساسه تشخيص العملية التخاطبية وتحديد علاقتها بالحالة المقامية لموضوع الخطاب ، فيدرس ظروف بناء الخطاب كمحتواه ومكانه وزمانه ومدى مطابقتها لتراكيب المتكلم لمقتضيات حال المخاطب .

وملمح الحجاج في علم المعاني يتجلى في الآليات البلاغية التي تعنى بـ « دراسة التراكيب اللغوية انطلاقا من أن الكلام لا يكون إلا لغايات وأهداف ومقاصد يتوخاها المرسل ... ويعتمد المتلقي في فهم المعنى على مجموعة من الاستراتيجيات التخاطبية التي يتوخاها المرسل في خطابه ، والتي تظهر للمتلقي ملامح القوة الإنجازية الكامنة خلف ذلك التركيب »² ، وحرص المتكلم على صياغة تراكيب كلامه ومطابقتها حال السامع ومقتضيات مقامه ما هي إلا آلية حجاجية بمنظور بلاغي يسعى من خلالها إلى التأثير في مخاطبه ومحاولة إقناعه بقصد ما أو لتحقيق غرض معين .

ومن بين مباحث علم المعاني التي تعين المتكلم في إنتاج الخطاب وبناء حججه نجد:

أ - الخبر:

تنشأ اللغة بالوضع فتؤدي وظيفتها التعبيرية التواصلية حسب استعمال المتكلم لمفرداتها ، فيوظفها في تراكيب لغوية تقديما وتأخيرا ، أو رفعا ونصبا وجرا ، أو حذفًا وذكرًا حسب ما يريده هو من معاني ، أو يقتضيه السياق من عبارات ، بمعنى أن المتكلم وهو يتلفظ بالكلام « لم يفكر في الرفع أو النصب أو الجر ، ولم يتحر عن وقوع الاسم في الجملة فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه ، ولم ينظر في تأليف الجملة ، ونظام بنائها ، وعوارض تغيير هذا البناء إلا لكي يعرف معاني الكلام ويميز ما كان خبرا أو غير خبر »³ ، وهذه المعاني تخرج عن المعنى الأصلي للجملة بفعل قرائن لغوية تجعل الكلام إخبارا أو استخبارا أو استفهاما أو أمرا ، فهي

1- مفتاح العلوم ، السكاكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1987 ، ص 161.

2- النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص 36.

3- نظرية المعنى في الدراسات النحوية ، كريم حسين ناصح الخالدي ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط 1 ،

تجسيد لمراد المتكلم ومقاصده، كإعلام مخاطبه بأمر يجهله، أو إفادته بما يجهله، أو يكون من دواعي الطلب التي، «اعتاد البلاغيون والباحثون المحدثون في علوم النحو والبلاغة، على تسمية تلك المعاني بـ "الأساليب" إذ قالوا: أسلوب الطلب أو أسلوب النداء، أو أسلوب الأمر أو أسلوب النهي»¹، وهذا المصطلح يقابله عند النحاة القدامى مصطلح "معاني الكلام"².

فالكلام في العربية خبر وإنشاء فالخبر «ما جاز على قائله التصديق والتكذيب»³، ويرى ابن فارس "395هـ" أنه «إفادة المخاطب أمراً في ماضٍ من زمان أو مستقبل أو دائم، نحو "قام زيد" و"يقوم زيد" و"قائم زيد"»⁴ فغاية الخبر إفادة المتلقي بخبر يحتمل الصدق أو الكذب حسب موافقته لمقتضى الحال ومطابقتها الواقع، ويأتي الخبر على نية الإخبار والإعلام، بمعنى أن يقول المتكلم كلاماً على نية إخبارنا بشيء قد نجهله، فنكون أمام أمرين إما أن نصدقه، وإما أن نكذبه، ومعيار تصديقنا له أو تكذيبه لا يأتي اعتبارياً، بل بمدى مطابقة كلامه للواقع، كأن يقول قائل:

- غدا يوم عطلة.

فهذه العبارة تركيب لغوي استفاه المتكلم كجملة تامة تحمل معنى معيناً يريد إيصاله لنا، لكن هذا التركيب يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب، وذلك بمطابقتها مع الواقع، فإن كان يوم الغد أحد أيام عطلة الأسبوع، أو كان يوم الغد يوم عمل تزامن مع يوم عطلة مدفوع الأجر لمناسبة دينية أو وطنية، فإننا نتقبل العبارة ونصدق صاحبها، لكن إذا كان الأمر مناف تاماً للواقع ويناقضه فإننا لا نصدقه بل نكذبه. وكمثال عن "الخبر" في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص نأخذ اسم المدونة ومحتواها كنموذج لذلك، حيث يقول عبد الرحمن بن محمد العالم⁵:

وأستعين الله في قصيدة ::::: ضمنتها مسائل مفيدة

من جملة الألغاز والمعيات ::::: لشحد أذهان ذوي المصافات

1- نظرية المعنى في الدراسات النحوية، كريم حسين ناصح الخالدي، مرجع سابق، ص 365.

2- ينظر: المرجع نفسه، صفحة نفسها..

3- المقتضب، المبرد تح: محمد عبد الخالق عزيمة، وزارة الأوقاف، المجلس العلي للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث،

التراث، القاهرة، مصر، 1994، ج3، ص 89.

4- الصحابي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1997 ص 133.

5- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص 31.

من رجز يقرب المثلثور :::: جعلته مزدوجا مسطورا

سميته بشبكة القناص :::: لما حوته درة الغواص

تحتوي الأبيات على مجموعة من العبارات يمكن أن تدخل في باب الخبر من ذلك قوله:

- أنه ضمنها مسائل مفيدة إغازا وتعمية.

- أنها كانت مثورة ونظمها شعرا على الرجز.

- أن محتوى شبكة القناص هو ما حوته درة الغواص.

فكل هذه العبارات تدخل في باب الخبر لأنه يمكن تصديقها كما يمكن تكذيبها ، وذلك بالرجوع إلى الواقع ومطابقتها معه ، فإذا طابقته فإنها عبارات صحيحة وإذا خالفته تكون عبارات كاذبة ، وبالرجوع إلى واقع الأبيات نجد مطابقة للواقع وهو ما يجعلنا نقول أن قائلها صادق في قوله ، وليس هناك مجال للشك فيه أو تكذيبه .

وأقرت البلاغة العربية بتعدد الخبر لتعدد أغراضه ، فإن كان الغرض من الكلام «إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو العبارة ، يسمى ذلك الحكم فائدة الخبر»¹ ، فالغرض الذي يريد المتكلم من إلقاء الخبر هو إفادة السامع شيئا لم يكن يعلمه ، «ويبنى هذا النوع على أساس المعرفة المشتركة بين المرسل والمتلقي ، بحيث يدرك المرسل ما يجهله المتلقي ، وهذا البعد التداولي في تحديد غرض الخبر يكسب المتلقي فائدة جديدة لم يكن يعلمها»² فيضيفها إلى معلوماته .

فالعبارات السابقة بحكم المعرفة المشتركة بين الناظم صاحب الشبكة ومخاطبه الافتراضي تعتبر فائدة الخبر ، وقلنا بأن الفائدة تحققت لأن عيد الرحمن بن محمد العالم أكسب مخاطبه خبرا جديدا لم تكن له دراية به ، إلا بعد إخباره به .

أما إذا ألقى المتكلم كلامه وكان الغرض منه إعلام المخاطب أن المتكلم عالم بالخبر أو الحكم ، فيسمى ذلك لازم الفائدة³ ، وتحتوي شبكة القناص على كثير من خبر لازم الفائدة على أساس أن الخطاب جاء في مقام تعليمي يعنى بأمور الدين ويخاطب متلقي خاص ذو كفاءة ودهاء ، ويعتمد على الإلغاز بتعمية المعنى

1- في البلاغة العربية ، علم المعاني البيان البديع ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2009 ،

ض50 .

2- النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد صالح شاهين ، مرجع سابق ، ص38 .

3- ينظر : علم المعاني البيان البديع ، عبد العزيز عتيق ، مرجع سابق ، ص50 .

وإخفائه ، وللمعرفة المشتركة بين الناظم ومخاطبه في بعدها التداولي دور هام في تحديد غرض الكلام وبالتالي تحديد نوع الخبر ، ولأن المخاطب له دراية بأمور الدين الذي تضمنتها شبكة القناص فإن الخبر لازم الفائدة ورد في غير ما موضع ، ومن ذلك قوله على سبيل الذكر¹ :

قلت هل شهادة النساء في :::: جراح عمد فتله شرعا تفي

قلت نعم إن كان بين الصبية :::: قتل وجرح لوجوب الدية

إذ عمدهم كخطأ وهي فيه :::: جائزة وهي فيه تقتفيه

فالآليات تدخل ضمن باب الشهادة ، وتتعلق بشهادة النساء في قتل العمد وجراح العمد ، ليؤكد له جوازها لأن الجراح كانت بين الصبيان ، وعمد الصبي كالخطأ ، وبالتالي تجوز شهادة النساء في الخطأ² ، والبعد الحجاجي في الأبيات أن الناظم يوهم مخاطبه لإقناعه بالنتيجة التي يريدتها وهي بعدم جواز شهادة النساء ، وأتى بحجج تدعمها كحجة أنها امرأة وأن الجرح أو القتل كان عمدا ، ليأتي الجواب كنتيجة أخرى بناها من جديد تتمثل في جواز شهادة النساء ، وقدم حججا لتدعيمها نحو أن الجراح أو القتل كان بين الصبيان ، والصبي لا يحاسب على خطئه .

أما محل الشاهد على الخبر لازم الفائدة هو أن الناظم يريد أن يعلم مخاطبه بأنه على علم بالحكم ، واكتشفنا ذلك من المعرفة المشتركة التي تجمعها ، على أساس أنها في مقام تعليمي خاص ، وكل منهما على دراية بمضمون الخطاب ، والفرق بينهما إلا في الإلغاز أحدهما يلغز والآخر يحل اللغز .

وننوه إلى أن الخبر قد يخرج إلى أغراض بلاغية أخرى يستدعيها المقام ويكشفها السياق ، فتظهر حال تلفظ المتكلم بتراكيبه اللغوية ، فتحمل قوة إنجازية تخرج بالخبر إلى معاني الضعف أو القوة أو الفرح ، أو الاستعطاف ، وذلك حسب ما يريده المتكلم من مقاصد ، وحسب حال المخاطب من هذا الخبر ، جاهل الخبر تماما ، أو مترددا ، أو منكرا له بالمرّة .

وعلى أساس أن مدونة الدراسة جاءت كخطاب تعليمي فإن الناظم يفترض الحالة التي يكون عليها مخاطبه ، فهو مرة خالي الذهن ، نحو ما ورد من عبارات وتراكيب لغوية في بداية المتن ، حيث أنها عبارات توحى بأن المخاطب خالي الذهن ، لذلك قام بإعلامه بطبيعة موضوعه وسبب تأليفه وبيان المنهج المتبع فيه ،

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، ص191 .

2- ينظر : درة الغواص في محاضرة الخواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص298 .

وهو مرة أخرى شاك متردد لما يقدمه الناظم باعتبار أنه له معارف ومعلومات حول مضمون الخطاب ، وما جعله في حالة شك هو الإلغاز وتعمية المعنى وإخفائه الذي اعتمده الناظم ، أما حالة إنكار المخاطب للخبر فقل ما نجده في مقام تعليمي ، خاصة ما يتعلق بتعليم أمور الدين ، إضافة إلى مكانة الشيخ مؤلف المتن وهيته لدى مخاطبيه ، وهو ما يجعلهم لا يفكرون في إنكار ما يقول .

ب - الإنشاء:

الإنشاء هو نقيض الخبر ، بمعنى أن القول في الإنشاء هو نفي لما قيل في الخبر ، فإن كان الخبر ما يحتمل الصدق والكذب فإن الإنشاء ما لا يحتمل الصدق والكذب ، والإنشاء هو « الكلام الذي يتوقف تحقق مدلوله على النطق به ، كالأمر والنهي ، والدعاء ، والاستفهام ، والمدح والذم ، وإنشاء العقود التي يتم تحققها بالنطق بالجملة التي تدل عليها »¹ ، وهو قسمان طلبي وغير طلبي ف « الطلب يستدعي مطلوباً حاصل وقت الطلب ، لامتناع تحصيل الحاصل »² ، فجملة " اجهر بالتلاوة " ، أو " تكلم لتعرف " ، أو " سكن تسلم " ، هي تراكيب لغوية جاءت في أسلوب أمر كفعل إنجازي يستدعي شيئاً غير حاصل عند تلفظك بها ، وبالتالي فهو أسلوب إنشائي طلبي ، أما في قولك " ما أسعده " ، أو " أنت كريم " ، أو " ما أتعسه " فهي إنشاء غير طلبي ، لا يحتمل الصدق والكذب ، ولا يطلب من المخاطب القيام بشيء ما . وبالتالي الغرض الإنجازي منها لا يستدعي أمراً حاصلًا عند الطلب ،

ومن أنواع الإنشاء الطلبي في شبكة القناص الذي اعتمد عليه الناظم لشبكة القناص واعتمدها كاستراتيجية خطابية في بناء حججه وتوجيه خطابه نورد:

أ - الاستفهام

يعد الاستفهام من معاني الكلام في العربية ، وهو من أساليب الطلب التي يستعمله المتكلم للتعبير عن مقاصده وتحقيق أغراضه ، ويبنى الاستفهام « على طلب معرفة أمر لم يكن معلوماً عند الطلب »³ ، فهو إنشاء طلبي غايته الفهم والعلم بشيء نجمله ، فإذا كان الاستفهام بحث عن شيء ، فإنه لا يعدو أن يكون

1- البلاغة العربية أسسها ، وعلومها ، وفنونها ، عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 1996 ،

ج 1 ، ص 168 .

2- الإيضاح في علوم البلاغة الم = عاني البيان والبديع ، الخطيب القزويني ، مرجع سابق ، ص 108 .

3- أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم غرضه إعرابه ، عبد الكريم محمود يوسف ، مطبعة الشام ، ط1 ، 2000 ، توزيع مكتبة

الغزالي ، دمشق ، سوريا ، ص 17 .

« طرحاً لأسئلة لا تبحث عن أجوبة بل تحاول الكشف عن الجواب المتوهم لدى المخاطب »¹ لإثباته وإقناعه به .

فالسؤال بصفته تجسيد لفعالية تواصلية يعتبر من الأساليب الحجاجية التي يلجأ إليها المتكلم ، فهو ذو طاقة إقناعية تدفع المخاطب للرد على السؤال ومن ثم القيام بفعل ما ، فالمتكلم وهو يحاور مخاطبه ، فإنه يثير نقاشاً تارة مستفهماً وتارة مجيباً ، فمثلما يتداولان في التواصل على استعمال اللغة يتداولان أيضاً في النقاش على السؤال والجواب ، وبالتالي فالاستفهام والبحث عن حقيقة الأشياء من دواعي التواصل والتعبير عن الأغراض ، فهو مثله مثل الحجاج مائل في أي خطاب ، وحجاجيته تتمثل في أنه « وسيلة هامة من وسائل الإثارة ودفع الغير إلى إعلان موقفه إزاء مشكل مطروح ، هذا الموقف يحده المتكلم بقرائن ومواد اختيارية تحضر في السياق »² ، وتشمل حرفاً الاستفهام "الهمزة ، وهل" ، وأسماء الاستفهام التي تشمل أدوات الاستفهام الأخرى ، وبذلك يكون له « كلمات موضوعة وهي: الهمزة ، وأم ، وما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأنى ، ومتى ، وأيان ، »³.

ويتصف الخطاب عموماً والخطاب التعليمي الديني بوجه خاص بالاستفهامية وطرح الأسئلة طلباً للفهم ومعرفة أحكام الشرع ، وفهم مقاصده ، فأى استفهام من المخاطب يقابله رد فعل من المخاطب ، تلزمه إنجاز فعل يتماشى وقصد المتكلم ، وهو الإجابة على سؤال لم يكن معلوماً عند الطلب ، والاستفهام في شبكة القناص كأسلوب حجاجي « يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقاً من قيمته الحجاجية »⁴ ، وهو ما نلاحظه في شبكة القناص كخطاب تعليمي غايته الفهم ومعرفة الأحكام الشرعية ، ولأن الاستفهام « أسلوب لغوي أساسه طلب الفهم »⁵ فقد اعتمده الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم وجعله عماداً منهجه في طرح قضاياها وتقديم أفكاره ، فجاء مضمون الشبكة مسائل فقهية يثيرها الناظم في مقام تعليمي بالسؤال والجواب .

1- الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه ، سامية الدريدي ، مرجع سابق ، ص 140.

2- المرجع نفسه ، ص 141.

3- مفتاح العلوم ، السكاكي ، مرجع سابق ، ص 308.

4- الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 57-58.

5- في النحو العربي نقد وتوجيه ، مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1986 ، ص 264.

وبحكم أن «الإعلاء من شأن المتكلم بإحلاله محل العارف المتيقن يكسب الخطاب مصداقية ونجاعة ويحمل المخاطب على تصديق ما جاء به»¹ فإن الناظم وبحكم دوره الرئيسي في العملية التعليمية باعتباره الشيخ المعلم يحاول إشراك مخاطبه - المتعلم - معارفه وما يملكه من أحكام شرعية من مقامه السلطوي الذي يجعله يوجه مخاطبه توجيهها صحيحا ، ساعيا إلى تقويم الفرد وتعديل سلوكه ، ولصعوبة المهمة يسعى جاهدا أن يكون خطابه إقناعيا قادرا أن يحرك مخاطبه ويغير آرائه واعتقاداته ، لذلك اختار لخطابه مخاطبا في دور المتعلم الذي يسعى للعلم وفهم حقيقة الأشياء ، وحتى يرقى بخطابه بناه إلغازا وتعمية مخفيا معانيه ليكون له مخاطبا مخصوصا يمتاز بالدهاء والفطنة والذكاء ، فاختر أسلوبا حواريا يقوم على التأثير والإقناع ، أدوات الاستفهام الحجاجي وغايته نقل المقاصد المراد فهمها إلى المخاطب ، بإعمال فكره .

واعتمد الناظم في حجاجه على الاستفهام كاستراتيجية خطابية لإقناع مخاطبه ، ذلك «أن طرح السؤال يمكن أن يضم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما كما يمكن أن يلفظ السؤال ما بين الطرفين من اختلاف ، إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم ، وبإمكان المتكلم كذلك تعميق نقاط الاتفاق مع المخاطب ، إذا ما كان مقرا بما يطرحه عليه من أجوبة»² ، وهو ما يجعل الاستفهام ذو قيمة حجاجية تلزم المتلقي بقبول النتيجة وإقرارها وفق توجيه المتكلم لها .

وغلب على استفهام الناظم في الشبكة السؤال بـ "هل" ، وهي «حرف استفهام تدخل على الأسماء والأفعال لطلب التصديق الموجب ، لا غير ، نحو: هل قام زيد؟ ، وهل زيد قائم؟»³ ، وكثرة استعمالها يرجع ربا لأهميتها ودلالاتها المطلقة على طلب التصديق على وجه الوجوب ، وهو ما جعلها تتماشى وطبيعة الخطاب التعليمي الديني ، الذي يسعى صاحبه إلزام مخاطبه التصديق والاقناع بما يقدم له على وجه اللزوم ، وذلك من خلال إثراء المناقشة وتشجيع المتعلم على طرح السؤال ، وكما هو معلوم أن هل من أحرف الاستفهام التي لها دلالة مباشرة على السؤال والطلب فتدفعنا للإجابة "بنعم" تصديقا وإثباتا لما قيل ، وقد تخرج لمعاني أخرى

1- البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار ، محمد علي القارصي ، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في

التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، حمادي صمود ، مرجع سابق ، ص 399 .

2- المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- الجنى الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، مرجع سابق ، ص 341 .

عدولا نستشفها من سياق تراكييها ، أما أسماء الاستفهام الأخرى فقد استعملها ضمينا حيث حذفها لضرورة شعرية ، أو لغاية جمالية ، إلا أن وظيفتها الحجاجية وما يتبعها من قرائن سياقية تحيلنا عليها .
ومن صور الاستفهام في منظوم الدرّة نورد:

هل: هي من أدوات الاستفهام في العربية وتدخل في باب الحروف مع الهمزة ، تدخل على الاسم والفعل ، والاستفهام بها دعوة من المتكلم لطلب والسؤال عن شيء للجواب عنه بإثباته وإقراره نفيًا أو إثباتًا ، ومن سياقات استعمالها في الشبكة قول الناظم¹:

إن قلت هل للراع أن يطلق ما :::: يرعى بزرع الغير ممن علما
قلت نعم إن خاف فوت الوقت :::: مع ضمان أكلها من نبت
حين صلاته كما في الطرر :::: إن قلت

الآيات تعالج مسألة فقهية تخص راع يرعى غنما بين زرع الناس وأراد أن يصلي خوفا من خروج وقت الصلاة ، فأتى بها الناظم على شكل سؤال فقهي على لسان مخاطبه ، ليبين له حكمها بجوازها بشرط أن يغرم ما أكلت الغنم من الزرع إذا رعت منه² ، وإقرارا لهذا الحكم ودفعًا للمتلقي للتسليم بهذه النتيجة استعمل الاستفهام لطرح إشكال واقع ، حتى يجعله يتخذ موقفا معينا إزاءه ، وبناء على الطاقة الإقناعية التي يحملها الاستفهام صمّن سؤال المخاطب حرف الاستفهام "هل" لما له من خصوصية حجاجية تدعو للطلب والبحث عن الشيء ، فحصر موقفه حول المسألة المعروضة بجواب احتمالي مآله إثباتا "نعم" أو نفيًا "بلا" ، ولأن سياق الآيات يوحي بجواز الصلاة خوفا من خروج وقتها رغم المجازفة بترك الغنم ترعى في زرع غيره ، فإنه رد على مخاطبه بنعم تأكيدا منه وإقرارا للنتيجة .

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، ص 63- 64 .

2- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 114 .

ما:

هي من أدوات الاستفهام في العربية ، تدخل في باب الأسماء ، يستفهم بها عن غير العاقل ، وعن حقيقة الشيء أو صفته ، أو جنسه ، سواء كان عاقلاً أم غير عاقل ، نحو قولك: ما الحل؟ ، ما الدين؟ ، ما الحكم؟ ، ما الرسول؟ ، استفهما عن صفاته ومميزاته¹ ، وبيان استعمالها السياقي قوله²:

وإن تشأ فقل خصومة حظل :::: تقليد حاكمها لما نقل
 بالأمهات دون الاجتهاد :::: وهي عين ذي بلا افتياد
 فلا يجوز الحكم بالتقليد :::: ولو لذي رأي هنا سديد
 بل يحكمان بالذي قد يريان :::: من صلح أو خلع أو طلاق قد أبان
 وليمضه القاضي ولو كان خلاف :::: ما كان يحكم به فلا ائتناف

يعالج عبد الرحمن بن محمد العالم مسألة فقهية تدخل في باب الأفضية ، التي تعني الأمر والإلزام بحكم شرعي حفظاً للنظام الاجتماعي ، ورفعاً للضرر العام والتعدي والخصومات³ ، وتتعلق المسألة بالاستفهام والسؤال عن خصومة لا يجوز الحكم فيها بالتقليد والنقل من الأمهات ، وإنما يجوز الحكم فيها بالاجتهاد ، ليفصل فيها ويوضح حكمها بأنها قضية لا يجوز للحكمين أن يقلداً غيرهما بل يحكمان بما يريانه من طلاق أو صلح أو خلع ، وينفذ الحكم سواء وافق حكم قاضي البلد أو خالفه⁴.

فهي مسألة فقهية أتى بها الناظم على لسان مخاطبه المتعلم لبناء محتوى خطابه التعليمي ، فأوردها على سبيل الاستفهام بحثاً عن الحكم وطلباً لحقيقته ، ولأن مخاطبه في حالة المتعلم الباحث عن المعرفة فهو في موقف الطالب لحقيقة المسألة ومعرفة حكمها الشرعي ، وحتى يبني خطابه الحجاجي ويوجه مخاطبه توجيهها صحيحاً نحو النتيجة التي يريد إقناعه بها استعمل أداة الاستفهام "ما" بحمولتها الدلالية وما تحمله من قيمة حجاجية توصل السائل إلى حقيقة الشيء وبالتالي الاقتناع بالحكم والنتيجة المعروضة ، ونشير هنا أن أداة الاستفهام "ما" في الأبيات جاءت محذوفة لضرورة شعرية أراد بها الناظم تقويم البيت من جهة ، ولغاية

1- ينظر: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم غرضه إعرابه ، عبد الكريم محمود يوسف ، مرجع سابق ، ص 11.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجلوي

الأنزجيري ، ص 185.

3- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 290.

4- ينظر المرجع نفسه ، ص 291.

جمالية من جهة أخرى ، وما أحالنا عليها قرينة سياقية استعملها الناظم للدلالة عليها ، وهي قوله: إن " وإن تشأ فقل خصومة وهي... " ، وتقدير الكلام ، " وإن تشأ فقل ما خصومة " ليجيب عليه بقوله "هي خصومة" ، حيث جاءت "ما" هنا اسم استفهام للدلالة على طلب معرفة حقيقة الأمر وصفاته ، أي معرفة طبيعة الخصومة التي يتحدث عنها الناظم ، وحجاجيتها تكمن في إسهامها في بناء الخطاب وتوجيه المخاطب نحو النتيجة التي يروم الناظم إفحامه وإقناعه بها .

من:

هي أداة من أدوات الاستفهام تدخل في باب الأسماء ، يستفهم بها عن العاقل ، وللسؤال عن الجنس من ذوي العلم ، تقول من جبريل؟ ، بمعنى أبشر هو أم ملك ، أم جني ، وكذا من إبليس؟ ومن فلان¹ ، وما استعمل من سياقاتها في شبكة القناص على درة الغواص قول الناظم²:

إن قلت مرأة إذا ما ادعت ::::: مالا بمتروك بلا بينة

تمنحه بلا يمين قلت ذا ::::: في أمولد عندهم قد يحتذا

إذا ادعت شيئاً وأن السيدا ::::: وهبه لها وإن لم يشهدا

قال ابن عطار فما كان يسير ::::: من متعة النساء لها دون الكثير

فلا تصدق بلا بينة ::::: على العطية وقبض الصحة

تعالج الأبيات مسألة فقهية أخرى تدخل في باب الأقضية ، وتتعلق بالسؤال عن امرأة ادعت في تركة رجل مالا فدفع إليها بدعواها بغير يمين ، ليجيبه بأنها أم الولد ، لأنه إذا لم يشهد الرجل لأم ولده بشيء وادعت شيئاً في البيت من الشيء اليسير من متاع النساء يكون لها إذا ادعته ، وأما الشيء الكثير إذا ادعت أنه لها لا تُصَدَّق إلا ببينة على الهبة ، وإنما قبضته في صحة الرجل³ ، وهذه القضية أتى بها الناظم استفساراً واستفهاماً على لسان مخاطبه لغاية تعليمية يسعى للاستزادة وطلب معرفة حقيقة الشيء وتحديد جنسه ، حيث عرض القضية على شكل سؤال مستفهم عنها باسم الاستفهام "من" الذي جاء محذوفاً مقدراً بقرينة سياقية تدل عليه

1 ، ينظر: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم غرضه إعرابه ، عبد الكريم محمود يوسف ، مرجع سابق ، ص 11. / وينظر:

الإيضاح في علوم البلاغة الم =عاني البيان والبديع ، الخطيب القزويني ، مرجع سابق ، ص 110 .

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الغواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، ص 185 .

3- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص أُلغاز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 291- 292 .

وتحيلنا إليه ، وذلك في قوله: "إن قلت امرأة... قلت ذا في أم ولد" فتقدير الكلام "إن قلت من هي المرأة؟.... هي أم ولد"، حيث جاءت أداة الاستفهام "من" بطاقتها الإقناعية وما تحمله من قيمة حجاجية في بناء الخطاب وتوجيه المخاطب الوجهة الصحيحة نحو النتيجة التي يريد الناظم ، وهي تحديد الموقف الاحتمالي الذي يقف عليه في إجابته عن سؤال مخاطبه ، بتحديد جنس المرأة المعنية ، وهي أم الولد من السيد.

كيف:

وهي اسم استفهام يستفهم به عن الحال ، أي حال الشيء وطبيعته ، كأن تقول كيف زيد؟ فيرد عليك أحدهم: صحيح أو سقيم ، مريض ، أو معافى ، أو تقول له: كيف الجو؟ فيقول لك: حار ، أو مشمس ، أو بارد ،... ونحو ذلك ، ومن بين استعمالاتها في شبكة القناص قول ناظمها¹:

إن قلت شخصٌ ثوبٌ شخصٌ أفسداً :::: بقطعه ولا ضمان أوردنا

قلت فذا جالسٌ في الصلاة :::: على ثيابه بلا افتيات

فانقطعت إذ قام ربهها فلا :::: يضمن جالس لوجه فصلا

وهو أنه له تسببا :::: ورهبا باشره إذ جذبا

هذه مسألة فقهية تدخل في باب اللغز في الغضب ؛ أي أخذ المال غصبا بغير رضا صاحبه ، وشرعا هو الاستيلاء على أمر عدوانا جهرا من غير حرب مع صاحبه وبدون إذنه ، وحكمه أن يرد الغاصب ما غصبه سالما ، أو يضمن قيمته ، وتتعلق المسألة بقضية رجل مزق ثوب غيره ، فقطعه قطعاً فاحشا أفسده ، وليس عليه ضمان ، أي لا شيء عليه ، ليوضح له أن الأمر يتعلق بجلوس الرجل في الصلاة على ثوب رجل جنبه ، فقام صاحب الثوب فانقطع ثوبه ، فقالوا أنه لا شيء ولا ضمان عليه لأن الجالس لم يحصل منه غير التسبب ، والقطع إنما حصل بمباشرة صاحب الثوب ، والمباشر أقوى من المتسبب².

فالناظم هنا أتى بالمسألة الفقهية وإن كانت إلغازا لتوضيحها وإقناع مخاطبه بحكمها ، وهي نتيجة استقى لها مجموعة من الحجج التي تدعمها ، فأتى بها في شكل استفهام يدعو للطلب والبحث عن حقيقة شيء وقع ، وهي تقطيع ثوب رجل جالس من قبل رجل جلس ، فسياق القضية يوحي بأن له عليه ضمان لأنه أضر به بإفساد ثوبه ، فأتى بحجة تدحضها على شكل نتيجة مغايرة تماما وهي أنه لا ضمان عليه لأن الحادثة وقعت

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري ، ص 159.

2- ينظر: درة الغواص في محاضرة الخواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 254.

أثناء الصلاة، والملمح الحجاجي في الأبيات يكمن في أسلوب الاستفهام الذي استعمله الناظم على لسان مخاطبه طلبا لمعرفة حقيقة الشيء وكيفية حدوثه، حيث استعمل اسم الاستفهام "كيف" كطاقة إقناعية وبإله من حمولة حجاجية للدلالة على ذلك، وهو وإن كان محذوفا إلا أن سياق الأبيات يوحي بذلك، فتقدير الكلام "كيف لشخص يمزق ثوب شخص بجلوسه عليه ولا شيء ولا ضمان عليه"

ب - النداء:

النداء من أكثر موضوعات النحو أهمية وتداولاً في الكلام، فلا نتصور تواصل لغوي يفتقر إلى النداء، وتكمن أهميته في شد المتلقي ودعوته للانتباه، فهو « الطريقة المثلى بصيغته الظاهرة والمحذوفة، وأشكاله المختلفة، وأساليبه المتنوعة للتعبير عن الغرض حين تقصر الوسائل الأخرى من إشارة وإيحاء، وحركة، وغمزة، وبسمة، فقد يلجأ إليه المنبه والداعي، والمتضجر، والشاكي، والمتوعد¹، وعرفه النحاة بقولهم: « اعلم أن النداء، كل اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره²، وهو المعنى نفسه الذي وقف عنده علماء البلاغة حديثاً يقول أحمد الهاشمي « النداء هو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب "أنادي" المنقول من الخبر إلى الإنشاء³، وحدد النحاة ثمانية قرائن لغوية تدلنا على معنى النداء، هي « الهمزة، وأي، ويا، وآ، وآي، وأيا، وهيا، ووا. وهي في الاستعمال نوعان:

1 - الهمزة وأي لنداء القريب.

2 - وباقي الأدوات لنداء البعيد⁴

وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بإحدى أدواته إشارة إلى أنه أصبح كالحاضر مائل أمام العين، كما قد ينزل القريب منزلة البعيد فننادي بغير "الهمزة وأي" إشارة إلى علو مرتبته كقولنا أيا سيدي، للدلالة على عظمة المنادى ورفعته، أو إشارة إلى انحطاطه كأن تقول لمن كان معك أيا هذا، أو إشارة إلى أن المنادى في سهو شارده ذهن غير متنبه فتقول أيا فلان⁵.

1- النداء بين البلاغيين والنحويين، مبارك تريكي، حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 07/2007، ص 137.

2- الكتاب، سيبويه، مرجع سابق، ج2، ص 182.

3- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت، دت، دط، ص 89/. وينظر: سعد

الدين التفتزاني، شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، لبنان، دت، دط، ج2، ص 333.

4- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المرجع نفسه، صفحة نفسها.

5- ينظر: المرجع نفسه، صفحة نفسها. / وينظر أيضا: سعد الدين التفتزاني، شروح التلخيص، ص 333.

وقد توحى الجملة الندائية بملامح حجاجية نستخلصها من سياقات استعمالها، أو من الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، حيث تأتي بطاقات الحجاجية كآليات بلاغية تعين المتكلم في إنتاج خطابه، وما جاء من أدوات النداء في المدونة الأداة "يا" التي وظفت دون غيرها، وقد وردت في سياقات مختلفة حسب ما يريده الناظم من مقاصد، وحسب الحالة التي يكون عليها المخاطب، ولأنهما في مقام تعليمي تربوي، فإنه في كثير من الأحيان يضطر الناظم إلى استعمال النداء كاستراتيجية خطابية لتقريب مخاطبه، وفي حالات أخرى يأتي النداء للفت انتباه المخاطب وإعلامه بانتهاء مسألة والدخول في مسألة أخرى، وفي مواضع أخرى نجده يستعمل النداء لتأكيد على أهمية القضية المطروقة فيناديه ليلفت انتباهه، وكيان صور ذلك نورد ما يوضح ذلك من الشبكة.

نبدأ بالوظيفة الحجاجية الأولى للنداء والمتمثلة في تقريب المخاطب حيث يقول عبد الرحمن بن محمد العالم¹:

إن قلت ثوب قد أصابه دم :::: زاد على كدرهم يا فهم

فلميجب غسل لذا من حققا :::: وجوزت به الصلاة مطلقا

قلت الجواب أنه لم يسفح :::: والحكم طهره لنفي الترح

تدخل الأبيات في باب اللغز في أحكام الأعيان النجسة، من بدن وثوب ومكان، وعلى أساس أن المدونة خطابا تعليميا نظمت لتعلم مسائل الفقه وفهمها، فإن الناظم استهلها متدرجا من الضروري إلى ما أقل منه ضرورة، وأحيانا نجده يتدرج من السهل إلى الأصعب، حتى يتيسر الفهم على مخاطبه، - المتعلم - وقد ابتدأت شبكة القناص بباب رئيس في العبادة، وهو باب المياه، فإذا كانت العبادة تقوم على الطهارة كشرط أساس، فإن الماء هو عماد هذه الطهارة، ليعقبها بهذا الباب الذي يشترط طهره - باب أحكام الأعيان النجسة - ومن القضايا المرتبطة بهذا الباب ما تشير إليه هذه الأبيات، ويتعلق الأمر بدم أصاب الثوب منه أكثر من الدرهم بكثير هل يصلى به أم يوجب غسله؟، حيث يسعى الناظم على لسان مخاطبه أن يقنعه بنتيجة "ن" يسعى إلى تحقيقها، وهي عدم صحة الصلاة بهذا الثوب، وأتى بحجة تدعمها ليوجه خطابه توجيها صحيحا، فاحتج بالدم باعتباره نجاسة وجب غسلها، ليرد عليه مجيبا موجه إياه للحكم الصحيح لهذه

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

المسألة موفرا لها ما تحتاجه من حجج وظروف وملابسات تؤكد لها ، وهي أنه تصح الصلاة بهذا الثوب رغم ما لحقه من دم ، وذاك لحجة أن بقعته لا تتعد الدرهم ، وأن المشهور عند الفقهاء أنه طاهر .

أما عن حجاجية النداء في هذه الأبيات فتظهر في قوله "يا فهم" التي تشير إلى جعل المخاطب في مصاف النخبة أهل الفهم والدراية وجاءت كآلية بلاغية تزين العبارة ، واستراتيجية خطابية توجه الخطاب الحجاجي ، فكانت سبيل الناظم للتقرب من مخاطبه وترغيبه في التعلم .

أما عن سياق استعمال الناظم للنداء في شبكة القناص للفت انتباه المخاطب وتأكيد على أهمية المسألة لما فيها من لبس فيظهر في قوله¹ :

إن قلت هل يمنع للمسافر :::: مسح على الخفين يا محاضر

فالييت يشير للدخول في مسألة فقهية أخرى ، وهي مسألة المسح على الخفين ، ولأهميتها ولما يعترها من لبس استعمال الناظم أسلوب النداء ليثير انتباه مخاطبه لمتابعته والتركيز معه في المسألة المعروضة ، والملمح الحجاجي هنا يتمثل في الوظيفة الحجاجية لأداة النداء "يا" ، ولكون المخاطب هنا افتراضي فقد يكون قريبا حاضرا أمام الناظم في مكان التعلم ، كالمسجد أو المدرسة القرآنية أو الزوايا ، خاصة وأن المدونة خطابا تعليميا يعنى بأمور الدين ، وقد يكون بعيدا لطبيعته الافتراضية الكونية ، وهو ما جعله يختار في ندائه الأداة "يا" لما لها من طاقات حجاجية قادرة على لفت انتباه البعيد . ومن ذلك أيضا نورد قوله² :

إن قلت هل يجوز إحفا الشارب :::: ولا يكون بدعة يا طالب

ف نجد أن الناظم استعمال النداء هما في قوله "يا طالب" للفت انتباهه للقضية المعروضة وهي قضية إحغاء الشارب لمن كان محرما في الحج خشية أن يطول ويؤذيه³ .

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، ص51 .

2- المرجع نفسه ، ص222 .

3- ينظر : درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص338 .

ج - الأمر:

الأمر¹ من أساليب التعبير في عملية التواصل اللغوي ، يكون خطابه موجها للمخاطب عادة ، ونعني به دعوته للقيام بفعل على وجه اللزوم والإجبار ، لأنه موجه من أعلى منزلة إلى أدنى منزلة في الغالب ، ومن عادة العرب أن « الأمر ... ما إذا لم يفعله المأمور به سمي المأمور به عاصيا »² ، وهو من موضوعات النحو المتعلقة بمعاني الكلام ، ويتم بجملة فعلية فعلها يسمى فعل أمر يأتي مبني على السكون أو على حذف النون أو على حذف حرف العلة³ ، « وتدل عليه صيغ كلامية أربع ، وهي: "فعل الأمر - المضارع الذي دخلت عليه لام الأمر - اسم فعل الأمر - المصدر النائب عن فعل الأمر"⁴ ، ومثاله لفظ افعل نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾⁵ ، ونحو قوله أيضا: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْأَنْجِيلِ﴾⁶ ، وقد يخرج الأمر إلى معاني أخرى تفرضها قرائن لغوية أو معنوية نفهمها من سياق الجملة ، كالدعاء ، والنصح ، والسخرية ، والتعجب ، والتهكم .

والأمر من الأساليب التي تزيد الكلام جمالية من خلال الوقع الذي يتركه المتكلم في مخاطبه بعد تغيير نمط خطابه الطلبية ، فهو يريد من مخاطبه القيام بفعل ما استعلاء ، وتحقيقه إلزاميا ، بمعنى أن المتكلم في مقام لا يسمح له الاقتصار على طلب التماسي فقط ، فيستعمل إحدى صيغ "فعل الأمر" للتعبير عن مراده . ولعل الخطاب التعليمي من أحسن مظاهر استعمال أساليب الأمر في مجال التعلم والتربية والتوجيه والتقويم ، خاصة ما تعلق بالدين الإسلامي باعتباره شريعة ومنهاجا ، يسعى للتغيير بالفعل أو الترك أو التعديل ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإجراءات عملية تجسدها اللغة كأداة للبلاغة تأثيرا وكوسيلة للحجاج إقناعا ، وهذا ما لمسناه في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص للشيخ عبد الرحمن بن محمد العالم ، حيث عدد من أساليب الأمر وتنوعت معانيها بين نصح ، وتوجيه ، ودعاء ، وتعظيم ... الخ ، ومن

1- أشرنا لأسلوب الأمر في حديثنا عن حجاجية الغعل الكلامي باعتباره أسلوب طلب يدخل في باب التوجيهيات في تقسيم

"سيرل" ، وهنا سنتحدث عن الأمر من وجهة بلاغية .

2- الصاحبى في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، ابن فارس ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط1 ، 1997 ، ص138 .

3- ينظر: التطبيق النحوي ، عبده الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، ط2 ، 2000 ، ص294 .

4- البلاغة العربية أسسها ، وعلومها ، وفنونها ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ج1 ، مرجع سابق ، ص228 .

5-سورة الأنعام ، الآية 72 .

6-سورة المائدة ، الآية 47 .

خلال تتبعنا لأنماط جمل الأمر وجدنا أن الناظم اعتمد على صيغتي الأمر: "افعل" و"اللام المقترنة بالفعل المضارع"، وقد وردتا بكثرة خاصة ما ورد منها في سياق التوجيه أو النصح، أو لفت الانتباه أو إصدار حكم حول مسألة فقهية معينة، في حين قلت صيغ الأمر الأخرى كصيغة "اسم فعل الأمر"، والمصدر النائب عن فعله"، ومن أنماط جمل الأمر في الشبكة قول الناظم¹:

واعلم بأن أصل هذا الوضع :::: ثبت عن نبينا بالرفع

فالبيت يشرح فيه الناظم منهجه المتبع في تأليف شبكة القناص، حيث يؤصل لنشأته وإثبات طرقة في زمن الرسول ﷺ بطرح بعض المسائل بالإلغاز وإخفاء المعنى، ومحل الشاهد في البيت قوله: "واعلم"، وهو أسلوب أمر جاء جملة على صيغة "افعل" للدلالة على الدعوة والطلب، حيث أن الناظم في هذا المقام يدعو مخاطبه للانتباه لما يقول بخصوص موضوعه، فسياق البيت يظهر أن الناظم في مقام توجيه وإرشاد، «فدل على وقوع الفعل من الفاعل المخاطب بغير لام الأمر»² فقال "اعلم"، حيث جاء فعل أمر مبني على السكون، وبما أن المخاطب مأمور وجب عليه القيام بالفعل والانتباه حتى يفهم مضمون الشبكة. أما أسلوب الأمر الذي ورد على صيغة "اللام المقترنة بالفعل المضارع" فتظهر في قوله³:

إن قلت هل يجوز للمصلي أن :::: يني في غير رعا ف حيث عن

قلت نعم مسائل القروح :::: دون إسالة من القروح

فليغسلن ذاك إن الما حضرا :::: وليتمادى إذ لإصلاح جرى

أورد ناظم هذا المتن التعليمي صيغتين لأسلوب الأمر هما "فليغسلن / وليتمادى"، وهما أسلوبا أمر جاء على صيغة "اللام المقترنة بالفعل المضارع"، فأصل العبارتين إخبارية "يغسل، ولتتهدى"، ولغرض الطلب حولت لأسلوب أمر، بإلحاقها "بلام الأمر" فأصبحتا "فليغسلن / ولتتهدى" و"ن" المتصلة بالفعل "يغسل" هي للتأكيد على الفعل، أي يؤكد الناظم لمخاطبه غسل مكان القرح.

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري، ص31.

2- جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2007، ص23.

3، شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري، ص56-57.

وحجاجية الأمر في هذا السياق تكمن في الوظيفة الحجاجية التي تؤديها صيغة الأمر "اللام المتصلة بالفعل المضارع" في توجيه الخطاب وبناء الحجج خدمة للنتيجة "ن" التي يرومها الناظم، وهي حكم المسألة الفقهية المطروقة وهو غسل مكان القرح، والتماهي في ذلك حتى ينقطع الرعاف.

د - النهي:

أسلوب النهي¹ من معاني الكلام الطلبية التي يعتمد عليه المتكلم في عملية التواصل اللغوي، ويأتي في سياق دعوة مخاطبه للكف عن فعل أمر ما على وجه التحذير أو النصح وهذا إذا كان في أعلى منزلة منه نحو: لا تضيع الوقت، أو على وجه الالتماس إذا كانا في منزلة متساوية معه نحو: لا تباعد عني، أو على وجه الدعاء إذا كان أقل منه منزلة نحو: رب لا تكلمني للعدا، و «لنهي صيغة واحدة، وهي اقتران الفعل المضارع بـ "لا" الناهية. وهذه الأداة تختص بالدخول على المضارع فتقتضي جزمه واستقباله، سواء كان المطلوب مخاطبا أو غائبا أو متكلما، فهي إذن تتفق مع لام الأمر في الطلب، ولكنها تزيد عنه في معنى الترك»²، وقد ورد النهي في شبكة القناص على درة الغواص في سياقات مختلفة للدلالة على الترك والكف عن الفعل على صيغة "لا تفعل" الموجهة للمخاطب المفرد، وعن المعاني التي يخرج إليها النهي في الشبكة نجد³:

إن قلت أي حيوان قد يرى::: ملابسا نجاسة كما ترى
والاتقاء منه قالوا لا يجب::: ولو على ذات رطوبة يثب
قلت الثياب ذاك حين يقع::: عليك أثر أن تراه يرتع
بها فقد نصوا على اغتفار::: أثره منها فلا تمار

تعالج الآيات مسألة فقهية تدخل في باب الأحكام على الأعيان النجسة، وهي هنا تخص نجاسة الثوب، وهي مسألة فقهية يريد الناظم بيان حكمها لمخاطبه فأتى بها في قالب تعليمي يعتمد على الذكاء والفهم بتعميتها وإخفاء معناها، وتتعلق بمسألة الحيوان الذي يتعاطى النجاسة أو يأكل من الجيفة، ثم طار وجلس على الإنسان ببدنه أو ثوبه، ليوضح حكمها وهو جوازها عند الفقهاء على أساس أن ذاك الحيوان هو

1- أشرنا سابقا إلى النهي عند الحديث عن حجاجية الفعل الكلامي، وهنا نشير للنهي من منظور بلاغي يتعلق بعلم المعاني.

2- بنية الجملة الطلبية ودلالاتها في السور المدنية، بلقاسم دفة، منشورات كلية الآداب واللغات، جمعة محمد خيضر، بسكرة،

الجزائر، 2008، ج1، ص110.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري، ص41.

ذباب وقع على نجاسة ثم طار وحط على الإنسان¹، وهي النتيجة التي يريد الناظم إيصالها لمخاطبه وإقناعه بها.

وحجاجية النهي هنا تتمثل في دعوة الناظم مخاطبه للكف عن فعل شيء وهو الكف عن غسل مكان وقوع الذبابة على جسده أو ثوبه، ولتحقيق هذه النتيجة استعمل أسلوب النهي المتمثل في اقتران صيغة المضارع بلا الناهية، فقال "لا يجب"، والحال نفسه في قوله "لا تمار" فهو يدعو ويطلب منه ألا يماري في هذا الأمر لأنه لا شيء عليه عند الفقهاء، وهكذا ملاحظ أن أسلوب النهي ساعد الناظم في بناء خطابه الحجاجي وتوجيه مخاطبه نحو القصد الذي يريده هو.

2- الحجاج وعلم البيان "الصورة":

البيان هو الوضوح، فبيان الشيء هو إيضاحه، ومن ذلك بيان المعنى في العربية، وعلم البيان أحد علوم البلاغة العربية ونعني به « معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالتقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتعام المراد منه²، فالتكلم في تواصله مع غيره يعبر عن أغراضه ومعانيه بطرق مختلفة يختارها هو ويصوغها في تراكيب لغوية مطابقة لمقام الكلام.

وهنا نكون أمام نظرية النظم التي أرسى دعائمها عبد القاهر الجرجاني، أو ما أسماه بـ "المعنى، ومعنى المعنى"، فالتكلم مثلما له الحرية في التعبير، له كذلك الحرية في كيفية التعبير، فقد يعبر عن أغراضه بدلالة اللفظ وحده وفق ما يقتضيه الوضع اللغوي، نحو قولنا: دخل عمرو، وزيد منطلق، فالمعنى هنا إخباري نفهمه من ظاهر اللفظ، وهو ما أسماه الجرجاني بـ "المعنى"، كما له الحرية في التعبير عن أفكاره ومعانيه بدلالة اللفظ على معناه الوضعي الظاهر، ويستدل السامع من هذا المعنى الوضعي معنى ثان يكون هو الغرض الحقيقي من الكلام، كأن تقول: كثير الرماد، طويل النجاد، فالمعنى الحقيقي جاء كناية وهو صفة الكرم والضيافة في المثال الأول، وطول القامة في المثال الثاني، ونحو قولك أيضا: "أنت أسد"، أو "بلغني أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى"، فقد حُمل المعنى على التشبيه للدلالة على الشجاعة في المثال الأول، والتردد لفعل شيء أو تركه في المثال الثاني، فهذه المعاني لا نكتشفها من دلالة اللفظ الوضعية بل نعقل من اللفظ معنى نتخذه دليلا على معنى آخر، وهو ما أسماه الجرجاني "معنى المعنى"³.

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية، برهان الدين ابراهيم بن فرحون، مرجع سابق، ص 79.

2- مفتاح العلوم، السكاكي، مرجع سابق، ص 162.

3- ينظر: الاستدلال البلاغي، شكري المبخوت، مرجع سابق، ص 29-30.

وبهذا الطرح تكون نظرية النظم نظرية تعنى بتحديد كيفية وصول السامع إلى غرض المتكلم الضمني بدلالة ظاهر اللفظ، وهذا ما أشار له الجرجاني قائلًا: «وإذ قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول "المعنى"، "ومعنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى" أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»¹، بمعنى أننا أمام كلام ألفاظه تطلق ليراد بها ظاهر معانيها، وقد تطلق هذه الألفاظ والمراد بها معاني ضمنية غير ما يدل عليه ظاهرها.

وعن علاقة النظم بالحجاج نقول أن نظرية النظم في أصل وضعها عبارة عن استدلال عقلي يستطيع السامع بموجبه الوصول إلى الغرض الحقيقي للكلام من المعنى الوضعي الذي يحدده ظاهر اللفظ إلى معناه الضمني الذي يدل عليه، خاصة وأن «مقاصد المتكلم لا تحتاج من الدارس أن يدخل إلى نفس المخاطب وإنما هي معنى يستدل عليه بمعنى اللفظ الذي في كلام المتكلم، وهذا ما يجعل مفهوم معنى المعنى والاستدلال أساسيين في»² نظرية الجرجاني البلاغية، لنعتمد عليها في تحديد علمي المعاني والبيان.

وحتى يتضح الملمح الحجاجي في نظرية النظم نفق على وجه الاستدلال البلاغي في منطوق الكلام عند الجرجاني، حيث جعله قسمين؛ فالكلام في الضرب الأول يتشكل معناه نتيجة تعبير المتكلم عن غرضه بدلالة معاني الألفاظ الوضعية المنظومة، أما المعنى في الضرب الثاني من الكلام فيتشكل نتيجة تعبير المتكلم عن غرض بدلالة معاني الألفاظ الوضعية من معان أخرى يستدل عليها عقليا، والعمل الحجاجي هنا يكمن في الطريقة التي يختارها المتكلم في اختيار ألفاظه وتشكيل تراكيبه اللغوية للتعبير عن أغراضه، تماشيا ومقتضيات القول، ومطابقة الكلام تمام مراده، وبالفصل الذي وضعه الجرجاني بين ضربي الكلام بتمييزه بين معنى المتكلم وغرضه وبين دلالة التركيب، يكون الاستدلال في كيفية الوصول إلى الدلالة المستفادة، فهي في الضرب الأول وضعية، وفي الضرب الثاني استدلالية عقلية³.

وصفوة القول أن تداخل الحجاج بعلم البيان يكمن في الضرب الثاني من منطوق الكلام، الذي لا نصل «منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على "الكناية" و"الاستعارة"

1- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص 263.

2- الاستدلال البلاغي، شكري المبخوت، مرجع سابق، ص 22.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص 30.

و"التمثيل" ¹، والطباق والمقابلة، وهي أساليب بلاغية لها أهمية بالغة في تشكيل الخطاب الحجاجي وبناء الحجج، فهي تضطلع بقيمة حجاجية تعين المتكلم في الإقناع والتأثير، بتوجيه مخاطبه ودفعه للقيام بفعل أو تركه، أو تغيير اعتقاد، أو تعديل سلوك.

ولا ينفك الخطاب التعليمي الديني عن البيان في حمل مضامينه والتعبير عن مقاصده، وهو الحال نفسه الذي وقفنا عليه في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، حيث اعتمد الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم على حجاجية الصورة لما لها من قيمة حجاجية تجمع بين التأثير الجمالي والإقناع العقلي، مؤكداً على «اقتران الجمال بالإقناع واستحالة الفصل بينهما، فالمعنى يكون مقنعا ولكنه يحتاج إلى جمال يوشّيه ويحفظ له رونقه ويدعم فعله، والمعنى يكون جميلا فتزداد قدرته على الفعل في المتلقي متى كان مقنعا» ².

وحجاجية الوسائل البلاغية تكمن في أهميتها، وفي ما توفره للخطاب التعليمي الديني من ملامح جمالية، تجعل الناظم قادرا على إفحام مخاطبه والفعل فيه فنيا، فإذا اجتمعت هذه الجمالية مع ما تحمله هذه الصور من طاقات استدلالية وقيم حجاجية تطابق مراد الناظم ويقتضيها مقام التعلم، فإنه يستطيع التحكم في مجريات العملية التعليمية بمجازاة فكر مخاطبه وحالته الشعورية، فيوجهه - المتعلم الافتراضي - التوجيه الصحيح، ومن ثم تحقيق غايته، بدفعه إلى تغيير اعتقاد أو تصحيح رأيه حول مسألة فقهية، أو تقويم سلوكه، وما يزيد الحجاج جلاء في الشبكة هو طابعها التعليمي من جهة، ومنهجها الإبداعي الذي بني على الإلغاز وإخفاء المعنى، وهو الأمر الذي يجعل الاختلاف بين الناظم والمتلقي واردا جدا.

أ- حجاجية الاستعارة:

تعد الاستعارة من أساليب الحجاج البلاغية التي تبنى عليها قوة أي خطاب حجاجي، ذلك أن القول الاستعاري يعطي الخطاب قوة إقناعية كامنة في الطاقة الحجاجية للاستعارة، حيث تجعل المشبه يدخل في المشبه به إلى درجة التساوي فتصبح صفة التشابه مشتركة بينهما، وحجاجية الاستعارة تتبدى في القوة الفاعلة التي تحدثها في الخطاب من جهة، وارتباطها بمقاصد المتكلم من جهة أخرى، فهي استراتيجية خطابية تسهم في بناء الخطاب الحجاجي ليحدث فعله في المتلقي، ويظهر ذلك من خصائصها التي تذكر بها كأن «... تعطيك الكثير من المعاني باليسر من اللفظ؛ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر.... وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة ومعها يستحق وصف البراعة.... فإنك لترى

1- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص 262.

2- الحجاج في الشعر العربي بنينه وأساليبه، سامية الدريدي، مرجع سابق، ص 122.

بها الجهاد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحاً ، والمعاني الخفية بادية جليلة»¹ ، فهي استدلال بلاغي يعطي الخطاب ملمحاً حجاجياً ، وحجاجيتها تكمن في « أنك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ»² ، وهذا الإيحاء للفظ في القول الاستعاري ما هو إلا حجاج بدعوى التأثير والإقناع يسعى المتكلم من خلاله إلى تحقيق مقاصده بدفع مخاطبه للاقتناع .

وقد أورد الجرجاني تعريف إجرائي للاستعارة يبرز دورها الحجاجي قائلاً: « اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروف ، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وُضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقل إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية»³ ، بمعنى أن المتكلم يلجأ إلى القول الاستعاري في كلامه لغاية إقناعية حيث يورد اللفظ بمعنى معين وهو يدعي أمراً آخر ، وهذا هو الوجه الحجاجي للاستعارة ، فهي بيان على البيان ، أي « أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف مفرد»⁴ ، فتفهم قصد المتكلم .

فبيان الاستعارة عمل حجاجي ينأ بالمعنى عن التخيل والتصوير ، فيحمل ظاهر اللفظ ورونقه على الاستدلال البلاغي فهو « ضرب من التشبيه ، ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، والقياس يجري في ما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والأذان»⁵ ، فالاستعارة بهذا الطرح ليست تصوير بياني يدور في فلك اللفظ فحسب بل تمتد في بيانها إلى المعنى الضمني الذي يستدعيه اللفظ ، ومن هنا انبثق معنى الادعاء الذي أشار إليه الجرجاني وجعله محور بيانها قائلاً: « فإذا ثبت أن ليست الاستعارة نقل الاسم ، ولكن ادعاء معنى الاسم ، وكنا إذا عقلنا قول الرجل: " رأيت أسداً " أنه أراد به المبالغة في وصفه بالشجاعة ، وأن يقول: إنه من قوة القلب ، ومن فرط البسالة ، وشدة البطش ، وفي أن الخوف لا يخامره ، والذعر لا يعرض له ؛ بحيث لا ينقص عن الأسد ، لم نعقل ذلك من لفظ "أسد" ولكن من ادعائه معنى

1- أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1988 ، ص33 .

2- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، مرجع سابق ، ص431 .

3- المرجع نفسه ، ص24 .

4- أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، مرجع سابق ، ص32-33 .

5- المرجع نفسه ، ص15 .

الأسد الذي رآه، ثبت بذلك أن "الاستعارة" كالكناية في أنك تعرف المعنى فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ¹، وهو ما أكسبها طاقتها الحجاجية.

ونشير إلى أن طبيعة مدونة الدراسة باعتبارها متنا تعليميا، وخصوصية تأليفها التي جاءت لغاية تعليمية جعلت من بيان الصورة يكاد ينعدم في شبكة القناص إلا ما ورد عرضا، فالخطاب التعليمي عادة لا يعتمد على التصوير والخيال في تقديم محتواه، بقدر ما هو توجيه يعتد بمخاطبة الفكر وإعمال العقل، وهذا ما نلاحظه في شبكة القناص حيث يسعى صاحبها تنوير مخاطبه، فضمنها معارف دينية في قالب تعليمي قصدا، وإيعازا منه لتحقيق ذلك كان أسلوبه مباشرا خالي من التصوير الفني، لكن حصر جمالياتها في نظمها شعرا مستعيضا عن البيان بالإلغاز وإخفاء المعنى؛ فإن كان البيان في مجمله استدلال بلاغي يستعمله المتكلم بإيراد معنى ضماني من معنى اللفظ، فإن الإلغاز لا يبنأ بعيدا عن بيان الصورة، حيث يجعل المتكلم يستدل على المعنى الضماني الذي يمثل قصده من ظاهر القول، فيعمل عقل مخاطبه للوصول إليه والاقنتاع به.

ومن سياقات استعمال الناظم للقول الاستعاري في شبكة القناص قوله²:

ثم الصلاة والسلام أبدا :::: على الرسول الهاشمي أحمد

فاتح ما أغلق من قلوب :::: غلف ياذن عالم الغيوب

فمحل الشاهد قوله: "فاتح ما أغلق من قلوب غلف"، وهي استعارة مكنية أتى بها الناظم لما لها من قيمة حجاجية، فطاقتها الإقناعية جعلت الناظم يدعي من لفظ مذكور معنى آخر يريده هو، خدمة لمقاصده، فبنا خطابه على وجه استعاري لتحقيق ذلك، فالاستعارة ادعاء وهي هنا فعل حجاجي، حيث جعل للقلوب الغافلة بابا وشبهها بالبيت أو الغرفة المغلقة، لاشتراكهما في نفس الصفة وهي "الغلق، الغلف" وترك قرينة تدل عليه وهي قوله "فاتح، أغلق"، فأصبحت القلوب من شدة مشابهتها الغرفة - أو البيت في الغلق كأنها هو، ويكمن الحجاج هنا في ادعاء الناظم أن القلوب من جنس البيت أو الغرفة حقيقة. ومن ذلك أيضا قوله³:

يقول راج رحمة وغفران :::: أسير ذنبه عبيد الرحمن

1- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص 439 - 440.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري، ص 30.

3- المرجع نفسه، صفحة نفسها..

فقوله "أسير ذنبه" استعارة مكنية حيث ذكر المشبه وهو الذنب، وحذف المشبه به وهو السجن، وترك قرينة للدلالة عليه وهي قوله "أسير"، وحجاجية الاستعارة هنا أنها جعلت الذنب والسجن متشابهين إلى درجة التساوي، لاشتراكهما في نفس الصفة وهي "الأسر"، فأصبح الذنب من شدة مشابهته السجن في الأسر والتصديق على صاحبه كأنه هو، والحجاج هنا يتمثل في ادعاء الناظم أن الذنب من جنس الحبس أو السجن حقيقة.

ب- حجاجية الكناية:

الكناية مجاز لفظي ينتقل فيه المتكلم من معنى صريح إلى معنى ضماني، فهي «ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك»¹، والكناية ذات طاقة حجاجية كامنة في الخطاب، ذاك أنها استدلال بلاغي يرتبط بمقاصد المتكلم، فيسعى لتحقيق غرضه بإيحاء اللفظ لمعنى ضماني خفي، فيدفع مخاطبه لفعل شيء، أو تركه، أو تغيير اعتقاد، أو إتباع رأي، «والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وورده في الوجود، فيؤمى به إليه، ويجعله دليلاً عليه»²، إضافة إلى دورها الجمالي فإنها عمل استدلالي عقلي يجعل المخاطب إعمال فكره لفهم ما قصده المتكلم تلميحا، فينتقل من لازم اللفظ ومحتواه المباشر الذي تحدده دلالاته المعجمية إلى ما هو ملزوم وهو محتواه الحقيقي، ففلان طويل النجاد يلزم طول القامة، وقولك: فلانة تؤوم الضحى تلزم أن لها خدم لا تحتاج إلى السعي لقضاء حاجاتها بنفسها، خاصة وأن وقت الضحى وقت سعي ونشاط، فحجاجية الكناية نلتمسها في إخفائها وجه التصريح، لتؤدي معنى الإخفاء، فإسناد الطول إلى النجاد تصريح بإثبات الطول للنجاد، وكما هو معروف أن قائم مقام طول القامة، فإذا صرحنا من بعد بإثبات النجاد لزيد مثلا بالإضافة؛ كنا صرحنا في الوقت نفسه بإثبات الطول لزيد³.

ومن باب إيراد اللفظ على غير معناه تأتي الكناية من لطائف القول التي تجعل الخطاب ذا صبغة حجاجية تسهم بتصويرها البياني في بناء الحجاج وتوجيه المخاطب للتسليم بمراد المتكلم «المرسل قادر على أن يعبر عما يريد بغير ما توحى به الكلمات من الدلالات، والمتلقي قادر على فهم غاية المرسل من نصه،

1- مفتاح العلوم، السكاكي، مرجع سابق، ص402.

2- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص66.

3- مفتاح العلوم، السكاكي، مرجع سابق، ص402، وأيضا ص408..

بانتقاله من المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن المرتبط بدلالات سياقية ، أو انتقاله من المعنى الظاهر إلى معنى المعنى على حد تعبير الجرجاني¹ « في نظرية النظم .

ولعل الملمح الحجاجي للكناية يتبدى في أنها تجعل « الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن "زيد" مثلاً بالخروج على الحقيقة ، فقلت: "خرج زيد" ، وبالانطلاق عن "عمرو" فقلت: "عمرو منطلق" ،... ، وضرب آخر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض»² ، ولأهميتها تجعل الحاجة إليها ملحّة فيلجأ إليها المتكلم على سبيل الاستدلال للتأثير وإقناع مخاطبه .

ومن لطيف المعنى وترك التصريح باللفظ والاكتفاء بظاهره للوصول إلى ملزومه في شبكة القناص قول الناظم مستهلاً³:

يقول راج رحمة وغفران :::: أسير ذنبه عبيد الرحمن

فمحل الشاهد قوله "أسير ذنبه" فكلمة "أسير" لفظ استعمله الناظم لغير معناه على سبيل الكناية ، فسياق البيت يوحي بأن الناظم في مقام دعاء مما اضطره للاعتراف بذنوبه وتماديه في اقرارها إلى أن أرجعته لصيقها ، فظاهر اللفظ يحمل دلالة معجمية نفهمها من ظاهر اللفظ وهي الأسر أي السجن ، إلا أن الناظم استعمل الأسر وهو يريد به لازم معناه أي كثرة الذنوب والتمادي في ارتكابها ، وهي كناية عن صفة ، فالانتقال من معنى ظاهر إلى معنى خفي هو استدلال بلاغي تقوم به الكناية لتعطي الخطاب طاقة حجاجية تدفع المخاطب للتسليم بالقول .

ج- حجاجية التمثيل "التشبيه":

يعتمد الخطاب الحجاجي على التمثيل في توجيه الحجج ، والتأثير في المخاطب ، إضافة إلى وظيفته الجمالية فهو استدلال بلاغي يقوم على رابط علائقي بين شيئين مختلفين تجمعهما صفات مشتركة ، فالتمثيل أسلوب بلاغي يسهم في إنتاج الخطاب الحجاجي ويدعمه ليزيده فاعلية في التأثير والإقناع ، ويوجد تداخل

1- النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ، أحمد فهد محمد شاهين ، مرجع سابق ، ص 61.

2- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، مرجع سابق ، ص 262.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، ص 30.

بين التمثيل والتشبيه وذلك لتشابههما في العمل والإجراء الاستدلالي، وهو ما جعل بعض العلماء من يجعلها أمرا واحدا ويفردون لها بابا واحدا، نحو ما نجده عند ابن الأثير حيث يقول: « وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التمثيل والتشبيه وجعلوا لهذا بابا، ولهذا بابا مفردا وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع؛ يقال: شبهت الشيء بالشيء؛ كما يقال: مثلته به. وما أعلم كيف خفي ذلك على هؤلاء العلماء مع ظهوره ووضوحه»¹، فهو لا يفرق بينهما لما يؤديانه من وظيفة بلاغية ومقارنة شيئين يشتركان في نفس الصفة، في حين نجد عبد القاهر الجرجاني ينفي ذلك تماما مؤكدا على اختلافهما لما رصده من فروقات تخص كل منهما فيقول: « فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيل»²، وبهذا التفريق يكون التمثيل عقد صلة بين صورتين مختلفين يتقاربان في الصفات حتى يتمكن المتكلم من الاحتجاج به وتوظيفه لدعم حججه³، أما التشبيه فهو « عقد مقارنة بين شيئين، وبيان أن شيء أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو»⁴ مقدرة،

ومهما كان القول الذي نأخذ به إفرادا لهما أو تفريقا بينهما فإن لكل منهما قيمة حجاجية ذات طاقة إقناعية تسهم في التأثير والاستدلال؛ فالتمثيل ربط بين صورة وأخرى، والتشبيه عقد مقارنة لتقريبهما، وبالتالي فهما من الأساليب البلاغية الاستدلالية التي يستعملها المتكلم في التصوير مما يجوج مخاطبه لإعمال فكره للوصول للقصده الحقيقي من استعمالها، وكيفما كان الحال تمثيلا أو تشبيها فإنه «... إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أهبة وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها،.... وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أفهر، وبيانه أهر»⁵، وبهذه الميزات يكتسب قيمته الحجاجية

1-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ج2، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط2، دت، ص115.

2- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص75.

3- ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص497.

4- البلاغة الواضحة، البيان، المعاني، البديع، للمدارس الثانوية، علي الجارم - مصطفى أمين، دار المعارف، دط، دت،

ص20.

5- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص92-93-94.

الداعمة للخطاب والموجهة للحجج والساعية للتأثير والإقناع ، فالتمثيل مشابهة حالة بحالة ، دعوة للتدبر والتفكير ، فنعمل أساليب الاستدلال البلاغي من قياس واستنتاج واستقراء لغوي للربط بين الحالتين¹ .
بهذا الطرح يمكن أن نعتبر التشبيه التمثيلي « وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المتلقي من جهات عدة ؛ فهو خطاب للعقل بوصفه ينتقل العقل من المعنى في الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التصديقية ، لأنه بمثابة إحضار المعنى المدعى ليشاهد كما هو في الواقع »² ، فهو آلة البلاغة ومدار بيانها مثله مثل الكناية والاستعارة باعتباره مجاز « إذا مهت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني »³ يدفع مخاطبك للتغيير أو التقييم ، أو الفعل أو الترك ، وذلك حسب قصدك وغرضك من الكلام .

فالتمثيل خطاب الوجدان والأذهان يستدل به المتكلم للتعبير عن مقاصده انطلاقاً مما يعلمه العقل إلى ما قد يعرفه بالتداول ، فهو أقرب أنواع الاستدلال إلى الشعر وأصقها به خاصة ما تعلق بالمتون التعليمية المنظومة رجزا لغاية تعليمية ؛ إذ الاستدلال بواسطة التمثيل يعني تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة عن طريق تشابه في العلاقات ، فهو احتجاج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر⁴ ، نجو ما نجده في شبكة القناص التي جاءت عبارة عن رجز تعليمي نظمت لغاية تعليمية محضة ، وهي تقريب ما ورد في الدرّة من مسائل فقهية تعنى بأمور الدين لإفهام المتعلمين ، فهي حقائق معرفية يعلمها العقل حرص الناظم على إثباتها وإجلاء بيانها بالتمثيل والمشابهة بين الصور ، فأوردها في أسلوب مباشر تسهيلا ، وبلفظ بسيط توضيحا فشد بها القلوب و الأفهام ، ولأن « الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق »⁵ ، فقد وردت آلة البلاغة تشبيها تمثيلا في سياقات عدة استعملها الناظم في منظوم الدرّة ، حيث لجأ

1- ينظر: المنهج التداولي في تحليل الخطاب الشعري دراسة تطبيقية في اللهب المقدس ، عبد الحليم بن عيسى ، دار كنوز للنتاج والنشر والتوزيع ، ط1 ، 2018 ، ص156 .

2- الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة ، حافظ اسماعيلي علوي ، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2011 ، ص25 - 26. / نقلا عن: المنهج التداولي في تحليل الخطاب الشعري دراسة تطبيقية في اللهب المقدس ، عبد الحليم بن عيسى ، المرجع نفسه ، صفحة نفسها .

3- مفتاح العلوم ، السكاكي ، مرجع سابق ، ص331 .

4- ينظر: المنهج التداولي في تحليل الخطاب الشعري دراسة تطبيقية في اللهب المقدس ، عبد الحليم بن عيسى ، ص157 .

5- تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي ، محمد بازي ، الدار العربية للعلوم ، لبنان ، ط1 ، 2010 ، ص62 .

لجأ إلى ضرب المثال بعقد صلة بين الصورة والأخرى في كل مسألة يطرقها حتى يتضح مقاله ويفهم المخاطب مراده، فيتأثر به ويقتنع بنتائجه وأحكامه، ومن ذلك قوله¹:

إن قلت هل يجوز أن يرتجع ::::: زوجه من لها الطلاق جرعا

قبل البنا من غير عقد سندا ::::: قلت نعم إذا بها حمل بدا

لم ينفه فإنه يرتجع ::::: من غير عقد وصداد يقع

كمثل من أبان بعد ما بنى ::::: فجدد العقد عليها لاعتنا

ثم لها طلق قبل الابتنا ::::: فهو رجعي على ما بنيا

تطرق الناظم في الأبيات على لسان مخاطبه إلى مسألة فقهية تدخل في باب الطلاق، وتخص رجلا طلق زوجته قبل الدخول بها، وأجازوا له ارتجاعها بغير نكاح مبتدأ وبغير صدق، ليرد عليه بجوازها، ذاك أن الرجل طلق زوجته قبل البناء، ولما ظهر حمل على المرأة ادعى أنه منه، فإنه ينسب له ويرتجع بلا صدق ولا نكاح مبتدأ، وحتى تتضح الصورة أتى بصورة أخرى مشابهة لهذه المسألة فقال "كمثل" وهي أنه إذا نكح امرأة ثم بانت عنه بالخلع، أو بخروجها من العدة ثم تزوجها وطلقها قبل الدخول فإن طلاقه رجعي². فحجة التمثيل هنا أن الناظم قدم لمخاطبه مسألة فقهية وعرضها على شكل قضية مشكوك في أمرها، ليبين له حكمها داعما للحكم بمجموعة من الحجج خدمة للنتيجة، وليوضح المسألة لجأ إلى الاستدلال البلاغي ليزيد من فاعلية حججه، فاستعمل التشبيه التمثيلي مشبها صورة بصورة مشابهة لها، فشبّه المسألة الفقهية الأولى التي عرضها على مخاطبه بمسألة أخرى تشابهها ليكون لهما نفس الحكم، وهو جواز ارتجاع الرجل لامرأته.

ومن سياقات استعمال الاستدلال بالتشبيه التمثيلي قوله كذلك³:

إن قلت شخص منع التيمم ::::: قبل تيمم أخيه فاعلما

قلت فذاك ميت ييمم ::::: لعدم الماء الذي يُعمَّم

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري، ص 126.

2- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية، برهان الدين ابراهيم بن فرحون، مرجع سابق، ص 204.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجوي

الأنزجيري، ص 47.

إذ فعله من قبل أن يُيمَّما :::: كفعله ووقتها قد عدما

تدخل المسألة في باب التيمم ، أوردها الناظم إغازا على لسان مخاطبه مختبرا له ، فعرض عليه قضية تخص عدم صحة تيمم الرحل إلا إذا فرغ غيره ، ليجيبه بأنها تعنى بالميت الذي لم يوجد له الماء لتغسيه ، فإن من يصلي عليه لا يصح له التيمم إلا بعد أن يتيمم الميت ، لأن التيمم لا يصح إلا بعد دخول وقت الصلاة ، ولا يدخل وقت الصلاة عليه إلا بعد فراغ تيممه ، ومن شرط التيمم اتصاله بالصلاة¹ .

فوجه الاستدلال هنا هو تشبيه تمثيلي أورده الناظم عبد الرحمن بن محمد العالم لإثبات حقيقة مسألة فقهية ، وبيان حكمها ، فيسهل على مخاطبه فهمها ، حيث قام بمشابهة صورتين مختلفتين لتقريب الصورة وإبرازها ، وهي أن تيمم المصلي قبل تيمم الميت يشابه تيممه للصلاة قبل دخولها .

وحتى نبرز أهمية التشبيه والتمثيل في التأثير والإقناع نورد هذه الآيات التي اشتملت ثلاثة صور تمثيلية أوردها الناظم لإقناع مخاطبه فيقول² :

إن قلت هل يجوز أن يصلا :::: بنجس عمدا وما إن قلا

قلت نعم بسائل الجروح :::: ونحوه كسائل الجروح

وما يصيب من كطينا المطر :::: مختلطا بنجس مستقذر

سلسكالبول وما من جر :::: أذياهن قاصدات الستر

وحجاجيته تكمن في أن الناظم أورد عدة صور مشابهة للصورة التي يعبر عنها ، وهو استدلال بلاغي أورده لبناء خطابه وتوجيه مخاطبه ودفعه للتسليم بالحجج المقدمة له وبالتالي تحقيق الاقتناع الذي يجعله يغير من رأيه أو يقوم بعمل أو يتركه .

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص أغاز فقهية ، برهان الدين إبراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 90 .

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 57 .

المبحث الثالث: الحجاج التداولي

أولاً: مفهوم الحجاج التداولي

تعنى التداولية بالبحث في نظرية الأفعال اللغوية ، أو ما يعرف بأفعال الكلام ، فإذا كانت اللسانيات تدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها فإن التداولية اتجه جديد ظهر حديثاً له امتداد للبحث اللساني يدرس اللغة في حالة الاستعمال ، أي يعنى بعلاقتها بمستعملها ، فلم يمحصر اشتغاله على الدراسة الوصفية للغة فحسب بل تعداها إلى الجانب الوظيفي للغة ، على أساس أنها تترجم الأقوال إلى أفعال إنجازية ، فهي تنظر للغة أنها « عبارة عن أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والملفوظات إلى الفعل الإنجازي والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز »¹ في المتلقي ، وعلى ذكر التأثير نكون أمام خاصية مهمة في العملية الحجاجية ، فعن طريق التأثير يحقق الحجاج غايته الإقناعية ، حيث لم تعد اللغة أداة تعبيرية فحسب بل أصبحت عند التداوليين خطاب تواصلية وظيفي يتعدى وظيفة نقل الأفكار والمعلومات إلى فعل التأثير الإقناعي الذي يفرضه سياق التخاطب انطلاقاً من المقام الذي يكون فيه المتخاطبان ، وبالتالي فالحجاج في التداولية أو ما يمكن تسميته بالحجاج التداولي هو الذي يجعل « الخطاب الحجاجي يخضع ظاهرياً وباطنياً لقواعد شروط القول والتلقي ، بعبارة أخرى إن كل خطاب حجاجي تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية وبالتالي قيمة ومكانة أفعال الذوات التخاطبية . هكذا ينتمي القول أو النص الحجاجي إلى مجال التداوليات »² ، وإذك فإن الخطاب الحجاجي يخضع لمعطيات البحث التداولي من خلال الفعالية التواصلية وطبيعة الخطاب ومحتواه ومقاصده وسياقه ونتائجه التأثيرية ، وذلك بالإجابة على أسئلة التداولية المتمثلة في الآتي³:

- من يتكلم؟ ، وإلى من يتكلم؟ ، ونعني بهما طرفا الخطاب من خلال التحوار بينهما.
- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ ، ونقصد به مضمون الخطاب ومحتواه.
- ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟ ، يظهر ذلك من خلال سياق الحديث.
- كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟ ، ونقصد به تضمين معنى الخطاب القولية ، أو ما يعرف بالاستلزام الحوارية.

1- نظريات الحجاج ، جميل حمداوي ، مرجع سابق ، ص 52.

2- الحجاج والاستدلال الحجاجي ، حبيب أعراب ، مرجع سابق ص 35.

3- المرجع نفسه ، ص 36.

وبعد الإجابة عن هذه التساؤلات يتبدى لنا الملمح الحجاجي انطلاقاً من خاصية التواصل الحوارية، فحيثما يكون التواصل يكون الحجاج، وبالتالي فإن المحاجة ما هي إلا نتاج ممارسة اجتماعية يجسدها الاستعمال الفعلي للغة أثناء العملية التخاطبية، فيظهر البعد التداولي للخطاب الحجاجي على مستويات عدة، على غرار الأفعال اللغوية المتداولة في الحجاج كالأفعال العرضية التي تستعمل «لعرض مفاهيم، وبسط موضوع، وتوضيح استعمال كلمات، وضبط مراجع، مثال ذلك: أكد وأنكر وأجاب، واعترض، وهب، ومثل، وفسر، ونقل أقوالاً»¹، ناهيك عن ملابسات الحدث الكلامي المتصلة بالسياق والتي تزيد من حججته كأن «نجد تعابير إنجازية موجهة إلى ربط قول ما بباقي الخطاب وبكل السياق المحيط، من هنا نعثر على أجيب وأستنبط وأستخلص، وأعرض، ... وتأتي هذه التعابير لتربط القول بالأقوال السابقة وأحياناً بالأقوال اللاحقة»²، فتزيد من حججته الخطاب.

إذن فالنص الأدبي أو الخطاب بمنظور التداولين «ليس مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأقوال والأحاديث، بل يهدف إلى تغيير وضع المتلقي عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي من خلال أفعال ولا تفعل»³، ومن خلال هذا القصد التداولي المتمثل في هدف التغيير يتبدى لنا الملمح الحجاجي للخطاب، لكونه «عبارة عن أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والمفوضات إلى الفعل الإنجازي والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز»⁴ في المتلقي.

وصفوة القول أن التحليل الإجرائي للعملية الحجاجية من منظور اللسانيات التداولية، يحصرها في نظرية الأفعال الكلامية التي «تنبني على ثلاثة عناصر رئيسة وهي: أولاً، فعل القول ويراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة سليمة التركيب، وذات دلالة، تحمل في طياتها حمولات قضوية وإخبارية، وبالتالي تشمل على مستوى صوتي وتركيبية ودلالية، مثل: "أشكرك يا علي"، وثانياً، الفعل المتضمن في القول، وهو الفعل الإنجازي الذي يحدد الغرض المقصود بالقول، كصيغة الأمر في هذه الجملة: "انتظري اللحن الجديد"،

1- الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مرجع سابق، ص 36.

2- المرجع نفسه، ص 36..

3- نظريات الحجاج، جميل حمداوي، مرجع سابق، ص 51-52.

4- المرجع نفسه، ص 52.

وثالثا، الفعل الناتج عن القول، وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر فعل القول¹، فهو أي تصرف أو سلوك يأتي نتاج للعملية الحجاجية، فيتحقق القصد التداولي للخطاب من خلال العمل الإقناعي.

ويرتكز الحجاج في مفاهيمه على جملة من الأسس التداولية يمكن حصرها في الآتي²:

أ - وجهة النظر: ويقصد بها الرأي أو الموقف في القضية المعروضة، والحال هنا أن تكون في موقف إدعاء أو اعتراض إزاء الموضوع، وهو ما ينحى بالخطاب منحى المحاجة، حيث يصبح لوجهة النظر معنى حجاجيا، غالبا ما يشك فيه المخاطب؛ وهو الجانب الذي يركز عليه المرسل من أجل إقناعه برأيه ووجهة نظره.

ب - القضية: هي جوهر الاختلاف في أي حجاج، حيث يتضمن الخطاب الحجاجي قضية ما، أو مجموعة قضايا يتم الدفاع عنها انطلاقا من مبدأ الإدعاء والاعتراض بين المتخاطبين.

ج - العرض: وهي جملة التقنيات والوسائل والأدوات اللغوية التي يتم عبرها عرض القضايا المطروحة من المرسل إلى المتلقي.

د - الاعتراض: يقوم الحجاج على مبدأ الاختلاف والتنازع بين المتحاورين، الأمر الذي يجعل القضية في محل تجاذب في الآراء والمواقف، فالاعتراض يأتي بعد عملية العرض في الممارسة الحجاجية ويسعى صاحبه إلى الوصول إلى صدق القضية ومدى مجانبتها الصواب، ومن ثم تحقيق الإقناع والاقتناع بها.

ثانيا: الأفعال الكلامية

1 - مفعوم الفعل الكلامي:

الأفعال الكلامية من القضايا التي ارتكزت عليها اللسانيات التداولية، وتأتي نتاج استعمال لغوي ينتهي بالقيام بفعل في الواقع أو الكف عنه، وبهذا تكون اللغة قد خرجت عن وظيفتها الأساسية لكونها «أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية»³ يقتضيهام مقام التلفظ، وهو مقام يجعل من الأفعال الكلامية أثناء العملية التواصلية أداء حجاجيا يوجب طرفها للدخول في محاجة باللغة بغية التأثير والإقناع لتحقيق المقاصد والغايات.

1- نظريات الحجاج، جميل حمداوي، مرجع سابق، ص 52.

2- ينظر: أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، مثنى كاظم صادق، مرجع سابق، ص 53.

3- نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستين، تر: عبد القادر قيني، إفريقيا الشرق، المغرب، دط،

وما يجعل الأفعال الكلامية حديثا تلقى اهتماما كبيرا هو النظرة الحديثة للغة على أنها أفعال جاءت محصلة أقوال كلامية ، بمعنى أن « وحدة التواصل اللغوي هي ليست ما كان مفترضا ، بأنها الرمز ، المفردة أو الجملة ، ولا حتى علامة على الرمز أو المفردة أو الجملة ، بل هي بالأحرى إنتاج أو إصدار ذلك الرمز أو المفردة أو الجملة في تأدية فعل الكلام »¹ ، وعلى هذا الأساس يكون التواصل بالكلام أفعالا ينجزها القول الصادر من المتكلم للتأثير في السامع وإقناعه .

وبما أن الأفعال الكلامية هي محصلة أداء فعلي للغة ، نخلص إلى أنها حجاج يلجأ فيه المتكلم لإقناع مخاطبه والتأثير فيه لتحقيق أهدافه ، وعلى إثر اقتناع السامع بكلام مخاطبه يتحقق فعل الإنجاز وهو العمل الذي يقوم به السامع كردة فعل ، كأن يفعل شيئا ، أو يصدر صوتا ، أو يغير سلوكا أو اعتقاد .

ولعل ما يجعل الحجاج يرتبط بالأفعال الكلامية هو اتصاها بالأبحاث التداولية ، فتداولية المتكلم هي ما يحقق نجاح التواصل ، فحتى يعبر عن أغراضه ويصبو إلى مراده ينبغي أن يكون ذا كفاءة لغوية عالية تعينه على إنتاج الخطاب وتوجيه حججه لإقناع المخاطب ، والحال نفسه بالنسبة للمخاطب فوجب عليه أن يكون ذا قدرة على الاستقبال وتحليل ما عرض عليه حتى يفهم قصود المتكلم ، ويترجمها إلى أفعال .

وتتأسس الأفعال الكلامية على فكرة "القول هو الإنجاز" أي فعل شيء باللغة وهو ما أشار لها مترجمها "أوستين Austin" ، الذي يرى « أن التلفظ بالجمل "في المناسبات المخصوصة بطبيعة الأمور" ليس هو أني أصف حال قياسي بالفعل ، وأنا أتحدث على هذا النحو ، كما أني لا أريد أن أثبت أني قائم بذلك الفعل ؛ بل إن النطق بالجملة هو إنجازها وإنشاؤها ، ثم إن ما ذكرته هنا من العبارات المتلفظ بها لا يدل شيء منه على التصديق ولا على التكذيب ؛ بل إنني أوجب الحكم على هذا الشيء لبدايته ووضوحه »² ، بهذا الطرح يكون أوستين قد غير النظرة لوظيفة اللغة من أنها حاملة لمضامين مجردة أو وصف لأحداث أو وقائع بالصدق والكذب إلى الوظيفة الإنجازية والأداء الفعلي لمضامين القول .

بهذا تكون نظرية الأفعال الكلامية أخرجت اللغة من طابعها الإخباري الإعلامي إلى الطابع الأدائي الفعلي ، خاصة وأن ما نقوله ليس بالمجهول حتى يستدعي تصديقه أو تكذيبه ، فلو كنت في مرافعة أو محاجة مع خصم وأفنته بالحجة والدليل إلى أن اقتنع ، وقلت "الآن حصحص الحق" ، أو قلت لطالب ابتك

Speech acts an essay in the Philosophy of language. Searle. John R. Alden press 1
Oxford. 1996.P16 .

2- نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام ، أوستين ، مرجع سابق ، ص 17 .

"زوجتك ابنتي" ، أو قلت للظالم "عفوت عنك" ، لا تقصد بها الإبلاغ أو الإخبار عن شيء مجهولونه ، بل كلامك هذا هو أفعال قمت بها حين النطق بعباراتها.

ويمكن القول أن الفعل الكلامي هو نتيجة تواصل لغوي ، ولأنه لا تواصل من دون حجاج ، فإن الفعل الكلامي هو استعمال لغة في مقام تواصل ، يحاجج فيه طرفا التواصل بعضهما البعض للخروج باللغة من وظيفتها الإبلاغية إلى الوظيفة الإنجازية ، فتتحول اللغة من مجرد حامل للقول إلى مجسد للفعل ، ولا يتحقق ذلك إلا بشروط وجب توفرها في كل من المتكلم ومخاطبه ، من ذلك¹:

- أن يكون للكلام معنى ، أي يتعلق بالقضية المعبر عنها ، وهو ما يسمى بالمعنى القضوي .
- أن يكون المتكلم قادرا على إنجاز الفعل .
- أن يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل فلا يعقل أن يقول ما لا يعتقد ، أو يلزم نفسه ما لا يستطيع فعله .

- أن يسعى للتأثير في السامع لينجز فعلا .
- أن يكون للمتلقى السلطة للقيام بالفعل على وجه الاقتناع لا اللزوم .
- أن يكون المتلقي منجزا للعمل بنزاهة الالتزام بالفعل بعد اقتناعه بأقوال المتكلم .
والمأمل لهذه الشروط يلقي أنها آليات يشترك فيها الفعل الكلامي مع الحجاج ، فكلاهما يقوم على الإقناع والتأثير ، وبالتالي يمكن القول بأن الأفعال الكلامية ما هي إلا خطاب حجاجي يسعى به المتكلم التأثير في السامع وإقناعه لإنجاز شيئا ما ، ومن ثم فالوظيفة الإنجازية للغة ما هي إلا وظيفة حجاجية تدفع المتلقي لفعل شيء ، أو تعديل سلوك ، أو تغيير رأي أو اعتقاد .

وفي ضوء هذا التوجه ميز أوستين بين نوعين من أفعال الكلام هما:

أ - الأفعال الوصفية: وتسمى أيضا الإخبارية ، ونعني بها «أفعال تصف وقائع العالم الخارجي وتكون صادقة أو كاذبة»² ، بمعنى أنه يمكن أن نصدق صاحب القول أو نكذبه ، وذلك حسب ما يفرضه الواقع ومقتضيات المقام .

1- ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، محمود أحمد نحلة ، مرجع سابق ، ص 48 .

2- المرجع نفسه ، ص 43 .

ب - الأفعال الأدائية: وتسمى أيضا الإنجازية وهي أفعال « تنجز ... في ظروف ملائمة ولا توصف بصدق أو كذب بل تكون موفقة كما أطلق عليها أو غير موفقة ، ويدخل فيها التسمية والوصفية والاعتذار والبرهان والنصح والوعد»¹ ، وغيرها من الأفعال التقريرية.

2 - مستويات الفعل الكلامي وتصنيفاته.

وعن مستويات الفعل الكلامي فإننا نجد أوستين قسم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:
أ فعل القول: يرى أوستين أنه « يتألف من أصوات لغوية تنتظم في ترتيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد، وهو المعنى الأصلي وله مرجع يحيل إليه»² ، فهو بدوره ثلاثي التشكيل حيث يشمل جانب صوتي نطقي ، ونحوي تركيبى ، ودلالي إبلاغي .

ب - فعل إنجازي: هو « ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي»³ ، أو هو ما يقوم به المتكلم أثناء تلفظه بالكلام لينجز به معنى قصديا ، فهو عمل ينجز بقول ما ، كسؤال ، أو أمر ، أو وعد ، أو شكر ، وهذا المستوى هو المقصود بالنظرية عموما⁴.

ج - فعل التأثير: هو نتاج الفعل الإنجازي ، أي « الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع » ، سواء كان أثرا جسديا أو فكريا ، أو شعوريا⁵.

أما عن أنواع الأفعال الكلامية فقد بوبها "أوستين" حسب قوتها وما تقصده من أغراض إنجازية يمكن توضيحها في الآتي⁶:

أ - التقريريات: هي أفعال كلامية تؤكد بها بعض الوقائع والأحداث في العالم الخارجي ، أو تعبر عن اتخاذ قرار اتجاه أمر أو شخص لصالحه أو ضده ، نحو يأذن ، يمكن ، يجب ، ... الخ.

1- أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، محمود أحمد نحلة ، مرجع سابق ، ص 44.

2- المرجع نفسه ، ص 45.

3- المرجع نفسه ، ص 47.

4- ينظر: اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني قراءة استكشافية للتفكير التداولي عند القانونيين ، مرتضي جبار كاظم ،

مرجع سابق ، ص 43.

5- ينظر: خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدي ، عباس حشاني ، مرجع سابق ، ص 263.

6- ينظر: المرجع نفسه ، ص 263-263. و ينظر: اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني قراءة استكشافية للتفكير التداولي عند

القانونيين ، مرتضي جبار كاظم ، مرجع سابق ، ص 44-45.

ب - الحكميات: تتعلق عادة بأفعال القرارات ، وتهدف لإصدار الأحكام ، ومنها ما يصدره القاضي من حكم المحكمة ، أو الحكم في المباراة ، أو عضو لجنة التحكيم في المسابقات ، وهي أحكام تقديرية على الغالب.

ج - الوعديات "أفعال التعهد": هي أفعال تلزم المتكلم بفعل عمل معين وتوجهه القيام به ، كأفعال القسم والضمان والرهان ، والتأييد ، والخطبة قبل الزواج ، وكل ما يدخل ضمن أفعال التعهد.

د - السلوكيات: هي أفعال تأتي كرد فعل نتيجة حدث ما ، فيجسد المتكلم موقفه بالقول اتجاه مخاطبه كأن يعتذر له أو يشكره أو يثني عليه ، ومنها كذلك الترحيب والتعزية والتهنئة.

هـ- التنبيهيات "أفعال الإيضاح": هي أفعال نستعملها لتوضيح رأينا أو شرحه وتفسيره ، وتتعلق هذه الأفعال بالحجاج كالأثبات ، والنفي والتأكيد والإنكار.

ومن هذا التقسيم استقى "Searle سيرل" تقسيماً آخر للأفعال الكلامية؛ هما الفعل الإنجازي المباشر ، والفعل الإنجازي غير المباشر ، ويرى أن «الفعل التمريبي هو وحدة المعنى في الاتصال ، حيث يقول المتكلم شيئاً ما وهو يعني بما يقوله شيئاً ، ويحاول توصيل ما يعنيه للمستمع ، فإنه إذا أفلح سيكون قد أدى فعلاً تمريبياً»¹ فهو بقوله هذا يربط الأفعال الإنجازية المباشرة بمدى تطابق قوتها الإنجازية لقصد المتكلم.

أما الفعل الإنجازي غير المباشر فهو فعل تخالف قوته الإنجازية قصد المتكلم ، وهذا النوع من الأفعال لا تدل صورتها التركيبية على زيادة في المعنى الحرفي الإنجازي ، ولكن الزيادة تتأتى من معنى الكلام².

ومثلما قسم "أوستين" الفعل الكلامي قام " سيرل " بتقسيمه وجعله أصنافاً مصنفة ، فإن كان "أوستين" قسم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام أساسية فإن "سيرل" عدل في التقسيم ، حيث حافظ على

1- العقل واللغة والمجتمع ، الفلسفة في العالم الواقعي ، جون سيرل ، تر: سعيد الغانمي ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، لبنان ، ط1 ، 2006 ، ص203. نقلاً عن اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني قراءة استكشافية للتفكير التداولي عند القانونيين ، مرتضي جبار كاظم ، مرجع سابق ، ص45.

2- اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني قراءة استكشافية للتفكير التداولي عند القانونيين ، مرتضي جبار كاظم ، المرجع نفسه ، صفحة نفسها.

القسمين الإنجازي والتأثيري ، وفرع القسم المتعلق بالفعل اللفظي إلى قسمين ليتم الأربعة ونوضحها في الآتي¹:

أ - فعل القول: فعل يتعلق بالتلفظ ويشمل الجانب الصوتي أي النطق بالألفاظ على نسق نحوي معجمي صحيح ومضبوط .

ب - الفعل القضوي " فعل القضية": هو الشق الثاني من القسم اللفظي وهو القسم الذي أضافه "سيرل" ، ونعني به القضية ، ويشمل ما توحى به الجملة من حولة دلالية مباشرة ، ويؤخذ من المعجم عادة ، ويقابل فعل القول كدلالة إحالية مباشرة .

ج - القوة الإنجازية " فعل القوة المتضمنة في القول": فعل القوة هو الفعل الكلامي الحقيقي ، أي الفعل المنجز في الواقع ، ويأتي كنتيجة لفعل القول ، أي أنه الطاقة الإنجازية التي يتضمنها الفعل الكلامي ، كالإخبار والوعيد والشكر والتهديد ، ... الخ ، ويرد الفعل القضوي دائما مع فعل إنجازي في إطار كلامي مركب ، فلا يعقل أن تنطق دون أن يكون لك قصد .

د - الفعل التأثيري: يتعلق بالأثر الذي يتركه فعل القول في السامع ، وهو بنفس المفهوم الذي قدمه "أوستين" ، غير أن "سيرل" لا يوليه أهمية .

وحتى يتجلى لنا مفهوم الفعل الكلامي حسب "سيرل" نورد الأمثلة الآتية:

- يتقن زيد عمله . - أيتقن زيد عمله؟ .

- يا زيد أتقن عملك . - لو يتقن زيد عمله .

فالمتكلم حال النطق بأي من هذه الجمل ينجز أفعالا مختلفة في وقت واحدة ، وهو ما يشكل الفعل

الكلامي وهي:

الفعل النطقي: أي النطق الصوتي لألفاظ الجمل على نسق نحوي ومعجمي سليم .

الفعل القضوي: هو المرجع الذي تحيل إلى الجمل ويدور حوله الحديث ، وهو زيد في الجمل الأربعة .

الفعل الإنجازي: ويتعلق بالطاقة الإنجازية في كل جملة ، كالإخبار في الأولى ، والاستفهام في الثانية ،

والأمر في الثالثة ، والتمني في الرابعة .

أما تصنيفه للأفعال الكلامية فقد أورده في خمسة أصناف هي²:

1- أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، محمود أحمد نحلة ، مرجع سابق ، ص 71 - 72 - 73 .

2- المرجع نفسه ، ص 78 - 79 - 80 .

أ - الإخباريات: هي أفعال إنجازية الغرض منها التعبير والإعلام عن واقعة ما من خلال قضية ينقلها المتكلم .

وهذه الأفعال تحمل الصدق والكذب ، وتشمل أفعال هذا الصنف معظم أفعال الإيضاح والأحكام عند "أوستين" .

التوجيهيات: غرضها الإنجازي هو محاولة المتكلم توجيه المخاطب حتى يدفعه لفعل شيء ما ، ويدخل في هذا الصنف الاستفهام والأمر والاستعطاف والرجاء والنصح والإرشاد ، وتدخل أيضا أفعال القرارات التي وضعها "أوستين" .

- الالتزاميات: هي أفعال تلزم قوتها الإنجازية المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل ، وشرط الإخلاص هو القصد ، أما المحتوى القضوي فهو فعل المتكلم شيئا في المستقبل ، فمرجع الالتزاميات هو المتكلم ، ويرتبط بمطابقة الكلمات للعالم الخارجي .

- التعبيريات: الغرض الإنجازي لهذه الأفعال هو التعبير عن المواقف النفسية للمتكلم ، ويشترط في هذا التعبير توافر مبدأ الإخلاص ، وهذا الصنف من الأفعال ليس له مطابقة لا بين الكلمات والعالم الخارجي ، ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات ، لأن التعبير عن القضية بصدق وإخلاص يفني بالغرض ، ويدخل في ذلك أفعال التهئة والتعزية والشكر والترحيب ، ... الخ .

- الإعلانيات: أهم ما يميز أفعال هذا الصنف هو مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي ، وما يميزها عن أفعال الأصناف الأخرى أنها تحدث تغييرا في الوضع القائم ، فضلا عن أنها لا تقتضي عرفا غير لغوي ، لذلك فهي لا تحتاج لشرط الإخلاص ، واتجاه المطابقة فيها قد يكون من الكلمات إلى العالم الخارجي ، ومن العالم الخارجي إلى الكلمات ، ويدخل في هذا الصنف كل أفعال الإعلان ، نحو قولك: أعلن رسميا عن افتتاح فعاليات الملتقى ، أو قولك أعلن عن تاريخ الامتحانات ، وكل ما من شأنه الدلالة على الإعلان .

من خلال ما سبق يتضح أن الاتجاه التداولي ربط الأفعال الكلامية بالحجاج ، باعتبار كل منهما يسعى للتغير عن طريق التأثير والإقناع ، فشبكة القناص باعتبارها خطابا تعليميا تعنى بأمور الدين - مثلها مثل الخطابات الأدبية الأخرى - تخرج عن وظيفتها الإبلاغية والإخبارية إلى وظيفة حجاجية يهدف ناظمها عبر مجموعة من الأقوال والعبارات يحاجج بها مخاطبه - المتعلم - ليؤثر فيه ويقنعه لترجم في نهاية المطاف إلى أفعال إنجازية ، كتعديل سلوكه ، أو تغيير اعتقاده ، أو دفعه لفعل عمل ما .

3- مقاصد أفعال الكلام وأبعادها الحجاجية في شبكة القناص:

فالأفعال الكلامية إذن تأتي نتيجة فعالية حوارية بين طرفين متكلم وسامع ، يسعى كل منهما إلى إحداث فعل اللغة في صاحبه « وتغيير نظام معتقداته أو موقفه السلوكي من خلال ثنائية: أفعال ولا تفعل»¹ ، وهو ما نجده في شبكة القناص على درة الغواص ، حيث نلني عبد الرحمن بن محمد العالم يحاول إقناع الخواص من طلبته ، بفعل اللغة ، مستهلا حديثه بثنائية "إن قلت قلت" ، وكأن به على علم باعتقاد مخاطبه وعلى دراية بسلوكياته ، لذلك نجده عازم النية على محاجته ، ودفعه للتغيير .

فالطابع الديني والبعد التربوي التعليمي اللذين تمتاز بهما شبكة القناص ، جعلها منها خطابا حجاجيا دعائمه قوة التأثير ، وتعدد أساليب الإقناع ، وهو ما يجعل ناظمها يبسط حججه وينوعها حسب حاجته إليها ، حارصا في البداية على مخاطبة قلوبهم واستعطافهم رافعا معنوياتهم بمختلف العبارات العاطفية ، نحو قوله: "يا ذا الفهم ، يا فطن ، يا رجل ، يا خل ، يا ذا النظر ، يا محاضر" ، ليتوجه بعدها إلى مخاطبة عقولهم ، فيعرض حججه وفق مقتضيات المقام وما يتطلبه العقل والمنطق ، الأمر الذي يصعب من عمله . وحتى نتبين الأفعال الكلامية ومدى حجاجيتها في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، نعتمد التقسيم الذي وضعه "سيرل" نظرا لوضوحه ودقته .

أ- التوجيهيات:

أشرنا لها سابقا بأنها أفعال تؤثر في المتلقي لإنجاز عمل ما في المستقبل ، فتشمل جميع الجمل الإنشائية بمختلف أساليبها التي تفيد الطلب ، ولأن مدونة الدراسة ذات طابع تربوي تعليمي ، فإن خصوصياتها الحجاجية تعتمد على الأساليب الطلبية خاصة ما تعلق منها بالأمر والنهي لما لهما من وظيفة حجاجية قادرة على دفع المخاطب لفعل شيء ، أو تغيير اعتقاد ، فصاحب الشبكة استعمل أفعال التوجيه ليبلغ مقصده ويحقق هدفه الخطابى ، لتربية النشأ وتقويم سلوكه وبالتالي بناء مجتمع أساسه الدين وركائزه العبادة والمعاملة ، لذلك استقى مخاطبا خاصا فطنا حذقا ، فتعدى في ممارسته الحجاجية التأثير الجمالي بالقول إلى التأثير العقلي بالفكر . يدخل أسلوبا الأمر والنهي ضمن أفعال التوجيه كونها فعلا إنجازيان يوجهان المتلقي للقيام بأغراض معينة يقصدها المخاطب ، « فالأمر يتوسل به إلى إتيان الفعل لأهميته والنهي يتوسل به إلى عدم إتيان

1- نظريات الحجاج ، جميل حمداوي ، مرجع سابق ، ص 51-52.

الفعل لقبحه ومنافاته للحق والصواب»¹ ، فتداولية الأمر والنهي تترجمها نظرية الأفعال الكلامية من خلال ثنائية "افعل... ولا تفعل" ، فقولنا افعل نقصد بها أن تأتي بالفعل لأهميته في هذا المقام ، وقولنا لا تفعل نعني به أن تمتنع عن إتيان هذا الفعل لتنافيه مع ما نريد .

وبهذه الطريقة استحضر صاحب الشبكة أسلوبا الأمر والنهي ، ولكن أتى بهما بثنائية موازية هي "إن قلت... قلت" ومن ذلك قوله آمرًا²:

إن قلت ما به الوضوء قد منع :::: والانتفاع به أيضا يمتنع

وهو كثير سالم التغير :::: قلت فذا الما لثمود قد دري

وهو ماء سخط فنبذا :::: للنهي عنه في الصحيح فانبذا

تعالج الأبيات مسألة فقهية افترضها عبد الرحمن بن محمد لمخاطبه ، وهي احتمالية وجود ماء كثير باق على أصله لم يلحقه تغير لا في اللون ولا في الطعم ولا في الرائحة ، ومع ذلك لا يجوز الوضوء به ولا حتى الانتفاع به ، ليبين له أنه ماء الآبار التي في أرض ثمود ، وعدم استعمالها راجع لنهي الرسول ﷺ عن الشرب من بئرها والقي منها ، لأنه ماء سخط وعذاب³ .

فحجاجية الأبيات واضحة ، وتتجلى لنا في الحجج التي عرضها ناظم الشبكة ليوهم مخاطبه بالنتيجة "ن" التي يريد بها وهي "جواز هذا الماء" لأمارات توحى بذلك ، نحو: "كثير ، باق على أصله ، سالم التغير" ، وهي في الظاهر حججا كافية للقول بطهره وجواز استعماله ، لكن لكون الأبيات عبارة عن إغاز وتعمية للمعنى وإخفاءه لشحذ الأذهان ، أتى بالنتيجة "ن" الحقيقية التي يقصدها تحديدا وهي بعد جواز استعماله لا للوضوء ولا للانتفاع ، وقدم لذلك حججا داحضة لما سبق ، وهي نهي الرسول ﷺ من استعماله .

أما حجاجية الأمر فنراها ظاهرة للعيان من خلال قوله "فانبذا" أي اترك هذا العمل لا تأتي به لعدم صلاحه ومنافاته للحق وعين الصواب ، وحتى يوجه خطابه نحو هذه النتيجة صرح تعبيرا بما يدل عن بطلانه بأسلوب طلبى آخر هو النهي فقال "للنهي عنه في الصحيح" .

1- الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة ، رسالة دكتوراه ، مخطوط ، إشراف عبد القادر انخي ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الحاج لخضر باتنة ، الجزائر ، 2009 ، 2010 ، ص 216 .

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي الأتزميري ، ص 38 .

3- ينظر : درة الغواص في محاضرة الغواص أغاز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 74 .

وفي استعمال آخر لأسلوب الأمر نجد قوله¹:

إن قلت هل تُعَجَّل الصلاة مَع :::: جماعة بوقت ظَهْرٍ مُتَسَّعٍ
 عن وقتها المختار في الجماعة ::::: كذا العشا تأخيرها كالساعة
 قلت نعم تعجيلها بجمعة ::::: أفضل من تأخيرها لعلَّة
 وهي الإِراحَةُ لِطُولِ المَجْلِسِ ::::: بِمَسْجِدٍ لِلنَّاسِ فَافْهَمِ وَأَقْبِسِ
 كذا العشا تأخيرها برمضان ::::: عن وقتها المعتاد بالغير استبان
 توسعة للناس في الفطور ::::: عن الذي صح عن الصدور

تدخل الأبيات في باب الأوقات ، وهي إلغاز من ناظمها ليختبر مخاطبه ، حيث عالج مسألة فقهية تخص التعجيل بالصلاة في وقت الظهر مع الجماعة ، عن الوقت المعتاد في حق الجماعة ، وكذا تأخير صلاة العشاء عن وقتها المعتاد في حق الجماعة وهي بالحضر ، ليجيبه بجوازها وصحتها ، أي يجب التعجيل بها عن وقت الظهر المعتاد على أساس أنها صلاة جمعة ، لراحة الناس من طول الجلوس في المسجد².

فالوجه الحجاجي للأبيات يتبدى بالنتيجة "ن" التي يريد صاحب الشبكة إيهام مخاطبه بها وإقناعه بها ، وذلك بتوجيه الخطاب نحوها ، وهي أنه لا تقدم الصلاة ولا تعطل ، ساردا مجموعة من الحجج التي تدعم حجته ، نحو: الوقت ، الجماعة ، ... ، ليوضح له الحكم من خلال نتيجة يعيد بنائها من جديد ويدعمها كذلك بالحجج نحو: أنها صلاة جمعة ، راحة الناس ، عدم إطالة الجلوس في المسجد ، والحال نفسه بالنسبة لتأخير الصلاة لأن الأمر يتعلق بصلاة العشاء ، وأنها آخر صلاة مفروضة في اليوم ، تزامنها مع شهر رمضان ، توسعة على الناس في الفطور ... الخ.

أما عن حجاجية الأمر فنجده قد ختم به الأبيات في صيغتين مختلفتين هما "افهم وافبس" ، وهما فعلان إنجازيان يتضمنان معنى الفعل ، كتغيير الرأي والاعتقاد وتقويم السلوك .
 أما أسلوب النهي فمن سياقات استعماله قول عبد الرحمن بن محمد³:

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 55.

2- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص أَلغاز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 101.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 54.

إن قلت هل يجوز قبل الفجر :::: أداء صبح وأداء ظهر
 قبل الزوال وأداء مغرب :::: قبل غروب الشمس للمقرب
 قلت نعم عن حجاب الشمس :::: عن الطلوع في أوان الخمس
 عند طلوعها بنحو مغرب :::: بإذن مولانا لها لا تعجب

تتطرق الأبيات إلى مسألة فقهية تدخل في باب الأوقات ، وتتعلق بالتوقيت الذي تؤدي فيه الصلاة كقبل طلوع الفجر في صلاة الصبح ، أو الظهر قبل الزوال ، أو المغرب قبل الغروب ، وهي قضية أجازها الشارع لإرادة ربانية تخص حكم الصلاة في الأيام التي تحتجب فيها الشمس من الطلوع فنطلع من مغربها ، فليس في هذه الحالة فجر ، وكذلك في الزوال والمغرب¹ .

دخل الناظم في حوارية حجاجية مع مخاطبه لخدمة نتيجة معينة "ن" ، هي أنه لا تصح الصلاة في غير وقتها ، مقدما مجموعة من الحجج لإيهامه ولإقناعه بهذه النتيجة ، قبل طلوع الفجر بالنسبة لصلاة الصبح ، وقبل الزوال في الظهر ، وقبل غروب الشمس في صلاة المغرب ، ليرد عليه بجوازها لمقام خاص يفرضها هو إرادة المولى عز وجل أن تطلع الشمس من مغربها وهي حجة داحضة لما قبلها تجعل المخاطب يدعن ويسلم بالنتيجة ويغير اعتقاده .

وحتى يزيد من فاعلية حججه يضيف لها حجة تداولية أخرى تتمثل في استخدامه أسلوب الأمر الطلبي بقوله "لا تعجب" ، وهو فعل كلامي إنجازي يدخل في قسم التوجيهيات حسب تقسيم "سيرل" ، وحجاجيته تكمن في عدم الإتيان بالفعل لمنافاته للصواب وعدم صلاحيته ، لذلك ناه عن العجب من الحدث الإلهي لطلوع الشمس من مغربها ، أو حججها تماما .

ولا ضير أن نورد سياقاً آخر لاستعمالات أسلوب النهي في شبكة القناص على وجه الإيضاح كقوله

مثلاً²:

إن قلت هل يصح الاستخلاف في :::: غير الصلاة أو لمنع ذا اقتفي
 قلت نعم مؤذن إن رعفا :::: جاز له استخلاف من قد عرفا
 ثم الذي استخلفه يبني على :::: ما من أذانه قبيل حصلا

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 100 .

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجاوي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 55-56 .

قال ابن يونس ولا يبني على :::: أدائه سواء إن تعطلا

ف قيل ذا خلاف ما تقدما :::: وقيل الاستخلاف في ذا عدما

المتبع للآيات يجدها حوارا بين طرفين يهدفان إلى إيضاح فكرة تتعلق بمسألة فقهية تعنى بأمور الدين ، وتدخل في باب الأذان ، وفحواها هل يكون الاستخلاف في غير الصلاة كالأذان مثلا ، ففي عرف المخاطب أن الاستخلاف يكون في الصلاة فقط ، وهي النتيجة التي يريد عبد الرحمن بن محمد إقناعه وإيهامه بها ، ولكن الآيات جاءت في سياق تحاطبي يقتضي مقاما خاصا ، حيث أن الأمر يتعلق بمؤذن رعف وهو يؤذن فاحتيج لمن يستخلفه لتتمة الأذان ، وفي رأي آخر لابن يونس أنه أن لا يبني على ما مضى من الأذان بل يعيد الأذان من جديد¹.

وحجاجية النهي تتبدى في قوله "لا يبني" وهو فعل إنجازي يتضمن معنى الفعل ولكونه من أساليب الطلب فإنه يدخل في أفعال التوجيه حسب تقسيم "سيرل" ، والملمح الحجاجي في قوله "لا تبني" أنه أسلوب نهي يتضمن معنى الفعل كتوجيه للخطاب نحو النتيجة المرجوة ، وهي حسب سياق الآيات التوسل به لعدم الإتيان بفعل البناء على أذان الراعف حسب رأي ابن يونس .

وما نخلص له أن أسلوبا الأمر والنهي على اختلاف سياقات استعمالها المتعددة في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص وردا بحمولة دلالية جسدتها طاقتها الحجاجية الفاعلة التي مكنت عبد الرحمن بن محمد العالم من محاجة مخاطبه وإقناعه لإنجاح العملية التعليمية والتحكم في مجرياتها ، مرة أمرا ومرة أخرى ناهيا ليحرك وجدانه ، او يثير انتباهه لتحقيق غايته المنشودة الدافعة للتغيير نحو الصواب .

ب- الإلزاميات:

الفعل الإلزامي هي أفعال كلامية يتعهد المتكلم بإنجازها مستقبلا على وجه الواجب واللزوم ، كأن يلزم نفسه « بفعل شيء تجاه المخاطب طوعا ، وتمثله أفعال الوعد والوعيد والضمان والإنذار »² عادة ، فهي من الاستراتيجيات التي يركز عليها المتكلم في بناء خطابه الحجاجي وتوجيه مخاطبه توجيها صحيحا حسب

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 102 .

2- دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم ، مقاربة تداولية ، مجلة الخطاب ، منشورات مخر تحليل الخطاب ، جامعة مولود

معمرى ، تيزي وزو ، الجزائر ، ع3 ، 2008 ، ص 16 .

القصد الذي يريده هو ، وتشمل « الحالات التي يمكن فيها أن نحث الآخر أو نقنعه أو نجعله يطيع أو يعتقد في أمر ما »¹ فيلزم نفسه فعل أمر معين .

ومن سياقات استعمال أفعال التعهد أو ما سمي باللزوميات قول الناظم²:

إن قلت شيء ملزم إن أتلفا :::: قيمته ومثله من أتلفا

قلت فهذا محرم إن قتلا :::: صيدا بملك غيره محصلا

فإنه يلزمه لربه :::: قيمته ومثله لذنبه

يتطرق الناظم في هذه الآيات إلى مسألة فقهية تعنى بمسائل الضمان ، وتخص رجل أتلف شيئاً لزمه ضمانه بشيئين المثل والقيمة ، ويتعلق الأمر برجل قتل صيدا مملوكا وهو محرما ، فلزمه دفع القيمة لصاحبه ، ومثلها للفقراء³ ، فنلاحظ أن الناظم بنى خطابه بناء حجاجيا لخدمة نتيجة محددة "ن" ، فاستقى لها ما يدعمها من حجج لإقناع مخاطبه بها ، ونلمح طاقة حجاجية في فعل اللزوم "يلزمه" كقوة إنجازية تجبر المتكلم على فعل شيء مستقبلا كدفع ثمن القيمة لصاحب الصيد ، وما يقابلها للفقراء في هذا السياق .

ومن أفعال الضمان في الشبكة نجد قول الناظم⁴:

إن قلت رمكة لشخص هلكت :::: على الولادة لدى ما مخضت

فغرم القيمة شخص أجنبي :::: قلت فذي قد أودعت للأجنبي

إن هلكت من الولادة لما :::: فيه من التعدي عند الحكم

تعالج الآيات مسألة فقهية تخص رجلا ماتت بقترته أثناء الولادة فغرم قيمتها رجل أجنبي ، وجاء هذا الحكم كنتيجة يسعى الناظم إيهام مخاطبه بعكسها أي "لان" بحجة أن الرجل أجنبي ، ليبين له في الأخير أن هذه البقرة كانت وديعة عند هذا الأجنبي فأنزوى عليها بغير إذن صاحبها فهاتت الأمر الذي يجعله يضمن قيمتها مستقلا .

1- نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام ، أوستين ، مرجع سابق ، ص 137.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 177.

3- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 280.

4- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 280.

وعن حجاجية الأفعال الكلامية فإننا نلاحظها في قوله "غرم القيمة شخص أجنبي" حيث جاء الفعل "غرم" كفعل إلزامي يحمل معنى الفعل، وذو طاقة حجاجية تلزم المتكلم - وكأن المخاطب الافتراضي في هذا المقام هو صاحب القضية - بفعل شيء في المستقبل كدفع قيمة البقرة لصاحبها. وحتى تتبين لنا حجاجية أفعال التعهد أكثر نورد مجموعة من الأفعال الإنجازية تضمن محتواها معنى الفعل أوردها الناظم تباعا قائلًا¹:

وأستعين الله في قصيدة:::ضممتها مسائل مفيدة

من جملة الألغاز والمعيات::: لشحد أذهان ذوي المصافات

من رجز يقرب المنشور::: جعلته مزدوجا مسطورا

سميته بشبكة القناص::: لما حوته درة الغواص

وأسأل الله وفاء الوعد::: فهو الذي له وجهت قصدي

المتأمل للأفعال "أستعين، ضممتها، لشحد، يقرب، جعلته، أسأل الله وفاء الوعد"، كلها أفعال إنجازية ذات طاقة حجاجية تعين المتكلم في بناء خطابه الحجاجي، وتوجيه مخاطبه توجيهها صحيحا يجعله يدعن له ويقنع بكلامه، ومن هذه الأفعال ما يدخل في قسم اللزوم على أنه تعهد من المتكلم لفعل شيء في المستقبل، كشحد واختبار أذهان ذوي العقول والفتنة الأذكياء، وأيضا قوله "من رجز يقرب المنشور"، فيقرب فعل إنجازي يسعى الناظم لتحقيقه مستقبلا، فالزم نفسه به، أي لزم نفسه بتسهيل منشور الدرّة للطلبة بنظمه شعرا، ليختم الأبيات على وجه التصريح قائلا: "وأسأل الله وفاء الوعد"، كدعاء يقوي خطابه لتحقيق مبتغاه.

ج-الإخباريات:

هي أفعال إنجازية تقوم على إخبار المتلقي وإعلامه بأمر يجمله، وهي استراتيجية خطابية تعين المتكلم في بناء حجاجه، وتتمثل قوتها الإنجازية في وصف شيء ما للمخاطب، أو إعلامه بأمر معين، أو تقريره له، بتقديم الشواهد والأمثلة التي تؤكد، لذلك نجدتها تحتل الصدق والكذب.

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجلوي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص31.

ويأتي توظيف الناظم لها في شبكة القناص للحاجة إليها ، خاصة وأنه في مقام تعليمي يقوم بإخبار مخاطبه - المتعلم الافتراضي - بما قد يجمله من أمور الدين والدنيا من عبادة ومعاملة ، ومن ذلك قوله¹:

إن قلت مُعْتَدَةٌ مَوْتٍ بَعْلٍ :::: ليست تَحْلُ دُونَ وَضْعِ حَمْلٍ
ولا بَوْضَعِ حَمْلِهَا إِنْ لَمْ تَتِمَّ :::: عِدَّةَ الْأَشْهُرِ لَهَا فِي مَا عُلِمَ
قلت فَهَٰذِي زَوْجَهَا قَدْ نُعِيََا :::: ثم تزوجت بمرء هويًا
فَرَجَعْتَ لِأَوَّلِ لَمَّا قَدِمَ :::: وَهِيَ حَامِلٌ بِحُكْمٍ قَدْ حُتِمَ
وَقِيلَ لِلأَوَّلِ قُرْبَهَا حُظْرٌ :::: عَلَيْكَ قَبْلَ وَضْعِهَا فَلْتَنْتَظِرْ
فمات قبل وضعها فالأجلين :::: أَقْصَاهُمَا تَلْزَمُ فِيهَا دُونَ مَيِّن

فالقضية التي يعالجها الناظم تتعلق بمسألة فقهية تخص امرأة معتدة وهي حامل ، ولا تحل لزوجها بعد الوضع قبل تمام العدة ، ولا تحل أيضا بتمام العدة دون وضع الحمل بل وجب اجتماع تمام العدة ووضع الحمل معا ، فبيان هذا اللغز أن هذه المرأة قد نعي زوجها بعد ذكر خبر وفاته ، فاعتدت له ، وبعد انقضاء عدتها رغب فيها رجل فتزوجها ، ومع الأيام عاد زوجها الأول فردت إليه وهي حامل ، فلا تحل له حتى تضع حملها ، ولكنه مات قبل وضع الحمل ، فلا تحل لغيره بالوضع دون تمام عدة الوفاة ، ولا تحل بتمام عدة الوفاة دون وضع الحمل².

الآبيات مقتطفة من شبكة القناص وهي قصيدة مطولة جاءت على شكل متن تعليمي يحوي أحكام فقهية يجملها الكثير منا ، وللغاية التعليمية التي يقتضيها المقام نجد الناظم يخاطبنا افتراضيا على نية الإخبار وتوضيح ما نجمله ، فجاءت الشبكة في معظمها أفعالا إنجازية ذات طاقة حجاجية توضح لنا وتفسر أحكام الشرع في ما التبس علينا في أمور ديننا الحنيف ، نحو ما نجد في هذه الآبيات .

ومن ذلك أيضا قوله في باب العدة³:

إن قلت مَرَأَةٌ لَهَا يَحِلُّ مَسٌّ :::: الطَّيِّبُ فِي عِدَّةِ مَوْتٍ دُونَ بَأْسٍ

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 138.

2- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص 224.

3- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 136.

قلت إذا لزوجها قد غسّلت :::: ولم تجد مُحْنَطًا فَحَنَطْتُ
لم تأثم إن لذاك طيباً مسّت :::: إذ الضُّرُورَةَ لِدَاكِ التَّجَاتِ

فالأبيات تضم أفعالاً كلامية تدخل في تقسيم الإخباريات حسب تقسيم "سيرل"، حجاجيتها تكمن في قوتها الإنجازية ذات الطاقة الحجاجية التي تجعل الناظم يستعملها لإخبار مخاطبه بأمر يجمله كحكم المرأة التي مست طيباً وهي معتدة، فالظاهر أنه يحرم عليها ذلك وهي النتيجة التي بناها الناظم في البداية وأوهم مخاطبه بها، بحجة أن المرأة في حالة عدة، لكن سياق الخطاب وما يقتضيه المقام من ظروف تبين لنا أنه يريد نتيجة أخرى هي أنه "لا شيء على هذه المرأة رغم عدتها"، ودعم نتيجته بحجة أنها لم تجد من يغسل زوجها بعد وفاته فغسلته هي مما جعلها تمس الطيب.

د-التعابير:

تعنى أفعال هذا القسم بالجانب النفسي للمتكلم كما سبق وأن ذكرنا، وقوتها الإنجازية تكمن في توافر مبدأ الإخلاص في حال التعبير بها، وتشكل أفعال التهئة والتعزية والشكر والترحيب،... الخ، ومن ذلك ما استهل به الناظم شبكة القناص حيث أتى بفعل إنجازي تمثل في الحمد والثناء على المولى عز وجل قائلاً¹:

يقول راج رحمة وغفران :::: أسير ذنبه عبيد الرحمن

ابن محمد هو ابن احمد :::: وفقه الله بكل مقصد

حمدا لمن قد فتح الأبواب :::: وبسر الأمور والأسباب

الآبيات هذه استهلها الناظم كمطلع للقصيدة، حيث جاءت على شكل دعاء يتضرع به للمولى عز وجل معظماً وحامداً عليه يحظى بتوفيقه تبارك وتعالى في مهمته التعليمية، وكعادة شعراء المنطقة خاصة مادحي الرسول ﷺ نجده متحسراً معترفاً بما اقترف من ذنوب راجياً الرحمة والمغفرة، فالملح الحجاجي للآبيات يتبدى لنا في الغرض الإنجازي من الأفعال الواردة، ويمثله تحسر وصدق الناظم ما دام في مقام دعاء وكذا إخلاصه لتحقيق غايته التعليمية التربوية.

ومن ذلك أيضاً قوله قبل ختام الشبكة مشيراً للمذهب الإمام مالك وأتباعه²:

إن قلت هل تعرف نَقْشَ خَتَمِ :::: الإمام مالك أقول نَعَمِ

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري، مرجع سابق، ص 30.

2- المرجع نفسه، ص 224.

هُوَ حَسْبُنَا اللَّهُ إِلَى الْوَكِيلِ :::: فَقِيلَ فِي ذَلِكَ لَهُ مَقُولٌ
فَقَالَ قَدْ رَأَيْتَ قَوْمًا قَالُوا :::: فَأَنْقَلَبُوا بِهَا بِهِ قَدْ نَالُوا
مِنْ نِعْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَفَضِلٍ :::: وَلَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ يَسْلِي
وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ فَنَالُوا :::: مَا لَمْ يَكُنْ غَيْرُهُمْ يَنَالُ

تعتبر هذه الأبيات آخر فعالية حوارية وردت في شبكة القناص ، وتتعلق بختم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، الذي اشتهر به ، حيث أراد ترسيخ هذا الختم في أذهان مخاطبيه ، حيث يعتبر الإمام مالك هذا الختم سر النجاة وأساس عطاء المولى ونيل النعم ، ليجيبه أن الختم نقش عليه "حسبنا الله ونعم الوكيل" ، وأن أي امرئ قالها ينال من النعم ما يجعل حياته تتغير ، ولم يمسه ضر ولا سوء ، وإذا قالها واتبع مرضاة الله فإنه سينال ما لم ينله غيره¹ .

فهذه الأبيات حازت على أفعال كلامية تدخل في باب التعبيرات ، وغرضها الإنجازي هو التأكيد على إخلاص النية والتوكل على المولى عز وجل في التصريف وإتباع مرضاته ، وحجاجيتها تكمن في أنها معاني تتعلق بنفسية المتكلم .

ولعل ما ختم بها الشبكة من أبيات يدل صراحة عن إنجازية أفعال التعبير عند عبد الرحمن بن محمد العالم ، حيث ختمها بالحمد الكثير مصليا ومسلما على النبي ﷺ وعلى آله فيقول²:

فَأُحْمَدُ اللَّهُ الَّذِي بِهِ انْتَهَى :::: حَمْدًا كَثِيرًا مَا لَهُ مِنْ مَنْتَهَى
ثُمَّ عَلَى رَسُولِهِ خَيْرَ الْأَنَامِ :::: صَلَاتِهِ مَعَ السَّلَامِ بِالْذَوَامِ
فَأُحْمَدُ اللَّهُ بِكُلِّ الْحَمْدِ :::: مَصْلِيًا مُسْلِمًا مِنْ بَعْدِ
عَلَى إِمَامِ الْمُرْسَلِينَ أَحْمَدَ :::: وَالْآلِ وَالصَّحْبِ وَمَنْ بِهِ اهْتَدَى

هـ-الإعلانات:

أهم ما يميز أفعال هذا الصنف هو مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي ، وتهدف إلى إحداث تغيير في الوضع القائم ، فهي أفعال كلامية استعملها الناظم في خطابه التعليمي الديني ، ليقنع مخاطبه حقائق

1- ينظر: درة الغواص في محاضرة الغواص ألباز فقهية ، برهان الدين إبراهيم بن فرحون ، مرجع سابق ، ص341.

2- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص225.

دينية مطابقة للواقع الخارجي ، وهو ما يجبره على الاستجابة الفورية لقوتها الإنجازية ، وذلك بتوافق قصد المتكلم مع اعتقاد ورغبة مخاطبه لتحقيق الغرض المتضمن في القول .

فالقوة الإنجازية لهذه الأفعال هي ما يجعل القول يطابق الواقع ، وهو ما يفسر القدرة الحجاجية للناظم وبراعته في تشكيل الخطاب ، حيث يعتمد لهذا النوع من الأفعال الكلامية كآلية حجاجية تعينه في بناء نتائجه وتقديم حججه التي تدعمها ، وهي استراتيجية خطابية تجعل مخاطبه يدعن ويقنع بما عرض عليه من أفكار ، وعن أمثلة هذا النوع في شبكة القناص نلفي أن عبد الرحمن بن محمد العالم يدلي ويصرح في بداية كل باب فقهي يطرقه بحكم كإعلان على الدخول فيه ، نحو قوله في أول قضية طرقها¹ :

باب بيان القول في مقدمة :::: تبيين للطالب سر الكلمة

فهو هنا يعلن عن بداية مباشرة عمله المتمثل في نظم متثور الدرّة ، فبدأ بشرح الاسم الذي اختاره لمتنه وهو شبكة القناص ، ومن هذا القبيل قوله في غير ما موضع "باب بيان اللغز في" التيمم ، أو الزكاة ، الهبة ، أو الشفعة الوصايا ، أو غيرها .

1- شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الأنصاري الزجاجي

الأنزجيري ، مرجع سابق ، ص 31-32 .

الخاتمة

خلصنا في هذه الدراسة العلمية إلى نتائج استنتاجية نلخص فيها موضوع بحثنا ، متمنين أن تكون افتراضات مسبقة لإثارة إشكالات مختلفة قد تكون مواضيع علمية لبحوث أخرى ، فالتواصل اللغوي ميزة إنسانية خص بها الإنسان دون غيره ، باللغة يتخاطب ، وبها يعبر عن أغراضه ، وبها يبدي فنون قوله ، فهو محصلة استعمال اللغة في فعالية اجتماعية ليعايش الفرد داخل مجتمعه ، وسواء كان التواصل في صورته العادية ، أو في الخصومات والجدل ، أو المناظرات العلمية ، فإن الطابع الحوارية يجعل تخاطب الإنسان مع غيره ، يتصف بملامح الحجاج ، الأمر الذي يجعلنا نستعمل آليات الاستدلال على اختلاف أشكالها ، وتنوع أصنافها لإقناع غيرنا والتأثير فيه لتغيير سلوكه ، أو تعديله ، أو دفعه لفعل شيء ، أو تركه ، ونحن بعد هذه الدراسة اللغوية لشبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص - التي كان هدفها البحث في خصائص التخاطب وتحديد أبعاده الوظيفية التداولية في منظوم الدرّة ، والكشف عن تداولية الخطاب التعليمي الديني وتبيان ملامحه الحجاجية ، بالوقوف على الآليات الحجاجية التي استعملها الناظم عبد الرحمن بن محمد لإقناع مخاطبه وإفحامه - خالصنا إلى بعض النتائج التي نرجو أن تكون كفيلة لتلخيص ما سبق ، ومجدية لتقريب ما بعد ، ومثيرة لتوجيه اهتمامات الباحثين والدارسين لمثل هذه الدراسات التي تعنى بتيسير ما صعب ، وأهم ما توصلنا إليه نجمله في هاته النقاط:

- 01 - بلاغة الخطاب موضوع نقدي شغل فكر الدارسين البلاغيين على مر العصور ، ونعني ببلاغة الخطاب ؛ البحث في نظام البنية اللغوية التي تشكله وربطها بسياق القول الذي يجعلها تنصهر مع عناصر غير لغوية تضيف على النص صفة الخطابية فنستحضر المتكلم والسامع والسياق والزمان والمكان .
- 02 - إن العملية التعليمية أداء تواصلية ينحصر دورها في دراسة آليات اكتساب وتوصيل المعارف المتعلقة بمجال معرفي معين ، فهي تمثل في آن واحد تفكيراً وممارسة يقوم بها المدرس لمساعدة المتعلم ، لكي يتحصل على معارفه في أحسن الظروف الممكنة ، وهذا ما لمحنه في شبكة القناص .
- 03 - إن محتوى الخطاب ومضمونه هو ما يحدد طبيعته ، وبذلك يتحدد نوع الخطاب الذي أمامنا ، لكن المقام التخاطبي الذي يتم فيه هذا الخطاب تفرض عليه ملامح مخصوصة القصد ذات أبعاد تداولية يفرضها السياق ، ومن ذلك شبكة القناص التي جاءت كخطاب تعليمي ديني .

- 04- بناء محتوى الخطاب التعليمي يستدعي رصد مجموعة من المعارف العلمية في مجال معين وتقديم بمقاربة بيداغوجية يسهم كل من المعلم والمتعلم في حوار تفاعلي في إنجاحها ، وتقوم على مجموعة من الركائز التي تجعل الخطاب التعليمي على محك الأخذ والعطاء الإيجابي ، على نحو أهمية الموضوع ، والفئة المستهدفة ودرجة استيعابهم ، المشاركة الفعالة علاوة على استثمار مهارات التلقي والتدريس .
- 05- إن أهم سبل التعلم والتلقين التي شهدتها الفكر العربي هي ظاهرة الحفظ التي تعتمد على قوة الفهم واستحضار الذاكرة ، حيث يلجأ المتعلم إلى حفظ المادة التعليمية واستظهارها على المعلم .
- 06 - أغلب المعارف والعلوم تأتي منتشرة لذلك يعسر حفظها وتلقيها ، الأمر الذي جعل علماء العربية يهتدون إلى أهمية الأدب ودوره في احتواء العلوم وتسهيل فهمها ، فكان الأدب سبيلهم في ذلك حيث نظموا المنتور شعرا في ما عرف بالمتون ، وأفردوا لهذا المجال بحر الرجز كإيقاع شعري يتماشى في حركاته خفة وسرعة مع قوة الذاكرة .
- 07 - إن هاته المتون لم تأت إلا لغاية تعليمية ، لذلك استثمرت في مختلف العلوم ، فنجدها في علوم العربية وفنونها ، صوتا ونحوا و صرفا وبلاغة ، وكذلك في علوم الدين فقها وتفسيرا وتأويلا ، وكذا علوم الطب والحساب والفلك ، والأخلاق ، ومن ثم سميت بالمتون التعليمية .
- 08 - تعد حاضرة توات من الحواضر العلمية التي شهدت اهتماما كبيرا بهذا الجانب التربوي في حراكها العلمي والفكري ، خاصة وأن موقعها الجغرافي وقتئذ أهلها لأن تكون أرض ارتكاز لقوافل العلم والتجارة الرحالة ، بين شمال إفريقيا ودول الساحل ، ناهيك عن مواطن الدرس والتعلم المنتشرة في الإقليم من مساجد وزوايا .
- 09- تضمن "متن شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص" لصاحبه عبد الرحمن بن احمد العالم بن أحمد الأنصاري الأنزجيري مجموعة من المسائل الفقهية معتمدا فيها على الإلغاز وإخفاء المعنى كوسيلة تعليمية تثقيفية وهو منهج يعتمد على الذكاء وقوة الفهم ، لذلك كان هذا المتن التعليمي موجهة لمتلقي مخصوصا .
- 10- المتبع لشبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص يلحظ أنها خطاب حجاجي قائم على فرضية الإدعاء والاعتراض ، والقصد المعلن ، ومبدأ الاختلاف بين الطرفين ، وكذا سياق الحال والمقام ، دفع المخاطب إلى فعل ما يقوم به ، علاوة على غاية الحجاج الرامية إلى دفع المخاطب إلى فعل ما يقوم به .

- 11- يتسم الخطاب الحجاجي بمجموعة من الخصائص تجعله في قالب استدلالي محض ، وقد حددها الدارسون في ثلاثة أبواب رئيسية ، أولها السمات الحجاجية ، ثانيها الضوابط البنائية ، وثالثها طبيعة الخطاب الحجاجية .
- 12- إن اللغة مهمة في أي حوارية فكرية ، فقد استطاعت ببنيتها التركيبية وما تحويه من أدوات لغوية أن تنوع في وظائفها التعبيرية ، فشملت إضافة إلى الإبلاغية الجمالية والإقناعية ، وهو ما رصدناه في شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص .
- 13- إن منطق اللغة يجعل استعمالها غائي قصد التأثير ، وهو وظيفة إقناعية قائمة في اللغة ذاتها وليس خارجها ، مما يجعلها ذات صفة حجاجية مؤشر لها في بنية الأقوال نفسها ، وفي المعنى عموما وما يشكله من ظواهر صوتية و صرفية ومعجمية وتركيبية ودلالية خاضعة لها .
- 14 - إن الطابع الحجاجي للغة جعل اللغات الطبيعية تشتمل على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج ، فالعربية مثلا تشتمل على جملة من الروابط والعوامل الحجاجية ، ولا يمكن تحديدها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية ، ومن هذه الأدوات: "لكن ، بل ، إذن ، حتى ، لا سيما ، إذ ، لأن ، مع ذلك ، ربما ، تقريبا ، إنها ، ما ، إلا ، ... الخ".
- 15- وتنقسم الأدوات اللغوية إلى قسمين ، روابط حجاجية وعوامل حجاجية ، ونقصد بالروابط ما يربط بين قضيتين أو بين قولين ، أو بين حجتين ، حيث يكون لكل قول دور محدد في بناء الحجاج ، نحو: الواو ، الفاء ، بل ، لكن ، لا سيما ، حتى ، إذن ، لأن ، إذ ، لا سيما ، بما أن... الخ ، أما العوامل الحجاجية فهي التي ليس لها علاقة بالربط بين الحجج ونتائجها ، ودورها يكمن في حصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية لقول ما ، وتضم أدوات من قبيل ، ربما ، كاد ، تقريبا ، ما ... إلا ، قليلا ، كثيرا ، وغيرها من الأدوات التي تؤدي وظيفة القصر .
- 16- إن الأساليب البلاغية قد تخرج عن سياقها البلاغي فتتزاخ عن وظيفتها الجمالية الإنشائية ، لتؤدي وظائف أخرى كالوظيفة الإقناعية التي يدعو لها الحجاج ، فتتصف بميزة التحول التي تفرضها طبيعة التواصل فتؤدي أغراضا تعبيرية أو تنجز مقاصد حجاجية .
- 17- يقوم الإبداع الأدبي على اللغة في التأثير والإقناع فهو لا يخلو من أدوات البلاغة ؛ من معاني وبيان وبديع ، يستخدمها المبدع كآليات حجاجية في استراتيجياته الخطابية للتأثير في مخاطبه وسلبه وعقله فيدفعه لفعل عمل أو الكف عنه ، أو تغيير اعتقاد أو سلوك أو تعديله .

18- ظاهرة الأفعال الكلامية من القضايا التي ارتكزت عليها اللسانيات التداولية ، وتأتي كنتاج استعمال للغة ينتهي بالقيام بفعل في الواقع أو الكف عنه ، وبهذا تكون اللغة وسيلة للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية يقتضيها مقام التلفظ ، وهو مقام يجعل من الأفعال الكلامية أثناء العملية التواصلية أداء حجاجي يحوج طرفيها للدخول في محاجة باللغة بغية التأثير والإقناع لتحقيق المقاصد والغايات .

19- إن الاتجاه التداولي ربط الأفعال الكلامية بالحجاج ، باعتبار كل منهما يسعى للتغيير عن طريق التأثير والإقناع ، فشبكة القناص باعتبارها خطابا تعليميا يعنى بأمور الدين - مثلها مثل الخطابات الأدبية الأخرى - تخرج عن وظيفتها الإبلاغية والإخبارية إلى وظيفة حجاجية يهدف ناظمها عبر مجموعة من الأقوال والعبارات يحاجج بها مخاطبه - المتعلم - فيؤثر فيه ويقنعه لترجم في نهاية المطاف إلى أفعال إنجازية ، كتعديل سلوكه ، أو تغيير اعتقاده ، أو دفعه لفعل عمل ما .

فهارس وملاحق البحث

-
- فهرس الرموز المستعملة
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

ملاحق البحث

1- ترجمة الناظم¹:

تعريف الناظم:² هو الشيخ عبد الرحمان بن أحمد المدعو أحمدان بن أحمد بن أبي بكر بن بلقاسم ... فأصوله تعود للواجدة ثم ماسين بتيميمون.

نشأته: ترعرع الشيخ بقصر "زاجلو" في كنف عائلة علمية من أب ضرب أكباد الإبل لطلب العلم والمعرفة داخل وخارج الوطن بداية من تلمسان مرورا بفاس و المغرب في رحلة علمية بداية من جامع القرويين ومدرسة الشيخ "أبي ناصر الدرعي" ومدرسة "الرتب"، فنهل من تلك البقاع قسبات معرفية إلى أن شدّه الحنين لموطنه فأطلق العنان لمخيلته الشعرية المبدعة بأبيات خلّد فيها وجدّ البين وأثاته بدالية من البحر الطويل:

تذكّرتُ إخواننا لَنَا وَمَعَارِفًا: ... وَمَا قَدْ مَضَى مِنْ عَهْدِنَا مُتَبَاعِدُ
وَنَحْنُ بِغَرْبِ حَوْلِ شَيْخِ الْمَعَارِفِ: ... وَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي طَالَمَا أَنَا جَا حِدُ

وقد اشتملت القصيدة على ثلاث وستين بيتا تضمنت لمسات أدبية مثل التناص بقوله:

أَلَا كَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتُ لَيْلَةً: ... بَارِضِ تَوَاتٍ عِنْدَ شَيْخٍ نِعَاهِدُ
عَلَى وَبِيَّ اللَّهِ بَحْرُ الْمَكَارِمِ: ... فُزْرُهُ تَرَى فِي سِرِّهِ وَهُوَ نَافِدُ

فالتنص واقع على مستوى صدر البيت الأول، ومتعلقه بمرض أو وعكة، فلما وعك أبوبكر الصديق كان ينشد قائلا³: "كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ" ولما يوعك بلال بن رباح يقول:

أَلَا كَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتِنَّ لَيْلَةً: ... وَهَلْ أُرْدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَّةٍ

¹ - ترجمة الناظم مأخوذة بتصرف من مداخلة بعنوان: الأسر العلمية في توات وإسهاماتها العلمية في القرن العاشر حتى الرابع عشر هـ - عبد القادر قصابوي، جامعة المسيلة/ بشير بهادي أستاذ مؤقت، جامعة أدرار، من تنظيم المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية بادرلار بالتنسيق مع مخبر المخطوطات في غرب إفريقيا جامعة ادرار يومي 17 / 18 أبريل 2017 ..
2- مراسلة كتابية للشيخ عبد الرحمن عبد القادر، أحد أحفاد الشيخ، بقصر أنزجير يوم: 20 / 03 / 2017.
3- ينظر شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، تحأبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض السعودية، ط02، 1423هـ - 2003م، 4/ 556.

بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرْ وَجَلِيلٌ ::::: وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلٌ

والشاهد يدل على مُكْنَةِ والد الشيخ "عبد الرحمن بن أحمد" من العلوم الشرعية ، وهو المسلك ذاته الذي نهجه ابنه فيما بعد .

سردنا لهاته الروايات الشفاهية بغية الوقوف على المد المعرفي الضارب بجذوره في القدم لدى هاته العائلة ، فقد ورث عبد الرحمن بن أحمد العلم كابرا عن كابر ، وكان من الطبيعي أن يتلقى تعليمه الأول على يد والده أحمد الذي ضرب أكباد الإبل لكل من تلمسان حيث أخذه من أبي كلخ وفي المغرب عبد الواحد القدوسي ، يقول سالم بن عبد الكريم في هذا الصدد: « الذي عاد منها بعلوم ومعارف بثها في ابنه سيدي محمد وشقيقه عبد الرحمن وبعد وفاة أبيه أتم دراسته على أخيه الأكبر سيدي محمد الزجلاوي وبعدها انتقل إلى العلامة سيدي أحمد الونقالي »¹.

المتمعن في الحياة العلمية لوالده يتبصر شخصية الابن حيث يمم المسلك ذاته الذي درج عليه الأب ، كيفلا وقد علم بغربة والده وجلده في طلب العلم ، فرسم الوالد معالم الطريق الأولى ومن ثم استكمل المسيرة العلمية بعد وفاة أبيه على يد أخيه "سيدي محمد" المعروف بالزجلاوي ، وقد كان للأخ الأكبر نصيب من بديهة وشاعرية أبيه فألّف في النحو "نظم ألفية الغريب" ، وقد قال عنه صاحب الدرّة الفاخرة محمد عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمن بن يوسف التنبلياني كان أحد الأعلام وآخر المجتهدين في عصره² ، فترعرع الشيخ بين هامتين معرفيتين في العائلة ، وحتى يدرك أهمية الغربة في طلب العلم بعثه أخوه لطلب الفقه وأمور الدين على يد الشيخ الونقالي .

من خلال هذا المعطى تسنى له الاستفادة من أخيه الأكبر "محمد الزجلاوي" الذي كان عالما وذاع صيته في الديار التواتية آنذاك ، يقول عنه صاحب الدرّة الفاخرة محمد عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمن بن يوسف التنبلياني

¹شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، الشيخ عبد الرحمن بن أحمد ، تح وتعليق سالم بن عبد الكريم ، ص 20. وكذا ألفية الغريب نظم الزجلاوي الشهير بابن العالم ، رسالة ماجستير دراسة وتحقيق بقادر عبد القادر ، قسم الأدب بجامعة ادرار ، 1429هـ ، 1430م ، ص 08 .

2- ينظر مخطوط الدرّة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف والأدراسة العلاويين ، محمد عبد القادر بن عمر بن

عبد الرحمن بن يوسف التنبلياني ، ص 08 .

«كان أحد الأعلام وآخر المجتهدين في عصره أخذ عن سيدي محمد بن أحمد والشيخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر وانتهت إليه الرياسة في الديار التونسية وناب في التحكم بسيرة حميدة»¹.

ولم يبعث الشيخ الزجاجاوي أخاه ليكمل تعليمه عند الشيخ الونقالي اعتبارا أو بصفة عفوية فقط ، فقد كان على دراية بمكانته وتمكنه من العلوم وما يدل على ذلك تلامذته الذين طووا الركب عنده وخلد الزمن مدهم المعرفي أمثال:

- الحاج محمد عبد الرحمن البلبالي الذي تولى القضاء بتوات.

- الشيخ عمر بن عبد الرحمن المهداوي التهاوي.

مجيئه لقصر أنزجير:

شهد قصر أنزجير على وجه التقريب في القرن 12هـ مشاكل عدة حيث التعصب القبلي الذي شهدته المنطقة عموما فكان الغزو تحت هذا الغطاء نتيجة الجهل والبعد عن تعاليم الدين الإسلامي في خضم هذا المعترك الحامي الوطيس ، وبعد وفاة معلم الناس ومرشدهم بالقصر كان لا بد للبلد من رجل يعود بسفينته لجادة الطريق فتوجب على أعيان القصر أن يجدوا مخرجا لذلك ، بداية وقع اختيار أهل البلد على ابن بلدتهم "محمد بن الحاج أحمد بن محمد بن عبد الله التنوري الأنزجيري" الذي كان يدرس بمعية الشيخ عبد الرحمن بزواوية الشيخ محمد بن عبد الله الونقالي فاعتذر لهم ، ولما لاحظ تبخر زميله عبد الرحمن وتمكنه من العلم ومراعاة للظروف التي كان يمر بها القصر دهم عليه².

توجه أعيان القصر لشيخه الونقالي واستسمحوه في انتقاله إليهم بقصر أنزجير وقصدوا بعدها أعيان بلده زاجلو فاعترض على انتقاله خارج القصر "الشيخ بعومر" لكنه قبل الأمر بعدها ودعا له بالثبات والصلاح في أداء مهمته ، ومما يروى في تأهب أعيان القصر وحرصهم على إيجاد دليل هاد لبلادهم يمكنهم من استتباب الأمن وانكباب الناس على العلم أنهم قصدوا قصره زاجلو في عشرة رجال راكبين فرسانهم وأردفوا فرسا مسرجا حتى يمتطيه الشيخ ، مما يدل على الحرص وحسن النية فكان لهم ما أرادوا سنة 1169هـ³.

¹ الدررة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشرف والأدراسة العلويين (مخطوط) ، محمد عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمن بن يوسف التنيلاني انتهى من كتابتها بحسب ما صدر به المؤلف في بداية المخطوط بتاريخ 13 صفر 1250هـ ، ص 08.

² مقابلة شفاهية مع السيد: عبد القادر عبد الرحمن بمقر سكنه ، إمام بالمدرسة القرآنية التابعة لمسجد سيدي أحمد بن عبد الله أين توجد الخزانة ، بتاريخ 27/08/2013 على الساعة 23:30 .

³ مقابلة شفاهية مع السيد: الشيخ محمد بن عبد الرحمن وقد رواها عن السيد: مولاي أحمد أحد المتأخرين الذين أدركوا بعضا من علماء القصر.

نزل الشيخ بالقصر الفوقاني بقصر أنزجير أين أسس مدرسته الدينية وحقق لأعيان القصر مرادهم فاستتب الأمن وانكب الناس على مزاولة حلق الدروس ومن ثمّ توسعت الدائرة لتشمل القصور المجاورة فقصدوه لما وجدوا فيه من تبحر في العلم وحسن تعامله مع مرتاديه من طلبة وسائلين ومحبين كما أحسن أهل القصر إلى الشيخ وأجلوه أيما إجلال.

تبعاً لهذا الوضع المريح الذي عرفته البلد والألفة التي حصلت بين سكان القصر والشيخ عقد عزمه على الاستقرار وتفعيل حراكه العلمي ، وكان هذا المعطى فاتحة خير على القصر والقصور المجاورة له تمخض فأنجب علماء أكفأ ذاع صيتهم وساهموا مساهمة فعّالة في انتشار العلم في حاضرة توات من خلال الثروة العلمية التي خلّفوها حيث تركوا خزانة مليئة بالمخطوطات في شتى الأصناف والمجالات .

بدأ الشيخ نشاطه العلمي بتأسيسه لمدرسته الداخلية بالقصر الفوقاني وكان لهاته البداية أثرها على البلد نتيجة استتباب الأمن وإقبال الساكنة على حلق دروس العلم ليتطور الأمر ويشمل القصور المجاورة ، ومن ثمّ طلاب العلم عموماً ، وعُرف عنه ثباته وصلابته في الحق .

قعد الشيخ لهذا الحراك العلمي وقد اشتهر بمطالعتة للكاتب المختلفة ومما انماز به كثرة نسخه للكاتب وشرح بعضها ومن ضمن المؤلفات التي تنسب إليه:

- أنموذجنا مخطوط نظم درة الغواص في الألباز الفقهية سماه "شبكة القناص"

- مخطوط بعنوان "اللدان عمراً"

- مجموعة من الفتاوى والنوازل الفقهية .

- شرح على خليل وقيل أنه توفي قبل أن يُتمه .

ومن ضمن المخطوطات التي قام بنسخها : القاموس المحيط للفيروز آبادي ، كتاب التسهيل ،

بفضل هاته الهامة العلمية بات قصر أنزجير إشعاعاً علمياً ينير المنطقة كلها تخرج منه عديدوا الطلبة منهم

أبناءؤه الذين كانوا كلهم علماء وخلفوا أحفاداً واصلوا مسيرة النور إلى يومنا هذا .

عُرف عن الشيخ أيضاً نسخه للعديد من المخطوطات في مجالات عدة نذكر منها² اللغوية مثل مخطوط

القاموس المحيط للفيروز آبادي ، والفلكية منها "هذا كتاب في الفلك" ، والدينية والفقهية منها شرح الشفاء

¹ ينظر ورقة تعريفية بعنوان : هذه نبذة وجيزة عن قصر أنزجير وعلماءه بخزانة الشيخ عبد الرحمن الأنزجيري ، كتابة وتنسيق وتحرير الشيخ محمد بن عبد الرحمن كتبها بتاريخ / 1432 هـ - 01 / 04 / 2011 م .

² - المخطوط موجود بخزانة الشيخ على مستوى مسجد سيدي أحمد بن عبد الله السباعي ، بحسب

ما أفادنا به أحد أحفاده ، الشيخ محمد الشيخ ، وعبد القادر عبد الرحمن .

نسيم الرياض ، والتسهيل وكتاب الفريدة وشرحها وكتاب الكافية وغير ذلك من أمهات شتى ما أهله لتأسيس خزانة من المخطوطات أنكفأ عليها أبنائه من بعدها فأضافوا لها ما توفر لهم من نسخ ومخطوطات .

عَدَّ الشيخ مقصدا لعديد القضايا والنوازل الفقهية ، فله مقيدات وفتوى في نوازل الغنية منها أنه "سُئِلَ عَمَّنْ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ خِصُومَةٌ فَامْتَنَّ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرَ بِبَيْعِ الْجَنَانِ قَدْ بَاعَهُ مِنْهُ فَقَالَ الْمُشْتَرِي عَلَى وَجْهِ الْغَضَبِ أَحْضَرَ الثَّمَنَ أَقِيلَكَ وَافْتَرَقَ الْمَجْلِسُ وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ قَبُولُ الْإِقَالَةِ وَلَا أَحْضَرَ الثَّمَنَ ثُمَّ بَعْدَ سَنِينَ قَامَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الْإِقَالَةِ يَرِيدُ أَخْذَ الْجَنَانِ بِهَا" .

فأجاب - رحمه الله - : " أن الإقالة بيع من البيوع إلا في التولية والشفعة والمراجعة والشرط انعقاد البيع قبول المشتري لما أوجب البائع على نفسه في المجلس ، فلما افترق المجلس ولم يقبل المشتري الإقالة وهي مطلقة كانت غير واقعة بينهما أصلا على أنه لو قبلها المَقَال لم تلزم المَقِيل إلا بإحضار الثمن إذ على إحضاره علقها فإذا أجاب المَقِيل لها على نفسه معلق بشرط لم يجعل وليس كمشكلة من باع وشرط ، إن لم يأت بالثمن لأجل كذا فلا بيع لأن هذا واقع فيها البيع مقرا بالشرط ، ومسألتنا تقع فيها الإقالة إلا بعد حصول شرطها الذي هو إحضار الثمن ولم يحصل والدليل على أن البيع ينعقد بين البائع والمشتري إلا بقبول أحدهما ما أوجبه الآخر على نفسه في المجلس على ما ذكره ابن رشد في مقدماته بنقل الخطاب عنه ونصه " إذ يأتي من المتتابعين لزمهم أن إجابة صاحبه في المجلس بالقبول ولم يكن له أن يرجع قبل ذلك شهر ونحوه في البيان ، ثم قال الخطاب والذي تحصل عندي بما يقتضي الإعراض عما كان فيه حتى لا يكون كلامه جوابا بالكلام السابق فالعرف لم ينعقد"¹

تتبدى لنا بعض المعارف الفقهية من شخصية الشيخ عبد الرحمن بن أحمد في هذا الجواب ، فبعد سماع السؤال عمل على تصنيف القضية وهي البيع فبابها المعاملات مثل الشفعة ، ثم شرح كيفية حدوثها مشيرا بعدها إلى أن الإقالة مطلقة وغير واقعة ، وحتى لا يختلط الأمر على السائل بمسألة قريبة منها وهي بداية البيع بالشرط وضحها وقال بعدم دخول المسألة في هذا الباب ، معضدا ما ذهب إليه برؤية ابن رشد في المسألة في مؤلفه الأصولي بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، فمعالم المنهجية في الطرح المؤكدة بأدلة ظاهرة في هاته المسألة وفي ذلك الكثير المدلل على نضج وتمكن الشيخ واغترافه من معين متعدد المشارب .

1- مقابلة شفوية مع الشيخ: عبد القادر عبد الرحمن أحد أحفاد الشيخ ، يوم 27 أبريل 2017 على الساعة 11:12 ، وقد استقى

المعلومة الشيخ محمد بن عبد الكريم الملقب بالمغلي من فتاوى الغنية للشيخ البلبالي .

توفي الشيخ على وجه التقريب لا اليقين بحسب المصادر التي وقفنا عليها وعملنا على مقارنة ذلك

بداية العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري أو آخر سنة 1211هـ أو بداية 1212هـ استنادا لدليلين اثنين :

1- لما توفي صلّى عليه أخوه الأكبر الذي تتلمذ على يده وهو محمد الزجاجلاوي ، ووفاة هذا الأخير محققة في "الثلاثاء 23 شوال 1212هـ"¹ .

2- نسخ الشيخ مخطوطاً بيده وهو "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب" لمؤلفه ابن فرحون ، وكان الفراغ من نسخه 27 شوال 1211هـ .

فوفاة العالمين كانت متقاربة ، ويبقى البحث في الخزانة وفي خزائن أخرى كفيل بالوقوف بدقة متناهية

على تاريخ وفاته

1- ينظر في الهامش من شبكة القناص نظم درة الغواص في محاضرة الخواص ، الشيخ عبد الرحمن بن احمد ، تح وتعليق: سالم

بن عبد الكريم ، دار الهدى عين مليلة الجزائر ، 2011 ، ص 20.

فهرس الرموز المستعملة:

الرمز	شرحه
م	المعطى
ض	الضمان
ن	النتيجة
ق1	قول أول
ق2	قول ثاني
ق3	قول ثالث
ح	حجة
R	نتيجة
P1	الحجة الأقوى
P	الحجة الأقل
ح1	حجة أولى
ح2	حجة ثانية
ح3	حجة ثالثة
لان	النتيجة المضادة

2- ملخص البحث بالعربية

إن الطبيعة الاجتماعية للغة جعلتها وسيلة تبليغية بين البشر ، وكونها وسمت بالملفوظية اختيرت دون غيرها من وسائل الترميز الدالة للتعبير عن الأغراض ، وتقتضي عملية التبليغ والتعبير اللغوي الدخول في عملية حوارية بين طرفين أحدهما متكلم والآخر سامع عادة ، وبذلك تتحقق الوظيفة الأسمى للغة المتمثلة في الفهم والإفهام ؛ هذه الوظيفة التي لا تتم ولا تتحقق إلا بالتأثير في المخاطب وشد انتباهه وإفحامه لتقبل ما سيلقى عليه من كلام ، الأمر الذي يستدعي من المتكلم استعمال وسائل الإقناع والتأثير بدءاً من لغة التعبير وما يتبعها من آليات لغوية وبلاغية ، إضافة إلى استحضار مبادئ المنطق والفلسفة ... وكل ما من شأنه تأييد كلامه من وسائل الإقناع والاستدلال كأساليب التفسير والبرهنة مثل أسلوب التعريف وأسلوب الوصف ، وأسلوب السرد ، وأسلوب التمثيل والمقارنة .

إن ارتكاز التخاطب على الإقناع نجد فيه نوعاً من ملامح الحجاج ، لأنه خطاب يقوم على الاستدلال والبرهنة حسب مقاصد المتكلم والعمل على توجيهها حججياً حسب متطلبات السامع ، من منطلق أن الحجاج يقوم على دحض القول ومقارعة الحجة بالحجة لتأكيد رأي أو نفي آخر ، فيتناظر كل من المتكلم والسامع في وضعية حجاجية تهدف إلى تأييد المحاجج المتكلم وتوجيه المحاجج السامع .
ولأن موضوع بحثنا يدور في هذا السياق ، جاء موسوماً بـ:

بلاغة الحجاج في الخطاب التعليمي الديني دراسة تداولية

في شبكة القناص على ذرة الغواص في محاضرة الخواص

لعبد الرحمن بن محمد العالم بن أحمد الأنصاري الأنزجيري

ولأن مدونة الدراسة جاءت خطاباً حججياً في معظمها فإن الناظم عمد فس يتاء خطابه على جملة من الإجراءات العملية تتعلق بالبلاغة والمنطق والتداولية قصد إفحام مخاطبه والتأثير فيه لتحقيق غياة الحجاج اللإقناعية فقد جاءت هذه الدراسة اللغوية لشبكة القناص على ذرة الغواص في محاضرة الخواص . لتوضيح الهدف من نظمها، فبحثنا في خصائص التخاطب محددتين أبعاده الوظيفية التداولية في منظوم الدرّة، كاشفين في الان نفسه عن تداولية الخطاب التعليمي الديني وتبيان ملامحه الحجاجية، بالوقوف على الآليات الحجاجية التي استعملها الناظم عبد الرحمن بن محمد لإقناع مخاطبه وإفحامه . عسى ما خلصنا له من نتائج أن تكون كفيلاً لتلخيص ما سبق، ومجدية لتقريب ما بعد، ومنيرة لتوجيه اهتمامات الباحثين والدارسين لمثل هذه الدراسات التي تعنى بتيسير ما صعب،

summary of reboot

The social nature of the language made it a communicative way among people, and because of its literary it was chosen to express aspects. The lingual expression usually considers a process of a conversation between a speaker and a listener. So the function of the language comes true when it influences the listener and attracts his attention to accept what he listens to.. This thing makes the speaker aware of using persuasion ways starting from the verbal language and what follows as lingual and metaphorical tools. In addition to philosophy and logical principles and everything can support his speech like explanations and proofs as description, definition, storytelling and comparison sty

We find a kind of argument features in the basis of discourse on persuasion because It is based on inference and proof according to speaker's purpose and intending the listener's requirements On the basis that the pilgrims are based on refuting the saying and meeting the argument with the argument to confirm an opinion or deny a news. So he corresponds to both the speaker and the listener in an argumentative way aiming to support the speaker and directing the listener.

فهرس المصادر والمراجع

-المصادر والمراجع العربية

- 01 - القرآن الكريم برواية ورش.

أ- الكتب:

02 - الاتجاه الأسلوبى والبنوي فى نقد الشعر العربى، عدنان حسين قاسم، الدار العربىة للنشر والتوزيع، مصر، دط، دت.

03 - الإلتقان فى علوم القرآن، جلال الدين السيوطى، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج4، الهيئة المصرىة العامة للكتاب،

دط، 1974..

04 - الإحكام فى أصول الأحكام، ابن حزم، منشورات دار الأفاق، بيروت، المجلد الأول، 1983.

05 - الإحكام فى أصول الأحكام، على بن محمد الأمدى، تح: سيد الجمبلى، دار الكتاب العربى بيروت، لبنان، ج1، ط2،

1986.

06 - أساس البلاغة، الزمخشرى، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمىة، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج1

07 - أسئلة البلاغة فى النظرىة والتارىخ والقراءة، أفرىقىا الشرق، المغرب، الدار البىضاء، ط1، 2013.

08 - أساليب الإقناع فى القرآن الكريم، ابن عىسى باطاهر، دار الضياء، ط1، 2000.

الاستدلال البلاغى، شكرى المبخوت، دار الكتاب الجدىة المتحدة، ط2، 2010.

09 - استراتىجىات الحجاج فى المناظرة السىاسىة مناظرة التنافس على الرئاسة بىن نىكولا ساركوزى وفرانسوا هولاند،

دراسة، أنور الجمعاوى، المركز العربى للأبىاح ودراسة السىاسات، الدوحة، قطر، 2013.

10 - استراتىجىات الخطاب مقاربه لغوىة تداولىة، عبد الهادى بن ظافر الشهرى، دار الكتاب الجدىد المتحدة، بيروت،

لبنان، ط1، 2004.

11 - أسرار البلاغة فى علم البىان، عبد القاهر الجرجانى، دار الكتب العلمىة، بيروت، لبنان، ط1، 1988.

12 - أسرار البلاغة فى علم البىان، عبد القاهر الجرجانى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، دت.

13 - استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، المؤسسة العربىة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

14 - أسلوب الاستفهام فى القرآن الكريم غرضه إعرابه، عبد الكريم محمود يوسف، مطبعة الشام، ط1، 2000، توزيع

مكتبة الغزالى، دمشق، سوريا.

15 - الأسلوب والأسلوبىة، عبد السلام المسدى، الدار العربىة للكتاب، ط3، دت،

16 - الإعراب عن قواعد الإعراب ابن هشام، دار الكتاب العربى، ط1، بيروت، دت.

17 - إعلام الموقعىين عن رب العالمىن، شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن القىم الجوزىة، ج1، دار 18 - الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الجدىة، 2003.

- 19 - أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، محمود أحمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، 2002.
- 20 - امراطورية البلاغة ، شايم بيرلمان ،
- 21 - أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج ، إشراف: حمادي صمود ، كلية الآداب منوبة ، تونس
- 22 - الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي ، تح: مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1979 . 23 - الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني ، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2003.
- 24 - الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004.
- 25 - البراهماتية القول فعلية في تحليل أعال الخطاب السياسي خطاب ترامب والملك سلمان نموذجاً ، سامي كليب ، دار الفرابي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2017.
- 26 - البرهان في علوم القرآن ، الزركشي بدر الدين ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1957 -
- 27 - البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان ، تح: حفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، مصر .
- 28 - البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب ، تح: أحمد مطلوب ، جامعة بغداد ، ط1 ، 1967 ، ص222
- 29 - البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني ، عمران قدور ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الأردن ، دط ، 2012.
- 30 - البلاغة والاتصال ، جميل عبد المجيد ، دار غريب ، القاهرة ، ص129 - 130 .، نقلا عن: توظيف أدوات البلاغة في النص المعاصر ، إبراهيم بن منصور التركي ،
- 31 - البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول ، محمد العمري ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، دط ، 2012.
- 32 - البلاغة والأسلوبية ، محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان ، ناشرون ، ط1 ، 1994.
- 33 - البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النصوص ، هنريش بليث ، تر: محمد العمري ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، 1999.
- 34 - البلاغة والأصول ، محمد مشبال ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، 2007
- 35 - بلاغة الحججة في خطاب الخلفاء الراشدين دراسة وصفية لنماذج خطابية ، هناء حلاسة ، مركز الكتاب الأكاديمي ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2016.
- 36 - بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب ، حسن المؤذن ، دار كنوز المعرفة ، ط1 ، 2014.
- 37 - بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان ، ط1 ، 1996.

- 38 - البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1996، ج1.
- 39 - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999.
- 40 - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 1996.
- 41 - البلاغة العربية والبلاغات الجديدة قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، عبد الرزاق محمد بوعافية، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، دط، السداسي الأول، 2018.
- 42 - البلاغة العربية تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، ط9، القاهرة، 1995.
- 43 - بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2013.
- 44 - البلاغة فنونها وأفنانها هلم المعاني، فضل حسن عباس، دار الفرقان، إربد الأردن، ط4، 1997.
- 45 - البلاغة الواضحة، البيان، المعاني، البديع، للمدارس الثانوية، علي الجارم - مصطفى أمين، دار المعارف، دط، دت.
- 45 - بنية الجملة الطليبية ودلالاتها في السور المدنية، بلقاسم دفة، منشورات كلية الآداب واللغات، جمعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2008، ج1.
- 46 - بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة، بيروت لبنان، ط6، أكتوبر 2000.
- 47 - بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط9، 2009.
- 48 - البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان، الكتاب الثاني، ج1، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998.
- 49 - تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفار عطار، ج1، باب الجيم فصل الحاء، دار العالم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1979.
- 50 - تاريخ المعجم العربي بين النشأة والتطور، ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومه، الجزائر، دط، 2009.
- 51 - تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، ترجمة: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، مطابع جامعة الملك عبد العزيز، ط1، 2011.
- 52 - التبالغ والتبالغة نحو نظرية تواصلية في التراث، رشيد يحيوي، دار كنوز للمعرفة العلمية والنشر والتوزيع، الأردن، ط1 2014.
- 53 - التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، سمو النقاوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، ط1، 2006.
- 54 - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، الدار الجماهيرية للنشر، تونس، ج3.
- 55 - تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناس، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992.
- 56 - تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005.

- 57 - التداوليات علم استعمال اللغة ، حافظ اسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الأردن ، ط2 ، 2014.
- 58 - التداولية والحجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة ، صفحات للدراسات والنسر ، سوريا ، الإصدار الأول ، 2008.
- 59 - التداولية والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العباسي ، عبد الله بيرم ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، ط1 ، 2013-2014.
- 60 - التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2005.
- 61 - التطبيق النحوي ، عبده الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، ط2 ، 2000.
- 62 - التفكير اللساني في الحضارة العربية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط2-1986.
- 63 - تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويلي تقابلي ، محمد بازي ، الدار العربية للعلوم ، لبنان ، ط1 ، 2010-64 - التواصل اللساني والشعرية مقارنة لسانية لنظرية رومان جاكوبسون ، الطاهر بومزير ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2007.
- 65 - توظيف أدوات البلاغة في النص المعاصر ، إبراهيم بن منصور التركي ، النادي الأدبي بالرياض ، ط1 ، 2011.
- 66 - جامع الدروس العربية ، مصطفى الغلاييني ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2007 ،
- 67 - الجنبي الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، تح: فخر الدين قباوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1992.
- 68 - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع ، أحمد الهاشمي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، دت ، دط ،
- 69 - الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر ، محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط1 ، 2008.
- 70 - الحجاج والاحتجاج بأقوال سيبويه في كتب علوم القرآن كتاب البرهان للزركشي أنموذجا ، رجاء عمجيل الحسناوي ، مكتبة العلامة ابن فهد الحلي ، كربلاء ، العراق ، ط1 ، 2015
- 71 - الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة ، حافظ اسماعيلي علوي ، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2011.
- 72 - الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل ، في نماذج مثلة من تفسير سورة البقرة - بث في الأشكال والاستراتيجيات ، علي الشبعان ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط1 ، 2010.
- 73 - الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي ، عبد الله البهلول ، كنوز المعرفة ، ط1 ، 2016.
- 74 - الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية ، أمال يوسف المغامسي ، الدار المتوسطة للنشر ، ط1 ، 2016.
- 75 - الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية ، عادل عبد اللطيف ، مؤسسة أفاق للدراسات والنشر والاتصال ، ط1 ، 2017.
- 76 - الحجاج في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري ، عالم الكتب الحديث ، ط1 ، 2007.

- 77 - الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، دار الفارابي ، ط 2 ، 2007 .
- 78 - الحجاج اللغوي قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي ، تنسيق: حسن مسكين ، عالم الكتب الحديث ، ، إربد ، الأردن ، ط 1 ، 2017 .
- 79 - الحجاج مفهومه ومجالاته ، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيل علوي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط 1 ، 2010 .
- 80 - الخصائص ، ابو الفتح عثمان ابن جني ، تحقيق: محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، لبنان ، دط ، 1952 .
- 81 - الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، الأحمدي للنشر ، ط 1 ، 2007 . الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، ط 1 ، 2010 .
- 82 - خطاب الحجاج والتداولية ، عباس حشاني ، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي ، عباس حشاني ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 ، 2014 ، -
- 83 - الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه قراءة في كتاب المساكين للرافعي ، هاجر مدقن ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2013 .
- 84 - الخطابة ، أرسطو طاليس ، ترجمة: إبراهيم سلامة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط 2 ، 1953 .
- 85 - الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، عبد الرحمن حاج صالح ، سلسلة علوم اللسان عند العرب ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر ، دط ، 2012 .
- 86 - الخطاب الشرعي وطرق استشهاده ، إدريس حمادي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 1994 .-
- 87 - الخطاب وخصائص العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط ، أحمد المتوكل ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2010 .
- 88 - الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق ، خلود العموش ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط 1 ، 2008 .
- 89 - دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم ، سامية الدريدي الحسني ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 ، 2000 .
- 90 - درة الغواص في محاضرة الخواص ، برهان الدين إبراهيم بن فرحون ، تحقيق: محمد أبو الأجنان ، وعثمان بطيخ ، دار التراث ، القاهرة ، مطبعة التقدم .
- 91 - دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، دط ، دت .
- 92 - ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1983
- 93 - الزمان والمكان مقال في فلسفة الدين ، ولتر ستيس ، تر: زكريا إبراهيم ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1967 -

- 94- الكافية في الجدل ، تح: فوقية حسين محمد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر ، 1979.
- 95 - كتاب الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تح: عبد السلام هارون ، ج1 ، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده ، مصر ، ط2 ، 1965.
- 96 - الكتاب ، سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان ، تح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ج4 ، ط2 ، 1982..
- 97 - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، ط1 ، 1320 هـ ، مطبعة محمود بك الكائنة في جادة أبي السعود في الاستانة العلية.
- 98 - كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تح: مهدي المخزومي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ج8.
- 99- كشف اصطلاحات العلوم ، النهانوي ، ج1 -
- 100 - الكليات ، أبو البقاء الكفوي ، تح: عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، ط2 ، 1998.
- 101 - الكفايات التواصلية والاتصالية دراسة في اللغة والإعلام ، هادي نهر ، در الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2003
- 102 - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعميون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، جار الله الزمخشري ج1 ، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، السعودية ، ط1 ، 1998.
- 103 - اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2006
- 104 - اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1998.
- 105 - اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني قراءة استكشافية للتفكير التداولي عند القانونيين ، مرتضى جبار كاظم ، منشورات ضفاف ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2015.
- 106- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري ، أحمد المتوكل ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2010.
- 107 - مبادئ اللسانيات البنوية - دراسة تحليلية إبستمولوجية ، الطيب دبه ، دار القصة للنشر ، الجزائر ، 2001.
- 108 - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، ج2 ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ط2 ، دت ، .
- 109 - محاولات في تحليل الخطاب ، صابر الحباشة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2009.
- 110 - المدارس اللسانية المعاصرة ، نعمان بوقرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، مصر ، دط ، دت
- 111 - مدخل إلى الخطابة ، أوليفي رويول ، المطابع الجامعية الفرنسية ، 1994 ، .
- 112 - المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، شر: محمد أحمد جاد المولى بك ، ج1 ، دار التراث ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، دت.
- 113 - مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة ، برلمان وتيتيكا ، المطابع الجامعية ، ليون ، فرنسا ، ج1.

- 114 - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، جفري بار ندر ، تر: إمام عبد الفتاح إمام ، سلسلة عالم المعرفة ، 173 ، 1975 .
- 115 - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، مصر ، مكتبة الشروق الدولية ، ط 4 ، 2004 .
- 116 -- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، تح: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، دط ، دت .
- 117 -- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، تح: عبد الحميد هندواوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 .
- 118 - مفتاح العلوم ، السكاكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1987 -
- 119 - مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، تح: صفوان عدنان داوودي ، دتر القلم ، دمشق ، سوريا ، ط 4 ، 2009 .
- 120 - المقاربة التداولية ، فرانسواز أرمينكو ، تر: سعيد علوش ، ص 08 .
- 121 - مقاييس اللغة ، أبي الحسن أحمد ابن فارس ، ج 2 ، تح: عبد السلام هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر ، دط ، 1979
- 122 - المقتضب ، المبرد تح: محمد عبد الخالق عزيمة ، وزارة الأوقاف ، المجلس العلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ، مصر ، 1994 ، ج 3 .
- 123 - مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن ابن خلدون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، دط ، 2001 ، ج 1 .
- 124 - مقدمة في نظرية البلاغة النبوية - السياق وتوجيه دلالة النص ، عيد بلع ، سياقات ، دار الكتب المصرية ، ط 1 ، 2008 -
- 125 - من تجليات الخطاب البلاغي ، حمادي صمود ، دار قرطاج ، تونس ، ط 1 ، 1999 .
- 126 . المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، لويس معلوف ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، ط 19 .
- 127 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني أبو الحسن ، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس ، الدار العربية للكتاب ، 2008
- 128 - المنهاج في ترتيب الحجاج ، أبو الوليد الباجي ، تح: عبد المجيد تركي ، دار الغرب الإسلامي ، دت ، دط . 129 - المنهج التداولي في تحليل الخطاب الشعري دراسة تطبيقية في اللهب المقدس ، عبد الحليم بن عيسى ، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع ، ط 1 ، 2018 .
- 130 - المنهج وأدب الحوار في مناظرة السيرافي ومتى ، محمد حسن عبد الله ، مجلة البيان ، العدد 368 ، الكويت ، مارس 2001 .
- 131 - المستصفي من علم الأصول ، محمد أبو حامد الغزالي ، تح: محمد سليمان الأشقر ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 .
- 132 - نظريات الحجاج ، جميل حمداوي ، شبكة الألوكة ، دط ، دت .
- 133 - نظريات في أساليب الإقناع دراسة مقارنة ، علي رزق ، دار الصفوة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1994 .
- 134 - نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام ، أوستين ، تر: عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، دط ، 1991 .

- 135 - النظرية البراجماتية اللسانية "التداولية" دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، محمود عكاشة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2013.
- 136 - النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، أحمد فهد صالح شاهين، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2015.
- 137 - النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية واللسانية، محمد طروس، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1.
- 138 - نظرية المعنى في الدراسات النحوية، كريم حسين ناصح الخالدي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006.
- 139 - نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، حسين خمري، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2007.
- 140 - نظم الأجرومية، ابن أجروم، دار الإمام مالك، ط1، الجزائر، 2002
- 141 - النص والخطاب والاتصال، محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، دط، 2014.
- 142 - النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1997.
- 143 - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، عارضة بأصوله وحققه بالمقارنة مع أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني وبمصادره الأخرى علق عليه: نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
- 144 - الصحابي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1997.
- 145 - صناعة الخطاب البني العميقة للتأويلية العربية، جلال الدين محمد بازي، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015.
- 146 - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة - صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، ط4، 1993.
- 147 - العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، يناير، 2011. 148 - علم اللغة العام، فردينا ندي سوسور، تر: يونيل يوسف عزيز، دار أفاق عربية، بغداد، العراق، دط، 1985 -
- 149 - عندما نتواصل نغير مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2006.
- 150 - العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل، تر: سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، لبنان، ط1، 2006.
- 151 - العوامل اللغوية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ط1، 2011
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000.
- 152 - في البلاغة العربية، علم المعاني البيان البديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص50.

- 153 - في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، خليفة بوجادي ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، سطيف ، الجزائر ، ط2 ، 2008.
- 154 - في النحو العربي نقد وتوجيه ، مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1986.
- 155 - في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، عبد الله صولة ، مسكيلاني للنشر والتوزيع ، تونس ، ط1 ، 2011.
- 156 - في علم الكلام "المعتزلة" ، أحمد محمود صبحي ، ج1 ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، بالإسكندرية ، مصر ، ط4 ، دت.
- 157 - القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، تح: محمد نعيم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط8 ، 2015.
- 158 - القاموس الموسوعي للتداولية ، جاك موشر - آن ريبول ، تر: عز الدين المجذوب وآخرون ، المركز الوطني للترجمة ، دار سينا ، تونس ، ط2 ، 2011.
- 159 - قضايا الشعرية ، رومان ياكسون ، تر: محمد الولي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1998.
- 160 - القيمة الحجاجية لأسلوب القصر في اللغة العربية ، محمود طلحة ، مجلة الخطاب ، ع3 ، دار الأمل ، 2008.
- 161 - سؤال المنهج في الخطاب النقدي المعاصر ، تنسيق محمد القاسمي ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 ، 2014.
- 162 - السياق وأثره في المعنى ، المهدي إبراهيم الغويل ، أكاديمية الفكر الجماهيري ، بنغازي ، ليبيا ، دط ، 2011.
- 163 - السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ، علي آيت أوثن ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 2000.
- 164 - شبكة القناص على درة الغواص في محاضرة الخواص ، عبد الرحمن بن محمد العالم بن احمد الانصاري الزجاجوي الانزجيري ، تحقيق: سالم بن عبد الكريم ، دار الهدى للطباعة والنشر ، عين مليلة ، الجزائر ، 2011..
- 165 - شرح صحيح البخارى ، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال ، تحأبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد ، الرياض السعودية ، ط02 ، 1423هـ - 2003م.
- 166 - شروح التلخيص ، التفتزاني ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، دت ، دط ، ج2.
- 167 - الشمسية في القواعد المنطقية ، نجم الدين القزويني ، تح: مهدي فضل الله ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1998.
- 168 - الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2006.
- ب - الرسائل الجامعية:**
- 169 - ألفية الغريب نظم الزجاجوي الشهير بابن العالم ، رسالة ماجستير دراسة وتحقيق بقادر عبد القادر ، قسم الأدب بجامعة ادرار ، 1429هـ ، 1430م..
- 170 - الحجاج في الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي الحديث ، دراسة تقابلية مقارنة نور الدين بو زناشة ، أطروحة دكتوراه ، إشراف خليفة بوجادي ، كلية الآداب واللغات ، جامعة لمين دباغين ، سطيف ، 2015 / 2016.

171- الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، مسعود صحراوي، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللسانيات، إشراف عبد الله العشي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحاج لخضر باتنة، "2003-2004".

172- الاستلزام الحواري في سورة البقرة في القرآن الكريم دراسة وصفية تحليلية تداولية، حجر نورما وحيدة، بحث جامعي، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإسلامية والثقافة، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج، 2010،

173 - تجليات الحجاج في الخطاب النبوي دراسة في وسائل الإقناع الأربعة النووية أنموذجا، هشام فروم، رسالة ماجستير، إشراف لخضر بلخير، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة، 2008/2009.

ج - المجالات العلمية:

174 - أساليب الحجاج في البلاغة العربية، محمد الواسطي، مقال، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المعراز، فاس، المغرب، ع12

175 - الأسس العلمية عبد الرحمن حاج صالح، مقال، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ع3.

176 - - البنية الحجاجية في القرآن الكريم سورة النمل أنموذجا، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص، جامعة الجزائر ع12، ديسمبر، 1997.

177 - تطور بناء الخطاب الحجاجي عند المتكلمين وعلماء الدين في الثقافة العربية الإسلامية، ابتسام صغيور، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ع17، جوان 2017.

178 - تعليمية النص التعليمي للغة العربية وآدابها في الجامعة، خذير المغيلي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد 08، 2010. -

179 - الحجاجيات اللسانية عند ديكرو وأنسكومبر، رشيد الراضي، مجلة عالم الفكر، ع1، سبتمبر، 2005،

180 - دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، مقاربة تداولية، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ع3، 2008.

181 - الدكتور أبو بكر العزاوي أستاذ الحجاجيات، عباس الجراري، مقال ضمن: مجلة طنجة الأدبية، ع56، مجلة ثقافية شهرية تصدر عن شركة linam solution، طبع: Volk imprimerie، جوان - جويلية، 2015،

182 - الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة، رسالة دكتوراه، مخطوط، إشراف عبد القادر المحي، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2009، 2010

183 - قراءة في تعليمية مادة القواعد في المرحلة الابتدائية، جيلالي بن يشو، مجلة اللغة والاتصال، مختبر اللغة العربية والاتصال، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، العدد 1، 2005

184 - - مخطوطات المتون التعليمية في إقليم توات نماذج تطبيقية، عبد القادر قصابوي، أولاد السي هو بلحاج أعلام وآثار، جمعية الدراسات والأبحاث التاريخية والثقافية لأولاد السي هو بلحاج، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، 2015.

185 - مشروع لبلاغة عامة، حوار مع محمد العمري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع1، 2012.

186 - المعلم والمتعلم بين متطلبات المقاربة بالكفاءات وتحديات الراهن، كمال بن جعفر، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2011.

187 - النداء بين البلاغيين والنحويين، مبارك تريكي، حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 07/2007

188 - النص الحجاجي العربي، محمد العبد، مجلة جذور، ج 21، مح 09، سبتمبر 2005.

د - المخطوطات والمقابلات الشفاهية

189 - الدرّة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشرف والأدريسة العلويين (مخطوط)، محمد عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمن بن يوسف التتيلاني انتهى من كتابتها بحسب ما صدر به المؤلف في بداية المخطوط بتاريخ 13 صفر 1250هـ.

- 190 -مراسلة كتابية للشيخ عبد الرحمن عبد القادر ، أحد أحفاد الناظم ، بقصر أنجمير ، 20 /03 /2017.
- 191 - مقابلة شفوية مع السيد: الشيخ محمد بن عبد الرحمن وقد رواها عن السيد مولاي أحمد أحد المتأخرين الذين أدرکوا بعضا من علماء القصر .
- 192 - مقابلة مع السيد: عبد القادر عبد الرحمن بمقر سكنه ، إمام بالمدرسة القرآنية التابعة لمسجد سيدي أحمد بن عبد الله أين توجد الخزانة ، بتاريخ: 27 :08 /2013 على الساعة 23:30.
- 193 - مقابلة شفاهية مع الشيخ: عبد القادر عبد الرحمن أحد أحفاد الشيخ ، يوم: 27 /04 /2017 ، على الساعة: 11:12 ، وقد استقى المعلومة الشيخ محمد بن عبد الكريم الملقب بالمغلي من فتاوى الغنية للشيخ البلبالي .
- 194 - هذه نبذة وجيزة عن قصر أنجمير وعلمائه بخزانة الشيخ عبد الرحمن الأنوجميري ، ورقة تعريفية ، كتابة وتنسيق وتحرير الشيخ محمد بن عبد الرحمن ، كتبها بتاريخ: 01 /04 /2011م .

2- المراجع الأجنبية

- - 195. Jean . Claude Anscombre et Oswald Ducrot .Largumentaion dans la langue. Pierre Mardaga. Editeur. Bruxelles.1983. p11. /
- 196-L.DABENEetAL,Variationetrituelsenclassedelangue,P52,Paris ,
- Hatier. Credif, juin 1990
- 197 -Speech acts an essay inthe Philosophy of language. Searle.John R .Alden press Oxford. 1996.P16 .

فهرس الموضوعات

مقدمة.....	ص 5
مدخل: الجهاز المفهومي.....	ص 11
أولاً: اتجاهات الدرس اللساني المعاصر.....	ص 12
إقصاء الكلام.....	ص 13
ثانياً: تحول الدرس اللساني من البنيوي الوصفي إلى التداولي الوظيفي.....	ص 19
ثالثاً: اتجاهات الدرس البلاغي الحديث.....	ص 29
1 - الاتجاه الإقناعي.....	ص 29
2 - الاتجاه الأدبي الشعري.....	ص 29
3 - الاتجاه النصي.....	ص 30
الفصل الأول: في النظرية الحجاجية.....	ص 32
المبحث الأول: الحجاج.. مفاهيم ورؤى.....	ص 33
أولاً: مفهوم الحجاج.....	ص 34
ثانياً: المرادفات الدلالية للحجاج.....	ص 39
المبحث الثاني: الحجاج في الفكر البلاغي القديم.....	ص 52
أولاً: الحجاج في الدرس البلاغي اليوناني القديم.....	ص 52
ثانياً: الحجاج في الدرس البلاغي العربي القديم.....	ص 65
المبحث الثالث: الحجاج في الفكر البلاغي الحديث.....	ص 92
أولاً: الحجاج في الدرس الغربي الحديث.....	ص 92
ثانياً: الحجاج في الدرس العربي الحديث.....	ص 113
الفصل الثاني: في الخطاب الحجاجي - شبكة القناص.....	ص 128
المبحث الأول: الخطاب والحجاج.....	ص 129
أولاً: البلاغة والخطاب.....	ص 129
ثانياً: في الخطاب التعليمي الديني.....	ص 138
ثالثاً: بواعث الحجاج وتقنياته.....	ص 151
المبحث الثاني: تداولية الخطاب التعليمي الديني وبواعثه الحجاجية "شبكة القناص".....	ص 164

أولاً: مفهوم التداولية	ص 164
ثانياً: أركان التداولية	ص 168
المبحث الثالث: الخطاب التعليمي الديني و الحجاج	ص 190
أولاً: ملامح الحجاج في الخطاب التعليمي الديني:	ص 190
ثانياً: خصوصية الحجاج في الخطاب التعليمي الديني:	ص 201
الفصل الثالث: الآليات الحجاجية في شبكة القناص	ص 213
المبحث الأول: الحجاج اللغوي في شبكة القناص	ص 214
أولاً: مفهوم الحجاج اللغوي	ص 214
ثانياً: الأدوات اللغوية في شبكة القناص	ص 216
المبحث الثاني: الحجاج البلاغي في شبكة القناص	ص 244
أولاً: الحجاج البلاغي	ص 244
ثانياً: الآليات البلاغية في شبكة القناص	ص 247
المبحث الثالث: الحجاج التداولي	ص 277
أولاً: مفهوم الحجاج التداولي	ص 277
ثانياً: الأفعال الكلامية	ص 279
الخاتمة	ص 297
ملاحق البحث	ص 301
1- ترجمة الناظم:	ص 302
2- فهرس الرموز	ص 308
2- ملخص البحث بالعربية	ص 310
3- ملخص البحث باللغة الإنجليزية	ص 311
فهرس المصادر والمراجع	ص 312
فهرس الموضوعات	ص 323